سلسلة كتب
السيد الشريف الشيخ عبد القادر الجيلاني

تفسير الجيلاني

السيد الشريف الشيخ محي الدين أبي محمد عبد القادر الجيلاني
الحسني الحسيني
« قدس سره »

بحث وتحقيق
السيد الشريف الدكتور محمد فاضل جيلاني الحسني
الحسيني التيلاني الجمزرقي

الجزء الرابع

مركز الجيلاني للبحوث العلمية
اسطنبول



المركز الرئيسي استنبول
مركز الجيلاني للبحوث العلمية والطبع والنشر
ت: ٠٠٩٠٢١٢٥١١٧٣٤٠
جوال: ٠٠٩٠٥٣٣٤٨٦٦٦١٠
E-mail: algeylani@msn.com

الطبعة الأولى
١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

يطلب من :

الإمارات العربية المتحدة
دار الفقيه
أبو ظبي - الأمارات
هاتف : ٢٦٦٧٨٩٢٠ ٩٧١+
فاكس : ٢٦٦٧٨٩٢١ ٩٧١+
E mail: alfaqih@emirates.net.ae

سوريا
هاتف : ٨٨٣٥١٥٥
جوال:٠٩٩٩٨٩٩٧٤٦
دمشق - سوريا
enfo@windowslive.com

مصر
دار الركن والمقام
مصر - القاهرة
هاتف : ٠٨١٤٤١٧٠ ٢٠١+
E mail: alrokn-walmaqam.com

لبنان
شركة التمام
بيروت - لبنان
هاتف :٧٠٧٠٣٩ ٩٦١+

سلسلة كتب

السيد الشريف الشيخ

محي الدين أبي محمد عبد القادر الجيلاني الحسني الحسيني

« قدس سره »



تفسير الجيلاني

لمولانا ذي النور الرباني والهيكل الصمداني فذلكة طروس الدفتر النوراني

إمام العارفين .. تاج الدين .. القطب الكامل

السيد عبد القادر الجيلاني (قدس سره)

بحث وتحقيق

السيد الشريف الدكتور محمد فاضل جيلاني الحسني

التيلاني الجمزرقي

الجزء الرابع





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الفرقان

لا يخفى على ذوي البصائر والألباب من المنقطعين نحو الحق، السائرين إليه، الفارقين بينه وبين الباطل من أظلاله الهالكة المعدومة في أنفسها، الظاهرة المرتبة في هياكل الموجودات وأشكالها: أن إنزال هذا الكتاب الجامع لأحوال النشأتين، الحاوي لأطوار المنزلتين، إنما هو لتفرقة الحق عن الباطل وتمييز المحق من المبطل، لذلك سماه سبحانه فرقاناً فارقاً بين أهل الهداية والضلال من المجبولين على فطرة التوحيد، المخلوقين لمصلحة الإيمان والعرفان.

فمن امتثل بما أُمر فيه أمراً ونهياً، عظةً وتذكيراً، إشارةً ورمزاً، حقيقةً ومعرفةً، خلقاً وأدباً، مثلاً وعبرةً؛ فقد فاز بمرتبة المعرفة بعدما جذبه الحق لذاته، وكحل عين بصيرته بكحل التوحيد، ورفع سبل الغيرية عنها، وسدل التعينات برمتها.

والاسترشاد من هذا الكتاب موقوف على الاتصاف بأوصاف من أُنزل إليه والتخلق بأخلاقه والتأدب بآدابه وسلوك أثر سنته بلا فوتِ شيءٍ منها وإهمال دقيقةٍ من دقائقها، حتى تحصل المناسبة المعتبرة بين المرشد والمسترشد.

وما دام لم تحصل لك المناسبة بينه ﷺ وبين هذا الكتاب، لم ينزل على

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ①﴾ ....

قلبه ما نزل من المعارف والحقائق، كما أخبر سبحانه عن تنزيله إياه ﷺ متيمناً متبركاً باسمه الأعلى:

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ الذي أنزل الكتاب على عبده ليبين للناس أحوال مبدئهم ومعادهم وينبه عليهم طريق التفرقة بين الحق والباطل والصلاح والفساد ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ عليهم بإرسال الرسول المبين لهم ما هو الأصلح لحالهم من السداد والرشاد ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ لهم يوصلهم إلى مرتبة التوحيد الذاتي بعد رفع الحجب بلا ميلٍ وإلحادٍ.

﴿تَبَارَكَ ﴾ تعاظم وتعالى ذاته سبحانه من أن يحيط بمنافعه وكثرة خيراته وبركاته عقول مظاهره ومصنوعاته حتى يعدّوها بألسنتهم ويعبّروا عنها بأفواههم حالاً ومقالاً ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ﴾ بمقتضى جوده الواسع[1] وكرمه الكامل ﴿ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ الجامعَ لفوائد الكتب السالفة مع زوائدَ خلت عنها تلك الكتب تفضلاً وامتناناً ومزيدَ اهتمام ﴿عَلَىٰ ﴾ شأن ﴿عَبْدِهِۦ ﴾ ﷺ بعدما هيأه لقبوله وأعده لنزوله وربّاه أربعين سنة تتميماً لأمر المناسبة المعنوية وتحصيلاتها حتى يستحق ويستعد للإلهام والوحي، وإنما أنزل هذا ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي كافة المخلوقين على فطرة التكليف وعامة المجبولين على استعداد المعرفة ﴿نَذِيرًا ①﴾ ينذرهم ويحذرهم عما يضرهم ويغويهم عن صراط الحق وطريق توحيده، عنايةً منه سبحانه إياهم ومرشداً لهم إلى مبدئهم.

وكيف لا يرشدهم سبحانه هو

(١) في المخطوط (جوده الواسعة).

ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ ....

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي عالم الاسماء والصفات المعبر عنها بالعلويات ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ أي الطبائع السفلية القابلة للانعكاس من العلويات، فلا يضر كثرة الأسماء والصفات وحدوث العكوس والتعينات حسب الشؤون والتجليات الإلهية وحدتَه الذاتية وانفرادَه الحقيقي ﴿وَ﴾ لهذا ﴿لَمْ يَتَّخِذْ﴾ سبحانه ﴿وَلَدًا﴾ حتى يتكثر ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ﴾ في وجوده وملكه حتى ينازَع ويتضرر، بل له التصرف بالاستقلال والاختيار بلا مزاحمة العكوس والأظلال الهالكة في صرافة وحدته الذاتية وشمس ذاته ﴿فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ ظهرَ حسب تجلياته على مقتضى أسمائه وصفاته.

وبعدما أظهر ما أظهر

﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ بديعاً ودبَّر أمره تدبيراً محكماً عجيباً بأن وفق بعضهم لاختراع أنواع الصنائع والحرفة البديعة والإدراكات الكاملة والتدبيرات الغريبة المتعلقة بتمدنهم لمعاشهم وجعل بعضَهم آلةً للبعض، وبعضَهم مالكاً وبعضَهم مملوكاً، وأزواجاً وأصنافاً مؤتلفةً، وفرقاً وأضراباً مختلفةً، وأنواعاً متفاوتةً إلى ما شاء الله، وما يعلم جنود ربك إلا هو، كل ذلك ليتعانوا ويتظاهروا، واختلطوا وامتزجوا إلى أن اعتدلوا وانتظموا، وصاروا مؤتمنين مؤتلفين مؤانسين، محتاجين كلٌّ منهم بمعاونة الآخر.

وإنما فعل سبحانه ما فعل ليظهر كمالاته المندرجة في وحدة ذاته، ويظهر سلطان الوحدة الذاتية بظهور ضده، وبعد ما بلغ الكثرةُ غايتَها انتهت إلى الوحدة أيضاً كما بدأت منها وانتشأت عنها، فحينئذٍ اتصل الأولُ بالآخر،

وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ....

والظاهرُ بالباطن واتحد الأزلُ والأبدُ، وارتفع الكثرة والعدد، ولم يبق إلا الله الواحد الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

﴿وَ﴾ كيف لا يقدّر سبحانه أمر عباده بإنزال الكتب وإرسال الرسل المرشدين لهم إلى توحيده بعدما تاهوا في بيداء الكثرة والضلال مع أنهم ﴿اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ﴾ سبحانه ﴿آلِهَةً﴾ يعبدونها كعبادته مع أن آلهتهم الباطلة ﴿لَا يَخْلُقُونَ﴾ ولا يوجِدون ويظهِرون[1] ﴿شَيْئًا﴾ من المخلوقات حتى يستحقوا الألوهية والعبادة، مع أن من شأن الإله الخلقُ والإيجادُ حتى يستحق للتوجه والرجوع إليه بل ﴿وَهُمْ﴾ في أنفسهم ﴿يُخْلَقُونَ﴾ أي مخلوقون مقدورون[2] لا قادرون خالقون، بل ﴿وَ﴾ هم مرادون، والمخلوقات التي هي الجمادات إذ ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ﴾ أيضاً ﴿ضَرًّا﴾ أي إماتةً لأحدٍ ﴿وَلَا نَفْعًا﴾ أي جلبَ نفعٍ إليها ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ﴾ أيضاً ﴿مَوْتًا﴾ أي إماتةً لأحدٍ ﴿وَلَا حَيَاةً﴾ أي إحياءً له ﴿وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾ أي بعثاً وحشراً بعد الموت للجزاء، ومن كان وصفه هذا، كيف تتأتى منه الألوهية والربوبية المقتضية للعبودية.

﴿وَ﴾ بعدما أنزلنا القرآن الفرقان على عبدنا ليهدي التائهين في بيداء الغفلة والضلال ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله وأعرضوا عما جاء من عنده

---

(١) في المخطوط (مظهرون).

(٢) في المخطوط (مقدرون).

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾

ولتكميل الناقصين: ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ أي ما هذا الذي جاء به هذا المدعي ﴿إِلَّآ إِفْكٌ﴾ كذبٌ يصرف عن الحق ويلبس الباطل بصورته ؛ لأنه ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي اختلقه عن عمدٍ، ونسبه إلى الوحي تغريراً وترويجاً لأمره ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿أَعَانَهُۥ عَلَيْهِ﴾ ولقَّن له فحواه ﴿قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ وهم أحبارُ اليهود، وبعد ما سمع فحواه منهم، عبر عنه بلفظٍ فصيحٍ، وأفرغه في قالبٍ بليغٍ، فأتى به على الناس ولقبه الفرقان المعجز والقرآن البرهان المثبت المنزل عليه من ربه بطريق الوحي والإلهام؛ ترويجاً لمفترياته وتقريراً للناس على قبولها ﴿فَقَدْ جَآءُو﴾ أي أولئك المسرفون المفرطون بجعل القرآن الفرقان المعجز لفظاً ومعنىً إفكاً صرفاً وافتراءً محضاً[1] ﴿ظُلْمًا﴾ خروجاً فاحشاً عن حد الاعتدال ﴿وَزُورًا ﴿٤﴾﴾ قولاً كذباً وبهتاناً ظاهراً متجاوزاً عن الحد، مسقطاً للمروءة سقوطاً تاماً، إذ نسبة هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إلى أمثال هذه الخرافات التي جاؤوا بها أولئك الجهلة بشأنه في غاية الظلم والزور ونهاية المراء والغرور ﴿وَقَالُوٓا۟﴾ أيضاً في حق هذا الكتاب ما هو أفحش منه وأبعد من شأنه بمراحل وهو أنه ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أكاذيب سطرها المتقدمون فيما مضى وهو ﴿ٱكْتَتَبَهَا﴾ أي استنسخها من حَبْرٍ وكتبها له كاتب وبعدما أخذ سوداها ﴿فَهِىَ﴾ الأساطير المذكورة ﴿تُمْلَىٰ﴾ وتُقرأ ﴿عَلَيْهِ﴾ أي على محمد ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ أي غداةً وعشيا

(١) في المخطوط (وافتراء مخلصاً).

﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾

على سبيل التكرار ليحفظها، إذ هو أميٌّ لا يقدر على أن يكرر من الكتاب، وبعدما حفظها، قرأها على الناس مدعياً أنها موحىً من عند الله، أنزلها على مَلَك سماوي اسمه جبرائيل، أو تُملى عليه على سبيل التعليم ليكتب لنفسه.

﴿ قُلْ ﴾ يا أكمل الرسل بعدما سمعت مقالهم وتفرست حالهم في العتو وأنواع الإنكار والفساد ﴿أَنزَلَهُ ﴾ أي الفرقان عليّ مع أني أميٌّ كما اعترفتم، لا قدرةَ لي على الإملاء فكيف على الإنشاء العليم ﴿ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ﴾ بعلمه الحضوري ﴿ ٱلسِّرَّ ﴾ المكنون والحكمة الكامنة ﴿ فِى ﴾ أشكال ﴿ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ﴾ أقطار ﴿ ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ ولهذا أعجزكم بكلامه هذا عن آخركم مع أنكم من ذوي اللسن والفصاحة وأعلى طبقات البلاغة والبراعة، فعجزتم عن معارضته بحيث لم يتأتى لكم إتيان مثل آيةٍ قصيرةٍ منه مع كمال تحديكم ووفور دواعيكم، ومع ذلك ما تستحيون أيها المسرفون المفرطون نسبتم إليه ما هو بريء عنه، بنسبتكم هذه استوجبتم العذاب والعقاب عاجلاً وآجلاً، إلا أنه سبحانه أمهلكم رجاء أن تتنبهوا بسوء صنيعكم هذا، فترجعوا إليه سبحانه تائبين نادمين، فيغفر لكم ما تقدم من ذنوبكم ويرحمكم بقبول توبتكم ﴿ إِنَّهُۥ ﴾ سبحانه في ذاته ﴿كَانَ غَفُورًا ﴾ للأوابين التوابين ﴿رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ﴾ للمتندمين المخلصين.

وبعدما أفرطوا في طعن الكتاب المنزَل والقدح فيه، ولم يقصروا على طعنه وقدحه، بل أخذوا في طعن من أُنزل إليه حسب عداوتهم وشدة

وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ ....

شكيمتهم وضغينتهم معه.

﴿ وَقَالُوا۟ ﴾ مستهزئين متهكمين ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾ يدعي الرسالة والنبوة مع أنه لا يتميز عن العوام ﴿يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ ﴾ كما نأكل ﴿وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ لضبط أمور معاشه كما نمشي، فما مزيته علينا وامتيازه عنا حتى يكون رسولاً، وإن كان صادقاً في دعوى نزول المَلَك إليه بالوحي ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ ظاهراً بلا سترةٍ حتى نراه ونعاين به ونؤمن له بلا ترددٍ ﴿فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ ﴾ أي يكون الملَك المنزل ردءاً له في إنذارنا وتبليغ الدعوة إلينا.

﴿ أَوْ ﴾ هلا ﴿يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ ﴾ من قِبل ربه ﴿كَنزٌ ﴾ فيستغني به عن الخلق فنتبعه طمعاً للإحسان ﴿أَوْ ﴾ هلا ﴿تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ ﴾ موهوبةٌ له من ربه فيها أنواع الثمرات والفواكه ﴿يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ رغداً ويترفه بها أمداً، وبالجملة ما له هذا ولا ذاك ولا ذلك، فمن أين نصدق برسالته وبأي شيء نعتقده نبياً ﴿وَ﴾ بعدما بالغوا في قدحه وإنكاره وأفرطوا في استهزائه وسوء الأدب معه ﷺ وبالجملة ﴿ قَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ المنكرون المستكبرون على سبيل الذب والإعراض لضعفاء الأنام عن متابعته ﷺ: لو صدقتم أيها الناس وآمنتم به مع أنكم سمعتم أنه لا مزية له عليكم ولا امتياز بينه

إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ ....

وبينكم ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ أي ما تتبعون حينئذ وتؤمنون ﴿إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾ مجنوناً سُحر له، فجُنَّ واختل عقله وكلَّ فهمه، لذلك تكلم بكلام المجانين، فعجز عن معارضته العقلاء، إذ العقل قاصرٌ عن مموهات الوهم وتسويلات الخيال.

﴿ٱنظُرْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ هؤلاء الضُلَّال بعدما عجزوا عن معارضتك، وتاهوا في كمال رشدك وهدايتك، وكيف توغلوا في الحيرة عن مدركاتك، حتى تشبثوا بأمثال هذه الخرافات والهذيانات البعيدة عن علوِّ شأنك وسمو رتبتك وبرهانك، وبالجملة ﴿فَضَلُّوا۟﴾ وتحيروا وانحسر عقولهم عن الوصول إلى كمال مدركاتك وأنواع هداياتك ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾﴾ إليها لتعاليها عن مداركهم وعقولهم، فنسبوك إلى ما لا يليق بجنابك عناداً واستكباراً.

﴿تَبَارَكَ﴾ وتعالى ربك ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ رباك بأنواع الكرامات الخارقة للعادات، الشاملة لأصناف السعادات المعدة لأرباب الشهود والمكاشفات وبالمعجزات الباهرة الدالة على صدقك في جميع ما جئتَ به من قِبَل ربك من الآيات البينات وأنواع الخيرات والبركات. ﴿إِن شَآءَ﴾ ربك وتعلقت مشيئته وإرادته ﴿جَعَلَ لَكَ﴾ يا أكمل الرسل في النشأة الأولى أيضاً ﴿خَيْرًا﴾ وأحسن ﴿مِّن ذَٰلِكَ﴾ أي مما قالوه وأملوه لك تهكماً واستهزاءً، ولكن أخَّره

جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا ﴿١٠﴾ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا

إلى النشأة الأخرى، إذ هي خيرٌ وأبقى والتنعم فيها ألذّ وأولى، إذ هي مؤبدةٌ مخلّدةٌ بلا انقطاع ولا انصرام.

ثم بين سبحانه ما هيأ لحبيبه ﷺ فيها وأعدَّ له من:

﴿جَنَّٰتٖ﴾ منتزهات العلم والعين والحق ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أي أنهار المعارف والحقائق المتجددة بتجددات التجليات الإلهية على مقتضى الكمالات الأسمائية والصفاتية ﴿وَيَجۡعَل لَّكَ﴾ أيضاً فيها ﴿قُصُورَۢا ﴿١٠﴾﴾ عالياتٍ متعالياتٍ عن مدارك ذوي الإدراكات مما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر، وهم من قصور نظرهم وعمى بصرهم وقلوبهم في هذه النشأة لا يلتفتون إلى أمثال هذه الكرامات العليّة الأخروية.

﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِۖ﴾ الموعودة المعهودة وجميع ما يترتب عليها من المثوبات والدرجات العلية والدركات الهوية، إذ نظرهم مقصورٌ على هذه الأرذل الأدنى ﴿وَ﴾ لهذا ﴿أَعۡتَدۡنَا﴾ وهيأنا بمقتضى قهرنا وجلالنا ﴿لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ﴾ وبالأمور الموعودة فيها ﴿سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾ أي ناراً مستعرةً[1] ملتهبةً في غاية التلهب والاشتعال، بحيث:

﴿إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ يعني إذا كانوا بمرأى العين منها مع أنهم بعيدون منها بمسافةٍ طويلةٍ ﴿سَمِعُواْ لَهَا﴾ مع بُعدها ﴿تَغَيُّظٗا﴾ أي صوتاً

(١) في المخطوط (متسعرة).

وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ ....

كصوت المغتاظ من شدة تلهبها وغليانها ﴿وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾ أيضاً كزفرة المغتاظ، والزفير في الأصل: ترديد النَّفَس حتى تنتفخ الضلوع، يعني من شدة غيظها لهم تغلي وتلتهب تلهباً شديداً وتردّد نفسها ترديداً بليغاً حتى يردوا فيها.

﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا﴾ أي من النار ﴿مَكَانًا﴾ أي في مكانٍ من أمكنتها صار ﴿ضَيِّقًا﴾ لهم تشدد العذاب عليهم، بحيث صار كلٌ منهم من ضيقٍ ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالسلاسل والأغلال ﴿دَعَوْاْ﴾ وتمنوا من شدة حزنهم وكربهم ﴿هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾ هلاكاً وويلاً قائلين صائحين: واثبوراه! واويلاه! تعال تعال! وهذا وقت حلولك ونزولك، ويقال لهم حينئذ: ﴿لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ﴾ أيها الجاهلون ﴿ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾ إذ أنواع العذاب تتجدد عليكم دائماً، فاطلبوا الكل منها ثبوراً.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل موبخاً عليهم ومعيراً بعدما بينتَ لهم منقلبهم ومثواهم في الآخرة ﴿أَذَٰلِكَ﴾ السعيرُ الذي سمعتم وصفه، أو المعنى: أذلك الجنة التي أمِلتم من جنات الدنيا ومنتزهاتها ﴿خَيْرٌ﴾ مرجعاً ومصيراً ﴿أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾ المؤبدِ المخلدِ أهلها فيها بلا تبديل وتغيير ﴿ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ﴾ بدخولها؟! حتى ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً﴾ لأعمالهم الصالحة التي أتوا بها في النشأة الأولى، وصارت بدلاً من مستلذاتها الفانية ﴿وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾

لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ ....

أي مرجعاً ومنقلباً لهم بعدما خرجوا من الدنيا، مع أن:

﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ﴾ من النعيم المقيم الدائم لكونهم ﴿خَٰلِدِينَۚ ﴾ فيها لا يتحولون عنها أصلاً لذلك ﴿ كَانَ ﴾ هذا الوعد ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ ﴾ يا أكمل الرسل ﴿وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ ﴾ مطلوباً للمؤمنين في دَعواتهم ومناجاتهم، حيث قالوا في سؤالهم ودعائهم: ربنا آتنا ما وعدتنا على رسلك، إلى غير ذلك من الآيات والمناجاة المأثورة من الأنبياء والأولياء.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل للمتخذين آلهةً سوانا وحذِّرهم ﴿يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ ونبعثهم للعرض والجزاء ﴿وَ﴾ نحشر أيضاً ﴿مَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ الواحد الأحد الصمد أي آلهتهم الذين يعبدونهم كعبادة الله، كالملائكة وعزير وعيسى والجن والكواكب والأصنام، عبَّر سبحانه عن آلهتهم بما، مع أن بعضهم عقلاء لعموم ما، أي أنها تستعمل في عاقلٍ وغيره، أو للتغليب، أو باعتبار ما يعتقدون ويتخذون آلهةً من تلقاء نفوسهم لا حقيقةَ لها سوى الاعتبار ؛ لأنهم لا يرضون باتخاذهم، وبعدما حشر[1] الآلهة ومتخذوهم مجتمعين ﴿فَيَقُولُ ﴾ الله سبحانه مستفهماً للآلهة على سبيل التوبيخ والتبكيت لمتخذيهم: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾ عن عبادتي ودعوتموهم إلى

(١) في المخطوط (حضر).

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾﴾ ....

عبادة نفوسكم مدعين[١] أنتم الشركة معي؟!!

﴿قَالُوا۟﴾ أي الآلهة مبرئين نفوسهم عن هذه الجرأة والجريمة العظيمة منزهين ذاته سبحانه عن وهم المشاركة والمماثلة والكفاءة مطلقاً: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ ننزهك ونقدس ذاتك يا ربنا عن توهم الشركة في ألوهيتك وربوبيتك، بل في وجودك وتحققك ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ﴾ ويصح منا ﴿أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ فكيف يليق بنا أن ندعي الولاية لأنفسنا دونك والاشتراك معك، مع أنا لا وجودَ لنا إلا منك، ولا رجوعَ لنا إلا إليك، وأنت يا ربنا تعلم منا ما في ضمائرنا وأسرارنا واستعداداتنا ونياتنا في جميع شؤوننا وقابلياتنا، وأنت تعلم أيضاً منا يا مولانا لا علم لنا باتخاذهم أولياء، ولا إضلال وتقريرَ مْن قِبَلنا إياهم ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ﴾ أنت بمقتضى فضلك وجودك بأنواع النعم وأصناف الكرم ﴿وَ﴾ كذا متعتَ ﴿ءَابَآءَهُمْ﴾ كذلك وأمهلتهم زماناً مترفهين مستكبرين ﴿حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾ أي ذكر المنعِم، وغفلوا عن شكر نعمه، واتخذوا على مقتضى أهويتهم الفاسدة وآرائهم الباطلة أرباباً من دونك وعبدوها كعبادتك عتواً واستكباراً ﴿وَ﴾ بالجملة هم ﴿كَانُوا۟﴾ مقدَّرين مثبَتين في لوح قضائك ﴿قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾﴾ هالكينَ في تيه الغفلة والضلال من أصحاب الشقاوة الأزلية الأبدية لا يُرجى منهم[٢] السعادة أصلاً.

---

(١) في المخطوط (مدعيين).

(٢) أي لهم

فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ ....

ثم قيل للمشركين من قبل الحق:

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم ﴾ آلهتكم أيها الضالون ﴿ بِمَا تَقُولُونَ ﴾ أنهم آلهتنا، أو بما يقولون هؤلاء وأضلونا، أو بقولكم هؤلاء شفعاؤنا ﴿ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ ﴾ أي فالآن ظهر ولاح أن آلهتكم وشفعاءكم لا يقدرون ﴿صَرْفًا ﴾ من عذابنا شيئاً ﴿وَلَا ﴾ يقدرون أيضاً ﴿نَصْرًا ۚ ﴾ لكم لتصرفوا عذابنا عن نفوسكم بمعاونتهم، ولا شفاعةَ عندنا لتخفيف العذاب عنكم ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَن يَظْلِم مِّنكُمْ ﴾ أيها المشركون نفسَه باتخاذ غيرنا إلهاً عناداً و مكابرة، ولم يتب عن ذلك حتى خرج من الدنيا عليه ﴿نُذِقْهُ ﴾ الأمرَ أي يوم الجزاء ﴿عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾ لا عذاب أكبر منه.

ثم أشار سبحانه إلى تسلية حبيبه ﷺ عما عيره الجهلة المستهزئون معه بقولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ...﴾ [الفرقان:٧-٢٥] الآية، فقال:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ ﴾ رسولاً ﴿مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ كما تأكل أنتَ وسائرُ الناس ﴿وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ ﴾ لحوائجهم كما تمشي أنت وغيرُك.

وامتياز الرسل والأنبياء من العوام إنما يكون بأمورٍ معنوية لا اطلاع

وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ ....

لأحدٍ عليها سوى من اختارهم للرسالة والنبوة، وهم في ظواهر أحوالهم مشتركون مع بني نوعهم بل أسوأ حالاً منهم في ظواهرهم لعدم التفاتهم إلى زخرفة الدنيا العائقة عن اللذة الأخروية، ولهذا ما من نبيٍ ولا رسولٍ إلا وقد عيّرهم العوام بالفقر والفاقة إلا نادراً منهم ﴿وَ﴾ بالجملة من سنتنا أنا ﴿جَعَلْنَا بَعْضَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ أي بسبب ابتلائه ومحنةٍ واختبارٍ، من ذلك ابتلاءُ الفقراء بتشنيع الأغنياء، وتعيير النبيين والمرسلين باستهزاء المنكرين المستكبرين، والمرضى بالأصحاء، وذي العاهة بالسالم إلى غير ذلك، وإنما جعلناكم كذلك لنختبر وتعلموا ﴿أَتَصْبِرُونَ ۗ﴾ أيها المصابون بما أصابكم من البلاء فتفوزون بجزيل العطاء وجميل اللقاء أم لا ﴿وَ﴾ الحال أنه قد ﴿كَانَ رَبُّكَ﴾ يا أكمل الرسل في سابق قضائه وحضرة علمه ﴿بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ لصبر من صَبَر وشكر من شكر من أولي العزائم الصحيحة، ولمن لم يصبر ولم يشكر من ذوي الأحلام السخيفة والاختبار، إنما هو لإظهار الحجة الغالبة البالغة، إذ الإنسان مجبول على الجدال والكفران.

﴿۞ وَ﴾ من جملة جدالهم وعنادهم ﴿قَالَ﴾ الكافرون الجاحدون ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ أي لا يؤملون لقيانا ولا يخافون منا لإنكارهم بنا وبوعدنا يوم الجزاء: لو كان محمد ﷺ رسولاً مؤيَّداً من عند الله ﴿لَوْلَآ﴾ أي هلا

أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ ....

﴿ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ المصدِّقون لرسالته، ليخبرونا بصدقه في دعواه ﴿ أَوْ ﴾ هلا ﴿ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ ﴾ الذي يدعونا إليه معاينةً، فيخبرنا ربنا بصدق رسوله حتى نصدقه بلا تردد، وقال سبحانه في ردهم مقسماً على سبيل التعجب والاستغراب: واللهِ ﴿ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ أولئك المسرفون المفرطون بقولهم هذا مكابرةً حيث طلبوا من الله ما لا يسع لِخُلَّصِ عباده من ذوي النفوس القدسية ﴿وَعَتَوْ ﴾ بإخطار هذا المطلب العظيم في خواطرهم، وإن صدر عنهم هذا تهكماً واستهزاءً ﴿عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾ فاستحقوا بذلك أكبر العذاب وأصعبَ النكال والوبال.

اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ﴾ أي ملائكةَ العذاب مع أنه ﴿ لَا بُشْرَىٰ ﴾ ولا بشارةَ لهم برؤيتهم ﴿ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ بل إنما يجيئون إليهم ليجرُّوهم إلى جهنم صاغرين مهانين ﴿وَ﴾ بعدما يرونهم صائلينَ عليهم صولةَ الأسود ﴿يَقُولُونَ﴾ متحسرين خاسرين قولاً يقول به العرب عند هجوم البلاء ونزول العناء واليأس التام من الظفر بالمطلوب، وهو قولهم هذا: ﴿ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾ وهو كنىً عن قولهم: حُرمنا عن التبشير بالجنة حرماناً مؤبداً، أو صرنا مسجونين في النار سجناً مخلداً.

وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ ....

ثم قال سبحانه:

﴿وَ﴾ بعدما حرمنا الجنة عليهم وجعلنا مصيرهم النار ﴿قَدِمْنَآ﴾ وعمدنا ﴿إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ﴾ إلى أصلح أعمالهم وأحسنها التي أتوا في النشأة الأولى كقِرى الضيف وصلةِ الرحم وإعانةِ الملهوف وإغاثةِ المظلوم وغيرِ ذلك من حسنات أعمالهم ﴿فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ أي صيرناه كالغبار المنثور بالرياح بلا ترتب القبول والجزاء والثواب عليه لفقدهم شرط القبول والإثابة وقتَ صدورها عنهم وهو الإيمان والتوحيدُ والتصديقُ بالرسلِ والكتبِ والعملُ بمقتضى الوحي، وهم كفارٌ مكذِّبون مستكبِرون، لذلك لم يُقبل منهم أعمالهم.

وأما﴿ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ﴾ المتصفون بالإيمان والتوحيد وتصديق الكتب والرسل، الممتثلون بالأوامر والنواهي على مقتضى ما بلَّغهم الرسل وبيَّن لهم فهم ﴿يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا ﴾ أي من جهة مكانٍ يستقرون عليه ويتوطنون فيه ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ يستريحون ويستروحون فيه مع الحور والغلمان يومئذ يتلذذون.

أو هم﴿يَوْمَئِذٍ ﴾ [٢٥-الفرقان:٢٤] أي يوم انقطاع السلوك وانكشاف السُّدُل والأغطية المانعة من الشهود ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ [٢٥-الفرقان:٢٤] من جهة استقرارهم في مقر التوحيد، آمنينَ عن وساوس الأوهام والخيالات

وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ ....

الباطلة ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [٢٥-الفرقان:٢٤] يستريحون فيه بلا مقتضيات القوى والآلات البشرية المنخلعين عن لوازم ناسوتهم مطلقاً، مشرَّفين بخلعٍ من قبل اللاهوت وحضرة الرحموت.

﴿وَ﴾ ذلك ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ﴾ تتصفى وتتجلى سماءُ الأسماء الإلهية المنكدرة المحتجبة ﴿بِٱلْغَمَٰمِ﴾ أي بغيوم التعينات العدمية المنعكسة منها ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ المهيمين عند الذات الأحدية، وهي الأسماء والصفات التي استأثر الله به في غيبه بلا انعكاسٍ وانبساطٍ وامتدادِ ظلٍ كسائر الأسماء الفعالة ﴿تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ على صرافة تجردهم بلا تدنسٍ وانغماسٍ بغيوم التعينات والتعلقات.

حينئذٍ نُودي من وراء سُرادقات العز والجلال:

﴿ٱلْمُلْكُ﴾ المطلق والاستيلاء التام والسلطنة الغالبة ﴿يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ الثابتُ اللائقُ المثبتُ على ما ينبغي ويليق ﴿لِلرَّحْمَٰنِ ۚ﴾ المستوي على عروش ذرائر الأكوان بعموم الرحمة وشمول الفضل والامتنان، بلا تقدير مكيالٍ وميزانٍ من زمانٍ أو مكانٍ ﴿وَكَانَ﴾ ذلك اليوم والشأن ﴿يَوْمًا﴾ وشأناً ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الساترين بغيوم هوياتهم الباطلة هويةَ الحق الظاهرِ في الآفاق والأنفس ﴿عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ في غاية العسرة والشدة، وعلى الموحدين الواصلين إلى مرتبة الفناء، الفانين في الله، الباقين ببقائه يسيراً في غاية

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ ....

اليسر والسهولة.

﴿وَ﴾ واذكر يا أكمل الرسل لمن ظلمك وأساء الأدب معك وأراد مقتك وطردك بغياً عليك واستكباراً ﴿يَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ ﴾ الجاحدُ الخارجُ عن مقتضى الأدب مع الله ورسوله ﴿عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾ تحسراً على تفريطه وإفراطه في العتوِّ والاستكبار والجحود والإنكار ﴿ يَقُولُ ﴾ حينئذ متحسراً متمنياً: ﴿ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ﴾ الهادي إلى سواء السبيل ﴿ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ ﴾ يوصلني إلى منهج الرشاد، وينجِّيني عن هذا العذاب.

﴿ يَٰوَيْلَتَىٰ ﴾ تعالي يا هلكتى أسرعي ﴿ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا﴾ مضلاً ﴿خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾ صديقاً أضلني عن خِلَّة الرسول المرشد المنجي والله.

ذلك المغوي ﴿ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ ﴾ أي عن ذكر الله وذكر رسوله ومصاحبة المؤمنين ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ﴾ واختلط معي وصار صديقي وخليلي، بل صار شيطاناً، فوسوس عليَّ، وأعرضني عن طريق الحق ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ المضلُّ المغوي سواء كان جِنّاً أو إنساً أو نفساً ﴿ لِلْإِنسَٰنِ ﴾ المجبول على الغفلة والنسيان ﴿خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ يخذله ويحرمه عن الجنان، ويسوقه إلى دَرَكَات النيران بأنواع الخيبة والحرمان.

وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ ....

ونعوذ بك يا ذا الفضل والإحسان من شر الشيطان.

﴿وَ﴾ بعدما طعنوا في القرآن طعناً كثيراً، ونبذوه وراء ظهورهم نبذاً يسيراً بلا التفاتٍ لهم إليه وإلى ما فيه من الأوامر والنواهي ﴿قَالَ ٱلرَّسُولُ﴾ مشتكياً إلى الله مناجياً: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي﴾ الذي بعثتني إليهم لأهديهم وأرشدهم إلى توحيدك وأبني لهم حدودَ ما أنزلتَ إليّ من الكتاب المعجز الجامع لجميع ما في الكتب السالفة، المشتملِ على جميع المعارف والحقائق والحِكَم والأحكام المتعلقة بالتدين والتخلق في طريق توحيدك وتفريدك وتقديسك، مع أن هؤلاء الجهلة المسرفين ﴿ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ مع سطوع برهانه وقواطع حججه وتبيانه ﴿مَهۡجُورٗا ﴿٣٠﴾﴾ متروكاً لا يلتفتون إليه ولا يسترشدون منه ولا يتوجهون نحوه، بل يقدحون فيه ويكذّبون وينسبون إليه ما لا يليق بشأنه.

﴿وَ﴾ بعدما بثَّ ﷺ شكواه إلى ربه وبسط فيها معه سبحانه ما بسط، قال سبحانه تسليةً له ﷺ وإزالةً لشكواه: لا تبال بهم وبشأنهم ولا تحزن من سوء فعالهم إذ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ما جعلنا لك يا أكمل الرسل أعداءً منكِرين مكذِّبين ﴿جَعَلۡنَا﴾ أيضاً ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ من الأنبياء الماضين ﴿عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ﴾ المنكرين المكذِّبين لهم ويسيئون الأدب معهم ويطعنون بكتبهم ولا ينصرونهم ولا يروّجون دينهم ولا يقبلون منهم قولهم، وليس هذا

وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ

مخصوصاً بك وبدينك وكتابك ﴿وَ﴾ بالجملة لا تحزن عليهم، إذ ﴿كَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾ أي كفى ربُّك لكَ ﴿هَادِيًا﴾ يرشدك إلى مقصِدك ويغلبك على عدوك ﴿وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ حسيباً يكفيك مؤنةَ شرورهم وعداوتهم وإنكارهم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ على سبيل الإنكار والتكذيب للقرآن والرسول على وجه الإعراض والاستهزاء ﴿لَوْلَا﴾ أي هلا ﴿نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ من عند ربه كالكتب الثلاثة على الأنبياء الماضين، يعني أنهم استدلوا بنزوله منجماً على أنه ليس من عند الله، إذ من سنته سبحانه إنزالُ الكتب من عنده سبحانه كالكتب السالفة، قال سبحانه تسليةً لحبيبه ورداً للمنكرين: إنما أنزلناه ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي منجماً متفرقاً ﴿لِنُثَبِّتَ﴾ ونشيِّد ﴿بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ يا أكمل الرسل ونمكِّنك على حفظه نجوماً ؛ لأن حالك مخالفٌ لحال موسى وداودَ وعيسى صلوات الله عليهم، إذ هم من أهل الإملاء والإنشاء والكتب، وأنت أميٌّ، ولأن إنزاله عليك بحسب الوقائع والأغراض، والإنزال بحسب الوقائع والأغراض أدخلُ في التأييد ﴿وَ﴾ لهذه الحكمة والمصلحة ﴿رَتَّلْنَٰهُ﴾ أي تلوناه لك وقرأناه عليك ﴿تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ شيئاً بعد شيءٍ على التراخي والتدريج في عرض عشرين سنة أو ثلاثٍ وعشرين.

﴿وَ﴾ أيضاً من جملة حِكمة إنزاله منجماً أنه ﴿لَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ عجيبٍ

إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ....

غريبٍ يضربون لك جدلاً ومكابرةً في وقتٍ من الأوقات وحالٍ من الحالات على تفاوت طبقاتهم ﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي جئناك بالمَثَل الحق على طريق البرهان تأييداً لك وترويجاً لأمرك ودينك أوضحَ بياناً مما جاؤوا به ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ وتبييناً.

وكيف يتأتى منهم المعارضة والمجادلة معك يا أكمل الرسل مع تأييدنا إياك في النشأة الأولى والأخرى، وهم في الدنيا مقهورون مغلوبون.

وفي الآخرة ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ﴾ ويُسحبون ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ البعدِ والخذلان وجحيمِ الطرد والحرمان، وبالجملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الأشقياء المردودون عن شرف القبول ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ ومصيراً ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾ وأخطأ طريقاً.

اهدنا بفضلك سواء سبيلك..

ثم أخذ سبحانه في تعداد المنكرين الخارجين على رسل الله، المكذِّبينَ لهم، المسيئينَ الأدبَ معهم، وما جرى عليهم بسوء صنيعهم من أنواع العقوبات والنكبات فقال:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي التوراة المشتملة على الأحكام ليبين للأنام ما فيها من الأوامر والنواهي المصفية للنفوس المنغمسة بالمعاصي

﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ....

والآثام، ليستعدوا لقبول المعارف والحقائق المنتظرة لهم في استعداداتهم الفطرية وقابلياتهم الجِبِلِّية ﴿ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾ ظهيراً له يؤازره ويعاون له في ترويج دينه وتبيين أحكام كتابه.

وبعدما أيدناهما بإنزال التوراة وإظهار المعجزات ﴿ فَقُلْنَا ﴾ لهما: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ الدالة على توحيدنا واستقلالنا بالتصرف في مظاهرنا ومصنوعاتنا إرادةً واختياراً، يعني فرعون وهامان ومن معهما من العصاة البغاة الهالكين في تيه العتو والفساد وادعوهم إلى توحيدنا وأظهرا الدعوة لهم، فذهبا على مقتضى الأمر الوجوبي، فدَعوا فرعون لقومه إلى ما أُمرا، فأبَوا عن القبول، وكذبوهما، واستهزؤوا معهما كبراً وخيلاءً، فأخذناهم بتكذيبهم واستنكافهم ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ ﴾ أي أهلكناهم إهلاكاً كلياً إلى حيث لم يبقَ منهم أحد على وجه الأرض.

﴿وَ﴾ كذا دمرنا ﴿قَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ ﴾ أي حين كذبوا نوحاً ومن مضى قبلهم من الأنبياء، إذ أمرَهُم نوحٌ بتصديقهم والإيمان بهم، فكذبوا بهم تبعاً، لذلك ﴿أَغْرَقْنَٰهُمْ ﴾ بالطوفان ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ ﴾ أي جعلنا إغراقنا إياهم بالمرة ﴿لِلنَّاسِ ﴾ المعتبرين من أمثال هذه الوقائع ﴿ءَايَةً ﴾ علامةً وعبرةً تعتبرون منها وتستوحشون وتحسنون الأدب مع الله ورسوله خوفاً

وَأَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَـٰبَ ٱلرَّسِّ ....

من بطشه وانتقامه ﴿وَ﴾ كيف لا يخافون من أخذنا وبطشنا إذ ﴿أَعْتَدْنَا﴾ وهيأنا ﴿لِلظَّـٰلِمِينَ﴾ الخارجين عن مقتضى حدودنا ﴿عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾﴾ مؤلماً أشدَّ إيلام وانتقمنا منهم أصعب انتقام.

﴿وَ﴾ دمرنا أيضاً ﴿عَادًا وَثَمُودَا۟﴾ يعني قوم هودٍ وصالحَ على المكذبين بتكذيبهم إياهما وإنكارهم على ما ظهرا عليه من الدعوة إلى طريق الحق ﴿وَ﴾ كذا دمرنا ﴿أَصْحَـٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ أيضاً بتكذيبهم رسولهم.

قيل: كانوا يعبدون الأصنام، فأرسل الله سبحانه إليهم شعيباً عليه السلام فكذبوه، وهم يسكنون حينئذ حول الرس، وهو البئر الغير المطوية، فانهارت، فخسفت بهم وبدارهم.

وقيل: الرس قريةٌ بفلج اليمامة، كان فيها بقايا ثمود، فبعث الله إليهم نبياً، فقتلوه فهلكوا.

وقيل: أصحاب الرس هي أصحاب الأخدود.

وقيل: هو بئرٌ بأنطاكية قَتلوا فيها حبيب النجار.

وقيل: هم أصحاب حنظلة بن صفوان النبي عليه السلام ابتلاهم الله بطيرٍ عظيمٍ كان فيها من كل لونٍ، وسموها عنقاء لطول عنقها، وكانت تسكن جبلهم الذي يقال له: فتخ أو دمخ، وتنقضُّ على صبيانهم فتخطفهم إذا أعوزها الصيد، فلذلك سميت مغرَّباً، فدعا عليها حنظلة عليه السلام، فأصابتها الصاعقة، ثم إنهم كذبوا حنظلة فقتلوه، فأُهلكوا لذلك.

وقيل: قومٌ قتلوا نبيهم، فرسُوه أي: دسوه في بئر.

وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ....

﴿وَ﴾ بالجملة: دمرنا بواسطة تكذيب رسلنا ﴿قُرُونًا﴾ أُخر، أي أهل قرون وأعصارٍ، قيل: القرن أربعون سنة، وقيل: مائة وعشرون سنة ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الأمم الهالكة ﴿كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾ لا يعلم عددها إلا الله.

﴿وَ﴾بالجملة: ﴿كُلًّا﴾ من الأمم الهالكة المذكورة وغير المذكورة ﴿ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ﴾ أولاً من الذين هلكوا قبلهم بالتكذيب، وبيّنا لهم الأحكام والشرائع الموضوعة على مقتضى حكمتنا ومصلحتنا، فكذبوهم ظلماً وعدواناً، فأهلكناهم بتكذيبهم خيبةً وخسراناً ﴿وَ﴾ بواسطة تلك الخصلة المذمومة المشتركة بينهم ﴿كُلًّا﴾ منهم ﴿تَبَّرْنَا﴾ وفتتنا أجزاءه ﴿تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾ تفتيتاً وتشتيتاً إلى حيث لم يبق منهم أحد يخلفهم ويحيي اسمهم.

ثم أخذ سبحانه بتعيير قريش وتوبيخهم وقساوة قلوبهم وشدة شكيمتهم مع رسول الله ﷺ وكمال غيهم وغفلتهم عن الله ونهاية عمههم وسكرتهم وعتوهم واستكبارهم في أنفسهم إلى حيث لم يتأثروا ولم يتعظوا مما جرى على أمثالهم من العصاة والبغاة المتمردين على الله ورسله، فقال سبحانه مؤكداً بالقَسم على سبيل التعجب من شدة قساوتهم:

﴿وَ﴾ الله ﴿لَقَدْ أَتَوْا﴾ يعني قريشاً كانوا يذهبون إلى الشام للتجارة ويمرون في كل مرة ذهاباً وإياباً ﴿عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ﴾ على أهلها ﴿مَطَرَ السَّوْءِ﴾ يعني الحجارة قهراً من الله إياهم وزجراً لهم من سوء فعالهم وخروجهم

أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ ....

من حدود الله وسوء الأدب مع الله ورسوله، يعني لوطاً والقرية سدوم معظم بلاد قوم لوط ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ﴾ في مرات مرورهم حتى يتذكروا ويتعظوا منها ﴿بَلْ كَانُوا۟﴾ يرونها في كل مرةٍ إذ هي على جنب الطريق، لكن بكفرهم بالله وكمال قدرته وعزته ﴿لَا يَرْجُونَ﴾ أي لا يأملون ﴿نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾ أي يومَ يُنشرون فيه للجزاء ولا يخافون مما سيجري عليهم فيه، لذلك لم يعتبروا ولم يتعظوا منها ومما جرى على أهلها.

﴿وَ﴾ من كمال استكبارهم وشدة غيظهم معك يا أكمل الرسل ﴿إِذَا رَأَوْكَ﴾ في المرأى ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ﴾ أي ما يتخذونك ولا يحدثون عنك وفي شأنك ﴿إِلَّا هُزُوًا﴾ أي كلاماً مُشعراً بالاستهانة والاستحقار والسخرية، حيث يقولون في كل مرة من مرات رؤيتهم بك متهكمين: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ﴾ لكم ﴿رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾ يرشدكم ويهديكم إلى توحيد ربه ويقيم عليكم الحجج والبراهين، ليصرفكم عن آلهتكم وآلهة آبائكم وأسلافكم.

ومن كمال جده وجهده في أمره ونهاية مبالغته في السعي والاجتهاد ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾ أي أنه قرُب ليضلنا ويصرفنا ﴿عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا﴾ أي ثبّتْنَا ومكّنا ووطّنا نفوسنا ﴿عَلَيْهَا ۚ﴾ لصرفنا عن آلهتنا أي على

﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ ....

عبادة آلهتنا، وأضلنا عن طريق عبادتهم لسعيه التام وجده البليغ في ترويج دينه وإثبات دعواه وكثرة إظهار ما يخيل له أنه حججٌ ومعجزاتٌ وكمالُ فصاحةٍ في تبيينها، وبالجملة لولا صبُرنا وثباتنا على ديننا، لضللنا عن آلهتنا بإضلاله.

قال سبحانه رداً عليهم على سبيل التهديد والتوبيخ:

﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أولئك الحمقى الجاهلون ﴿حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ النازل عليهم ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ وأخطأ طريقاً وأسوأ حالاً ومآلاً، أنتم أيها الجاهلون المصرون على الجهل والعناد، أم المؤمنون؟!.

ثم قال سبحانه على التوبيخ لعامة المشركين المتخِذين غير الله إلهاً سواء كانوا مشركين بالشرك الجلي أو الخفي، المسنِدين الأفعال والحوادث الكائنة في عالم الكون والفساد إلى الأسباب والوسائل العادية على مقتضى هوية نفوسهم، وذلك لجهلهم بالله وغفلتهم عن إحاطة علمه وقدرته وجميع أوصافه وأسمائه بجميع ما ظهر وبطن وكان ويكون:

﴿أَرَءَيْتَ﴾ أي أخبرني يا أكمل الرسل إن كنت من أهل الخبرة والذكاء أتهدي وترشد إلى التوحيد ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ أي من اتخذ هواه ومشتهى قلبه إلهاً يعبده كعبادة الله، قدَّم المفعول الثاني للغاية والاهتمام ﴿أَفَأَنتَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ حفيظاً تحفظه عن متابعة هواه ومقتضى طبعه، مع أنا جبلناه كذلك وأثبتناه في لوح قضائنا

أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ....

وحضرة علمنا أنه من الأشقياء المردودين.

﴿أَمْ تَحْسَبُ﴾ وتظن من كمال حرصك وشفقتك[1] على إيمان هؤلاء الهلكى ﴿أَنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ أي أكثر المشركين ﴿يَسْمَعُونَ﴾ كلمة التوحيد سمعَ قبولٍ ورضاء ﴿أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ ويفهمون معناه فهمَ عارفٍ متدربٍ متدبرٍ؟! إلا من سبقت له العناية الأزلية والتوفيق بل ﴿إِنْ هُمْ﴾ أي ما أكثرهم ﴿إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ يأكلون ويمشون، وعن السمع والشعور معزولون ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ من الأنعام لأنهم مجبولون على المعرفة والتوحيد، والأنعام ليست كذلك، فهم أسوأ حالاً منها، فكيف لا يكونون أضل سبيلاً من الأنعام؛ لأنهم مع استعدادهم وقابلياتهم لقبول فيضان أنوار التوحيد، ومعرفة كيفية سريان الوحدة الذاتية، وامتداد أظلالها على هياكل الموجودات والمظاهر، صاروا محرومين عنها وعن شهودها والاطلاع عليها، غافلين عن لذاتها، مع أنهم إنما جُبلوا لأن يدركوها ويشاهدوا عليها وينكشفوا بسرائرها، ومع ذلك لا يجتهدون في شأنها بل لا يلتفتون أيضاً، مع أنه سبحانه أشار إليها وصرَّح بها في كتابه العزيز إرشاداً لنبيه ﷺ وتنبيهاً على من تَبِعه من المؤمنين؛ ليتفطنوا منها إلى مبدئهم ومعادهم، ويتصفوا بكمال المعرفة والتوحيد، فقال مخاطباً لحبيبه ﷺ - إذ أمثال هذه الخطابات لا يسع في سمع غيره ﷺ -:

(١) في المخطوط (شغفك).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ....﴾

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها المسترشد البصير والمستكشف الخبير ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي مربيك الذي رباك بأنواع الكمالات وأرفع الدرجات ﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ أي كيف بسط أظلال أوصافه وأسمائه وعكوس شؤونه وتطوراته على مرايا الإعدام القابلة، فيتراءى أي حسب اقتضاء أسمائه الحسنى وصفاته العليا ما لا يتناهى من الصور العجيبة والهياكل الغريبة حتى يتوهم المحجوبون أنها موجوداتٌ حقيقيةٌ متأصلةُ الوجود، مستقلةٌ في الآثار المترتبة عليها.

ثم افترقوا:

فذهب قوم إلى أنها موجوداتٌ متأصلةٌ مستقلةٌ بأنفسها، مستغنيةٌ عن فاعلٍ خارجي يؤثر فيها، وهم[1] الدهريون الجاهلون القائلون بأن الطبيعة تكفي في تكوّن الأشياء، وإذا وُجدت الشرائط، وارتفعت الموانع تكوّن الشيء البتة بلا احتياجٍ إلى فاعلٍ خارجيٍ مؤثرٍ في وجوده، ولم يتفطنوا أولئك الحمقى أن هذه الصور باقيةٌ على عدماتها الأصلية، ما شمت رائحةً من الوجود سوى أن ظل الوجود انبسط عليها.

وآخر إلى أنها موجوداتٌ حقيقيةٌ قديماتٌ بأنواعٍ لها صورٌ وموادُ قديمةٌ محتاجةٌ إلى فاعلٍ خارجيٍ مؤثرٍ موجبٍ بمقارنة الصورة للمادة، وهذا مذهب جمهور الحكماء، وهؤلاء الهلكى القاصرون عن دَرَك الحق أيضاً لم يتنبهوا أن لا قديمَ في الوجود إلا الله الواحد القهار للسوى والأغيار مطلقاً.

وآخر إلى أنها موجوداتٌ حقيقيةٌ أبدعها[2] الله تعالى من العدم بمقتضى

(١) في المخطوط (وهو الدهريون).

(٢) في المخطوط (موجودات حقيقية أبدعه الله).

وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ....

علمه وقدرته وإرادته واختياره بلا وجوبِ شيءٍ عليه في إيجادها، وبلا سبقِ مادةٍ ومدةٍ عليها، وهذا مذهب جمهور المتكلمين، وهؤلاء أيضاً لم يتنبهوا أن العدم لا يقبل الوجود أصلاً، كما أن الوجود لا يقبل العدم أصلاً، إذ بينهما تضادٌ حقيقيٌ لا يتصف أحدهما بالآخر مطلقاً.

ومنشأُ توهمِ هؤلاء الفرق الثلاث اقتصارُ نظرهم على الصور المرئية[1] ظاهراً، وغفلتهم عن ذي الصورة التي هي عكوسٌ وأظلالٌ وآثارٌ له، ولو علموا ارتباط هذه الصور بذي الصورة، وكوشفوا بوحدة الوجود وشهدوا أن لا موجودَ إلا الله الواحد القهار لجميع الأغيار، لم يبق لهم شائبةُ شكٍ في عدمية هذه الصور المرئية[2]، كما لا شك لهم في عدمية الصور المرئية في المرايا والأظلال، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له نور.

﴿وَلَوْ شَآءَ﴾ وأراد سبحانه عدم انبساط عكس وجوده وانبعاث[3] العدم على صرافته ولم يجعله مرآةً لكمالات وجوده ولم يلتفت إليها ولم ينحلَّ عليها ﴿لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ أي جعل ظلَّ وجودِه مقبوضاً غير مبسوطٍ، لفني العالم دفعةً البتةَ ﴿ثُمَّ﴾ أوضحنا هذا المدَّ والبسط بمثالٍ واضحٍ من جملة المحسوسات عنايةً منا لعبادنا بأن ﴿جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ﴾ في إضاءتها وإشراقها وانبساط نورها وشعاعها على ظلمة الليل المشابهة بالعدم ﴿عَلَيْهِ﴾ أي على بسط الوجود على مرايا الاعدام ﴿دَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾ مثالاً موضحاً واضحاً

(١) في المخطوط (المرتبة).

(٢) في المخطوط (المرتبة).

(٣) في المخطوط (إبقايه).

ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا ....

لكيفية امتداد أظلال الوجود وانعكاسها من العدم، وذلك أن الشمس إذا أخذت في الإشراق، وبسطت على النور والآفاق، استنار العالم بعدما كان مظلماً، وإذا قبضت عاد على ظلمته الأصيلة.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما بسطنا ظل وجودنا على هياكل المظاهر والموجودات ﴿قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا﴾ دفعاً لتوهم الشركة المنافية لصرافة التوحيد، وإن كان بحسب الظاهر، إذ لا موجودَ حقيقةً إلا الله الواحد القهار ﴿قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ سهلاً.

فإن قدرنا له التغير والتجدد على تعاقب الأمثال ليدل على أن لا وجود لها لذاتها، إذ لو كان لها وجودٌ من نفسها لم يطرأ عليها التغير والانتقال، فعلم من هذه التغيرات الواقعة في الأكوان، أن لا وجود لها في الحقيقة، بل لا وجود حقيقةً إلا للواجب الذي هو نفس الوجود.

ثم تنزل سبحانه عن خطاب حبيبه ﷺ في المعارف والحقائق المتعلقة بالوحدة الذاتية السارية في الأكوان وكيفية ارتباط الأكوان عليها إلى مخاطبة العوام ومقتضى استعداداتهم وقابلياتهم فقال:

وكيف تغفلون عن مبدعكم ومظهركم أيها الغافلون؟!.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ تسترون بظلمته عن أعين الناس لئلا يطلع بعضكم على مقابح بعض ﴿وَ﴾ جعل ﴿وَٱلنَّوْمَ﴾ فيه ﴿سُبَاتًا﴾ راحةً

وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ ....

للأبدان بعد قطع المشاغل وقضاء الأوطار المتعلقة بالنهار ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾ تنتشرون في أقطار الأرض لطلب المعاش، كل ذلك بتقدير الله وتدبيره وإصلاحه لأمور عباده.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا﴾ مبشراً ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ﴾ يبشركم بنزوله ﴿وَ﴾ بعد تبشيرنا إياكم بالرياح المبشرات ﴿أَنزَلْنَآ﴾ من مقام جودنا ﴿مِنَ﴾ جانب ﴿ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾ متناهياً في الطهارة، مبالغاً أقصى غاياتها.

﴿لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ﴾ أي بالماء ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ قفراً يابساً جامداً بأنواع النباتات والخضراوات ﴿وَنُسْقِيَهُۥ﴾ أي بالماء ﴿مِمَّا خَلَقْنَآ﴾ في البراري والبوادي ﴿أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾ وهي جمع إنسان، حذف نونه عوضاً منها الياء فأدغم، أو جمع إنسي ؛ لبعدهم عن المنابع والأنهار.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ﴾ أي المطر ﴿بَيْنَهُمْ﴾ إنعاماً لهم وإصلاحاً لحالهم وكررنا ذكره في هذا الكتاب وكذا في الكتب السالفة ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ ويتفكروا في نِعَمِنا وإنعامنا ويواظبوا على شكرنا ؛ ليزداد لهم ومع ذلك ﴿فَأَبَىٰٓ﴾ وامتنع ﴿أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ عن قبوله وما يزيدون ﴿إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾ أي كفراناً

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا (٥١) فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢) ۞ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ ....

للنعم وإنكاراً لمنعها، حيث يقولون منكراً على المنعم: مُطرنا بنوء كذا.

﴿وَ﴾ من شدة بغيهم وكفرانهم ﴿لَوْ شِئْنَا﴾ وتعلَّقَ مشيئتنا لإنذار كلٍ منهم بمنذرٍ مخصوصٍ ﴿لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ﴾ من القرى نبياً ﴿نَّذِيرًا (٥١)﴾ ينذرهم عما هم[1] عليه من الكفران والطغيان، ولكن بعثناك يا أكمل الرسل إلى كافتهم وعامتهم تعظيماً لشأنك وإجلالاً لك، فلك أن لا تعيَ من حمل أعباء رسالتنا وتبليغ ما أمرناك به، ولا تلتفت إلى مزخرفاتهم التي أرادوا أن يخدعوك بها.

﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ المصرين على الكفر والعناد مطلقاً ﴿وَ﴾ لا تتبع أهوائهم بل ﴿جَاهِدْهُم بِهِ﴾ أي بدينك هذا ﴿جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢)﴾ حتى تَقمعَ وتقلعَ دينهم الباطل وتروجَ أمر دينك الحق ترويجاً بليغاً إلى حيث يظهر دينك على الأديان كلها وكفى بالله حسيباً.

﴿وَ﴾ قل لهم تنبيهاً عليهم: كيف تغفلون عن ربكم وعن دينه الموضوع فيكم إصلاحاً لحالكم ﴿هُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أي التوحيد والشرك كلاهما متجاورين متلاصقين مع أنه ﴿هَٰذَا﴾ أي التوحيد ﴿عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ سائغٌ شرابه للمتعطشين بزلاله ﴿وَهَٰذَا﴾ أي الشرك والكفر ﴿مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي مالحٌ في كمال الملوحة إلى حيث يقطع أمعاء شاربيه ﴿وَ﴾ من كمال لطف الله على عباده ﴿جَعَلَ﴾ سبحانه دين الإسلام والشريعة الموضوعة

(١) في المخطوط بحذف (هم).

﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ۝٥٣ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ۝٥٤﴾ ....

للضبط ﴿ بَيْنَهُمَا ﴾ أي بين التوحيد والشرك ﴿ بَرْزَخًا ﴾ مانعاً عن التصاقهما واتصالهما ﴿وَ﴾ جعله ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا ۝٥٣﴾ أي حداً محدوداً مانعاً عن امتزاجهما واختلاطهما.

﴿وَ﴾ كيف تنكرون أيها المنكرون سريان وحدته الذاتية على صفائح مظاهره ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ أي أظهر وأوجد تنبيهاً لعباده على سر توحيده ﴿مِنَ ٱلْمَآءِ ﴾ أي من نقطة النطفة ﴿ بَشَرًا ﴾ سوياً ذا أجزاءٍ مختلفةٍ طبعاً وشكلاً، صلابةً وليناً، قوةً وضعفاً، رقةً وغلظاً، إلى غير ذلك من الصفات المتقابلة والأجزاء المتفاوتة التي عجزت عن تشريح جزءٍ من أجزاء شخصٍ من أشخاص نوع الإنسان فُحُول الحكماء مع وفور دواعيهم لكشفها إلى حيث تاهوا وتحيروا عن ضبط ما فيه من الامتزاجات والارتباطات، فكيف عن جميع أجزائه، وبعد ما قدَّره سبحانه وسوَّاه بكمال قدرته وقوته ووفور حكمته قسَّمه قسمين ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا ﴾ أي جعل قسماً منه ذكراً ذا نسبٍ ونسلٍ يُنسب إليه من يخلفه من أولاده الحاصلة من نطفة ﴿وَ﴾ جعل قسماً آخر منه ﴿صِهْرًا ۗ﴾ أي أنثى يصاهَر بها أي يختلط ويمتزج[1] الذكر معها إبقاءً للنوع وتتميماً لبقائه على سبيل التناسل والتوالد إلى ما شاء الله ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ كَانَ رَبُّكَ ﴾ الذي رباك يا أكمل الرسل على كمال الذكاء والفطنة في فهم سرائر توحيده ورقائق تجلياته الجلالية والجمالية ﴿قَدِيرًا ۝٥٤﴾ على ما شاء وأراد بلا فتورٍ وقصورٍ.

---

(١) في المخطوط (يلتزم).

وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ

﴿وَ﴾ مع كمال قدرته سبحانه وعلوِّ شأنه وسطوعِ برهانه ﴿يَعۡبُدُونَ﴾ من خبث طينتهم وشدة قسوتهم ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الحقيق بالعبودية ذاتاً ووصفاً واسماً ﴿مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ﴾ يعني أصناماً وأوثاناً لا يُرجى نفعهم ولا ضرهم لا لأنفسهم ولا لغيرهم، وبالجملة لا يملكون شيئاً من لوازم الألوهية والربوبية مطلقاً ﴿وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ﴾ الجاحد الجاهل بذات الله وكمال أسمائه وصفاته ﴿عَلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ الذي رباه بمقتضيات أوصافه وأسمائه ﴿ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ يظهر عليه بالباطل ويظاهره، وينبذ الحق وراء ظهره ويخالفه، ولا يلتفت إليه عتواً واستكباراً.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾﴾ إلى كافة البرايا وعامة العباد لتبشرهم على ما ينفعهم وتنذرهم عما يضرهم، يعني تهديهم إلى المعرفة والتوحيد الذي هم جُبلوا لأجله وتمنعهم عن المفاسد المنافية له ولطريقه.

وإن نسبوك يا أكمل الرسل إلى أخذ الجُعل والرشا[1] لإرشادك وإهدائك إياهم ﴿قُلۡ﴾ لهم تبكيتاً وإلزاماً: ﴿مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾ وأطلب منكم ﴿عَلَيۡهِ﴾ أي على تبليغي إياكم ما أُوحي إلي من ربي وإرشادي لكم بمقتضى الوحي الإلهي ﴿مِنۡ أَجۡرٍ﴾ جُعلٍ ومالٍ آخذُه منكم وأجعله سبباً للجاه

(١) الرشا: بالألف الممدودة أينما وردت.

إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ....

والثروة وأنواع المفاخرة والمباهاة بها، كما هو عادة الجهلة المتشيخين في هذا الزمان الذين هم من أعوان الشيطان نسبوا أنفسهم إلى الصوفية، المتشرعين تلبيساً وتغريراً وأخذوا من ضعفاء العوام من حطام الدنيا بعد ما أفسدوا عقايدهم بأنواع التلبيسات والتدليسات وتحليل المحرمات وإباحة المحظورات واختزنوها، ثم ادعوا بسببها الرئاسة والسيادة، حتى مضوا عليها زماناً وكثر الأتباع والأحشام وهيؤوا الأعوان والأنصار بتلبيسهم هذا، ثم بعد ذلك بغوا على السلطان وقصدوا الخروج على أولي الأمر والطاعة واشتغلوا بتخريب البلدان وإضرار أهل الإيمان، وقصدوا أموالَ الأنام وأعراضَهم وسبي ذراريهم، ومع ذلك سموا أنفسهم أهل الحق والعدل وأرباب المعرفة والإيمان وأصحاب التحقيق واليقين، ألا ذلك هو الخسران المبين والطغيان العظيم - عصمنا الله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا - بل ما أطلب بتبليغي هذا ﴿إِلَّا﴾ هداية ﴿مَن شَآءَ﴾ وأراد بتوفيق الله إياه ممن سبقت لهم العناية الأزلية ﴿أَن يَتَّخِذَ﴾ ويطلب ﴿إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ الذي رباه بأنواع الكرامات ﴿سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ يوصله إلى معرفته وتوحيده.

﴿وَ﴾ إن انصرفوا عنك وأعرضوا عن هدايتك وإرشادك وقصدوا تعنتك وقتلك عدواناً وظلماً، فلا تبال يا أكمل الرسل بهم وبشأنهم ولا تحزن عن أمرهم بل ﴿تَوَكَّلْ﴾ في مقابلتهم ومقاومتهم ﴿عَلَى ٱلْحَىِّ﴾ القيوم ﴿ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ﴾

أي لا يعرضه الموت والفناء ﴿وَسَبِّحْ﴾ ربَّك ونزهه عما لا يليق بشأنه مقارناً تسبيحك ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ على آلائه ونعمائه الفائضة عليك على التعاقب والتوالي، سيما على ما اصطفاك من بين البرايا، وأعطاك الرئاسة والسيادة على كافة الأنام، والرسالة على قاطبة الأمم، بلِّغ ما أنزل إليك، ولا تفرح من إيمانهم، ولا تحزن على كفرهم وطغيانهم ﴿وَ﴾ اعلموا أنه ﴿كَفَىٰ بِهِۦ﴾ أي كفى الله سبحانه عالماً ﴿بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ﴾ ما ظهر منهم وما سيظهر وما بطن في استعداداتهم وكنَّ في قابلياتهم ﴿خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ مطلعاً بصيراً على وجه الحضور والشهود لا يعزب عن حيطة حضرة علمه شيء منها، مجازياً قديراً ومنتقماً عزيزاً يجازيهم بقدرته على مقتضى اطلاعه وخبرته.

وكيف لا يعلم ويطلع سبحانه بجميع ما ظهر وبطن؟!.

وهو ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أبدعهما وأظهرهما ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من كتم العدم بلا سبق الهيولى والزمان ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي على عدد الجهات والأقطار المحفوفة بجميع الكوائن والفواسد ﴿ثُمَّ﴾ بعد ما كمل ترتيبها على أبلغ نظام ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ وتمكن وانبسط ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي على عروش جميع المظاهر بالاستيلاء التام والبسطة العامة ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الذي وسعت رحمته كل ما ظهر وبطن، غيباً وشهادة ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ﴾ أي بما ذكر من خبرة الله وإحاطة علمه وقدرته وإظهاره ما ظهر وبطن عيناً وشهادةً،

خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ ....

وإحاطته واستيلائه على عروش الرحمن بالرحمة العامة ﴿خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾ ذا خبرة يخبرك بصدقها من أرباب القلوب الواصلين إلى مرتبة الكشف وعموم الشهود ممن سبقت لهم العناية الأزلية والجذبة الجالبة الغالبة من قبل الحق، المفنية لهم عن أنانياتهم، المبقية لهم ببقاء الحق.

﴿وَ﴾ مع ظهور استيلاء الحق وانبساطه على عروش ذرائر الأكوان ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ على سبيل الإيقاظ عن نعاس النسيان والتنبيه عن نومة الحرمان ﴿ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ المظهرِ لكم من كتم العدم بسعة رحمته وجوده ﴿قَالُواْ﴾ منكرين له مع كمال ظهوره مستفهمين على سبيل الاستغراب والاستبعاد: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الذي تدعوننا إلى سجوده، أتوا بالسؤال بلفظة ما من كمال نكارته عندهم وشدة إنكارهم عليه قائلين: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ أي لكل شيءٍ تأمرنا بسجوده أنت من تلقاء نفسك ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾ أي ما زاد دعوتك إياهم وإرشادك لهم إلا نفوراً عن الحق وطريق توحيده ؛ لخبث طينتهم وشدة شكيمتهم وكمال غيهم وقسوتهم.

وكيف تنفرون وتنصرفون هؤلاء الجاهلون الغافلون عن سجوده سبحانه مع أنه:

﴿تَبَارَكَ﴾ وتعالى عن شأنه عن أن ينصرف عنه وينفر منه أحدٌ من عباده مع كثرة خيراته وبركاته عليهم لأنه ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي العلويات

بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ ....

﴿بُرُوجًا﴾ لتكون منازلَ للكواكب المدبرةِ للأمور الأرضية ﴿وَ﴾ بعدما هيأها سبحانه على أبلغ النظام ﴿جَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا﴾ أي شمساً دائرةً من برجٍ إلى برجٍ ﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ منقلباً من منزلٍ إلى منزلٍ من المنازل المذكورة؛ ليحصل من دورها وانقلابها الفصول الأربعة المصلِحة لأحوال ما في السفليات من المواليد الثلاثة.

﴿وَ﴾ كيف تغفلون عن الصانع الحكيم أيها الضالون ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ متعاقبةً متجددةً فخلَف إحدهما الآخر ليكون مرصداً وميقاتاً ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ ويتذكر آلاء الله المتوالية المتتالية عليه، الفائضة من عنده على تعاقب الأوقات والساعات ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ أي أراد أن يشكر على نعمائه الواصلة إليه في خلالهما.

﴿وَ﴾ المتذكرون لآلاء الله المواظبون لأداء حقوقها حسب طاقتهم هم ﴿عِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الواصلون إلى مرتبة الرضوان، الفائزون بلقاء الرحمن وهم ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى﴾ وجه ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ التي هي محل أنواع الفسادات ﴿هَوْنًا﴾ هينين لينين بلا منازعةٍ وجدالٍ مع أحدٍ من بني نوعهم وسوء خصال معهم من كبرٍ وخيلاءَ ﴿وَ﴾ هم من كمال سكينتهم ووقارهم وتلطفهم مع عباد الله ﴿إِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ بعلو شأنهم ورفعة مكانهم بما يكرهون من

قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾

الشتم والوقاحة والاستهزاء ﴿قَالُواْ﴾ من سلامة نفوسهم وطيب قلوبهم: ﴿سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ أي تسليماً عليهم بلا تغيرٍ وتأثرٍ من قولهم، وتركاً لانتقامهم ومخاصمتهم، توطيناً لنفوسهم على التسليم والرضا بجريان القضاء والحلم وكظم الغيظ، هذا حالهم وشغلهم بين الناس في النهار.

﴿وَ﴾ شغلهم في الليل هم ﴿ٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ﴾ ويدخلون في الليل بائتين صاروا في خلاله ﴿لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا﴾ ساجدين، واضعين جباههم على تراب المذلة طلباً لمرضاة الله بلا شوب السمعة والرياء والعجب والهوى ؛ لكونهم خالين في خلاله مع الله بلا وقوف أحدٍ عليهم ﴿وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾﴾ قائمين بين يدي الله تواضعاً وخدمة ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ في مناجاتهم مع الله في خلواتهم: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا بأنواع الكرامات ﴿ٱصْرِفْ عَنَّا﴾ بفضلك وجودك ﴿عَذَابَ جَهَنَّمَۖ﴾ المعد لعصاة عبادك ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾﴾ حتماً لازماً لنا، لو لا فضلك بنا وإحسانك علينا، فإنهم مع كمال توجههم وتحننهم نحو الحق على وجه الإخلاص ورسوخهم في الأعمال الصالحة الخالصة بلا فوت شيء من لوازمها خائفون وجلون عن بطشه سبحانه وانتقامه ؛ لأنهم لا يتكئون ولا يتكلون إلى أعمالهم وطاعاتهم، ولا يثقون بها، بل ما يعتمدون ويتكلمون إلا بفضل الله وسعة رحمته وجوده، قائلين مستعيذين من النار:

﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٦٦ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ۝٦٧ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ ....

﴿إِنَّهَا﴾ أي جهنم البعد والحرمان ﴿سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا﴾ يستقر أحدٌ فيها ساعةً وآناً ﴿وَ﴾ كيف أن تجعل لنا يا مولانا ﴿مُقَامًا ۝٦٦﴾ نقيم فيها زماناً.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟﴾ مما رزقهم الله من الأطايب على الفقراء والمساكين ﴿لَمْ يُسْرِفُوا۟﴾ في الإنفاق إلى أن وصل حد التبذير المذموم عقلاً وشرعاً ﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا۟﴾ في الإمساك والمنع إلى أن وصل حد التقتير المحرَّم المكروه شرعاً وعقلاً ومروءة، بل ﴿وَكَانَ﴾ إنفاقهم ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ۝٦٧﴾ وسطاً عدلاً بين طرفي الإفراط والتفريط المذمومَين الساقطَين عن درجة الاعتبار عند الله وعند الناس، المسقطين للنفس عن الاعتدال الحقيقي المقبول عند الله وعند عموم عباده.

﴿وَ﴾ بالجملة هم الموحدون ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ﴾ الواحد الأحد المستقل بالألوهية والربوبية ﴿إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ يستحق للعبودية مثله، ﴿وَ﴾ من جملة خصائلهم الحميدة أنهم ﴿لَا يَقْتُلُونَ﴾ بحالٍ من الأحوال ﴿ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ الحكيم المتقن في أفعاله وأحكامه قتلها، إذ كل نفسٍ من النفوس البشرية إنما وضعت وبنيت بيتاً لله، مهبطاً معه ولوحيه وإلهامه، محلاً لحلول سلطان وحدته الذاتية، ومجلىً لظهور أسمائه الحسنى وصفاته العليا العظمى الكاملة، فلا يصح هدم بيته وتخريب بنائه

إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ ....

﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي بالرخصة الشرعية الموضوعة بوضع الله سبحانه حداً وقصاصاً ﴿وَ﴾ من جملة أخلاقهم الحميدة أنهم ﴿لَا يَزْنُونَ﴾ عدواناً وعدولاً عن مقتضى الحد الشرعي والوضع الإلهي في حفظ النسب عن اختلاط النطف، إذ هي من أخس المحرمات وأفحش المحظورات، لذلك عقَّبه سبحانه بالوعيد الهائل فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي[1] الزنا التي هي الفعلة الشنيعة والديدنة القبيحة المتناهية في القبح والشناعة، المستكرهة عند الطباع السليمة، المسقطة للمروءة والعدالة ﴿يَلْقَ﴾ يوم الجزاء ﴿أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾ أي جزاءً مسمىً بالأثام مبالغةً وتأكيداً، كأن اسم الإثم موضوعٌ له حقيقةً، وهي جامعٌ لجميع ما يطلق عليه اسم الإثم ادعاءً لذلك.

﴿يُضَٰعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ﴾ لا ضعفاً مرةً بل أضعافاً كثيرةً، ومع ذلك التضعيف والتشديد ﴿وَيَخْلُدْ﴾ ويدوم ﴿فِيهِۦ﴾ أي في العذاب ﴿مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾ صاغراً ذليلاً بالنسبة إلى جميع أهل النار، إذ الزنا من أقبح الجرائم عند الله وأفحشها، إذ لا جُرم عنده سبحانه أعظمُ من هتك محارمه، أعاذنا الله من ذلك.

﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ عما جرى عليه من سوء القضاء ورجعَ إلى الله نادماً عن فعله خائباً خاسراً، مستحيياً من الله، خائفاً عن بطشه، مكذباً لنفسه، معيراً

(١) في التفاسير الأخرى: (من يفعل ذلك) من يقترف الشرك والقتل والزنا.

وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾

عليها، متأوهاً متحسراً عما صدر عنه ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿ءَامَنَ ﴾ بتوحيد الله وأكَّد توبته بتجديد الإيمان المقارن بالإخلاص الصائن للمؤمنين عن ارتكاب المحظورات المنافية للإيمان، وبالجملة جدد إيمانه معتقداً أنه حين صدر عنه لم يكن مؤمناً ﴿وَ﴾ مع التوبة وتجديد الإيمان ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾ منبئاً عن إخلاصه في إيمانه وتوبته، مشعراً على يقينه ومعرفته ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾ السعداء التائبون الآيبون المقبولون هم الذين ﴿ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ ﴾ الحكيم المصلح لأحوال عباده بعدما وفقهم على التوبة الخالصة والإنابة الصحيحة الوثيقة ﴿سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ التي أتوا بها قبل التوبة ﴿حَسَنَٰتٍۗ﴾ بعدها بأن يمحو سبحانه بفضله معاصيهم المثبتة في صحائف أعمالهم قبل إنابتهم، ويثبت بدلها حسناتٍ بعدها ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ ﴾ المطلع لسرائر عباده وإخلاصهم ﴿غَفُورًا ﴾ لهم، متجاوزاً عن ذنوبهم وإن عظمت بعد ما جاؤوا بالتوبة الخالصة ﴿ رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ يقبل توبتهم ويعفو زلتهم.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿وَمَن تَابَ ﴾ ورجع إلى الله نادماً عما مضى عليه من المعاصي ﴿وَعَمِلَ ﴾ عملاً ﴿صَٰلِحًا﴾ تلافياً لما فات من الطاعات والحسنات، جابراً لما انكسر من قوائم إيمانه وأعماله بالمفاسد والآثام ﴿فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ ﴾ ويرجع ﴿ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ المتفضل المحسن الكريم الرحيم ﴿مَتَابًا ﴿٧١﴾ ﴾ أي توبةً مقبولةً عند الله، مرضيةً دونه.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ﴿٧٣﴾﴾..................

﴿وَ﴾ المؤمنون المقبولون المبرورون عند الله هم الذين ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ أي الشهادةَ الباطلةَ المسقطةَ للعدالة والمروءة أصلاً ﴿وَ﴾ أيضاً ﴿إِذَا مَرُّواْ﴾ فجأةً بلا سبق ترقبٍ منهم وتجسسٍ ﴿بِٱللَّغۡوِ﴾ مطلقاً، أي ما يجب أن يلغو ويطرح من المكروهات والمحظورات والمستقبحات، سواءً كان قولياً أو فعلياً ﴿مَرُّواْ﴾ عليها ﴿كِرَامٗا ﴿٧٢﴾﴾ أي مكرِّمين أنفسهم عن الوقوف عليه، مستغفرين من الله لمن ابتلاه الله به، غاضِّين أبصارهم عن تدقيق النظر نحوه وتكرير المشاهدة إليه والمبالغة في المطارحة والمطالعة فيه، وبالجملة مروا باللغو على وجه التلطف والرفق والتليين بحيث يستحيي من رفعته ولطفه المبتلون به، لعل الله يتوب عليهم بكرامة كرمه، إلى حيث لا يحومون حول ذلك اللغو بعد ذلك أصلاً.

﴿وَ﴾ هم ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ﴾ ووعظوا ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ الدالة على توحيده واستقلاله في ألوهيته وربوبيته ﴿لَمۡ يَخِرُّواْ﴾ ولم يسقطوا ﴿عَلَيۡهَا﴾ أي على الآيات ﴿صُمّٗا﴾ أصمين غافلين عما فيها من الأوامر والنواهي والعبر والأمثال والرموز والإشارات ﴿وَعُمۡيَانٗا ﴿٧٣﴾﴾ أعمياء عن مطالعة آثار أوصاف صفاته الجلالية والجمالية فيها، بل يخرون ويتذللون عند سماعها، واعينَ حافظين بما فيها من المواعظ والتذكيرات المتعلقة لأحوالهم في النشأتين، مطالعين منها آثار الأوصاف والأسماء الذاتية الإلهية، ناظرين عليها بنظر الاعتبار والاستبصار.

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ ....

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ داعين مناجين متضرعين قائلين: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا على فطرة التوحيد والإيقان ﴿هَبْ لَنَا﴾ بفضلك وسعة لطفك وجودك من في حوزتنا وجوارنا ﴿مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ أي اجعلهم بحيث تقرّ وتتنور عيوننا برؤيتهم من كمال صلاحهم وسدادهم، ممتثلين بأوامرك، مجتنبين عن نواهيك ﴿وَ﴾ بعد ما وهبتنا يا مولانا ولأهلينا ما تقر به عيوننا من الاتقاء عن محارمك والامتثال بأوامرك ﴿وَاجْعَلْنَا﴾ بلطفك ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ المحترزين الحذرين عن محارمك ومنهياتك ﴿إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ مقتدىً بهم نرشدهم إلى طريق توحيدك. وبالجملة

﴿أُولَٰئِكَ﴾ السعداء المقبولون عند الله المذكورة أوصافهم من قوله سبحانه: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ ...﴾ [٢٥-الفرقان:٦٣] إلى هنا، هم الذين ﴿يُجْزَوْنَ﴾ من عند ربهم تفضلاً عليهم وامتناناً ﴿الْغُرْفَةَ﴾ وهي أعلى درجات الجنان ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أي بسبب ما صبروا على مشاق الطاعات ومتاعب الرياضات والتحمل على قطع التعلقات وترك المألوفات والذب عن جملة المشتهيات والمستلذات ﴿وَ﴾ بعدما استقروا عليها ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً﴾ وترحيباً من الملائكة من جميع الجوانب ﴿وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾﴾ أي سلامةً عن جميع الآفات.

خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴿٧٦﴾ قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا ﴿٧٧﴾

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ﴾ أي في الجنة لا يتحولون عنها ولا يتبدلون، بل دائمون فيها مقيمون، لذلك ﴿حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا﴾ مستقرون فيها ومتمكنون عليها ﴿وَمُقَامٗا ﴿٧٦﴾﴾ يقيمون ويتوطنون فيها.

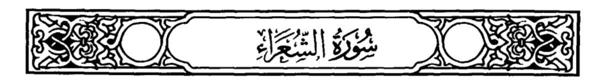
ثم لما دعا رسول الله ﷺ عموم المشركين إلى الإيمان والتوحيد وأمرهم بالإطاعة والانقياد على ما أمرهم الله ونهاهم عما نهاهم سبحانه على مقتضى الوحي الإلهي والكتاب المنزل من عنده، كذَّبوه وأنكروا له قائلين: نحن لا نؤمن بك ولا بكتابك ولا بربك الذي ادعيت الرسالة عنه، ولا نطيع بما أُمرنا ونُهينا عنه، وبالجملة لا نقبل منك جميع ما جئت به من قِبَل ربك ونسبتَه إليه افتراء ومراءً، رد الله عليهم قولهم هذا على أبلغ وجه وآكده مخاطباً لحبيبه ﷺ أمراً له بقوله:

﴿قُلۡ﴾ لهم بعدما انصرفوا عن دعوتك والإيمان بك وبربك والعمل بكتابك: ﴿مَا يَعۡبَؤُاْ﴾ أي ما يبالي ويعتدُّ بكم وبإيمانكم وكفركم ﴿بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ﴾ أي إطاعتكم وعبادتكم إياه وانقيادكم له ﴿فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ﴾ بي وبربي وأنكرتم بجميع ما جئتُ به من عنده سبحانه عناداً ومكابرةً، الزموا مكانكم فتربصوا وانتظروا لجزاء تكذيبكم وإنكاركم ﴿فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا ﴿٧٧﴾﴾ أي سيكون جزاءَ تكذيبكم حتماً لازماً عليكم غير منقطعٍ عنكم أبداً، بل يكبكم في النار خالدين صاغرين، ويعذبكم فيها مهانين ذليلين.

نعوذ بك منك يا ذا القوة المتين.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي اللازم لتهذيب الأخلاق عن الرذائل، وتطهير الصفات عن الذمائم، والأطوار عن القبائح، والأسرار عن الميل إلى السوى والأغيار من الأمور المنافية المكدرة لصفاء مشرب التوحيد: أن تتأمل وتتعمق في مرموزات الآيات العظام المذكورة في هذه السورة، سيما في الآيات التي وَصَفَ بها سبحانه خلَّص عباده المتحققين لمرتبة العبودية، المنكشفين بسعة اسمه الرحمن، المظهر لمظاهر الأكوان شهادةً وغيباً، وتتدبر في إشاراتها حق التدبر والتفكر إلى أن يترسخ في قلبك معانيها رسوخاً تاماً، وينتقش في صحيفة سرك وخاطرك فحاويها انتقاشاً كاملاً، إلى أن تصير من جملة وجدانيتك وذوقك، وبعدما صرتَ ذا وجدانٍ وحالٍ بها، وذقتَ حلاوتها، فزتَ بغرفات جنة الرضا والتسليم، فحينئذٍ يترشح في صدرك رشحاتُ بحر الوحدة الذاتية، واستنشقتَ من نفحات النفسات الرحمانية المهبة من فناء الحضرة الأحدية، المصفية من التعينات الهيولانية والتعلقات الطبيعية، فلك أن لا تنظر ولا تلتفت بعد ذلك إلى مقتضيات علائق ناسوتك مطلقاً، وتجمع همك نحو لوازم لاهوتك، لعل الله ينقذك بفضله عن أغلال أنانيتك وسلاسل بشريتك بمنه وجوده.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة الشعراء

لا يخفى على من تحقق بمقام الرضاء والتسليم وفوَّض أمره إلى الحكيم العليم وانكشف له أن لا فاعل للأفعال إلا هو، ولا موجودَ في الوجود سواه، ولا متصرف بالاستقلال والاختيار غيره: أن ما جرى في فضاء الوجود غيباً وشهادة، أزلاً وأبداً، إنما هو مستندٌ إليه سبحانه، وأثرٌ من آثار أوصافه وأسمائه بلا شركةٍ ومظاهرةٍ من أحد سواه، ومتى تحقق عنده هذه الأمور واتضح لديه هذا المذكور، فله أن يترك التصرف مطلقاً بحيث لا يحزن عن فقد شيءٍ، ولا يفرح عن وجده، وحينئذٍ ارتفع عنه الإرادة والكراهة والوجدان والفقدان والربح والسرور والخذلان، بل صار راضياً بجميع ما جرى عليه من القضاء.

لذلك خاطب سبحانه حبيبه ﷺ وعاتبه بما لاح عليه من أمارات المحبة والإرادة بإيمان من يدعوهم إلى التوحيد من الكَفَرة المعاندين، وعلامات الحزن والكراهة من إصرارهم وتعنتهم على ما هم عليه من الكفر والشقاق، فقال متيمناً باسمه الأعلى تبارك وتعالى:

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾ المصلح المدبر لمفاسد عباده على مقتضى إرادته واختياره ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ عليهم بإفاضته الوجود، وليتنبهوا بربوبيته ويواظبوا على إطاعته

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ ....

وعبوديته ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ لهم يوصلهم إلى فضاء توحيده، بعدما أخلصوا التوجه نحوه، وأتوا بالأعمال الصالحة طلباً لمرضاته.

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾﴾ يا طالب السعادة والسيادة المؤبدة المخلدة [١]، ويا طاهر الطينة والطوية من أدناس الطبيعة البشرية، ويا سالم السر والسريرة من العلائق الناسوتية البشرية، ويا ماحي آثار الرذائل المكدرة لصفاء شراب التوحيد.

﴿ تِلۡكَ﴾ الآيات العظام المذكورة في هذه السورة ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ أي من جملة آيات القرآن ﴿ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ المبيّنِ المظهر لدلائل التوحيد، الموضحِ للبينات والبراهين القاطعة الدالة على حقية دينك، إنما أنزلناها يا أكملَ الرسل تأييداً لأمرك وتعظيماً لشأنك، فلك أن تبلغها على قاطبة الأنام وعامة المكلفين على الوجه الذي تُلِيَ وأوحيَ إليك بلا التفاتٍ منك إلى إيمانهم وكفرهم وتصديقهم وتكذيبهم، بل ما عليك إلا البلاغ وعلينا الحساب إلا أنك من فرط محبتك لإيمانهم بك وبدينك وكتابك ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ ﴾ هالكٌ قاتلٌ ﴿ نَّفۡسَكَ﴾ تحسراً وتحزناً ﴿ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ أي لأجل أن لا يكونوا مصدقين لك ولدينك وكتابك، مع أنا لا نريد إيمانهم وهدايتهم، بل مضى في قضائنا وثبت في حضرة علمنا كفرهم وضلالهم، وما يبدل القول لدينا، ولا يغير حكمنا.

بل ﴿ إِن نَّشَأۡ ﴾ أي إن تعلق إرادتنا ومشيئتنا لإيمانهم ﴿ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ ﴾

(١) في المخطوط (الخلدة).

فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ ....

ملجئةً لهم إلى الإيمان والتصديق ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ﴾ أي صارت حين نزول الآية الملجئةِ أعناقُهم التي هي أسباب كِبرهم وخيلائهم من كمال الإطاعة والانقياد ﴿لَهَا﴾ أي للآية الملجئة النازلة ﴿خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾﴾ منكوسين منكسرين منخفضين، بحيث لا يتأتى لهم الإعراض عنها والتكذيب بها أصلاً.

﴿وَ﴾ متى لم تتعلق مشيئتنا لم يؤمنوا بل ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ﴾ أي عظةٍ وتذكيرٍ نازلٍ ﴿مِّنَ﴾ قِبَل ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ تفضلاً عليهم ﴿مُحْدَثٍ﴾ مستبدعٍ على مقتضى الأعصار والأزمان لإصلاح نفوس أهلها من المفاسد والضلال ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ﴾ أي عن الذكر المحدث ﴿مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾﴾ منصرفين، لعدم تعلق مشيئتنا بقبولهم، بل إنما أرسلناك يا أكمل الرسل إليهم وأمرنا بدعوتهم وتبليغهم؛ ليتعظ ويتذكر منهم ممن سبقت له العناية الأزلية من خلّص عبادنا، وتعلقت إرادتنا بهدايتهم ورشدهم في أصل فطرتهم واستعدادهم.

وبعد ما بلغتَ إليهم الذكر والعظة المهذِّبة لقلوبهم عن رَين الكفر والشرك العارض لهم من قبل آبائهم وأسلافهم سمعوا سمعَ قبولٍ ورضاءٍ، إذ كلٌ ميسرٌ موفقٌ لما خُلق له.

وأما المجبولون على فطرة الشقاوة المطبوعون على قلوبهم بغشاوة الغفلة والضلال .

فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم ....

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾ بها حين سمعوها، ولم يقتصروا على تكذيبها فقط بل استهزؤوا بها وبك يا أكمل الرسل عتواً واستكباراً، فلا تلتفت إليهم ولا تبال بهم وبإيمانهم ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ عن قريب ﴿أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾﴾ فظهر حينئذ أحقٌ حقيقٌ بأن يُنقاد ويُتبع، أم هو باطلٌ يجب تكذيبه والانصراف عنه ؟!.

وكيف ينكرون بآياتنا الدالة على كمال قدرتنا وحكمتنا، أولئك المعرضون عناداً ومكابرة؟!.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ ولم ينظروا ويتفكروا حتى يعتبروا مع أنهم من أهل النظر والاعتبار ﴿إِلَى﴾ عجائب ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ اليابسة الجامدة ﴿كَمْ أَنۢبَتْنَا﴾ من كمال قدرتنا ووفور حكمتنا ﴿فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ أجناسٍ كثيرةٍ من النباتات والحيوانات والمعادن وغير ذلك مما لا اطلاع لهم عليه، إذ ما يعلم جنود ربك إلا هو، ﴿كَرِيمٍ ﴿٧﴾﴾ كلها ذوي الكرامات والبركات والمنافع والخيرات.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي في إنبات كلٍ من أنواع النبات وإخراج كلٍ من أصناف الحيوانات وأجناس المعادن منها ﴿لَءَايَةً﴾ بينةً واضحةً قاطعةً دالةً على أن مُنبتَها ومُخرجَها متصفٌ بجميع أوصاف الكمال ونعوت الجمال والجلال، فاعلٌ بالاختيار والاستقلال بلا مزاحمة الأشباه والأمثال ﴿وَ﴾ هي وإن كانت في غاية الوضوح والجلاء لكن ﴿مَا كَانَ﴾ وثبت ﴿أَكْثَرُهُم﴾

مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ ....

أي أكثر الناس ﴿مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ موفَّقين على الإيمان والتوحيد في علم الله ولوح قضائه، لذلك لم يؤمنوا بالآيات العظام، ولم يستدلوا منها إلى وجود الصانع الحكيم العلام القدوس السلام، المنزَّه ذاتُه عن طريان التقضي والانصرام.

﴿وَ﴾ إن كذبوك يا أكمل الرسل بما جئت من الآيات العظام وعاندوا معك لا تبال لهم ولا تحزن ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي رباك بأنواع الكرامات ﴿لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب المقتدر على البطش والانتقام ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾ الحليمُ الذي لا يعَجِّل بالعذاب وإن استوجبوا، بل يمهلهم زماناً لعلهم يتنبهون على ما فرَّطوا من سوء المعاملة مع الله ورسوله وآياته، فيتوبوا نادمين ضارعين خاشعين.

ثم أشار سبحانه إلى تعداد المكذبين الضالين عن طريق الحق، التائهين في تيه الغفلة والغرور فقال:

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل للمنصرفين عنك وعن آياتك عناداً قصة أخيك موسى الكليم صلوات الرحمن عليه مع فرعون وملئه وقتَ ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ﴾ عبدَه ﴿مُوسَىٰٓ﴾ وأوحى إليه بعد ما ظهر الفسادُ في الأرض من استيلاء فرعون وملئه على بني إسرائيل واستعبادهم وقتل أبنائهم واستحياء نسائهم ظلماً، حين قال له سبحانه: ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ أي لك

قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾

الإتيان بالدعوة والرسالة يا موسى على القوم الظالمين الخارجين عن مقتضى الحدود الإلهية الموضوعة بين العباد للإنصاف والانتصاف يعني:

﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ الطاغي الباغي الذي بغى على عباد الله بأنواع الجور والفساد فقل لهم أولاً بعد ما ذهبتَ إليهم على سبيل التنبيه: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾ ويحذورن عن قهر الله، أيها المسرفون المكابرون والمتجاوزون عن مقتضى العقل والنقل، وبعد ما ناداه سبحانه ما ناداه.

﴿قَالَ﴾ موسى ملتجئاً إلى الله مناجياً له: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني بأنواع اللطف والكرم ﴿إِنِّيٓ﴾ من غاية ضعفي وانفرادي ﴿أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾﴾ ولا يقبلون دعوتي ولا يلتفتون إلي.

﴿وَ﴾ بذلك ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى﴾ ويكلُّ خاطري عن تبليغ ما أمرتني به ﴿وَ﴾ بعد ضيق صدري وكلِّ خاطري ﴿لَا يَنطَلِقُ﴾ ولا يجري ﴿لِسَانِى﴾ على تبينها وتفهمها، مع أن في لساني لكنةٌ جِبلِّيةٌ، وبالجملة أنا وحدي لا أطيق بحمل أعباء الرسالة وتبليغها واجعل لي يا ربي ظهيراً يعينني، وأخي أولى بالمظاهرة والمعاونة ﴿فَأَرْسِلْ﴾ بمقتضى فضلك وجودك حاملَ وحيك ﴿إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾﴾ أخي وأمره أن يشركه في أمري حتى نذهب إلى فرعون ونبلغ رسالتك إياه.

﴿وَ﴾ لا سيما ﴿لَهُمْ﴾ أي لقوم فرعون ﴿عَلَىَّ ذَنۢبٌ﴾ عظيمٌ وهو قتلي فيما مضى قبطياً منهم ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾ بقصاصه.

قَالَ كَلَّا فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ....

﴿ قَالَ﴾ سبحانه في جوابه على سبيل الردع: ﴿كَلَّا﴾ أي ارتدع يا موسى عن الخوف منهم بعدما أيدناك واصطفيناك للرسالة ولا تبال بهم وبكثرتهم، إذ لا يسع لهم أن يقتلوك وإن أردتَ أن تشرك أخاك معك في أمرك هذا فتشركه، فأرسل سبحانه جبرائيل عليه السلام إلى هارون بالوحي، وأشركه مع أخيه، وأمرهما بتبليغ الرسالة إلى فرعون بقوله: ﴿ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ الدالة على عظمة ذاتنا وكمال صفاتنا وبلِّغا ما أُمرتما بتبليغه بلا خوفٍ منهم ومبالاةٍ لهم ﴿ إِنَّا ﴾ حاضرون ﴿مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾ ما جرى بينكم، حافظون لكما عما قصدوا من المقت والأذاء.

﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ﴾ مجترئين بلا مبالاة له ﴿فَقُولَآ﴾ له بلا دهشةٍ وخوفٍ من سطوته واستيلائه: ﴿ إِنَّا﴾ أي كلٌّ واحدٍ منا ﴿ رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ إليك أيها الطاغي نبلغك من عنده سبحانه.

﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا ﴾ قومنا ﴿ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾ أي خلِّ سبيلهم حتى يذهبوا بنا إلى أرض الشام سالمين عن ظلمك وجورك.

﴿ قَالَ﴾ في جوابهما مخاطباً لموسى إذ هو أصلٌ في الرسالة معاتباً عليه متهكماً موبخاً: ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا﴾ زماناً يا موسى حين كنت ﴿ وَلِيدًا ﴾

وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي ....

لا متعهد لك سوانا ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا﴾ بعد ما كبرت إلى حيث مضى ﴿مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾﴾.

قيل: لبث فيهم ثلاثين، ثم خرج إلى مدين عشر سنين، ثم عاد عليهم إلى التوحيد ثلاثين سنة، ثم بقي بعد غرقهم خمسين سنة.

﴿وَ﴾ بعد ما ربيناك بأنواع التربية والكرامة ﴿فَعَلْتَ﴾ من سوء صنيعك ﴿فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ بأن قتلتَ نفساً بلا جريمةٍ صدرت منها موجبةً لقتلها، فقتلُها ظلماً وعدواناً ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿أَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ لنعمنا كفراناً سقطَ به لياقتك للرسالة والهداية، فالآن جئت تدعي الرسالة والإرشاد إلى الهداية.

﴿قَالَ﴾ موسى في جوابه معترفاً بما صدر عنه في أوان جهله وغفلته: ﴿فَعَلْتُهَا﴾ أي الفعلة المذكورة المذمومة ﴿إِذًا﴾ أي حينئذ ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ في تلك الحالة، الجاهلين بعواقب الأمور، الغافلين بما يترتب عليه من الأوزار.

وبعد فراري منكم لأجلها وصلتُ إلى خدمة مرشدٍ رشيدٍ يرشدني ويربيني بأنواع الكرامات

﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي﴾ من أثر صحبته وحسن تربيته

﴿حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾ ....

﴿حُكْمًا﴾ أي حكمةً متقنةً كاملةً ﴿وَجَعَلَنِي﴾ بفضله ﴿مِنَ﴾ جملة ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾﴾ فأرسلني إليكم ؛ لأدعوكم إلى توحيده.

ثم شرع موسى في جواب ما منَّ عليه فرعون من حقوق النعمة والتربية فقال:

﴿وَتِلْكَ﴾ النعمة التي عَدَدتَ ﴿نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ ليست تبرعاً حتى أكون ممنوناً بها بل ما هي إلا ﴿أَنْ عَبَّدتَّ﴾ زماناً قومي ﴿بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ بل لها صاغرين مهانين مظلومين بأنواع الظلم والهوان، فما أنا ممنون منك حقيقةً بل منهم ؛ لأنهم متسببون لتربيتك وحضانتك بي.

وبعدما جرى بينهم ما جرى.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ مستكبراً مستفهماً على سبيل الاستبعاد والإنكار: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ أي ما هو وما ماهيته وحقيقته، ولأي شيء تدعونا إليه، عبَّر عنه سبحانَه بما، من غاية إنكاره واستحقاره.

﴿قَالَ﴾ موسى في جوابه منبهاً له على ظهوره سبحانه في الآفاق: هو ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي موْجِدُهما ومُظْهِرُهما من كتم العدم ﴿وَمَا﴾ حدث ﴿بَيْنَهُمَآ﴾ من الكوائن والفواسد ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾ أي من ذوي الإيقان والعرفان بحقائق المحدثات المبدعة من كتم العدم بلا سبق

قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ ....

مادةٍ وزمانٍ، بل بامتداد أظلال الأسماء والصفات الإلهية على مرايا الإعدام بمقتضى التجليات الحبية المنتشئة من الذات الأحدية، وإلا فلا يمكن تعريفه بإيراد الأجناس والفصول، إذ هو سبحانه منزَّهٌ عن الاشتراك والامتياز، إذ هو الواحد من كل الوجوه، المستقلُّ بوجوب الوجود والتحقق مع امتناع غيره مطلقاً، لا يمكن أن يقومه جنسٌ، ويميزه فصل حتى يركب له حدٌّ أو رسمٌ.

وبعدما سمع من موسى ما سمع:

﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ﴾ من ملئه وأشرافه متهكماً بجوابه: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾﴾ جوابه أيها العقلاء، سألته عن حقيقته وذاته، فأجاب بعدِّ أفعاله وآثاره المترتبة على أوصافه وأسمائه التي هي من عوارض ذاته.

وبعدما سمع موسى تشنيعهم واستبعادهم أراد أن يزيد أيضاً على تنبيههم فأجاب بظهوره سبحانه في الأنفس رجاءَ أن يتنبهوا حيث:

﴿قَالَ﴾: هو سبحانه ﴿رَبُّكُمْ﴾ مظهركم ومربيكم بأنواع التربية والكرامة ﴿وَ﴾ أيضاً ﴿وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾ الأقدمين.

وبعدما سمع فرعون كلامه ثانياً:

﴿قَالَ﴾ جازماً عازماً: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ﴾ ـ سماه رسولاً تهكماً واستهزاءً ـ ﴿ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ﴾ لإرشادكم وإصلاحكم ﴿لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ لا يتكلم بالمقابلة، بل يتفوه كيفما اتفق، بلا تأملٍ وتدربٍ، سألتُه عن شيءٍ، وأجاب

قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ....

بأشياءَ لا أسأله.

وبعدما لم يتنبهوا بالتنبيهات المذكورة، بل ازدادوا إنكاراً فوق إنكارٍ إلى حيث نسبوه إلى الخبط والجنون.

﴿قَالَ﴾ موسى كلاماً جملياً كلياً مشتملاً على جميع الأمور المنبهة: هو سبحانه ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ أي مشرق الشمس ومديرها كل يوم بمدارٍ مخصوصٍ ومغيبها كذلك تتميماً وتدبيراً لمصالح عباده وجميع حوائجهم المتعلقة لمعاشهم على الوجه الأحكم الأبلغ الأعدل بلا فوت شيء منها ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ وتطرحون عقولكم إلى التأمل والنظر في عجائب مصنوعاته وغرائب مخترعاته، وكيفية تدبيراته في إبدائه وإنشائه وإبقائه وإفنائه، وفي جميع الأمور المتعلقة بألوهيته وربوبيته.

إن اجتهدتم حق السعي والجهد في شأنه ؛ لاهتديتم إلى وحدة ذاته ووجوب وجوده واستقلاله في التصرف في مظاهره ومصنوعاته، فحينئذٍ لم يبق لكم شائبةُ شكٍ فيه سبحانه حتى تحتاجوا إلى السؤال والكشف عن جنابه.

وبعدما جهّلهم موسى وشدَّد عليهم وسفّههم

﴿قَالَ﴾ فرعون مستكبراً مستعلياً مهدداً: ﴿ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ ﴾ وعبدتَ يا موسى ﴿ إِلَٰهًا غَيْرِى ﴾ على مقتضى زعمك ﴿ لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ ....﴾

المعهودين عندك أنهم لا مخلَص لهم عن سجني حتى يموتوا [(١)] فيه، فإنه كان يطرح المخالفين في هوةٍ عميقة يموتون فيها.

وبعدما سمع موسى تهديده وعتوه

﴿قَالَ﴾ مستفهماً على سبيل التعجيز والغلبة: ﴿أَ﴾ تفعل ما هددتني به ﴿وَلَوْ جِئْتُكَ﴾ أيها الطاغي المتجبر ﴿بِشَيْءٍ﴾ أي بمعجزةٍ ﴿مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ ظاهرِ الدلالة على صدقي في دعواي.

﴿قَالَ﴾ فرعون مستحيياً عن الناس، مستبعداً نفسه عن العجز ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ﴾ أي بالذي ادعيتَ من المعجزة ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ في الدعوى.

﴿فَأَلْقَىٰ﴾ موسى ﴿عَصَاهُ﴾ على الفور ﴿فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾﴾ ظاهرُ ثعبانيته عظيمٌ بحيث لا يشتبه على أحدٍ أمره.

﴿وَ﴾ بعدما ألقى عصاه ﴿نَزَعَ يَدَهُۥ﴾ أي أخرجها من جيبه ليثبت مدعاه بشاهدين ﴿فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ﴾ محيرةٌ مفرقةٌ للأبصار من غاية شعاعها ولمعانها ﴿لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ إليها مدهشةٌ لقلوبهم إلى حيث تاهوا وتحيروا من تشعشعها.

فلما رآها فرعون

﴿قَالَ﴾ بعدما أوجس في نفسه خيفة ﴿لِلْمَلَإِ﴾ الذين يجلسون ﴿حَوْلَهُۥٓ﴾

(١) في المخطوط (حتى يموتون).

إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ ....

مستغرباً من أمره مستعجباً: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ المدعي ﴿لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ ماهرٌ في علم السحر، بالغٌ نهايته.

﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم ﴾ المألوفة ﴿ بِسِحْرِهِۦ ﴾ هذا وكمال فيه ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ في أمره أيها الأشراف.

انظر أيها المتأمل الناظر إلى كمال قدرة الله وسطوع حججه الغالبة البالغة كيف تأثر منها فرعون المتكبر المتجبر الطاغي، مع كمال عتوه واستعلائه إلى حيث اضطر إلى المشورة مع الناس في أمر موسى ودفْعِه، مع أنه ادعى الألوهية لنفسه.

وبعدما سمع الأشراف قوله

﴿ قَالُوٓاْ ﴾ له: مقتضى شأنك وجلالك أن لا تتسارع إلى قتلهما، لئلا تُنسب إلى العجز والإلزام منهما ومن حجتهما بل ﴿ أَرْجِهْ ﴾ واحبس موسى ﴿وَأَخَاهُ﴾ هارون وأخّر قتلهما زماناً ﴿وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ﴾ شَرِطَةً ﴿حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾﴾ جامعين، حتى

﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ ﴾ مبالغٍ في السحر ﴿عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ فائقٍ منه بالغٍ نهايته.

فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ ....

فبعث شرطةً إلى الأقطار بعدما وكَّل عليهما وكلاءَ يحبسونهما ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ المهرة في هذا الفن ﴿لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾﴾ أي لوقت عُيّن لجمعهم في يوم الزينة، وهو وقت الضحى.

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ﴾ أي نودي عليهم في الطرق والسلك: ﴿هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾﴾ لموعد يومٍ معلومٍ حتى تشاهدوا حال موسى وهارون، وغلبة السحرة عليهما، وإبطال ما أتيا به من السحر.

﴿لَعَلَّنَا﴾ بأجمعنا ﴿نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ إياهما.

فخرج فرعون إلى الموعد، واجتمع الناس فيه، وأحضروا موسى وهارون ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ الموعدَ ﴿قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ﴾ طالبين الجُعل منه: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾﴾ المبطِلين ما جاء به من السحر.

﴿قَالَ﴾ لهم فرعون: ﴿نَعَمْ﴾ إن غلبتم أنتم لكم من الأجر ما أَمِلتم وطلبتم ﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾ إليّ، المصاحبين معي، فلكم الترقي والزيادة في الإنعام والإحسان في كل حينٍ وأوانٍ.

وبعد ما رضوا بما وُعدوا، جاؤوا بمقابلة موسى واشتغلوا بمعارضته ﴿قَالَ لَهُم﴾ أي للسحرة ﴿مُّوسَىٰٓ﴾ على سبيل الجراءة وعدم المبالاة

أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾

بسحرهم: ﴿أَلْقُوا۟﴾ أيها الطغاة البغاة المتعارضون بأكاذيب السحرة والشعبذة مع آيات الله ومعجزاته عناداً ومكابرةً ﴿مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾﴾ من الأباطيل.

﴿فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ﴾ التي احتالوا فيها بأنواع الحيل ﴿وَقَالُوا۟﴾ حين إلقائها مقسماً: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾ وسطوته وجلاله ﴿إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ المقصورون على الغلبة على موسى وأخيه.

ولما رأى موسى من أباطيلهم ما رأى ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ﴾ بإلهام الله إياه ﴿فَإِذَا هِىَ﴾ ثعبانٌ مبينٌ ﴿تَلْقَفُ﴾ أي تبتلع وتلتقم جميع ﴿مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾﴾ أي يحتالون فيه، ويخيِّلونه حياتٍ تسعى بتمويهاتهم وتزويراتهم.

وبعدما شاهد السحرة من عصا موسى ما شاهدوا من الأمر العظيم المعجز الذي لا يتأتى بالسحر مثله، تيقنوا أنها ما هي سحرٌ وشعبذةٌ، بل أمرٌ سماويٌ إلهيٌ، لا يُكتنه لميته وكيفيته.

﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ على الفور ﴿سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ متذللين، واضعين جباههم على تراب المذلة، أستحياءً من مقابلة أباطيلهم معه.

﴿قَالُوٓا۟﴾ حين سقطوا صائحين: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ وصدقنا إنهما رسولان من عنده سبحانه على الحق، وأذعنَّا أن لا معبود يُعبد بالحق ويستحق للعبادة سواه، ولا إله غيره.

قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَـٰيَـٰنَآ ....

وبعدما رأى فرعون منهم ما رأى

﴿ قَالَ ﴾ مهدداً متوعداً إياهم: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ أي صدقتم موسى بغتةً وآمنتم لإلهه ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ﴾ بتصديقه، فقد لاح ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ﴾ ومعلمكم ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ اتفقتم معه في الخلوة ؛ لتفضحونا على رؤوس الملأ ﴿ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أيها المفسدون، أنا أَقدرُ على الانتقام والتعذيب أم رب موسى ؟!! ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ ﴾ أولاً ﴿أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ﴾ متبادلتين ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ بعد ذلك على رؤوس الأشهاد ﴿أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾ بجمعكم هذا ؛ ليعتبر من حالكم من في قلبه خلافنا ونفاقنا.

وبعدما سمعوا تهديده ووعيده

﴿ قَالُوا۟﴾ منقطعين نحو الحق متشوقين بلقياه: ﴿لَا ضَيْرَ ۖ﴾ أي لا ضرر يلحق بنا من قتلك وإهلاكك إيانا أيها الطاغي ﴿إِنَّآ﴾ بالموت الصوري والهلاك المجازي ﴿ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾﴾ صائرون راجعون بعد ارتفاع أنانيتنا الباطلة عن البين وهويتنا الباطلة عن العين.

﴿ إِنَّا نَطْمَعُ﴾ بعدما خرجنا عن أنانيتنا هذا ﴿ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَـٰيَـٰنَآ ﴾ التي

أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ ....

صدرتْ عنا في زمان جهلنا وغفلتنا ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ أي لأن كنا أول المؤمنين الموقنين بتوحيده اليوم.

﴿۞ وَ﴾ بعد ما أقام موسى فيهم زماناً، ويدعوهم إلى التوحيد دائماً وما زادوا إلا عتواً وعناداً، وأدى عتوهم إلى أن قصدوا مقته وهلاكه، وقتل من معه من المؤمنين، لذلك ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ بعدما هموا العزم لهلاكه، وقلنا له ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ﴾ أي سِرْ ليلاً يا موسى مع من تبعك من عبادي ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾﴾ يتبعكم ويعقبكم فرعون وجنوده.

فأسرى موسى مع المؤمنين، فاطلع فرعون وقومه على إسرائهم.

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ﴾ شرطَةً ﴿فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ لجنودهم ليتبعوهم، وأمر الشرطة أن قالوا للجيش ترغيباً لهم وتحريكاً لحميتهم:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الفارين ﴿لَشِرْذِمَةٌ﴾ أي طائفةٌ وجماعةٌ ﴿قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾﴾ بالنسبة إلينا، مع أنهم ستمائة وسبعون ألفاً، وقوم فرعون من كثرتهم لا يعد ولا يحصى.

﴿وَ﴾ لنا أن نتبعهم ونستأصلهم ﴿إِنَّهُمْ﴾ قومٌ عدوٌ ﴿لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾﴾ بنا يفعلون أفعالاً تغيظنا وتحرك غيظنا، فلنا أن نقلع عرقهم عن وجه الأرض.

﴿وَإِنَّا﴾ وإن كنا أقوياء أشداء على الأعداء ﴿لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ دائماً عن كيدهم ومكرهم وإفسادهم بأنواع الفسادات من قطع الطريق والالتجاء

﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ﴾ ....

بالأعداء والمظاهرة معهم، ولا بد لذوي الحزم والعزم من الضبط والاحتياط في عموم الأحوال.

﴿فَأَخْرَجْنَاهُم﴾ بعدما تعلق إرادتنا بإهلاكهم وإغراقهم بهذه الدواعي والبواعث المهيجة لنفوسهم إلى الخروج والاقتفاء أثر الأعداء ﴿مِّن جَنَّاتٍ﴾ منتزهات بهية [1] فيها فواكه شهيةٌ ﴿وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾﴾ أي منابع تجري منها في جناتهم الأنهار خلالها ليزيد صفاءً ونضارةً وبهاءً.

﴿وَكُنُوزٍ﴾ من الذهب والفضة مدفونةٍ وغير مدفونةٍ ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ هو المنازل الحسنة والقصور المرتفعة الموضوعة فيها الأرائك والسرور والبسط المفروشة من الحرير وغيرها.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي أخرجناهم إخراجاً كذلك بإحداث بواعث الخروج في نفوسهم وإزعاجهم إلى أن يخرجوا مضطرين ﴿وَ﴾ بعدما ما أخرجناهم عما أخرجناهم ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا﴾ أي ما سمعتَ من المذكورات جميعها ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ إنعاماً لهم وامتناناً عليهم بما صبروا بظلمهم وأنواع أذياتهم.

وبعد ما اجتمع الجيش من أطراف المدائن وازدحموا على باب فرعون، خرجوا خلفهم مسرعين

﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾ أي وقت طلوع الشمس من المشرق.

﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ﴾ أي تقاربا إلى أن رأى كل من الجمعين صاحبه

---

(١) في المخطوط (جنات منتزهات شهي وبهي).

قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ ....

﴿ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ ﴾ مشتكين إليه ميؤوسين من الحياة بعدما رأوا من خلفهم جيشاً لا يعد ولا يحصى، وعن أمامهم البحر الذي لا يمكن العبور عنه: ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ ملحقون يلحقنا العدو الآن، وبعدُ: فناؤنا في البحر.

﴿ قَالَ﴾ موسى ردعاً لهم وإزالة لرعبهم: ﴿ كَلَّآ ﴾ أي ارتدعوا عن هذا القول ولا تخافوا عن إدراكهم ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ ويلهمني إلى طريق النجاة والخلاص، إذ وعدني اليوم بالخلاص، فإن وعده حتم لا يخلف.

فصبر إلى أن قرب العدو ووصل موسى على شاطئ البحر مضطراً مضطرباً.

﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ ﴾ بأن قلنا له: ﴿ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ﴾ فضربه على الفور ﴿فَٱنفَلَقَ﴾ البحر ـ أي: قلزم أو النيل ـ وافترق فرقاً وقُطع قطعاً كثيرة ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ﴾ بعد انفلاقه وانقطاعه ﴿كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ أي كالجبل الراسي المرتفع نحو السماء الثابت في مقره بلا حركةٍ وذهابٍ، وانفرج بين الفلق فرجاً وسيعةً، فدخل على الفور موسى وقومه في الشعوب والفرج كل سبطٍ بشعبٍ.

﴿وَ﴾ بعدما دخلوا في شعاب البحر المنغلق ﴿أَزْلَفْنَا﴾ وقربنا ﴿ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ أي فرعون وقومه، وهم أيضاً وصلوا على شاطئ البحر، فرأوهم في

وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ....

شعابه على العبور، فاقتحموا أثرهم، مطمعين النجاة مثلهم.

﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾﴾ بأن حفظنا البحر على انغلاقه إلى أن عبروا سالمين من تلك الفرج.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ أي فرعون وقومه جميعاً، بعدما دخلوا في تلك الفرج بإطباق البحر وإفناء انفلاقه وافتراقه، واتصاله على الوجه الذي كان عليه.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الإنجاء والإغراق ﴿لَـَٔايَةً﴾ دالةً على كمال قدرة الله ومتانة حكمته بالنسبة إلى ذوي البصائر والاعتبار، المشمرين ذيل العناية والاهتمام نحو التفكر والتدبر في آثار أوصاف الفاعل المختار ﴿وَ﴾ لكن ﴿مَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ أي أكثر الناس المجبولين على فطرة الاستدلال والاعتبار ﴿مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾﴾ بالله وتوحيده وأسمائه حتى يتأملوا في آثار صفاته؛ ليستدلوا على ذاته.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره، القادر المقتدر على إجراء أحكامه وإنفاذ قضائه ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾ لِخُلَّصِ عباده، الموفَّقين من عنده للوصول إلى مبدئهم ومعادهم.

﴿وَٱتْلُ﴾ يا أكمل الرسل ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي على مكذبي قريشٍ ومعانديهم ﴿نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ أي قصة جدك الخليل صلوات الرحمن عليه مع قومه، وقت

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ ....

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾ سائلاً لهم عن حقيقة ما يعبدون من الآلهة ليريهم أن الأصنام لا تستحق العبادة والانقياد: ﴿مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ ولأي شيء تنقادون وتطيعون؟!.

﴿ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾ أي يدوم عكوفنا إياها وإطاعتنا لها.

﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ ﴾ ويجيبون دعوتكم ﴿إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ إليها في السراء والضراء؟!.

﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ﴾ ويثيبونكم جزاءً لطاعتكم وعبادتكم ﴿أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾ لكم أن أعرضتم وانصرفتم عن عبادتهم ؟!.

﴿ قَالُوا۟﴾ مستغربين عن مسؤولاته: يعني نحن لا نرجو منهم أمثال هذه الصفات، إذ هم جماداتٌ، لا تتأتى منهم أفعالُ ذوي الحياة والشعور ﴿ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا﴾ وأسلافنا ﴿ كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ أي يعبدون لها ويعكفون عليها خاشعين متذللين، ونحن على أثرهم نعبدهم ونتذلل لهم تقليداً لآبائنا.

﴿ قَالَ﴾ لهم إبراهيم على سبيل النصيحة والتذكير: ﴿ أَفَرَءَيْتُم﴾ وعلمتم أن ﴿ مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾﴾ من دون الله.

أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ....

﴿أَنتُمْ﴾ في مدة أعماركم ﴿وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾﴾ فيما مضى عليهم من الزمان، لا يليق بالألوهية، ولا يستحق للإطاعة والانقياد، إذ الإله المستحق بالعبودية لا بد وأن يتصف بالصفات الكاملة، وأن يكون له نفعٌ وضرٌ، وثوابٌ وعقابٌ، حتى يُعبد له، وهؤلاء معطَّلون عن أوصاف الألوهية مطلقاً.

﴿فَإِنَّهُمْ﴾ أي الآلهة الباطلة ﴿عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ نسبَ عداوتهم لنفسه أولاً إمحاضاً للنصح، إذ التوجه إليهم والتذلل نحوهم يجلب عذاب الله ونكاله، فهم وعبادتهم من أسباب غضب الله وقهره، فلكم أن لا تتوجهوا نحوهم، ولا تعبدوا غير الله سبحانه إلهاً كما أني ما أتوجه وأعبد ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ إذ هو المستحق للعبودية والألوهية ذاتاً ووصفاً، وكيف لا؟!.

وهو ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى﴾ أي أوجدني وأظهرني من كتم العدم ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ إلى توحيده واستقلاله في الوجود والتصرف.

﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى﴾ إن افتقرت إلى الغذاء ﴿وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾﴾ حين احتياجي إلى الماء.

﴿وَ﴾ كذا ﴿إِذَا مَرِضْتُ﴾ من اختلاف الأمزجة وتداخل الأغذية ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ باعتدالها واستقامتها.

وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ ....

﴿ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ﴾ حين حلول أجلي وانقضاء مدة حياتي في النشأة الأولى ﴿ ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ ﴾ في النشأة الاخرى للعرض والجزاء.

﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ ﴾ وأرجو من سعة رحمته وجوده ﴿ أَن يَغْفِرَ لِى ﴾ ويمحو عني جميع ﴿خَطِيٓـَٔتِى ﴾ التي صدرت عني في دار الاختبار، ويعفو زلتي فيها ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾ والجزاء.

﴿ رَبِّ ﴾ يا من رباني بلطفك وهداني إلى توحيدك ﴿هَبْ لِى حُكْمًا ﴾ يقيناً علمياً وعينياً حتى أستحقَّ أن تفيض عليَّ اليقين الحقي الذي صرتُ به مستحقاً لمرتبة الخلة والخلافة ﴿وَأَلْحِقْنِى ﴾ بعد ما وهبتَ لي من حِكمك وأحكامك ومعارفك ما قدرتَ لي ﴿ بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ المرضيين عندك، المقبولين في حضرتك.

﴿وَٱجْعَل لِّى ﴾ بفضلك وجودك ﴿ لِسَانَ صِدْقٍ ﴾ أي لساناً يتكلم بالصدق في حِكمك وأحكامك ومعارفك وحقائقك وجميع أوامرك ونواهيك، بحيث يدوم أثر صدقي في أقوالي وأفعالي وأحوالي، وفي جميع أطواري وأخلاقي ﴿ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ أي اللاحقين من عبادك، لذلك ما من دِينٍ من الأديان ألا وله صلوات الرحمن عليه وسلامه فيه أقوالٌ وأفعالٌ وأخلاقٌ منسوبةٌ إليه، مسلمةٌ منه، معمولةٌ بمتابعته.

وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ٱجْعَلْنِي﴾ بسعة رحمتك ووفور إحسانك وعطيتك ﴿مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾ أي من الذين يرثون من فضلك وجودك مرتبة الرضا والتسليم، إذ لا نعمة أجل منها، وأتم عند المنقطعين نحوك، والمتشوقين بلقياك.

﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ﴾ واعف عن زلته وذنوبه إن سبقت عنايتك له في سابق قضائك وحضرة علمك ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾ التائهين في تيه الغفلة والغرور.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿لَا تُخْزِنِي﴾ ولا تُخجلني من فعل نفسي وأبي يا رب ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾ أي الأموات، ويحشرون من قبورهم نحو العرصات لعرض الأحوال وجزاء الأعمال، إن خيراً فخير، وإن شراً فشرٌ.

وأي يومٍ ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ﴾ فيه ﴿مَالٌ﴾ حتى يفديه صاحبه ويخلّص من العذاب أو يخفِّف العذاب لأجله ﴿وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ يظاهرون لآبائهم وينقذونهم من عذاب الله؟!.

وذلك يوم لا مخلص فيه لأحدٍ من عذاب الله من ذوي المعاصي والآثام

﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ﴾ المطلعَ لسرائر العباد وضمائرهم ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ خالٍ عن الميل إلى الهوى ومزخرفات الدنيا، خالصٍ عن رعونات العُجب

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ ....

والرياء، مخلصٍ في التوجه نحو المولى بلا طلب الثواب منه والجزاء، بل لمحض الرضاء والامتثال بما أمره الحق ونهى راضياً في كل الأحوال بما جرى عليه من نفوذ القضاء.

﴿وَ﴾ في تلك الحالة التي أتوا كذلك ﴿أُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ﴾ أي قُرِّبت ﴿لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾﴾ الذين يتقون ويحذَرون عن محارم الله استحياءً منه وطلباً لمرضاته، بحيث يرونها ويسرعون إليها تشوقاً وتحنناً، ويتفطنون أنهم يدخلون فيها خالدين مؤبدين.

﴿وَ﴾ كذا ﴿وَبُرِّزَتِ﴾ وأُظهرت ﴿ٱلْجَحِيمُ﴾ المسعرُ ﴿لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾ الذين يضلون عن طريق الحق في النشأة الأولى بالميل إلى الهوى وإلى مستلذات الدنيا، والإعراض عن إرشاد الأنبياء والأولياء، والمصاحبة مع أهل الولاء والآراء والأهواء الباطلة المضِلَّة عن صراط الله الأعدل الأقوم، واتخاذ الآلهة الباطلة على مقتضى أهويتهم الفاسدة.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ حين ظهرت الجحيم عليهم، ويتفطنون أنهم مسوقون إليها صاغرين مهانين: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾﴾ أي أين الآلهة الباطلة التي عبدتم لها؟!

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ المتوحد بالألوهية والربوبية معتقدين أنها شفعاؤكم ينقذونكم من عذاب الله ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾ اليوم بأن يدفعوا عنكم العذاب

أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ ....

﴿ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ فيدفعون العذاب عن أنفسهم ؟!!

وبعد ما جرى عليهم ما جرى من التقريع والتوبيخ ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا ﴾ أي أُدخلوا في النار قسراً وقهراً ﴿هُمْ﴾ أي الآلهة المضلة المغوية ﴿ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ أي العبدة الضالون.

﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ﴾ مصاحبون معهم، ملازمون من القوى البهيمية الشهوية والغضبية، التي هي من أعونة النفوس الأمارة ﴿ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ إذ كلٌّ منهم سببٌ تامٌ لإضلالهم.

وبعد ما دخلوا في النار صاغرين مهانين ﴿ قَالُوا﴾ أي الداخلون في النار تابعاً ومتبوعاً ﴿وَهُمْ فِيهَا ﴾ أي في النار ﴿يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ أي يتخاصم بعضهم بعضاً، حيث قال العابدون لمعبوداتهم مقسِمين مغلِظين، تحسراً وتحزناً:

﴿ تَاللَّهِ إِن﴾ أي إنه ﴿ كُنَّا ﴾ باتخاذكم آلهةً من دون الله عبدناكم كعبادته ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾﴾ ظاهرٍ لا يشتبه على ذي مسكةٍ ضلالتُه.

وكيف لا يكون ضلالاً ظاهراً ؟!.

﴿إِذْ نُسَوِّيكُم﴾ مع كونكم من أدنى الأشياء وأرذلها، بل نرجحكم ونفضلكم ﴿بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ الذي هو أحدٌ صمدٌ فردٌ وترٌ، ليس كمثله شيء، وليس له كفؤٌ، ولا ضلالَ أبينَ من هذا وأعظم.

وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ....

﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ﴾ وأوقعنا في هذا الضلال المبين ﴿إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾﴾ الذين اقتدينا بهم من رؤسائنا وتقليدات آبائنا الذين مضوا قبلَنا على هذا.

﴿فَمَا لَنَا﴾ بعدما وقعنا في النار صاغرين ﴿مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ يشفعون لنا لينقذونا منها.

﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ أي ذي قرابة وصداقة تكفي صداقة وحمايته لإنقاذنا ونجاتنا، إنما قالوا ما قالوا تحسراً وتحزناً.

وبعد ما قنطوا عن الشفاعة والحماية، تمنوا الرجعة والإعادة وقالوا:

﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ رجعةً وعودةً إلى الدنيا مرةً بعد مرةٍ أخرى ﴿فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ بالله الموحدين له، لا نشرك به شيئاً من مظاهره ومصنوعاته.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي فيما ذُكر من نبأ إبراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه ﴿لَءَايَةً﴾ عظيمةً دالةً على توحيد الحق، وعلوِّ شأنه، وسموِّ برهانه، عظةً وتذكيراً للمتذكرين المعتبرين من أخلاقه صلوات الرحمن عليه وأطوارِه، وكمال علمه في دعوته، وإنصافه في محاورته، وإرخائه العنان إلى من قصد مجادلته ومعارضته، وإظهاره الحق على أبلغ وجهٍ وآكده، عارياً عن جميع الرعونات والخلافات الواقعة بين أرباب المناظرات وأصحاب المجادلات.

وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ ....

﴿وَ﴾ لكن ﴿مَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ أي أكثر الناس ﴿مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ بتوحيد الله وخلة خليله وصفوة أخلاقه وحسن خصاله.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب على انتقام من خرج من رق عبوديته ﴿الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ لمن وُفق عليها وجبل لأجلها.

ثم قال سبحانه مخبراً عن المكذبين:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ لأن تكذيب نوحٍ والإنكار على إرساله يستلزم تكذيب مطلق الإرسال، فيستلزم تكذيبه جميع الرسل الذين مضوا قبله، بل من سيأتي بعده من الرسل، لاتحاد المرسِل والمرسَل به، وذلك وقت.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ حين ظهرت عليهم أمارات الكفر والفسوق والخروج عن مقتضى الحدود الإلهية الموضوعة على العدالة المعنوية والقسط الحقيقي: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ وتحذرون عن محارم الله أيها المكلفون المسرفون.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من قِبل الحق ﴿أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ بينكم أرشدكم إلى ما يعنيكم وينفعكم [١] وأجنِّبكم عما يضركم، ولا يعنيكم بل يؤذيكم ويغويكم.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ القادرَ المقتدرَ على أنواع الانتقام ﴿وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ في

(١) في المخطوط (يبغيكم) وورد في الهامش: (لعله ينفعكم).

﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ ....

جميع ما جئتُ به من قبل ربي.

﴿وَ﴾ اعلموا أني ﴿مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾ وأطلب منكم ﴿عَلَيۡهِ﴾ أي على إرشادي وتكميلي وإصلاحي لكم ما أفسدتم على أنفسكم من الأخلاق والأعمال ﴿مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾ جُعلٍ ومالٍ، كما يسأل المتشيخة خذلهم الله من مريديهم ومحبيهم بل ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ﴾ أي ما أجري ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ فإنه سبحانه أرسلني إليكم، وأمرني بتبليغ ما أوحي إلي إليكم.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ حق تقاته واحذروا من بطشه وانتقامه ﴿وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾﴾ في جميع ما جئتُ به من عنده من الأوامر والنواهي المصلحةِ لمفاسد أحوالكم، حتى تستقيموا وتعتدلوا في النشأة الأولى، وتفوزوا بما وعد لكم ربكم في النشأة الأخرى.

﴿۞ قَالُوٓاْ﴾ في جوابه مستكبرين مستهزئين: ﴿أَنُؤۡمِنُ لَكَ﴾ ونتبعك نحن مع شرفنا وثروتنا ﴿وَ﴾ قد ﴿ٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ منا، الأقلون مالاً، الأنزلون جاهاً ورتبةً.

ومن هذا ظهر أن مناطَ الأمر عندهم على الحطام الدنياوية والمفاخرة بها وإظهار الجاه والثروة بسببها، ومتابعتُهم إنما هي لحصولها لا لأغراضٍ دينيةٍ ومصلحةٍ أخرويةٍ مصفيةٍ لبواطنهم عن العلائق المادية والشواغل الهيولانية العائقة عن الوصول إلى مقر التوحيد.

﴿قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١١٢ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ١١٣ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٤ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ١١٥﴾ ....

لذلك ﴿قَالَ﴾ نوحٌ مشتكياً إلى الله مفوضاً: ﴿وَمَا عِلۡمِي﴾ وإدراكي محيطاً[1] ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١١٢﴾ ويأملون في نفوسهم من أي غرضٍ وسبب يؤمنون بي ويمتثلون بأمري، إذ ما لي اطلاع على ضمائرهم وسرائرهم بل بظواهرهم.

﴿إِنۡ حِسَابُهُمۡ﴾ أي ما حسابهم المتعلق ببواطنهم وأسرارهم ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ﴾ المطلعِ لخفايا الأمور ومغيباتها ﴿لَوۡ تَشۡعُرُونَ ١١٣﴾ وتدركون ما أبثُّ لكم من الكلام لفهمتم ما هو الحق منه، ولكنكم أنتم قومٌ تجهلون، لذلك تقولون ما لا تعلمون وتفهمون.

﴿وَ﴾ إذا سمعتم مقالتي هذه فاعلموا أني ﴿مَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٤﴾ ونافيهم من عندي بسبب ميلكم إليَّ واستدعائكم طردهم، وتوفيقكم الإيمان بي على تبعيدهم.

﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ﴾ من قِبَل الحق ﴿مُّبِينٞ ١١٥﴾ ظاهر الحجج واضح البينات والمعجزات بالنسبة إلى عموم المكلفين سواءً كانوا فقراء أو أغنياء، إذ الإيمان والتوحيد والتدين والإخلاص إنما هي من أفعال القلوب، لا مدخلَ للأمور الخارجية فيها، التي هي الغناء والثروة، والفقر والرذالة، فمن وفَّقه الحق على التوحيد، وسبقتْ له العناية في سابق القضاء، فهو مؤمنٌ سواءً كان غنياً أو فقيراً، ومن سبق عليه الغضب الإلهي وكُتب في لوح القضاء من

(١) في المخطوط (وإدراك محيط).

قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى ....

الأشقياء فهو كافرٌ، نافٍ للصانع، مشركٌ، سواء كان غنياً أو فقيراً.

وبعدما سمعوا منه ما سمعوا من عدم مبالاته بهم وثباتهم وعدم رعاية جانبهم وغبطتهم.

﴿قَالُواْ﴾ من فرط عتوهم واستكبارهم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ﴾ عن دعوتك وادعائك هذا، أو لم تترك هذياناتك التي جئت بها من تلقاء نفسك افتراءً ومراءً ﴿لَتَكُونَنَّ﴾ بإصرارك عليها ﴿مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾ المقتولين بالحجارة، زجراً وقهراً، فارجع إلى حالك وتُبْ من هذياناتك، حتى لا نقتلك بأقبح الوجوه.

وبعدما قنط نوحٌ عن إيمانهم وآيس من توحيدهم وعرفانهم

﴿قَالَ﴾ مشتكياً إلى الله ملتجئاً نحوه: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني بانواع الكرامة ووفقني على الهداية والتوحيد ﴿إِنَّ قَوْمِى﴾ الذي بعثتني إليهم لأهديهم إلى دينك وطريق توحيدك ﴿كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾﴾ بجميع ما جئت به من عندك تكذيباً شديداً، وسفَّهوني تسفيهاً بليغاً، بل قصدوا مقتي وقتلي بأشد العذاب وأقبح العقاب، وبالجملة ما بقي بيني وبينهم ائتلافٌ وارتباطٌ.

﴿فَٱفْتَحْ﴾ واحكم يا ربي بمقتضى عدلك ﴿بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ حكماً مبرماً منجزاً لوعدك الذي وعدتني به بعد ما كذبوني، وأنْزِلْ عليهم العذاب الموعود من عندك ﴿وَ﴾ بعد إنزال العذاب عليهم ﴿نَجِّنِى﴾ منه بلطفك

وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ....

﴿وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ المصدقين بدينك ونبيك، الممتثلين بأوامرك، المجتنبين عن نواهيك بفضلك وطَولك.

وبعد إفراطهم وإصرارهم المتجاوز عن الحدِّ في الإعراض عن الله والانصراف عن دينه وتكذيب نبيه وإيذائه إياه من آمن له من المؤمنين، أنزل الله عليهم الطوفان الموعود.

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ ﴾ أي نوحاً ﴿ وَمَن مَّعَهُۥ ﴾ من متابعيه ومصدِّقيه بأن أدخلناهم ﴿ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾﴾ المملوءِ منهم، ومن كل شيءٍ زوجين اثنين.

﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ﴾ أي بعد إنجائنا وإدخالنا نوحاً ومن معه في الفلك ﴿ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ من قومه إلى حيث لم يبق منهم أحدٌ على وجه الأرض سوى أصحاب السفينة.

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الإنجاء والإغراق ﴿ لَءَايَةً ﴾ عظيمةً دالةً على كمال قدرتنا وسطوتنا وعلوِّ شأننا وبسطتنا ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ أي أكثر الناس ﴿مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾﴾ بوحدة وجودنا وكمال قدرتنا وعزتنا ومتانة حكمنا وحِكمتنا.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ ﴾ الذي وفقك يا أكمل الرسل على الإيمان والتوحيد وكشف لك سر سريان وحدته الذاتية على هياكل المظاهر ﴿ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب القاهر[1] في نفسه، بحيث لم يكن أحدٌ في فضاء الوجود سواه ولا إله معه،

(١) في هامش المخطوط (لعله القادر).

ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ ....

ليس كمثله شيء وهو السميع العليم ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ ﴾ لِخُلَّصِ عباده ممن جذبته العناية الأزلية نحو بابه، ويُسِّرَ له الوصول إلى جنابه.

رب اجعلنا من المنجذبين إليك، المنكشفين بوحدة ذاتك.

ثم قال سبحانه مخبراً عن أحوال المكذبين أيضاً:

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ جمعه على الوجه الذي ذُكر في تكذيب نوح، وإنما أنَّث باعتبار القبيلة، وعادٌ اسم أبيهم، وقت:

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ ﴾ حين رأى منهم ما هو من أمارات الكفر والفسوق عن مقتضى الاستقامة الموضوعة بينهم بوضعٍ إلهي: ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ من بأس الله أيها المفرطون المسرفون، ولا تحذرون عن قهره وانتقامه أيها الجاهلون.

﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ ﴾ مرسلٌ إليكم من عنده لأبلغكم ما أُرسلت به من قبل الحق من الأوامر والنواهي المصلِحة لأحوالكم، المبعدةِ عن غضب الله إياكم وقهره.

﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ الغالبَ القادرَ على أنواع الانتقامات ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ ﴾ فيما أمرتُ لكم بوحي الله وإلهامه من الأمور المهذبة لأخلاقكم.

﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ ﴾.

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ۝١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝١٢٩ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۝١٣٠ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٣١﴾ ....

ومن جملة تربيته إرسال الرسل على المنحرفين عن سبيل الاستقامة من المنصرفين عن طريق توحيده.

﴿أَتَبْنُونَ﴾ وتعمرون أيها المسرفون المستكبرون ﴿بِكُلِّ رِيعٍ﴾ تلالٍ مرتفعةٍ من الأرض ﴿ءَايَةً﴾ تستدلون بها في سلوككم نحو مقاصدكم ومناهجكم، مع أن النجوم الزاهرات إنما خُلقت لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر، وأنتم بوضعكم هذه الآيات والعلامات ﴿تَعْبَثُونَ ۝١٢٨﴾ وترتكبون فعلاً لا فائدةَ لكم فيها أصلاً .

﴿وَ﴾ أيضاً من جملة كبركم وخيلائكم أنكم ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ أي منابع الماء والقوانيت[1]، أو قصوراً عالياتٍ وأبنيةً شامخاتٍ مجصصةً مشيدةً ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝١٢٩﴾ وتؤمّلون الخلود في دار الابتلاء والغرور، لذلك تحكّمون بناءكم وتشيدونها.

﴿وَ﴾ من كمال استكباركم وتجبركم ﴿إِذَا بَطَشْتُم﴾ وأخذتم أحداً بجريمةٍ صدرت عنه ﴿بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۝١٣٠﴾ متجبرين متكبرين، خارجين عن مقتضى الحدِّ الإلهي الموضوع للتأديب والتعزير.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ المنتقم الغيور أن لا يأخذكم على أمثال هذا الاجتراء على عباده والظلم عليهم ﴿وَأَطِيعُونِ ۝١٣١﴾ في نصحي وتذكيري؛ لتنجوا من سخط الله وغضبه.

---

(١) أماكن لحبس الماء.

وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ ....

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿اتَّقُوا﴾ القادر العليم الحكيم ﴿الَّذِي أَمَدَّكُم﴾ ونصركم[1] ﴿بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ من أنواع النعم وأصناف الكرم الفائضة عليكم.

ثم فصل بعضاً منها تنصيصاً عليهم فقال:

﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ﴾ تستمدون بها أكلاً وحملاً وركوباً ﴿وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ تظاهرون بهم وتفاخرون.

﴿وَجَنَّاتٍ﴾ منتزهاتٍ ملتفةٍ بأنواع الأشجار والكروم ﴿وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾﴾ جارياتٍ تجري بين جناتكم منها أنهار المياه.

﴿إِنِّي﴾ من كمال عطفي ومرحمتي ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ من كمال تعنتكم واستكباركم ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾ أي نزول عذاب الله، وأنواع عقوباته فيه.

ولما سمعوا منه ما سمعوا من التذكير والنصيحة على طريق المبالغة ﴿قَالُوا﴾ من كمال استكبارهم واستنكافهم وشدة إنكارهم: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا﴾ يا هود ﴿أَوَعَظْتَ﴾ بما وعظتَ ﴿أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ المذكِّرين، نحن ما نسمع منك خرافاتك، ولا نمتثل بها، ولا نترك لأجلها وأجلك أخلاق أسلافنا التي كانوا عليها.

---

(١) في المخطوط (نصر عليكم).

إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾

﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ أي ما كنا عليه من الأخلاق ما هي ﴿إِلَّا خُلُقُ﴾ آبائنا ﴿ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ وعادتهم المستمرة، وسنتهم السنية المأثورة لنا منهم.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَا نَحْنُ﴾ ولا أسلافنا الذين مضوا عليها ﴿بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ بعد انقراضنا عن هذه النشأة، إذ لا إعادةَ ولا رجوعَ لنا ولا نشورَ من قبورنا بعدما متنا وكنا تراباً وعظاماً باليةً.

وبالجملة لم يقبلوا منه دعوته ولم يصدقوا قوله.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ تكذيباً شديداً وصاروا بسبب تكذيبهم إياه وإنكارهم عليه مستحقين لقهرنا وغضبنا ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ من كمال غيرتنا واستأصلناهم بمقتضى قدرتنا ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الإهلاك والاستئصال ﴿لَءَايَةً﴾ دالةً على استقلالنا واستيلائنا بالسلطنة القاهرة على مظاهرنا ومربوباتنا ﴿وَ﴾ لكن ﴿مَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ بنا وبأسمائنا وأوصافنا الكاملة الشاملة آثارُها لعموم المظاهر والمصنوعات.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب المستقل بالتصرف في آثار أسمائه وأوصافه بلا مشاركةٍ له في الوجود والإيجاد ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾ بتجلياته اللطيفية الجمالية في إظهار الكائنات المشاهَدة في الآفاق والأنفس حسب إمداده وإعانته.

ثم قال سبحانه مخبراً عن المكذبين المهلكين أيضاً:

كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ ....

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾﴾

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ﴾ المصلح لأحوالهم حين لاح عليهم علامات الإعراض عن الله والانحراف عن جادة توحيده ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾﴾ عن قهر الله، فتخرجون عن حدوده.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾﴾ أنبهكم على ما يصلح حالكم، وأجنّبكم عما يفسدكم.

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ المنتقم الغيور واحذروا من قهره وصولة غضبه وجلاله ﴿وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾﴾ فيما أنصح لكم وأذكركم به.

﴿وَ﴾ اعلموا أني ﴿مَا أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على تذكيري ﴿مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ وهو سبحانه اختارني للبعثة والرسالة، واصطفاني لحمل وحيه، فأرجو من فضله وسعة جوده أن يفيض عليّ من معارفه وحقائقه إلى حيث اضمحل هويتي الباطلة في هوية الحق، وتلاشى تعيناتي بالفناء فيه.

﴿أَتُتْرَكُونَ﴾ وتبقون ﴿فِي مَا﴾ أي في أنواع النعم وأصناف الإحسان والكرم وتستمرون ﴿هَٰهُنَآ﴾ أي في هذه النشأة كذلك ﴿ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ بلا فترة انتقال وتحويل، مترفهين

﴿فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ١٤٧ وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ ١٤٨ وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ ١٤٩ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٥٠ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٥١ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ١٥٢ قَالُوٓاْ﴾ ....

﴿فِي جَنَّٰتٖ﴾ أي حدائقَ وبساتينَ ﴿وَعُيُونٖ ١٤٧﴾ جاريات فيها.

﴿وَزُرُوعٖ﴾ كثيرةٍ في أطرافها ﴿وَ﴾ لا سيما ﴿نَخۡلٖ﴾ لطيفٍ ﴿طَلۡعُهَا هَضِيمٞ ١٤٨﴾ إذ هو ينكسر وينهضم بسهولة، ويستحيل دماً بسرعة.

﴿وَ﴾ من كمال بطركم ونهاية حرصكم وأملكم ﴿تَنۡحِتُونَ﴾ أي تثقبون وتنقبون ﴿مِنَ ٱلۡجِبَالِ﴾ المتحجرة ﴿بُيُوتٗا﴾ ومخازنَ تدخرون، وتخزنون أمتعتكم فيها، صوناً لها عن أنواع الحادثات بَطِرِيْنَ ﴿فَٰرِهِينَ ١٤٩﴾ متنعمين.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ المحول للأحوال حتى لا يبدل يسرَكم إلى العسر، وتنعيمَكم إلى التنقيم ﴿وَأَطِيعُونِ ١٥٠﴾ في نصحي وتذكيري.

﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٥١﴾ في الإغراء على المعاصي والتغرير فيها، إذ هم ﴿ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بأنواع الفسادات ومن جملتها: إفسادكم وإغراؤكم إلى ما يضركم ﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ ١٥٢﴾ مفاسد أحدٍ.

وبعدما ما سمعوا من صالح ما سمعوا من النصيحة والإرشاد وأنواع الإصلاح والسداد

﴿قَالُوٓاْ﴾ من فرط تعنتهم وعنادهم وكمال توغلهم في بحر الغفلة

إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ ....

والغرور: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ ﴾ يا صالح ﴿ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ المختلين المخبطين عقولهم بالسحر، لذلك تتخيل أنك رسولٌ مرسلٌ من قبل الحق هادٍ إلى طريقه مع أنك ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ بلا رحجان لك علينا، ولم يعهد إرسال البشر إلى البشر، وبعدما عيروه وشنَّعوا عليه، قصدوا تعجيزَه فأمروه بإتيان البرهان على صدقه فقالوا متهكمين: ﴿ فَأْتِ ﴾ يا صالح ﴿ بِـَٔايَةٍ ﴾ معجزةٍ دالةٍ على صدقك في دعواك ﴿ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ صالح: معجزتي الدالة على حقية دعوتي ورسالتي ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ ﴾ مخرجةٌ من الصخرة بإخراج الله، بعدما اقترحتموني بإخراجها، فدعوتُ الله القادر المقتدر على اختراع الأمور المستبدعة، وأتضرع نحوه، فقبِل دعائي، فأخرجها بقدرته على الوجه الذي اقترحتم، فاعلموا أيها المنهمكون في بحر الغفلة والغرور إنه ﴿لَّهَا ﴾ أي للناقة ﴿شِرْبٌ ﴾ أي معينٌ لشربها من بئركم بتعيين الله إياها ﴿وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ ﴾ معينٍ، فعليكم أن لا تتجاوزوا من شربكم إلى شربها، ولا تضروا بها ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ ﴾ من ضربٍ وعقرٍ وظمأٍ وجوعٍ، فإنكم أن تمسوها بسوءٍ ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ ﴾ وينزل عليكم ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ ﴾ وُصف به، لِعظم ما فيه من العذاب.

فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ ....

ثم لما أوصاهم بحفظها وحضانتها، وبالغ في شأنها، لم يقبلوا منه، ولم يبالوا بقوله، فاجتمعوا على عقرها متفقين

﴿ فَعَقَرُوهَا﴾ بعد ما اتفق الكل ﴿ فَأَصْبَحُوا﴾ بعدما عقروها ﴿نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾﴾ خائفين من نزول العذاب، لا تائبين آيبين عما فعلوا من ترك المأمور وارتكاب المنهي.

وبعدما استحقوا العذاب بصنيعهم هذا:

﴿ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ الموعودُ المعهودُ من قِبل الحق، فنزل عليهم، فأهلكهم بالمرة إلى حيث لم يبق منهم أحدٌ على وجه الأرض ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الابتلاء والإنزال والإهلاك ﴿ لَآيَةً﴾ عظيمةً مثبتةً لكمال قدرة الله وقهره على مقتضى صفاته الجلالية ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾﴾ بقهره وجلاله.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالبُ القاهرُ على أعدائه بمقتضى غضبه وجلاله ﴿ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾ المشفقُ على أوليائه حسب اقتضاء لطفه وجماله.

ثم قال سبحانه:

﴿كَذَّبَتْ ﴾ أيضاً ﴿ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ مثل ما كذب السابقون، وذلك وقت

إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم ....

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ ﴾ حين شاعت بينهم الفعلة القبيحة الذميمة، والديدنة الشنيعة إلى حيث يباهون بها ولا يخفونها ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ ﴾ من غضب الله أيها المسرفون المفرطون، اتقوا الله الغالب الغيور، واحذروا من سخطه.

﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ ﴾ من قِبَله ﴿ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ ﴾ يؤمِّنكم عن مكر الله، وإلمام غضبه وعذابه.

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ حق تقاته ﴿وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ ﴾ في جميع ما جئتُ لكم من عنده.

﴿وَ﴾ اعلموا أني ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي على تبليغي ونصحي ﴿مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ فإنه المتكفل لأجور عباده على مقتضى أعمالهم ونياتهم فيها.

﴿ أَتَأْتُونَ ﴾ وتجامعون[1] أيها المفسدون المفرطون ﴿ الذُّكْرَانَ ﴾ أي الذكور والأمارد، وتختصون بهذه القبيحة الشنيعة، مع أنه ما سبق مثلها ﴿مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ ﴾ من الذين مضوا من بني نوعكم.

﴿وَ﴾ تبالغون لها حيث ﴿تَذَرُونَ﴾ وتتركون ﴿مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم﴾ لإتيانكم

---

(١) في المخطوط (تجمعون).

﴿مِنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ۝١٦٦ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ۝١٦٧ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ۝١٦٨ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ۝١٦٩﴾

وحرثكم ﴿مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ أي نسائكم ؛ ليترتب عليها حكمة التناسل وإبقاء النوع ﴿بَلْ أَنتُمْ﴾ بسوء صنيعكم[1] وقبح فعلتكم هذه ﴿قَوْمٌ عَادُونَ ۝١٦٦﴾ مجاوزون عن حدود الله ومقتضى حكمته.

وبعدما سمعوا منه تشنيعه على أبلغ وجه وأشنعه

﴿قَالُوا۟﴾ من شدة شكيمتهم وضغينتهم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ﴾ ولم تنزجر عن تشنيعنا وتقبيح فعلنا ونهينا عنه ﴿لَتَكُونَنَّ﴾ بجراءتك علينا ﴿مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ۝١٦٧﴾ من قريتنا على أشنع وجهٍ وأسوئه[2].

وبعد ما سمع لوط عليه السلام منهم ما سمع من الغلظة والتشدد في التهديد:

﴿قَالَ﴾ مستوحشاً منهم مستنكراً عليهم: ﴿إِنِّى لِعَمَلِكُم﴾ هذا ﴿مِّنَ ٱلْقَالِينَ ۝١٦٨﴾ المبغضين غاية البغض إلى حيث أكره مساكنكم مطلقاً، وأريد الخروج من بينكم ولا أبالي من تهديدكم علي بالإخراج.

ثم توجه نحو الحق وناجى معه، مبغضاً عليهم، مشتكياً إلى ربه بقوله:

﴿رَبِّ﴾ يا من رباني بأنواع الطهارة والنظافة الصورية والمعنوية، ﴿نَجِّنِى﴾ بفضلك وجودك ﴿وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ۝١٦٩﴾ أي من العذاب الموعود النازل عليهم بشؤم عملهم هذا.

---

(١) في المخطوط (صنيعتكم).

(٢) في المخطوط (أسؤ).

فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾

فأنزلنا العذاب عليهم بعدما استحقوا لإنزاله

﴿ فَنَجَّيْنَٰهُ ﴾ أي لوطاً ﴿ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ من إصابة العذاب المنزَّل على قومه.

﴿ إِلَّا عَجُوزًا ﴾ وهي امرأته بقيت ﴿ فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾ الهالكين بميلها إليهم ومحبتها لهم.

﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا ﴾ وأهلكنا ﴿ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾

﴿ وَ ﴾ ذلك بأنْ ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ ﴾ لم يُعهد مثله، لأنه حجارةٌ هالكةٌ لكل من أصاب ﴿ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ مطرهم هذا.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ الإمطار والإهلاك ﴿ لَءَايَةً ۖ ﴾ عظيمةً دالةً على علوِّ شأننا وسطوع حجتنا وبرهاننا ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ ﴾ بآياتنا العظام، لذلك لحقهم ما لحقهم.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ ﴾ يا أكمل الرسل ﴿ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ المتعززُ برداء العظمة والكبرياء، المتفردُ بالوجود والبقاء، لا موجد سواه ولا إله إلا هو ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ ﴾ المتجلي بالتجليات الحبية، لإظهار ما في الوجود من الأعيان والأكوان.

ثم قال سبحانه:

﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ ﴾

إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ....

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ ﴾ حين رأى منهم أمارات الميل والانحراف عن القسطاس المستقيم الموضوع من عند العزيز العليم، المنبئ عن الاعتدال المعنوي: ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ وتحذرون عن بطش الله إياها، المتجاوزون عن حدوده.

﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ ﴾ من عنده ﴿ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾ موصلٌ لكم أمانته.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ ولا تنقصوا المكيال والميزان ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ ﴾ فيما أُرسلتُ به.

﴿وَ﴾ لا تخافوا عن أخذ الجُعل والرُّشا إذ ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ يعطيني جزاء إرشادي وإبلاغي، ويوصلني إلى منتهى أملي ومرادي.

وعليكم أيها المكلفون المنحرفون عن جادة العدالة الإلهية إيفاء الكيل ﴿ ۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ ﴾ إيفاءً تاماً كاملاً ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ بتنقيصه وتطفيفه ﴿مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ ﴾ الناقصين حقوق عباد الله، حتى لا يخسركم رحمته.

﴿وَزِنُوا﴾ وقت وزنكم لغيركم من عباد الله ﴿ بِالْقِسْطَاسِ ﴾ والميزان ﴿ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ ﴾ العدل السوي بحيث لا يميل إلى جانبٍ أصلاً.

﴿وَ﴾ عليكم أيضاً أن ﴿ لَا تَبْخَسُوا ﴾ ولا تنقصوا ﴿ النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ ولا

﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ ....

تكسروا سلعهم ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي لا تمشوا عليها بالظلم ﴿مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ بأنواع الفساد.

﴿وَ﴾ كيف تُفسدون فيها وتَظلمون مَن عليها ﴿ٱتَّقُواْ﴾ القادر المقتدر ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ وأظهركم من كتم العدم ﴿وَ﴾ كذا خلق ﴿ٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾ وذوي الخلقة من المتقدمين من أسلافكم وغيرهم أيضاً.

وبعدما سمعوا منه ما سمعوا من الحِكَم والتذكيرات

﴿قَالُوٓاْ﴾ متهكمين مستهزئين: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ﴾ يا شعيب ﴿مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾﴾ المجنونين الذين ضاعت عقولهم بالسحر والافتنان.

﴿وَ﴾ كيف تكون أنت من المرسلين ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ ومن أين يتيسر لبشرٍ أن يكون مرسلاً من رب العالمين ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ﴾ في دعواك الرسالة ﴿لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾﴾ المفترين.

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ قطعاً ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من بعض إقطاعها، تهلكنا بها ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾ في أمرك هذا ورسالتك.

وبعدما آيس شعيب عليه السلام عن أيمانهم

﴿قَالَ﴾ لهم مشتكياً إلى الله: ﴿رَبِّيٓ أَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري

بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ ....

﴿ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ من أنواع الفسادات وبمقدار ما تستحقون عليها من الجزاء والعذاب، وبالجملة

﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ تكذيباً شديداً، وأنكروا عليه إنكاراً بليغاً، ولم يقبلوا قوله، واستحقوا العذاب، ﴿ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ ﴾ على الوجه الذي اقترحوا منه، شدَّد الله عليهم بالحر، حيث اضطروا إلى الاستظلال، وذلك يومَ غلت المياه في الأنهار، وظلتهم السحابة بغتةً فازدحموا تحتها مستظلين، فأمطر الله عليهم ناراً، فاحترقوا بالمرة ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ ﴾ لعظم جرمهم وعذابهم فيه.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ الأخذ والإنزال والإظلال ﴿ لَأٓيَةٗۖ ﴾ دالةً على كمال قهرنا إياهم وزجرنا وانتقامنا عنهم ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ بقهرنا وغضبنا ومقتضيات أوصافنا الجلالية.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ ﴾ يا أكمل الرسل ﴿لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ﴾ الغالب على عموم المرادات والمقدورات من الثواب والعقاب والإنعام والانتقام ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ ﴾ على من وفَّقهم إلى مقتضى ما رضي عنهم، ويسَّر لهم الامتثال بما أمرهم ونهاهم.

هذا آخر القصص السبع المذكور لتسلية رسول الله ﷺ من أن المكذبين للرسل مأخوذون بأنواع العذاب، مستهلكون بأصناف النكال، إنما ذَكَر

وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً ....

سبحانه؛ ليعتبر منها المعتبرون من المؤمنين، ويتفطن المكذبون ما سيلحقهم من العذاب لو أصروا على ما هم عليه من التكذيب.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي القرآن ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾﴾ كالكتب السالفة.

﴿نَزَلَ بِهِ﴾ بالتخفيف ﴿ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ كما نَزَلَ سائر الكتب، وهو جبرائيل عليه السلام ـ سُمِّي به لأمانته على الوحي الإلهي بأن أوصله إلى من أنزل إليه بلا تغييرٍ وتبديلٍ أصلاً ـ نزَّل به على قلبك يا أكمل الرسل لتكون أنت أيضاً كسائر الرسل من المنذِرين لتنذرَ أهل الغفلة والغرور من قومك، كما أَنذروا، لذلك أنزله سبحانه

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ ظاهر الدلالة وواضح الفحوى مناسباً بلغة من أُرسلت إليهم، ولو أنزله على لغة العجم كالكتب السالفة، لقالت العرب: ما نفهم معناه، ولا نعرف مقتضاه.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي إنزال القرآن عليك يا أكمل الرسل عربياً ﴿لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ أي مثبتاً مزبوراً في كتبهم مع نعتك أيضاً وحليتك وجميع أوصافك.

﴿أَ﴾ تنكرون صدق القرآن وصحة نزوله من عند الله على محمد ﷺ ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ﴾ ولم تثبت عندهم ﴿ءَايَةً﴾ تدل على صدقه وحقيته وصحة

أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ....

نزوله من عند الله وهي ﴿أَن﴾ أي أنه ﴿يَعْلَمَهُۥ﴾ ويعرفه ﴿عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ وأحبارهم، يخبرون به، ويقرؤون في كتبهم اسمه، واسم من أُنزل إليه ونعته وحليته.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ﴾ أي القرآن ﴿عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾﴾

﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم﴾ بلسانهم وعلى لغتهم ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ حينئذٍ معلِّلين بأنا لا نفهم معناه، ولا نعرف فحواه، فكيف عملنا به، وامتثلنا بما فيه.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ما قررنا القرآنَ وأدخلناه في قلوب المؤمنين ﴿سَلَكْنَٰهُ﴾ وأدخلناه أيضاً ﴿فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾﴾ إلا أن المؤمنين آمنوا به وامتثلوا بما فيه لصفاء طينتهم، والمجرمون:

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ عناداً ومكابرة لخبث طينتهم ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾﴾ المؤلم الملجيء لهم إلى الإيمان في وقتٍ لا ينفعهم إيمانهم

﴿فَيَأْتِيَهُم﴾ العذاب الموعودُ لهم حينئذٍ من قِبل الحق ﴿بَغْتَةً﴾ بلا تقديم مقدمةٍ وسبق مادةٍ ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ نزوله ﴿فَيَقُولُواْ﴾ بعدما نزل عليهم ووقعوا فيه متحسرين متمنين:

﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ ممهَلون زماناً، حتى نتدارك ما فوتنا على نفوسنا

أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ

من الإيمان بالله وتصديق كتبه ورسله.

قيل لهم حينئذٍ من قبل الحق:

﴿أَ﴾ تستمهلون وتستنظرون أيها المصرون المسرفون ﴿فَبِعَذَابِنَا﴾ هذا ﴿يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ فيما مضى مستهزئين متهكمين قائلين لرسلنا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [٧-الأعراف:٧٧،٧٠ و ١١-هود:٣٢ و ٤٦-الأحقاف:٢٢] الآية و﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً﴾ [٨-الأنفال:٣٢] الآية و﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [٢٦-الشعراء:١٨٧] الآية، وأمثال ذلك، وحين نزل عليكم العذاب الموعود تستنظرون.

﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ وعلمتَ أيها الرائي الخبير ﴿إِن﴾ أمهلناهم في الدنيا زماناً طويلاً، بأن ﴿مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ فيها تمتيعاً بليغاً، ورفَّهناهم ترفيهاً بديعاً.

﴿ثُمَّ جَآءَهُم﴾ ونزل عليهم بعد زمان طويل ﴿مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾ من العذاب.

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ أي لم يدفع طول مكثهم فيها شيئاً من العذاب ولم يخفف عذابهم ﴿مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ أي تمتيعهم زماناً طويلاً، فإذاً لا فرق بين إمهالهم، وبين تعجيل العذاب عليهم.

﴿وَ﴾ من سنتنا المستمرة وعادتنا القديمة ﴿مَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ من

إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ ....

القرى القديمة الهالكة ﴿إِلَّا﴾ أرسلنا أولاً ﴿لَهَا﴾ أنبياءَ ورسلاً هم ﴿مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾﴾ مخوِّفون عما هم عليه من الأمور المستجلبة للعذاب، المستوجبة له.

وإنما أرسلنا إليهم وأنذرناهم عما أنذرناهم أولاً ليكون:

﴿ذِكْرَىٰ﴾ أي تذكرةً وعظةً منا إياهم، حتى لا ينسبوننا[1] إلى الظلم، ولا يجادلوا معنا وقت حلول العذاب ﴿وَ﴾ ظهر عندهم أنا ﴿مَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾ بتعذيبهم بأنواع العذاب.

﴿وَ﴾ بعدما نسب المشركون المكابرون تنزيل القرآن المعجز إلى الشياطين، وطعنوا فيه بأنه من جملة ما تلقي الشياطين إلى الكهنة، رد الله عليهم بقوله: ﴿مَا تَنَزَّلَتْ بِهِ﴾ أي بالقرآن الفرقان المعجزِ لفظاً ومعنىَ المبنيِّ على الهداية المحصنة ﴿ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾﴾ الضالون المضلون، إذ لا يتأتي منهم الهداية أصلاً.

﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ﴾ الإتيان بالهداية والرشاد ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾﴾ ويقدرون عليها، إذ الهداية إنما هي من طيب النفس وطهارة الفطرة، وأما استماعهم وسماعهم من الملائكة أيضاً لا يتأتى منهم، ولا يمكنهم.

﴿إِنَّهُمْ﴾ من رداءة فطرتهم وخباثة جبلتهم ﴿عَنِ ٱلسَّمْعِ﴾ لكلام الملائكة ﴿لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ لأن الاستماع منهم مشروطٌ بالمناسب، لهم في التجرد عن العلائق، وصفاء الفطرة عن أكدار الطبيعة، وقبول الفيض عند هبوب

(١) في المخطوط (حتى لا يتنسبونا).

فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ ....

نسمات النفسات الرحمانية، والتعرض والاشتياق منها على الدوام.

وظاهرٌ أن نفوسهم الخبيثة ليست بهذه المثابة، والقرآنُ والفرقانُ محتوٍ على حقائقَ ومعارفَ ومكاشفاتٍ ومشاهداتٍ لا يمكن صدورها إلا ممن هو منبعُ جميع الكمالات، ومنشأُ عموم الخيرات، والمطلعُ بجميع السرائر والخفيات، والقادرُ المقتدر على جميع المرادات والمقدورات، فكيف يليق بكمال القرآن أن يُنسبَ إلى الشيطان، تعالى[1] شأن القرآن عما يَنسب الظالمون علواً كبيراً.

ثم أشار سبحانه إلى تحريك سلسلة أشواق المحبين وتهييج إخلاص الموحدين المخلصين المنقطعين نحو الحق، الساعين بإفناء هويتهم الباطلة في طريق توحيده، الباذلين مُهجهم في مسلك الفناء ؛ ليفوزوا بشرف اللقاء والبقاء.

فقال مخاطباً لحبيبه ﷺ، ناهياً له عن التوجه والالتفات نحو الغير مطلقاً:

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ ﴾ الأحدِ الفردِ الصمدِ المستقلِّ بالألوهية والربوبية ﴿ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ من مظاهره ومصنوعاته، إذ الكل في حيطة أوصافه وأسمائه، لا وجود لها لذاتها، بل إنما هي عكوسٌ وأظلالٌ للاسماء والصفات الإلهية ﴿فَتَكُونَ﴾ أنت بجمعيتك وكمالك لو دعوتَ واتخذت إلهاً أخرَ صرت ﴿مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾ بأنواع التعذيبات الصورية والمعنوية والعقلية والحسية الجسمانية والروحانية.

---

(١) في المخطوط (تعال).

وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾

إنما خاطب سبحانه حبيبه ﷺ بهذا الخطاب الهائل، عاتبه بهذا العتاب الهائب؛ ليتنبه المؤمنون، ويتفطنوا بكمال غِيرة الله المتفردِ المتوحدِ القهارِ للأغيار مطلقاً.

﴿وَ﴾ بعدما ظهر عندك يا أكمل الرسل غوائل الشرك، ولاح دونك ما يترتب عليه من القهر الإلهي وغضبه ﴿أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ﴾ أي قرابتك سيما ﴿ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ منهم، واهتم بشأنهم أشد اهتمام، حتى تنقذهم من الشرك المستجلب لأنواع العذاب والغضب من قِبل الحق.

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ وآمن لك منهم أي ليِّن جانبك نحوهم، وابسط مؤانستك معهم ومصاحبتك معهم إياهم حتى صار كلهم ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ الموحِّدين الناجين من عذاب الله وسخطه.

﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ بعد ما قد لِنت لهم، وأنست[1] معهم، ولم يقبلوا منك دعوتك وإنذارك ﴿فَقُلْ﴾ متبرئاً منهم مستنزهاً نفسك عن أعمالهم: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ أي منكم ومن عملكم الذين تعملونه مصرين مستكبرين.

﴿وَ﴾ إن عادوك وعاندوا معك إلى أن قصدوا مقتك ﴿تَوَكَّلْ﴾ في دفعهم وكفاية مؤنتهم ﴿عَلَى ٱلْعَزِيزِ﴾ الغالب لقهر الأعداء الغالب على غضبهم وانتقامهم بأنواع البلاء ﴿ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾ على الأولياء، ينصرهم على أعدائهم، ويدفع عنهم شرورهم.

(١) في المخطوط (لينت لهم، ونست).

ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ ....

وكيف لا يرحمك يا أكمل الرسل، ولا يكفيك مؤونة أعدائك

﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ﴾ أي القيوم القادر الذي يشاهدك ﴿حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾﴾ من منامك خلال الليل طلباً لمرضاته ورفعاً لحاجاتك نحوه.

﴿وَ﴾ يشاهد أيضاً ﴿تَقَلُّبَكَ﴾ وترددك جوف الليل في تفقد أحوال المؤمنين ﴿فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ المتذللين نحو الحق، واضعين جباههم على تراب المذلة والانكسار، شوقاً إليه، وتحنناً نحوه من إفراط المودة، واشتعال نار العشق والمحبة الإلهية المطفية لنيران الأهوية الفاسدة والآراء الباطلة.

وكيف لا يتذللون إليه ولا يتحننون نحوه

﴿إِنَّهُۥ﴾ بذاته ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لمناجاتهم وعرض حاجاتهم ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾ بمقاصدهم وأغراضهم، وخلوص نياتهم، وإخلاصهم في أعمالهم.

وبعدما رد سبحانه قولَ من قال: أن القرآن منزلٌ من قِبل الشياطين لا من الملائكة، وأثبت أن إنزاله منه سبحانه وإيصاله من الروح الأمين على الرسول الأمين، إذ المناسبة بينهما مرعيةٌ، والمشاكلة مثبتةٌ.

أراد أن يشير سبحانه إلى أن تنزيل الشياطين وتسويلاتهم، إنما هو لأوليائهم الذين كملتْ نسبتهم إليهم، وصحت مناسبتهم معهم، فقال:

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ وأخبركم أيها المسرفون المترددون في أمر القرآن وإعجازه وإنزاله من قبل الحق، القادحون فيه بنسبته إلى تنزيل الشيطان،

عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ ....

أو إلى الشعر الذي هو من جملة وساوسه وتخيلاته، مع أنه مشتملٌ على معارفَ وحقائقَ ورموزاتٍ وشهوداتٍ لا يسع الإتيان بها والتعبير عنها إلا لمن هو علام الغيوب، مطلعٌ على سرائر أرباب الكشف والشهود، أُخبركم ﴿عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾﴾ للإضلال والوسوسة والتحريف عن طريق الحق والتغرير بالأباطيل ؟.

﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ﴾ مبالغٍ في الإفك والافتراء ﴿أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ مغمورٍ في الإثم والعصيان وأنواع الفسوق والطغيان، ليتحقق مناسبته مع الشياطين الذين.

﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ للملائكة ويصغون منهم بعض المغيبات لا على وجهها، غرضُهم من الإصغاء الإفسادُ والردُّ لا الإصلاح والقبول ﴿وَ﴾ لذلك ﴿أَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾ فيما يسمعون ويلقون، إذ هم يحرِّفونه ويزيّفون، ترويجاً لما هم عليه من الفساد والإفساد وتغريراً لأوليائهم بأنواع التغريرات.

﴿وَ﴾ من جملة أولياء الشياطين المنتسبون إليهم بالنسبة الكاملة الكاذبة ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ﴾ المذبذبون بين الأنام بأكاذيب الكلام وأباطيله لذلك ﴿يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾ الضالون من جنود الشياطين، المستتبعون لهم ؛ لترويج أباطيلهم الزائفة.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ﴾ ومن تابعهم من الغواة ﴿فِي كُلِّ وَادٍ﴾ من أودية الضلال

يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ ....

والطغيان ﴿يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾﴾ يترددون حيارى تائهين، بلا ثباتٍ ولا قرارٍ، مترددين في معاشهم ومعادهم.

﴿وَأَنَّهُمْ﴾ من غاية غفلتهم وسكرتهم في أمور معاشهم ﴿يَقُولُونَ﴾ بأفواههم ويخبرون بألسنتهم تلقفاً ﴿مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ من الأخلاق والحكم والمواعظ والرموز والإشارات التي تصدر عنهم هفوةً، وهم لا يمتثلون بها أصلاً.

﴿إِلَّا﴾ الشعراء ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بتوحيد الله واتصفوا بالحكمة المعتدلة المودعة في قلوبهم، الظاهر أثرها من ألسنتهم، ومضوا على مقتضى الاعتدال المعنوي الذي جبلهم الحق عليه، بلا تلعثمٍ منهم، وتزلزلٍ عن مقتضى فطرتهم ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿عَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من الأعمال المصلِحة لمفاسدهم، المهذِّبة لأخلاقهم وأطوارهم ﴿وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ المستويَ على صراط العدالة والإستقامة في أشعارهم وقصائدهم ﴿كَثِيرًا﴾ في عموم أوقاتهم وحالاتهم، بل أكثر أشعارهم إنما هي لإثبات توحيد الحق ومعارفه وحقائقه ورموز أرباب الكشف والعرفان والتذكيرات المتعلقة بترك المألوفات وقطع التعلقات المنافية لصفاء مشرب التوحيد، وبعض أشعارهم متعلقٌ بردع أهل الأهواء والآراء وهتك محارمهم وأعراضهم وتعداد مقابحهم ورذائلهم، ﴿وَ﴾ ذلك بأنهم ﴿انتَصَرُوا﴾ بأشعارهم هذه

مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

﴿ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ ﴾ من أيدي الجهلة وألسنة الكفرة المتعنتين المستكبرين على أرباب المحبة والولاء من المنقطعين نحو الحق، السالكين في سبيل توحيده ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿سَيَعۡلَمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ على أهل الحق، وآذوهم بالسنان واللسان، وأنواع القدح والطغيان، ونسبوهم إلى الإلحاد والفساد، ورمَوهم بأنواع الفسوق والفساد، مع أنهم على صرافة التوحيد متمكنون، ومن أمارات الكثرة والتقليد متنزهون، وسيعلم أولئك الرامون المفرطون المسرفون ﴿ أَيَّ مُنقَلَبٖ ﴾ أي مرجعٍ ومآب ﴿ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ ويرجعون، أيدخلون إلى حضرة النيران والخذلان منكوسين، أم إلى روضة الرضاء مسرورين ؟.

ألا أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

خاتمة السورة

عليك أيها السالك المراقب لاعتدال الأطوار والأخلاق والأعمال وجميع الشؤون والأحوال المتعلقة بنشأتي الدنيا والعقبى: أن تراجع ذوقك ووجدانك في جميع ما جرى عليك من الأحوال، وتتأمل فيها حق التأمل إلى أن تطلع بمبدئه ومنشئه، ثم تتفكر في صدوره، هل هو على مقتضى الاعتدال والقسط الإلهي، أم على مقتضى الهوى الغالب الذي هو من جنود الأمّارة المستمدة من إغواء[1] الشيطان وإغرائه ؟!

فإن وجدتَه على مقتضى القسط الإلهي والعدل الجِبِلِّي، فطوبى لك.

---

(١) في المخطوط (من أعداء).

وإن وجدته على مقتضى الهوى، فعليك أن تعالجها وتلازم في إصلاحها واستقامتها بالرياضات القالعة لعرق الأماني، والمرادات المتعلقة بمستلذات الدنيا الفانية، وتواظبَ على أشق الطاعات وأتعب العبادات من صيام الأيام، ومشي الأقدام، وانقطاع صحبة الأنام، والاعتزال بين الجبال والآجام، والعكوف في الخلوات، والاشتغال بالميل، والصلوات المقربة نحو الحق حتى تعتدل أوصافك وأخلاقك، وتستقيم أفعالك وأحوالك، فحينئذ انكشف لك باب التوحيد، وانغلق عليك مداخل الرياء والسمعة والعجب وأنواع الكدورات اللاحقة من الخلطة والمؤانسة مع الناس والمصاحبة معهم، المكدرةِ لصفاء شرب التوحيد.

وأعلم يا أخي أن أرباب المحبة الكاملة والولاء التام، هم الذين يبذلون مهجهم في سلوك سبيل الفناء بلا التفاتٍ منهم إلى أحدٍ من الناس، لا خيراً ولا شراً، ولا نفعاً ولا ضراً، بل هم من كمال حيرتهم واستغراقهم في مطالعة جمال الله وجلاله لا يلتفتون إلى نفوسهم، فكيف إلى غيرهم.

ولا يتيسر لك هذا إلا بتوفيقٍ إلهيٍ وجذبٍ من جانبه، وبمتابعة حبيبه ﷺ في أطواره وأخلاقه وجميع سننه وآثاره، وبملازمة خدمة مرشدٍ كاملٍ منبهٍ نبيهٍ، يوقظك من منام غفلتك، ويرشدك إلى منتهى مقصدك وقبلتك.

رب هب لي من لدنك حكمة وحُكماً وألحقني بالصالحين.

تم الجزء الثاني من تفسير القرآن الشريف لحضرة سلطان الأولياء على الإطلاق سيدي وسندي وملاذي السيد الشيخ أبي محمد عبد القادر الجيلاني الشهير الذي ارتفع قدره وسما ذكره رضي الله عنه وأرضاه.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة النمل

لا يخفى على أرباب الهداية الكاملة من الراسخين في مقر العز والتمكين الواصلين إلى سر الوحدة الذاتية بمقتضى اليقين الحقي، مندرجين من مرتبتي العلم والعين إلهاماً، بعدما سبقت لهم العناية الأزلية والجذبة الإلهية والبشارة المتضمنة لأنواع الرموز والإشارة من قبل الحق الحقيق بالحقيقة، أن من اهتدى إلى التوحيد الذاتي وتمكن على تلك المرتبة بلا طريان تزلزلٍ وتلوينٍ، لابد أن يقيم ويديم صلواته وميله نحو الذات الأحدية مهذِّبا ظاهره وباطنه عن الميل والالتفات إلى ما سواه من المزخرفات الفانية الملهية عن الفناء فيه والبقاء ببقائه، وأيضاً لا بد له أن يميت نفسه بالموت الإرادي عن مقتضيات أوصافه البشرية وقواه الناسوتية المبعدة عن التقرب لكنف اللاهوت وجوار حضرة الرحموت الذي لا ينام ولا يموت.

وبالجملة لا بد له الإنخلاع عن خلع التعيّنات العدمية المقتضية بالتعدد والكثرة مطلقاً حتى يتصف بالطهارة الحقيقية والطيب المعنوي والسعادة السَّنية والسيادة السرمدية وبذلك خاطب سبحانه حبيبه ﷺ بعد ما تيمن باسمه العلي الأعلى:

طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ....

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ﴾ الذي تجلى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا على ما ظهر وبطن من الأشياء ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾ لعموم عباده بالرزق الأوفى ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ لخواصهم بالمثوبة العظمى والدرجة العليا والترقي من أرض الطبيعة إلى سموات الصفات والأسماء واللحوق بالملأ الأعلى والوصول إلى سدرة المنتهى.

﴿طسٓۚ ﴾ يا طالب السيادة السرمدية والسعادة السَّنية الأزلية الأبدية ﴿تِلۡكَ ﴾ الأيات المتلوّة عليك تعظيماً لشأنك وتتميماً لبرهانك ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ ﴾ أي بعض آيات القرآن المبين المبيِّن لدلائل التوحيد وبينات الفرقان والفارق بين الباطل والحق من الأحكام ﴿وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ﴿١﴾﴾ من منتخب لوح القضاء وحضرة العلم الإلهي المحيط بجميع ما لمع عليه برق تجلياته الحبيبة، إنما أُنزلت إليك يا أكمل الرسل من عنده سبحانه لتكون:

﴿ هُدٗى ﴾ هادياً لك إلى مقام تمكنك من التوحيد الذاتي ﴿وَ﴾ لتكون ﴿بُشۡرَىٰ﴾ بأنواع السعادات ونيل أصناف الخيرات والبركات ورفع الدرجات وأنواع المثوبات ﴿ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ التابعين لك في شأنك ودينك، إن اطمأن قلوبهم بالإيمان أي اليقين العلمي المستجلب لليقين العيني والحقيّ، والمطمئنون.

هم ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ المكتوبة المفروضة لهم من قِبل الحق في

وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ ....

الأوقات المخصوصة[1]، ويؤدونها على الوجه الذي وصل إليه من صاحب الشرع الشريف، بلا تخفيف ولا تسريف؛ ليتقربوا بها نحو الحق، وزاد يقينهم وتصديقهم بسببها ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المصفية لقلوبهم عن الميل إلى ما سوى الحق من الزخرفة الفانية؛ ليتمرنوا بسببها على إسقاط الإضافات العائقة عن الوصول إلى وحدة الذات، ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿هُمْ﴾ في جميع شؤونهم وحالاتهم ﴿بِٱلْآخِرَةِ﴾ المعدة لجزاء الأعمال وتنقيد الأفعال ﴿هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾﴾ علماً وعيناً؛ لأن أرباب الخبرة والبصائر المنكشفين بتعاقب النشأتين يرون في النشاة الأولى ما سيلحقهم في الأخرى، لذلك يترددون في الأولى للأخرى، ويزرعون فيها ما يحصدون فيها.

ثم قال سبحانه عل مقتضى سنته المستمرة في كتابه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ولا يصدقون ﴿بِٱلْآخِرَةِ﴾ عناداً ومكابرة ﴿زَيَّنَّا﴾ وحسّنا ﴿لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ القبيحة الفاسدة الدنياوية، وأمهلنا لهم علينا زماناً ليستحقوا أشد العذاب وأسوأ العقاب ﴿فَهُمْ﴾ بواسطة إمهالنا إياهم في سكرتهم وغفلتهم ﴿يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾﴾ يتردّدون ويتحيرون بَطِرين بما لهم من الترفة والتنعم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الأشقياء البعداء عن عزّ الحضور هم ﴿ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ في النشأة الأولى ﴿وَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾﴾ المقصورون على

(١) في المخطوط (المحفوظة).

وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾..............

الخسران والخذلان، لا يُرجى لهم نيل مثوبة ورفعُ درجةٍ وتخفيفُ عذاب وقبولُ شفاعة، ولا خسرانَ أعظم من ذلك؛ لذلك أصاب يوم بدر ما أصاب، وسيصيب لهم في الآخرة بأضعافه وآلافه.

ثم قال سبحانه مخاطبا لحبيبه تفضلاً عليه وامتناناً له في إنزال القرآن إليه ووحيه عليه:

﴿ وَإِنَّكَ ﴾ يا أكمل الرسل لنجابة طينتك وطهارة فطرتك ﴿ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ ﴾ ويؤتى بك وينزل إليك ﴿ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ ﴾ مبالغ في الإحكام والإتقان ﴿ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ ﴾ باستعدادات الأنام وقابلياتهم التي بها تتفاوت طبقاتهم فضلاً وكرامةً.

ثم أخذ سبحانه بتعداد أرباب الطبقات والكرامات حثاً لحبيبه ﷺ بالتوجه نحوه والتحنن إليه والمواظبة على شكر نعمه، فبدأ بموسى صلوات الرحمن عليه وسلامه، فقال مخاطبا لحبيبه ﷺ: اذكر يا أكمل الرسل وقت:

﴿ إِذْ قَالَ ﴾ أخوك ﴿ مُوسَىٰ ﴾ الكليم صلوات الرحمن عليه ﴿ لِأَهْلِهِۦٓ ﴾ وزوجته ابنة شعيب عليه السلام حين سار معها من مدين إلى مصر، وهي حاملة والليلة شاتيةٌ مظلمةٌ، وهم ضالون عن الطريق فجاءها الطلق، واضطر موسى في أمرها، فرأى شعلة نار من بعيد، فقال لأهله اثبتوا مكانكم ﴿ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم ﴾ ذا الساعة ﴿ مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ من الطريق يخبر به من عندها، إذ النار قلما تخلو عن ناس موقدين لها ﴿ أَوْ ءَاتِيكُم ﴾ إن لم أجد عندها أحداً ﴿ بِشِهَابٍ ﴾ أي جمر ذي ﴿قَبَسٍ﴾ أي مقبوسة مشتعلة منها ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ وتستدفئون من

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾ ....

البرد وتستضيئون منها للطريق، فاستقِروا في مكانهم، فذهب موسى.

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا﴾ أي النار ووصل عندها ﴿نُودِيَ﴾ من وراء سرادقات العز والجلال تكريماً لموسى وتعظيماً له وتنبيهاً عليه من أن مرجع جميع مقاصدك وحوائجك هو الحق، فاطلبه حتى تجد عنده جميع مقاصدك ﴿أَنۢ بُورِكَ﴾ أي الشأن أنه أكثرَ عليك خيرك وبركاتك يا موسى ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ﴾ ظهر ﴿حَوۡلَهَا﴾ إذ هو محيطٌ بجميع الأماكن، ظاهرٌ منها، غير متمكنٍ فيها، أي من ظهر فيها ولاح عليها ﴿وَ﴾ بعد ما تحققتَ بشهود الحق مع جميع الأماكن والأشياء نزِّهه عن الحلول فيها والإتحاد بها فقل: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ المنزه عن الأماكن كلها، المتجلي في جميعها لكونه ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾﴾ يربيها بدوام التجلي وامتداد الأظلال والعكوس الفائضة منه سبحانه عليها.

ثم لما قلق موسى واستوحش عن هذا النداء وقرب إلى أن صار مغشياً عليه من شدة هوله ودهشته، وكمال ولهه وحيرته، نودي ثانيا باسمه استئناسا له وإزالة لاستيحاشه:

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ﴾ أي إن من ناداك في النار وظهر على صورتها ﴿أَنَا ٱللَّهُ﴾ المحيط بجميع المظاهر والأكوان إحاطة البحر للأمواج والأزباد، والشمس للأضواء والأظلال ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ الغالب القادر المقتدر لقهر السوى والأغيار ﴿ٱلۡحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾ المتقن في الأفعال والآثار الصادرة الظاهرة منّي على أبدع ارتباط وأبلغ انتظام.

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ ....﴾

﴿وَ﴾ بعد ما أزال وحشته وأذهب ولهه ودهشته بالمؤانسة والمواساة، قال له آمرا: ﴿أَلْقِ عَصَاكَ﴾ التي أخذتها بيدك على الأرض لترى من عجائب صنعتنا وغرائب حكمتنا ما ترى، حتى تتنبه من تبدل صورتها وسيرتها إلى سرّ سريان وحدتنا الذاتية في المظاهر كلها، فألقاها على الفور فإذا هي حية تسعى ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا﴾ موسى أي العصا ﴿تَهْتَزُّ﴾ وتتحرك ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ أي حيةٌ صغيرةٌ سريعة السير ﴿وَلَّىٰ﴾ وانصرف منها موسى ﴿مُدْبِرًا﴾ خائفاً هائباً قلقاً حائراً من أمرها ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي لم يرجع إليها ليأخذها هيبةً وخوفاً قلنا منادين ليقبل: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾ من عصاك وستعود إلى سيرتها الأصلية ﴿إِنِّي﴾ من كمال مرحمتي وإشفاقي على خُلّص عبادي ﴿لَا يَخَافُ لَدَيَّ﴾ أحدٌ من أوليائي سيما ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾﴾ منهم، المختارون للرسالة والتشريع العام.

﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ من المرسلين بارتكاب ذنبٍ صدر منه، لا عن عمد ﴿ثُمَّ بَدَّلَ﴾ وتدارك ذنبه ﴿حُسْنًا﴾ بالتوبة والندامة ﴿بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ صدر منه ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ﴾ لهم أغفر لهم وأعفو عن زلتهم ﴿رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾ أرحمهم وأقبل توبتهم بعد ما صدرت عن خلوص طويتهم.

﴿وَ﴾ بعد ما رأى موسى من عجائب العصا ما رأى قال له سبحانه ثانيا آمراً: ﴿أَدْخِل يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ يا موسى ﴿تَخْرُجْ﴾ في الفور منه، فأدْخِلها فيه، فأخرجها تَرها ﴿بَيْضَآءَ﴾ محيرةً للعقول والأبصار مع أن بياضها

مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا ....

﴿ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ مرضٍ عرض لها من برص وغيرها، ثم قيل له من قبل الحق: هي أي اليد البيضاء آيةٌ ومعجزةٌ جديدةٌ دالةٌ على نبوتك ورسالتك، موهوبةٌ لك من عندنا معدودةٌ ﴿ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ ﴾ عظامٍ لك وهي: العصا واليد البيضاء والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمسة والجذب، ثم بعد ما شهدتَ من يدك وعصاك ما شهدتَ يكفيك شهادتهما على صدقك في دعواك الرسالة، مع أن لك معجزات كثيرة سواهما، اذهب مرسلاً من عندي ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ﴾ وبلّغهم إنذاري وتخويفي ونزول عذابي عليهم من سوء صنيعهم ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ خارجين عن مقتضى الحدود الموضوعة فيهم من عندنا وبوضعنا.

فذهب موسى بإذن الله ووحيه إلى فرعون وأظهر الدعوة عنده وأقام البينة عليها.

﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ﴾ أي ظهرت على فرعون وقومه ﴿ ءَايَٰتُنَا ﴾ الدالة على كمال قدرتنا وحكمتنا، وصدقِ من أرسلنا إليهم لإرشادهم وتكميلهم مع كونها ﴿ مُبْصِرَةً ﴾ موضحة مبينة لهم صدقَ موسى في دعوى الرسالة، ظاهرةً لائحة في نفسها أنها معجزة ما هي من جنس السحر والشعبذة ﴿ قَالُوٓا۟ ﴾ من فرط عتوهم وعنادهم: ﴿ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ﴾ ظاهرٌ، إنه مجعول بمكر وحِيَل.

﴿ وَ ﴾ من كمال استنكافهم واستكبارهم ﴿ جَحَدُوا۟ بِهَا ﴾ وأنكروا لها ولم

وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ........................

يلتفتوا إليها ظاهرا ﴿وَ﴾ الحال أنها قد ﴿اسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ أنها معجزة خارقة للعادة[1] صدرت عن أمرٍ إلهي لا عن مكرٍ وخديعة، فظلموا أنفسهم بتكذيب ما تستقر في أنفسهم صدقاً وكونه معجزة ﴿ظُلْمًا﴾ صريحاً وعدواناً عن الحق وميلاً إلى الباطل حسداً وعناداً ﴿وَ﴾ استكبروا على موسى وأنكروا جميع ما جاء به من عند ربه ﴿عُلُوًّا﴾ وعتوا ﴿فَٱنظُرْ﴾ أيها المعتبر الناظر ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ المستكبرين الذي يكذبون ما يعلمون يقيناً حقيته في نفوسهم، وينسبونه بأفواههم إلى السحر والشعبذة عناداً ومكابرةً، انظر عاقبتهم كيف غَرقوا واستؤصلوا إلى حيث لم يبق منهم أحدٌ يخلفهم ويحيي اسمهم.

﴿وَ﴾ من سعة جودنا وعموم فيضنا وفضلنا ﴿لَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾ وأعطينا ﴿دَاوُۥدَ﴾ ﴿وَ﴾ ابنه ﴿سُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾ متعلقاً بالحِكم والأحكام وعمومِ تدبيرات الأنام وضبط أحوالهم وأوضاعهم المتداولة بينهم من الإنصاف والانتصاف وإقامة الحدود وسد الثغور وغيرها من الأمور المتعلقة بضبط المملكة ﴿وَقَالَا﴾ بعدما أرادا أن يشكرا الله ويؤديا حقوق نعمه الجليلة ومنحه الفائضة الجزيلة ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ والمنّة والثناء التام الناشئ من عموم الألسنة وجميع الجوارح الممنونة من نعمه المغمورة بموائد لطفه وكرمه ﴿لِلَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد

---

(١) في المخطوط (للحاجة).

ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ ....

المستحق لعموم المحامد والأثنية الصادرة من ذرائر الأكوان طوعاً ﴿ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ له، الموحدين بذاته، المصدقين لأنبيائه ورسله وكتبه، وخصصنا من بينهم بمزيد الكرامة المتعلقة برئاسة الدارين وسيادة النشأتين وحكومة الثقلين والحكمة المتقنة المتعلقة بمرتبتي الناسوت واللاهوت وحضرة الرحموت والجبروت.

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ يعني بعد ما انقرض داوود، استخلف عنه سليمان عليه السلام، وورث من نبوته وحكمته وحكومته وسخر له جميع ما سخر لداوود مع زيادات خلا عنه أبوه عليه السلام، وهو تسخير الجن والريح ومنطق الطير فإنها ما تيسر لأبيه ﴿وَ﴾ بعد ما تمكن سليمان عليه السلام على مقر الحكومة والنبوة ﴿قَالَ﴾ يوما للملأ الجالسين حوله تنويهاً وتشهيراً لنعم الله على نفسه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا﴾ بلسان الوحي وترجمانه ﴿مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا﴾ من فضل الله علينا ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي كثيرٍ من الأشياء ما لم يؤت مثله أحدٌ من العالمين ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الإعطاء والتخصيص والتفضل ﴿لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ الظاهر اللائح فضله على كل أحدٍ، والملك العظيم الذي لم يؤت أحد من الأنبياء.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل يوم ﴿حُشِرَ﴾ وجمع ﴿لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾ وكان معسكره مسيرة مائة فرسخ خمسة وعشرون للإنس،

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٧ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ ....﴾

وخمسة وعشرون للجن، وخمسة وعشرون للطير، وخمسة وعشرون للوحش تمشي كل طائفة منهم مع بني نوعه صافِّين مستوين، وإن تسابق بعضهم على بعض ﴿ فَهُمْ ﴾ حينئذ ﴿ يُوزَعُونَ ۝١٧ ﴾ ويحبسون حتى يتلاحقوا ويتساوى صفوفهم.

وكان سليمان عليه السلام يأمر الريح فترفعه فوق رؤوسهم مشرفاً عليهم، فتسير معه رخاءً.

ومن كمال فضل الله عليه أنه ما تكلم أحدٌ منهم بكلامٍ إلا حملته الريح وألقته في سمعه، فبينا هو يسير مع عسكره هكذا، رآه وجنده حراث، فقال مستغربا: والله لقد أوتي آل داوود ملكاً عظيماً، فمشى سليمان عليه السلام إليه، فقال له: إنما مشيت إليك لأوصيك أن لا تتمنى ما لا تقدر عليه، ثم قال: والله لتسبيحة واحدة يتقبلها الله خيرٌ مما أوتي آل داوود.

وكان عليه السلام مع جنوده على الوجه الذي ذكر.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ هو وادٍ بالشام كثير النمل، لذلك سميت به ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ ﴾ بعد ما رأت سواد العسكر، وأشعرت بعبورهم على الوادي منادية لإخوانها صائحةً عليهم صارخةً: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ﴾ الضعيف النحيف ﴿ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ﴾ مسرعين متحرزين، ولا تقفوا في الصحراء حتى ﴿ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ ولا يطأنكم ﴿سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ بحوافر خيولهم ﴿وَهُمْ﴾

لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ....

وإن كانوا من أرباب البرِّ والتقوى، محترزين عن أمثال هذا الظلم الصريح إلا أنهم ﴿لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾ بكم لصغركم وحقارتكم فيطؤونكم بلا شعور وإدراك.

وبعد ما سمع سليمان عليه السلام من النملة ما سمع

﴿فَتَبَسَّمَ﴾ تبسماً ظاهرا إلى أن صار ﴿ضَاحِكًا﴾ متعجبا ﴿مِّن قَوْلِهَا﴾ المشتمل على أنواع التدابير والخيرات من حسن المعاشرة مع الجيران، وآداب المصاحبة مع الإخوان، والتحذير عن مظان المهالك والمتالف قبل الوقوع فيها وغير ذلك ﴿وَ﴾ بعد ما اطلع سليمان على قولها وغرضها، توجه نحو الحق عاداً على نفسه جلائل نعم الله وآلائه حيث ﴿قَالَ﴾ حينئذ مناجيا إليه سبحانه: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني بأنواع الخيرات والكرامات التي ما أعطاها أحداً من خلقه ﴿أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ ووفّقني على أن أؤدي حقوقها على الوجه الذي ينبغي ويليق بشأنك وشأنها، ولا يتأتى مني هذا إلا بتوفيقك وتيسيرك، وفِّقني على إتمامها وتكميلها ﴿وَ﴾ يسِّر عليَّ ﴿أَنْ أَعْمَلَ﴾ في مدة حياتي عملاً ﴿صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ أي مقبولاً عندك مرضياً لك ﴿وَ﴾ بعد ما توفيتني ﴿أَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ﴾ وسعة فضلك وجودك ﴿فِي﴾ زمرة ﴿عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ المرضيين عندك، المقبولين دونك، وعِدني من عدادهم، واحشرني من زمرتهم، إنك على ما تشاء قدير، وبرجاء

وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ....

المؤمّلين جدير.

ثم لما سار سليمان صلوات الرحمن عليه وسلامه في بعض أسفاره، وكان الهدهد دائما رائده وبريد عسكره ودليلهم يدلهم على الماء عند الاحتياج، إذ هو عالم به إلى حيث تعرفه تحت الأرض وتعين موضعه، وكان يأمر سليمان عفاريت الجن ليحفروها ويخرجوا منها الماء لدى الحاجة، فاحتاج سليمان عليه السلام يوماً من الأيام إلى الماء، ولم يكن الهدهد حاضرا عنده فغضب عليه

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ ﴾ وتعرفه مفصلاً حتى يجده بينهم فلم يوجد ﴿ فَقَالَ ﴾ مغاضبا عليه ﴿مَا لِيَ﴾ أيْ أيُّ شيءٍ عرض عليّ حتى صرت ﴿ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ ﴾ بين الطيور أهو حاضرٌ عندي مستور عليّ فلم أره ﴿ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾﴾ المتخلفين عن خدمتي ورفاقتي، فو الله لو وجدته

﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ إلى حيث آمر بنتف ريشه وحبسه في حر الشمس مع ضده في محبس ضيق ﴿ أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ حدّاً ليعتبر منه سائر الخَدمة ﴿ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي ﴾ وليقيمن على الإثبات عذره ﴿ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾ حجةٍ واضحةٍ ظاهرةِ الدلالة، مقبولة من ذوي الأعذار عند أولي الأبصار والاعتبار.

﴿ فَمَكَثَ ﴾ الهدهد بعد تفقد سليمان وتهديده زماناً ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ مديدٍ

فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ....

متطاولٍ، ثم حضر عنده بلا تراخٍ طويل ﴿فَقَالَ﴾ معتذراً لغيبته ومكثه: إنما مكثت وغبتُ عن خدمتك لأني ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ أنت يا سيدي، يعني تعلق إدراكي بمعلومٍ لم يتعلق به قبلُ لا علمي ولا علمك ولا علم أحدٍ من جنودك ﴿وَ﴾ بعد وقوفي واطلاعي به ﴿جِئْتُكَ مِن﴾ بلاد قبيلة ﴿سَبَإٍ﴾ من نواحي المغرب وبمن ملك عليها ﴿بِنَبَإٍ﴾ وخبرٍ ﴿يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ مطابقٍ للواقع.

قال سليمان مبتهجا مزيلاً لغيظه وغضبه مستكشفاً عنه: وما الخبر؟ قال الهدهد:

﴿إِنِّى﴾ بعد ما وصلت إلى ديارهم بأقصر مدة ﴿وَجَدتُّ﴾ وصادفت ﴿ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ اسمها بلقيس بنت شراحيل من نسل يعرب بن قحطان وأمها جنية؛ لأنه ما كان يرى التزوج من الإنس، ولم يكن له ولدٌ غيرها، لذلك ورثت منه الملك فملكت ﴿وَ﴾ من كمال عظمتها وشوكتها ﴿أُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ نفائسه وعجائبه ما لا يُعد ولا يُحصى ﴿وَلَهَا﴾ من جملة البدائع ﴿عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ من جميع عروش أرباب الولاية والملك، قيل: كان ثمانين ذراعاً في ثمانين، وارتفاعه ثلاثين أو ثمانين أيضاً، وهو متخذ من الذهب والفضة، مكلّلٌ بالدرّ والزُمُرُّد والياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر، وكانت قوائمه من ياقوتٍ أحمر وأخضر، وزمرد وعليه سبعة بيوتات على كل بيت باب مغلق.

وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ....

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ﴾ ويعبدونها ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ المستحق للتذلل والعبادة ﴿وَ﴾ من غاية جهلهم بالله وغفلتهم عن كمال أوصافه وأسمائه الحسنى ﴿زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ هذه وعبادتهم للشمس ﴿فَصَدَّهُمْ﴾ وصّرفهم بتزيينه وتغريره ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ السوي الموصل إلى توحيد الحق الحقيقي بالعبودية والتذلل ﴿فَهُمْ﴾ بسبب تضليل الشيطان وتغريره ورسوخهم على ما زُين لهم ﴿لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ إلى التوحيد بمقتضى فطرتهم الأصلية وجبلتهم الحقيقية، فلا بد لهم من مرشدٍ كاملٍ وهادٍ مشفقٍ يهديهم إلى سواء السبيل، مع أنهم من زمرة العقلاء المميِّزين بين الهداية والضلالة، ولكنهم بانهماكهم في الغفلة والغرور، زيَّن لهم الشيطان عبادة الشمس التي هي من جملة مظاهر الحق، مقتصرين العبادة عليها؛ لقصور نظرهم ولو نبههم منبهٌ نبيهٌ على توحيد الله واستقلاله سبحانه في جميع مظاهره، لعل الله يوقظهم من منام الغفلة، بأن قال لهم منادياً إياهم:

﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟﴾ [السياق يدل على قراءته بـ ﴿أَلَا يَسْجُدُوا۟﴾ [٢٧-النمل:٢٥] وهي قراءة الكسائي وغيره] يعني تنبهوا أيها الفاقدون قبلة سجودكم وجهة معبودكم أيها القوم الضالون المنصرفون عن[1] المسجود الحقيقي والمعبود المعنوي، بل اسجدوا وتذللوا ﴿لِلَّهِ﴾ المتجلي في الأكوان، المنزَّهِ عن الحلول

(١) في المخطوط (نحو).

ﵟأَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ٢٥ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۩ ٢٦ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٢٧ﵞ ....

في الجهات والمكان، المقدسِ عن تتابع الساعات وتعاقب الأزمان، بل له شأن لا يشغله شأن، ولا يجري عليه زمان ومكان ﴿ٱلَّذِي يُخۡرِجُ﴾ بمقتضى علمه المحيط وقدرته الكاملة الشاملة ﴿ٱلۡخَبۡءَ﴾ أي الخفي المطوي المكنون ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي سموات الأسماء الألهية وأوصافه الذاتية الفاعلة وأرض الطبيعة القابلة لقبول الإنعكاس من الأسماء والأوصاف ﴿وَيَعۡلَمُ﴾ سبحانه بعلمه الحضوري ﴿مَا تُخۡفُونَ﴾ في سرائركم وضمائركم بل بخفياتكم التي لا اطلاع لكم عليها أصلاً بمقتضى قابلياتهم واستعداداتهم ﴿وَمَا تُعۡلِنُونَ ٢٥﴾ من أفعالهم وأحوالهم.

وكيف لا يُظهر المكنون من الأمور، ولا يعلم خفيات الصدور

﴿ٱللَّهُ﴾ الواحد الأحد الصمد الحي القيوم الذي ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ أي لا موجود في الوجود ﴿إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۩ ٢٦﴾ المحيطِ بجميع ما لمع عليه برق تجلياته المتشعشعة المتحددة المترتبة على أسمائه الذاتية الكاملة المستدعية للظهور والبروز بإظهار ما كمن من الكمالات المندمجة في الذات الأحدية إلى فضاء الوجود.

وبعد ما سمع سليمان عليه السلام منه ما سمع

﴿۞ قَالَ﴾ ممهلاً عليه ﴿سَنَنظُرُ﴾ ونصبر إلى أن يظهر ﴿أَصَدَقۡتَ﴾ فيما أخبرت به ﴿أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٢٧﴾ المزورين، زورتَ هذا

ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ ....

لتخْلص من العذاب.

ثم أراد سليمان صلوات الرحمن عليه وسلامه أن يرسل رسولاً إلى بلقيس فكتب كتاباً هكذا: «بسم الله الرحمن الرحيم، السلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فلا تعلوا علي وأتوني مسلمين» ثم طبعه بالمسك وختمه بخاتمه، ثم قال للهدهد:

﴿ ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ﴾ بحيث لم يتفطنوا بك وبأمرك ﴿ ثُمَّ تَوَلَّ﴾ وانصرف ﴿عَنۡهُمۡ﴾ وكن متوارياً في قربهم ﴿ فَٱنظُرۡ﴾ وتأمل ﴿ مَاذَا يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ أي ماذا يرجع ويردُّ بعضهم بعضاً من الكلام في المشاورة والمكالمة، فأخذ الهدهد الكتاب، وأتى بلقيس وهي نائمة في قصرها، فألقاه على نحرها، فلما استيقظت، رأت الخاتم في نحرها، فرعدت وخضعت خوفاً ثم جلست مع أشراف قومها وتشاورت معهم في أمر الكتاب.

حيث ﴿ قَالَتۡ﴾ مناديةً مستفتيةً منهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ﴾ اليوم ﴿ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ وصفتْه بالكرامة؛ لأنها نائمة في قصرها والأبواب مغلقة عليها، فرأت في صدرها هذا بلا إحضار محضر كأنهم.

قالوا ممن؟ وما مضمونه؟؟ قالت:

﴿ إِنَّهُۥ﴾ أي الكتاب مرسلٌ ﴿مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ﴾ أي مضمونه ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾

أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ

﴿أَلَّا تَعْلُوا﴾ أي عليكم ألا ترفعوا ولا تتكبروا ﴿عَلَيَّ﴾ ولا تبالوا ببسطكم وشوكتكم ﴿وَ﴾ لا يليق بشأنكم الإتيان على وجه الخضوع بلا كبرٍ وخيلاء، وإذا انحصر أمركم على الإتيان ﴿أْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ منقادين لأمر الله مطيعين لحكمه وحكم رسوله بلا ممانعةٍ وإباء.

ثم لما قرأت مضمون الكتاب عليهم وشرحت لهم فحواه

﴿قَالَتْ﴾ خائفةً مضطربةً مناديةً لهم ثانياً تأكيدا للتأمل والتدبر في هذا الأمر الهائل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي﴾ أي أجيبوا علي وأشيروا إلي ﴿فِي أَمْرِي﴾ هذا واختاروا ما هو الأحوط، واستفتوا طريقاً ورأياً، أختار ذلك قطعاً وآمر بها حكماً إذ ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا﴾ أمضي عليه وأجزم به ﴿حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾ له وتستصوبونه، بل الأمر مفوضٌ إليكم، فاستصوبوا ما أقر رأيكم عليه حتى أمضي على مقتضاه.

وبعدما فوضت أمرها إليهم استعطافاً واستظهاراً

﴿قَالُوا﴾ مستعلين مستكبرين على مقتضى أصحاب القدرة والقوة وأرباب الجاه والثروة: ﴿نَحْنُ﴾ قوم ﴿أُولُو قُوَّةٍ﴾ وقدرةٍ تامةٍ عَدداً وعُدداً ﴿وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قد انتشر صِيتنا في الأفاق بالشدة والشجاعة وأنواع الجراءة والاستيلاء والصولة على الأعداء، فنحن هكذا ولا خوف لنا منهم ﴿وَالْأَمْرُ﴾ بعد ذلك

إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ ....

﴿إِلَيْكِ﴾ ونحن عبيدك ﴿فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ من القتال والصلح، نعمل على وفق ما أمرتنا به

﴿قَالَتْ﴾ في جوابهم بعد ما تأملت وتعمقت في أمرها ورأيها: نعم إن لنا كثرة وشجاعة منتشرة في أقطار الأرض بأسها وهيبتها، إلا أن الحرب خداع، والقتال سجالٌ لا تدرى عاقبتهما، ولا اعتماد على الكثرة والجراءة بعدما نفذ القضاء على الهزيمة، ومن المقدمات المسلّمة ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ﴾ وأرباب القدرة والاستيلاء ﴿إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً﴾ عنوةً وقهراً ﴿أَفْسَدُوهَا﴾ بأن غيروا لها أوضاعها ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ بالغلبة والاستيلاء ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾ هؤلاء لو دخلوا على بلادنا هذه.

﴿وَ﴾ ما يليق لنا اليوم ولا يصلح بحالنا مقارعة باب المقاتلة والمصالحة أيضاً بل ﴿إِنِّي مُرْسِلَةٌ﴾ رسلاً ﴿إِلَيْهِم﴾ أولاً مصحوبة ﴿بِهَدِيَّةٍ﴾ كثيرة لائقة بعظم شأنهم لأختبرهم ﴿فَنَاظِرَةٌ﴾ منتظرةٌ بعد ذلك ﴿بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي بأيّ شيء يرجعون من عندهم بعد تجسسهم من أحوالهم وأطوارهم ومعاشهم مع رسلنا حتى أعمل على ما يقتضى ما يرجعون.

هذا من كمال عقلها ورزانتها في تدبيرات المملكة وصيانتها آداب السلطنة والإمارة وضبط المملكة.

﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ﴾ ....

وروى أنها أرسلت منذر بن عمرو في وفدٍ، وأرسلت معه غلمان على زي الجواري وجواري على زي الغلمان وحقةً فيها درةٌ عذراء لا ثقب فيها، وجزعة معوجة الثقب، وقالت: إن كان نبيّاً بيّن الغلمان والجواري، وثقب الدرة ثقبا مستوياً، وسلك في الجزعة خيطاً، ومعها أموالٌ عظام من لبنات الذهب والفضة والعود والعنبر والكافور والمسك وأجناس الجواهر والنفائس من كل شيء، فلما وصلوا معسكره رأوا عظمةً ما شاهدوا مثلها ولا سمعوا من أحد.

﴿فَلَمَّا جَآءَ﴾ الرسل ﴿سُلَيۡمَٰنَ﴾ وحضروا عنده، نظر إليهم بوجه حسنٍ طلقٍ، وتكلم معهم ليناً حزيناً مخبراً عن أحوال ملكتهم ومملكتهم. ثم قال: ما أمركم ومصلحتكم، فأعطوا كتاب بلقيس فنظر فيه، فإذا هي فصّلت فيه جميع ممتحناتها، قال سليمان عليه السلام: أين الحقة؟ فجيء بها فقال: إن فيها درة ثمينة غير مثقوبة وجزعة معوجة الثقب، فأمر سليمان الأرضة فأخذت شعرة فدخلت في الدرة حتى خرجت من الجانب الأخر، وأمر دودة أخرى حتى دخلت في الجزعة المعوجة الثقب بخيط حتى خرجت من الجانب الأخر، وميَّز بين الجواري والغلمان بأن أمرهم بغسل وجوههم وأيديهم، فكانت الجارية تأخذ الماء بإحدى يديها وتصب في الأخرى، ثم تضرب وجهها، والغلام كما يأخذه يضرب به وجهه، ثم أتوا ببقايا الهدايا المرسلة فأبى سليمان عنها ورد كله إليهم مهدداً عليهم حيث ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ﴾ وتزيدونني ﴿بِمَالٖ﴾

فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ ....

يميل إليها أبناء الدنيا المحرومين عن اللذات الأخروية ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ﴾ المنعم المفضل عليّ من الأمور الأخروية من النبوة والرسالة وتسخير الثقلين والرياح والطيور والوحوش وجميع من في الجو وعلى وجه الأرض ﴿خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ من حطام الدنيا ومن مزخرفاتها الفانية، فما لنا ميلٌ والتفاتٌ إليها ﴿بَلۡ أَنتُم﴾ وأمثالكم من أبناء الدنيا ﴿بِهَدِيَّتِكُمۡ﴾ هذه ﴿تَفۡرَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾ أي تميلون وتُسَرُّون بها؛ لفخركم بأمثال هذه الزخارف؛ لقصور نظركم عليها وغفلتكم عن الأمور الأخروية.

﴿ٱرۡجِعۡ﴾ أيها الرسول ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾ أي إلى ملكتك ومن معها من الجنود وقل لهم: مطلوبي منهم الإيمان بالله المتوحد بالألوهية والربوبية والانقياد إليه والإطاعة لأحكامه، فلهم الإتيان إليَّ مؤمنين مسلمين منقادين وإلا ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ﴾ من الإنس والجن وأصناف الوحوش والطيور وأنواع الهوام والحشرات بالغةً من الكثرة إلى حد ﴿لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ أي لا يسع لهم مقابلتها من بعيد، فكيف ممانعتها ومقاتلتها ﴿وَ﴾ بعد ما لم يسع لهم المقابلة ﴿لَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ﴾ أي من بلادهم ﴿أَذِلَّةٗ﴾ ضعفاء ذليلين بأيدينا ﴿وَهُمۡ﴾ حينئذ ﴿صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ مهانون أسراء بأيدي هؤلاء العفاريت.

ثم لما رجع رسلها مع ما أهدت من الهدايا على وجهها قالت بلقيس: قد عرفت أنه ليس بملِك، بل نبي من الأنبياء مؤيدٌ بأمر سماوي، وما لنا طاقة

قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ....

مقاومة ومقابلة معه سوى المصالحة والإطاعة بأمره والحضور عنده.

ثم أرسلت بلقيس إليه صلوات الرحمن عليه ثانياً: إني قادمة إليك عن قريب فهيأت أسبابه حتى تخرج، وجعلت سريرها داخل سبعة أبواب في قصرها، وقصرَها داخل سبعة قصور، وأغلقت على الأبواب كلها، وجعلت عليها حرسا متعددة، وارتحلت إلى سليمان، فلما دنت إليه رأى سليمان حين كان على سريره جماً غفيراً من السواد مسيرة فرسخ، فسأل عنهم، فقالوا: بلقيس أتت بجنودها مطيعين مسلمين.

﴿قَالَ﴾ سليمان لمن حوله من الجن والإنس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى﴾ ويحضروا عندي ﴿مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾ مؤمنين، إذ بعدما أتوا لا يجوز إتيان عرشها إلا بإذنها، إذ لا يصح نقل مال المسلم إلا بإذنه.

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ﴾ أي خبيثٌماردٌ ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ اسمه ذكوان أو صخراً: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ أي مجلسك الذي تجلس عليه أنت للحكومة، إذ من دأبه الجلوس إلى وقت الزوال، يعني آتيك به قبل إتيانها ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ﴾ أي على حمل عرشها ﴿لَقَوِىٌّ﴾ أحمله بلا تزلزل أركانه وقوائمه ﴿أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾ لا أتصرف منه شيئاً من زينته وجواهره، فاستبطأ عليه السلام إتيانه، وطلب أسرع من ذلك.

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ﴾ فائض له ﴿مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي من حضرة العلم الإلهي

أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ ....

المعبر بالقضاء واللوح المحفوظ وعالم الأسماء والأعيان الثابتة، به يقدر على إحضار شيء وإعدامه دفعةً وكان هو وزيره آصف ابن برخية، قد انكشف عليه خواص الأسماء الإلهية ففعل بها ما فعل: ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ ﴾ أي قبل أن تعيد وتطبق أجفانك حين نظرك، وهذا كناية عن كمال السرعة والعجلة، فأتى به طرفة عين ﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ ﴾ أي سليمان العرش ﴿مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ قبل إتيان بلقيس ﴿قَالَ﴾ سليمان عليه السلام متوجهاً إلى ربه مذكراً نعمه الفائضة على نفسه مجدداً الشكر إياها: ﴿هَٰذَا﴾ أي حضور العرش العظيم الثقيل في غاية الثقل والعظمة في آنٍ واحدٍ مع أنه كان في مسافة بعيدة ﴿مِن﴾ جملة ﴿فَضۡلِ رَبِّي﴾ عليّ، ومن عداد جلائل إنعامه وأفضاله إليّ، إنما تفضل سبحانه علي بهذا ﴿ لِيَبۡلُوَنِيٓ ﴾ ويختبرني ﴿ءَأَشۡكُرُ﴾ بمواظبة شكر نعمه المتواترة علي بحيث أعجز عن أداء حق شكره وأعترف بالعجز والقصور عن إحاطة نعمه، فكيف عن أداء حقوقها ﴿أَمۡ أَكۡفُرُۖ﴾ لنعمه ولا أقيم بمقام الشكر عليها، وإن كانت الإقامة والتوفيق عليها أيضاً من جملة نعمه وفضله وكرمه، ولا عائدة من شكرنا إليه سبحانه، إذ هو منزّه عنها بل ﴿ وَمَن شَكَرَ﴾ على نعم الحق، وصرفها على مقتضى ما جبلها الحق لأجله ﴿ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ﴾ الشاكر ﴿ لِنَفۡسِهِۦۖ ﴾ لازدياد النعم عليها بمزيد الشكر ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ فإنما يكفر لنفسه بانتقاص النعم عليها

فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا

﴿ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ ﴾ في ذاته عن جميع العوائد ﴿ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ جواد لا يعلل فعله بالأغراض وإنعامه بالأعواض، ثم لما دنت بلقيس مع من معها من أشراف قومها بالدخول على سليمان عليه السلام، والعرش عنده.

﴿ قَالَ ﴾ لمن حوله: ﴿ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا ﴾ حين جلست أي غيروا بعض أوضاعه وزينته ﴿ نَنظُرْ أَتَهْتَدِي ﴾ وتتعقل أنه هو ﴿ أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ لاستحالة أن يكون هذا هو عادةً، إنما قصد به عليه السلام اختبار عقلها ورشدها واستعدادها للإيمان بالمغيبات والمستبعدات الخارقة للعادات، فغُيّر عرشها على الفور.

وقد بنى سليمان صرحا ممردا من قوارير ووضع سريره فيها وهي على الماء، ومن غاية صفائها لا يتميز عن الماء وفي الماء حيوانات مائية المولد من الحوت والضفدع وغيرها

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ ﴾ بلقيس وهو في ذلك الصرح على السرير ﴿ قِيلَ ﴾ لها أولاً: ﴿ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ ﴾ بعدما أمعنت نظرها نحو العرش: ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ أتت بكلمة التشبيه، وقد تحقق عندها أنه هو صيانةً لنفسها عن الكذب ﴿ وَ ﴾ بعدما تفرست منه التصديق لقولها، بادرت إلى تصديق نبوّته، فقالت: لا حاجة لا إلى إختبارك بأمثال هذه المعجزة حتى نؤمن لك، إذ ﴿ أُوتِينَا ﴾ المتعلق منا بصدقك وتصديق نبوتك ﴿ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا ﴾ أي قبل ظهور هذه المعجزة الخارقة للعادة

وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ

بأمورٍ اختبرناك بها ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ منقادين لك، مسلّمين نبوتك وتأييدك من قِبل الحق.

﴿وَ﴾ من فضل الله إياها أنه ﴿صَدَّهَا﴾ وصرفها بعدما ظهر عندها نبوة سليمان عليه السلام ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني صرفها الحق عن عبادة الشمس، إذ عبدَتْها تقليداً لأسلافها ﴿إِنَّهَا كَانَتْ﴾ منتشئة ﴿مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ جاحدين لله، عابدين للشمس. ثم

﴿قِيلَ﴾ أي قال سليمان عليه السلام آمراً ﴿لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ﴾ فبادرت إلى الإجابة ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ﴾ أي القصر ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ فيها أنواع الحيوانات المائية ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ أي رجليها؛ لتدخل فيها، فلما رأى سليمان ساقيها، وقد أُخبر أن ساقيها لا كساق الإنسان، لذلك احتال بناء قصر القوارير، حتى يظهر عنده هل هو مطابقٌ للواقع أم لا، فلما رآها أحسن ساقاً قدماً، لكن على ساقيها شعرٌ، صرف وجهه عنها مستغفراً ثم ﴿قَالَ﴾ لها: ﴿إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾ أي بنيان مملس مصنوع ﴿مِّن قَوَارِيرَ﴾ أي من زجاج، فأرخت ذيلها، فدخلت، وبعدما رأت اللجة ظنت أنه يستغرقها بها عمداً، فلما ظهر عندها خلافه ﴿قَالَتْ﴾ مستغفرة عن سوء ظنها إياه: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بهذا الظن الفاسد عن نبي الله ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ﴾ الواحد الأحد، المستقلِ

رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ ....

بالألوهية والربوبية لكونه ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ لا رب له سواه، ولا إله إلا هو.

وقد اختُلف في تزوجها، والأصح أنه تزوجها، ثم انقرض هي وسليمان ومن عليها جميعها إذ كل يوم هو في شأن وكل من عليها فان، ويبق وجه ربك ذو الجلال والإكرام.

﴿وَ﴾ من وفور جودنا وإحساننا ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ ﴾ حين لاح عليهم أمارات العدوان وعلامات الفسوق والعصيان ﴿ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ أي بأن اعبدوه حق عبادته، وتذللوا نحوه، ولا تتكبروا عليه بالخروج عن مقتضى أوامره وحدوده ﴿ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ أي بعدما أظهر عليهم الدعوة فاجؤوا على[1] الافتراق حيث آمن له البعض وصدقه وأعرض عنه البعض الآخر فكذبه، فاختصما.

﴿ قَالَ ﴾ صالح للمعرضين المكذبين: ﴿ يَٰقَوْمِ ﴾ شأنكم الحذر والإعراض من عذاب الله ونكاله وعن موجبات قهره وأسباب غضبه ﴿ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ ﴾ الموجبة لأنواع العذاب والقهر الإلهي ﴿ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ المستجلبة لعموم الخيرات ﴿ لَوْلَا ﴾ أي هلاّ ﴿ تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ ﴾ العفوّ الغفور لكفركم وذنبكم الذي صدر عنكم ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ قبل نزول عذابه

(١) في المخطوط (في).

قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾

عليكم، إذ حين نزول العذاب لا ينفع توبتكم واستغفاركم.

وبعد ما ظهر عليهم أمارات قهر الله وغضبه إياهم ووقع الجدب بينهم.

﴿ قَالُوا۟ ﴾ مغاضبين على صالح: ﴿ ٱطَّيَّرْنَا ﴾ أي تطيرنا وتشاءمنا ﴿ بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ ﴾ من المصدّقين لك، المتديّنين بدينك، إذ تواترت علينا المصيبات مذ ظهرتم بدينكم هذا، ووقعت الوقائع الهائلة بشؤمكم وحدوث دينكم، وبعدما سمع منهم صالح ما سمع آيس عن إيمانهم وصلاحهم ﴿قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ﴾ أي سببكم الذي جاء منه شرّكم وخيركم ﴿عِندَ ٱللَّهِ ۖ﴾ وفي لوح قضائه وحضرة علمه، كتب عليكم الخير والشر حسب ما صدر عنكم من الأعمال الصالحة والطالحة، ولا معنى لتطيركم وتشاؤمكم بنا ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ وتُختبرون بتفاقم المحن وتلاطم أمواج الفتن كي تستغفروا وتندموا عما أنتم عليه من الكفر، وتستأصلوا من الكفر والعصيان وتستأصلوا بنزول عذاب الله، وبعدما سمعوا منه كلامه هذا، قصدوا مقته وإهلاكه.

﴿ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾ أي تسعة رجال اتفقوا إلى حيث صاروا رهطاً واحداً متفقين على قهره وقتله، والرهط جمع لا واحد له، يطلق على ما دون العشرة، وكان شأنهم مقصوراً على الإفساد والفساد ﴿ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ بأنواع الفسادات ﴿ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ أصلاً في حال من الأحوال.

﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾

وبعدما ظهر عليهم أمارات العذاب الإلهي، وتحقق عندهم نزوله، قصدوا إهلاك صالح ومن معه قبل إهلاكهم حيث

﴿قَالُواْ﴾ في ما بينهم: ﴿تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ بأن حلف كل منكم عند صاحبه ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ ونهلكنّه قبل إلمام العذاب علينا ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ﴾ عند طلب ثأره مبالغين في الإنكار: ﴿مَا شَهِدْنَا﴾ في مدة عمرنا ﴿مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ أي المكان الذي أُهلك فيه صالح، فكيف قتلنا إياه ﴿وَ﴾ نؤكد قولنا هذا بالقسم أيضاً عند وليّه ونقسم ﴿إِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ في قولنا هذا وما لنا علم بإهلاكه.

﴿وَمَكَرُواْ﴾ واحتالوا لمقت نبيّنا ﴿مَكْرًا﴾ بليغاً ﴿وَمَكَرْنَا﴾ أيضاً لهلاكهم واستئصالهم ﴿مَكْرًا﴾ أبلغ من مكرهم، بأن أمرنا للملائكة حين يمم أولئك المفسدون الماكرون لقتل صالح، وأخذوا يطلبونه، أن يرجمهم بالحجارة، ويصيح عليهم بالصيحة الهائلة عند الرجم، ففعلوا معهم كذلك ﴿وَهُمْ﴾ حينئذ من شدة هولهم وفزعهم ﴿لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ الصائح والرماة، فهلكوا بالمرة بلا وصولٍ إلى من مكروا لأجله.

﴿فَٱنظُرْ﴾ أيها الناظر المعتبر ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ واصلة إليهم لاحقة بهم، وبالجملة ﴿أَنَّا﴾ من مقام قهرنا وجلالنا ﴿دَمَّرْنَٰهُمْ﴾ وأهلكنا أي التسعة المتقاسمين ﴿وَقَوْمَهُمْ﴾ أيضاً ﴿أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾

فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ ....

إلى حيث لم يبق منهم أحد يخلفهم.

﴿فَتِلْكَ﴾ الأطلال الخربة والرسوم المندرسة ﴿بُيُوتُهُمْ﴾ ومساكنهم التي شيدوها وحصّنوها بأنواع التشييدات والمترصفات[1] والتجصيصات، انظر كيف صارت ﴿خَاوِيَةًۢ﴾ ساقطة جدرانها على سقوفها، منعكسة كل ذلك ﴿بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ وبشؤم ما خرجوا على مقتضى الحدود الإلهية عتواً واستكباراً ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المكر والإهلاك ﴿لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ دالّة على كمال قدرتنا على انتقام من خرج عن ربقة انقيادنا وطاعتنا.

﴿وَ﴾ بعد ما أهلكناهم صاغرين ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بتوحيدنا وصدقوا رسلنا سالمين غانمين ﴿وَ﴾ هم من كمال إخلاصهم وخشيتهم ﴿كَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾ ويحذرون من قهرنا وغضبنا، ولا يسيئون الأدب معنا ومع رسلنا.

﴿وَ﴾ من مقتضيات حكمتنا المتقنة أرسلنا ﴿لُوطًا﴾ إلى قوم خرجوا عن مقتضى حدودنا، تاركين حدود حكمة التناسل والتوالد وإبقاء النوع، مبدلّين لها إلى ما هو مذموم عقلاً وشرعاً وعرفاً وعادةً ومروءةً وطبعاً. اذكر يا أكمل الرسل ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ مستفهما منهم على سبيل الإنكار والتوبيخ:

---

(١) في المخطوط (الرصيفات).

أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ ....

﴿ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ ﴾ والفعلة القبيحة الشنيعة ﴿ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ وتشاهدون قبحها وشنعتها وقت ما فعلتم وآتيتم.

﴿ أَئِنَّكُمْ ﴾ أيها المسرفون المستعبدون للشهوة ﴿ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ ﴾ الذين هم مثلكم في الرجولية ﴿شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ﴾ مع أن الحكمة الإلهية تقتضي إيتاءهن للتناسل وبقاء النوع كسائر أنواع الحيوان، وهؤلاء مع جهلهم لا يخرجون عن مقتضى الحكمة، وأنتم أيها الحمقى مع أنكم مجبولون على العقل الفطري المميِّز بين الذمائم من الأخلاق والأطوار وحميدتها، تخرجون عن مقتضاها ﴿بَلْ أَنتُمْ﴾ بفعلتكم هذه ﴿قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ منسلخون عن مقتضى العقل والإدراك المميِّز للإنسان عن سائر الحيوان، بل أسوأ حالا من الحيوانات العجم، إذ لا يتأتى منها أمثال هذا إلا من الحمار الأرذل الأنزل، انظروا ما هو شريككم في فعلتكم هذا أيها الحمقى المسرفون المفرطون.

﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ بعد ما سمعوا منه أنواع التشنيعات والتقريعات ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟﴾ من فرط انهماكهم في الغي والضلال ونهاية عمههم وسكرتهم في رقّ شهواتهم ولذاتهم البهيمية متشاورين بينهم متقاولين: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ عن أفعالنا ويتنزّهون، ولا مناسبة بيننا وبينهم، فلهم أن يخرجوا من بيننا حتى لا

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ....﴾

يتلوثوا بأفعالنا، إنما قالوا هكذا تهكماً واستهزاءً.

ثم لما استحقوا نزول العذاب والإهلاك وحان حلول البوار عليهم ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ أي أخرجنا لوطاً من بينهم ﴿وَ﴾ أمرناه أن يخرج ﴿أَهْلَهُۥ﴾ أيضاً عناية منا إياهم ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ المائلة عليهم، الراضية بفعلهم؛ لأنها منهم، لذلك ﴿قَدَّرْنَٰهَا﴾ في سابق قضائنا ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ الهالكين المصابين.

﴿وَ﴾ بعدما أخرجنا لوطا وأهله من بينهم ﴿أَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ أيّ مطر، وهو مطر الحجارة المهلكة ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾ مطرهم الذي أمطروا به بحيث لم يبق منهم ومن مساكنهم ومواشيهم شيء أصلاً.

وبعد ما قص سبحانه لحبيبه ﷺ قصص بعض أرباب الطبقات من الأنبياء والرسل، المختصين بأنواع الفضائل والكرامات الموهبة من عنده سبحانه إياهم تفضلاً عليهم وامتناناً، أَمَرَه سبحانه بأن بادِر إلى تجديد الشكر والثناء عليه سبحانه بما أولاهم من النعم العظام، وأعطاهم من الفواضل الجسام إيفاءً لحقوق المؤاخاة والاتحاد الحقيقي الواقع بين الأنبياء والرسل الكرام بعد رفع الإضافات وخِلَع التعينات، وقال سبحانه:

﴿قُلِ﴾ يا أكمل الرسل بعدما تلوْنا عليك بعض فضائل إخوانك تحميداً علينا من قِبلهم وتسليماً منا إياهم: ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ والثناء الكامل اللائق ﴿لِلَّهِ﴾ الواحد الأحد الحقيق بجميع المحامد والأثنية الصادرة عن ألسنة عموم

وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ

من رش عليهم رشحات بحر وجوده وامتد عليهم أظلال أسمائه وصفاته بمقتضى وجوده ﴿وَسَلَٰمٌ﴾ منه سبحانه ورحمةٌ نازلة على التواتر والتوالي ﴿عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ واختارهم من بين البرايا، التائهين في بيداء الغفلة والضلال، وتكميل الناقصين المنحطين عن رتبة الخلافة والنيابة بميلهم إلى قاذورات الدنيا العائقة عن الوصول إلى دار الخلافة التي هي التوحيد المسقط لتوهم الإضافات مطلقاً.

قل يا أكمل الرسل بعدما ظهر الحق مستفهماً مقرعاً للمشركين المتخذين غير الله إلهاً جهلاً وعناداً: ﴿ءَآللَّهُ﴾ الواحد الأحد القادر المقتدر المدبر لمصالح عباده، الموصل لهم بعد تصفية ظواهرهم وبواطنهم إلى ما جُبلوا لأجله من معرفة مبدئه ومعاده ﴿خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ له عناداً ومكابرة من الأظلال الهالكة في أنفسها، المجبورة تحت قهر الله وقدرته الكاملة.

ثم قرّع عليه سبحانه من التقريعات والتوبيخات ما قرع تتميماً لردعهم وتكميلاً لزجرهم فقال:

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي عالم الأسباب العادية ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ أي عالم الطبيعة القابلة لقبول فيضان آثار الفواعل العلوية ﴿وَ﴾ من ﴿أَنزَلَ لَكُم مِّنَ﴾ جانب ﴿ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ محيياً أموات الأراضي اليابسة بالطبع ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ﴾ أي بالماء بعدما أنزلناه من جانب السماء ﴿حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾

مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ....

وبهاءٍ ونضارةٍ وصفاءٍ ﴿مَّا كَانَ﴾ أي ما صح وأمكن ﴿لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾ بل ولا شجرةً واحدةً من جملة أشجارها، لولا إمداد الله وإنباته إياها ﴿أَءِلَٰهٌ﴾ أي تدعون وتدّعون إلهاً آخر ﴿مَّعَ ٱللَّهِ﴾ المدبر لمصالحكم بالاستقلال والإرادة والاختيار ﴿بَلْ هُمْ﴾ أي المتخذون غير الله إلهاً ﴿قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ عن الحق الصريح الذي هو التوحيد إلى الباطل الذي هو الشرك في ألوهيته، وإثبات الغير معه في الوجود، وادعاء استحقاق العبادة إياه عناداً ومكابرة.

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أي مقراً تستقرون عليها، وتعيشون فيها مع أن طبع الماء يقتضي الإحاطة بجميع جوانبها، بحيث لا يبدو من كرة الأرض شيئاً خارجاً منه ﴿وَ﴾ بعد إبداء بعضها من الماء عنايةً منه سبحانه إياكم ﴿جَعَلَ خِلَٰلَهَآ﴾ أي أوساط الأرض البادية ﴿أَنْهَٰرًا﴾ جاريةً تتميماً لأمور معاشكم عليها ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ﴾ أي الأرض رواسي، أي جبالاً شامخات وسيّر فيها معادن الفلزات ومنابع المياه ومراتع الحيوانات تتميماً وتكميلاً لمصالحكم ومعايشكم ﴿وَجَعَلَ﴾ من كمال لطفه ومرحمته ﴿بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ العذب والمالح ﴿حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ﴾ مانعاً لئلا يختلط، ويختل نظام معاشكم عليها أي أتدعون أيها الجاهلون ﴿مَّعَ ٱللَّهِ﴾ المتوحد المتفرد في ذاته، المستقل في

بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ ....

تصرفاته الواقعة في مملكته ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ لانهماكهم في الغفلة والجهل عن الله وحق قدره وقدر ألوهيته ﴿لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ شيئاً من آداب عبوديته، لذلك ينسبون إليه سبحانه ما لا يليق بشأنه جهلاً ومكابرة.

﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ﴾ القلق والحائر في أمره بلا رشدٍ منه إلى مخرجه ومخلصه ﴿إِذَا دَعَاهُ﴾ دعوة مؤمل ضريعٍ سواه سبحانه ﴿وَ﴾ من ﴿يَكْشِفُ السُّوءَ﴾ المتفاقم على ذوي الأحزان والملمات ﴿وَ﴾ من ﴿يَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ من الأسلاف الذين مضوا عليها ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد تدعون أيها الجاهلون المسرفون المكابرون، ومن نهاية جهلكم وغفلتكم عن ألوهية الحق وغاية غيّكم وضلالكم عن توحيده ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ أي قليلاً منكم تتذكرون آلاء الله ونعمائه المتواطئة المترادفة عليكم.

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ﴾ ويرشدكم أيها الحمقى ﴿فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ بالنجوم الزاهرات ﴿وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ المبشرات لتكون ﴿بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي بشارةً بالمطر المحيي لأموات الأراضي بأنواع النباتات والحيوانات المبقية لأصناف المخلوقات ﴿أَإِلَٰهٌ﴾ قادرٌ على أمثال هذه الأفعال المتقنة والآثار المحكمة ﴿مَّعَ اللَّهِ﴾ المستقل بالقدرة الكاملة والحكمة الباهرة والرحمة العامة الشاملة تدعون وتعبدون ﴿تَعَالَى اللَّهُ﴾

عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ....

المنزه في ذاته عن مشابهته للأمثال، ومشاركته مع غيره في الآثار والأفعال سيما ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾ له أولئك المشركون المسرفون.

﴿أَمَّن يَبۡدَؤُاْ﴾ ويظهر ﴿ٱلۡخَلۡقَ﴾ أي عموم المخلوقات والمكونات من كتم العدم بعد ما لم يكن شيئاً مذكورا برش نوره عليها ومد ظله إليها بمقتضى لطفه وجماله ﴿ثُمَّ﴾ بعد إظهاره وإيجاده من ﴿يُعِيدُهُۥ﴾ ويبعثه بعد إعدامه وإماتته بمقتضى قهره وجلاله ﴿وَمَن يَرۡزُقُكُم﴾ ويقوّم مزاجكم بأنواع الأغذية الحاصلة ﴿مِّنَ﴾ أسباب ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ قوابل ﴿وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ القادر المقتدر على إنشاء البدائع وإبداء الغرائب والعجائب المكنونة في التراب؛ لتكون غذاء لمن عليها من الحيوانات، تثبتون وتشركون أيها الحمقى المسرفون المشركون المكابرون، فإن أصروا على شركهم وكفرهم بعد ما سمعوا قوارع الدلائل القاطعة والشواهد الساطعة ﴿قُلۡ﴾ لهم يا أكمل الرسل إلزاماً عليهم وتبكيتاً: ﴿هَاتُواْ﴾ أيها الحمقى ﴿بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾ على دعواكم ألوهية معبوداتكم ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ في هذه الدعوى.

وبعد ما تم إلزامك عليهم وتبكيتك إياهم.

﴿قُل﴾ يا أكمل الرسل كلاما ناشئا عن محض التوحيد، خالياً عن وصمة[1] الكثرة مطلقاً ﴿لَّا يَعۡلَمُ مَن﴾ ظهر ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي العلويات

(١) في المخطوط (وهمة).

وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ ....

﴿وَ﴾ من ظهر في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي السفليات من المظاهر المجبولة فيهما على فطرة الشعور والإدراك ﴿ٱلۡغَيۡبَ﴾ الذي غاب عن مداركهم وعقولهم وحواسهم ﴿إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ المنزه عن الأماكن والأزمان بل الكل في حيطة أسمائه وأوصافه والمبرء عن الإشتراك في جنسٍ وعن الامتياز بفصلٍ، فإنه واحدٌ لا يشارك معه شيء عنه بشيء، بل وحدته لا كسائر الوحدات، ولا علمه كسائر العلوم، وكذا جميع صفاته وأسمائه، فإنه سبحانه يعلم بعلمه الحضوري جميع ما ظهر وبطن، وغاب وشهد، بلا تفاوتٍ، بل الكل في ساحة عز حضوره على السواء بلا اختلافٍ من الخفاء والجلاء ﴿وَ﴾ إن اجتهد أولئك الصالحون من أهل السموات والأرضين ﴿مَا يَشۡعُرُونَ﴾ ويدركون ﴿أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ أي متى يبعثون، وفي أي آن يحشرون من قبور تعييناتهم وأجداث هوياتهم للوقوف بين يدي الله، وإن وصلوا بعد ما اجتهدوا بتوفيق الله وتيسيره إن وقوفهم بين يديه للعرض والجزاء كائنٌ لا محالة، لكنهم ما وصلوا إلى مرتبةٍ يسع لهم تعيين وقت الحشر والنشر، إذ يعتبر وقت البعث من جملة الغيوب التي استاثر الله بها، ولم يطلع أحداً من الأنبياء وأوليائه عليها.

﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ﴾ أي بلغ وتدارك ووصل ﴿عِلۡمُهُمۡ﴾ أي علم العلماء وأرباب الشعور والإدراك بعدما كوشفوا بإلهام الله وجذبٍ من جانبه و﴿فِي﴾ تحقق النشأة ﴿ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ وما فيها من المعتقدات المحققة من الحشر والنشر

بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ....

والصراط والسؤال والجنة والنار والثواب والعقاب، وجميع الأمور التي نطقت بها ألسنة الكتب والرسل ﴿بَلْ هُمْ﴾ أي بل أكثر الناس ﴿فِي شَكٍّ﴾ وتردد ﴿مِّنْهَا﴾ أي من الآخرة ومن الأمور الكائنة فيها ﴿بَلْ هُم﴾ أي بل أكثرهم ﴿مِّنْهَا﴾ ومن الأمور الموعودة فيها ﴿عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ غافلون منكرون، لا يعتقدون ولا يقبلون، بل ينكرونها أشد إنكارٍ ويكذبونها أبلغ تكذيب.

﴿وَ﴾ من شدة إنكارهم وتكذيبهم ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله وبجميع ما وعد سبحانه في يوم العرض والجزاء على سبيل الاستبعاد والاستنكار مستفهمين مستهزئين: ﴿أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا﴾ أيضاً كذلك ﴿أَئِنَّا﴾ وهم ﴿لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾﴾ من قبورنا أحياءً على الوجه الذي كنا عليه في مدة حياتنا قبل طريان الموت علينا، كلاّ وحاشا، إذ هو من جملة الأمور المستحيلة التي تأبى العقول عن قبولها، ولا منشأ له سوى أنّا

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا﴾ أي البعث والحشر ﴿نَحْنُ﴾ اليوم على هذا المدعي للرسالة والنبوّة ﴿وَ﴾ وعد ﴿آبَاؤُنَا﴾ أيضاً ﴿مِن قَبْلُ﴾ على ألسنة المدعين الآخرين الذين مضوا وكان أسلافهم أيضاً كذلك على ألسنة أسلاف آخرين مدعين، وهكذا، وبالجملة ﴿إِنْ هَٰذَا﴾ أي ما هذا الوعد بالبعث والجزاء ﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ أي أكاذيبهم الموروثة لأخلافهم، اللاحقين المتأخرين عنهم، وبالجملة هذا ديدنة قديمة وعادة مستمرة بقيت بين الأنام من قديم

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾..............

الأيام لتخويف العوام بلا وقوعٍ ولا إمكان وقوع أيضاً.

ثم لما بالغ أولئك الهالكون في تيه الضلال في تكذيب يوم الجزاء وأصرّوا على ما هم عليه من الكفر والإنكار من متابعة الأهواء والآراء.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل كلاماً خالياً عن وصمة المجادلة والمراء وما درأ عن محض العبرة والحكمة والاستبصار آمراً لهم على سبيل الاعتبار: ﴿سِيرُوا۟﴾ أيها المنكرون المكابرون ليوم العرض والجزاء ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ التي هي محل العبرة ونزول الاستبصار ﴿فَٱنظُرُوا۟﴾ معتبرين متأملين ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ المكذبين كمالَ قدرة الله القادر المقتدر على كل ما أراد وشاء بلا فتورٍ ولا قصورٍ، ولا ينتهي قدرته دون مرادٍ ومقدورٍ، بل له إعادته كما له إبراؤه من جميع أجزائه ولوازمه وعوارضه من الزمان والمكان والحركات والسكنات وجميع الأطوار والأحوال الطارئة عليها من مبدأ حدوثها إلى منتهى حياتها، إذ جميع ما جرى عليه وصدر عنه حاضرٌ عنده سبحانه، غير مغيبٍ عنه بلا انقضاءٍ في حضرة علمه وإمضاءٍ من لوح قضائه.

إذ عنده سبحانه لا زمان ولا مكان حتى يتصور الانقراض والانقضاء، واستبعاد هذه المسألة إنما يجيء من العقول السخيفة والأحلام الضعيفة المحبوسة لمضيق الزمان والمكان، المتحصنة بحصون الجهات والأبعاد المقيدة بسلاسل الأيام وأغلال الليالي، ومن انكشف له بصر بصيرته، وارتفع عنه سبل السدل وحول التحويل، ومدد التغير والتبديل، واكتحل عين عبرته

وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ ....

بكحل الكشف والشهود، اضمحل دونه الزمان والمكان والجهات والأقطار، وجميع ما يوهم الانقضاء والانصرام والتجدد والاستمرار، ولم يبق في عين عبرته وشهوده سوى الله الواحد القهار لجميع الأغيار، فسمع عنه وأبصر به، وأظهر عليه، وفني فيه، وبقي لديه، ورجع إليه، وبدأ منه [في نسخةٍ عنه] وعاد عليه، قائلاً لسان حاله ومقاله: (إنا لله وإنا إليه راجعون)، (ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين برحمتك وجودك يا أرحم الراحمين).

﴿وَ﴾ بعد ما هدد سبحانه مكذبي وعده ووعيده بما هدد، وأقرعهم بما قرع أراد سبحانه أن يسلي حبيبه ﷺ بما لحق له من أذى المنكرين المكذبين بقوله: ﴿لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ إن كذبوك وأعرضوا عنك يا أكمل الرسل ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ﴾ وسآمةٍ ﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ أي من مكرهم وحيلهم، فإن الله يكفيك مؤنة شرورهم، وكن في نفسك يا أكمل الرسل واسع الصدر، طلق الوجه، مسرور القلب، فإن الله ناصرك ومعينك في كل الأحوال، يحفظك عن شرورهم ومكرهم، وسيغلبك عليهم، ويظهر دينك على الأديان كلها في أقطار الأرض وأنحائها، وكفى بالله حسيباً.

﴿وَ﴾ من شدة شكيمتهم وكمال إنكارهم وضغينتهم ﴿يَقُولُونَ﴾ متهكمين: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ والعذاب الموعود وفي أي آنٍ يظهر، وأي زمان يقوم عينوا لنا وقته أيها المدعون ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾﴾ في دعواكم وقوعه ونزوله.

﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾﴾ ....

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما اقترحوا عليك وألحوا: ﴿عَسَىٰٓ﴾ أي دنا وقرب ﴿أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾ أي تبعكم ولحقكم ـ واللام للتوكيد ـ ﴿بَعْضُ﴾ العذاب ﴿ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ نزوله وحلوله، فلحقهم، وهو عذاب يوم بدر.

﴿وَ﴾ سيلحقهم عن قريب كلها أيضاً، لكن من سنته سبحانه إمهال عباده زماناً رجاء أن ينتبهوا، ويتوبوا عما أصروا عليه ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿لَذُو فَضْلٍ﴾ عظيم ورحمة واسعة شاملة ﴿عَلَى﴾ جميع ﴿ٱلنَّاسِ﴾ الناسين سوابق عهودهم مع الله المدبر لأحوالهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ نعمة الإمهال حتى يخلصوا من نقمته وعذابه؛ لذلك لحقهم ما لحقهم من العذاب.

ومن جملة كفرانهم بنعم الحق أنهم أرادوا أن يخدعوا مع الله ورسوله، ولا يشكروا لنعمة الإرسال والإرشاد، بل ينكروا عليها في نفوسهم ويظهروا على الناس أنهم مؤمنون مع أنهم ليسوا كذلك، وقصدوا بذلك التلبيس والخداع، ولا ينفع لهم هذا

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿لَيَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿مَا تُكِنُّ﴾ وتخفي ﴿صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾﴾ ويظهرونه من إيمان وكفر وفساد

وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم ....

وصلاح وعهد ونقض، إذ لا يخفى عليه سبحانه شيء من أحوال عباده وما جرى عليهم في ظواهرهم وبواطنهم.

﴿وَ﴾ كيف يخفى عليه شيءٌ من أحوالهم إذ ﴿ مَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي﴾ طيّ ﴿ ٱلسَّمَآءِ﴾ و﴿ ٱلْأَرْضِ﴾ حتى النقير والقطمير وما يعقل ويحس به ويعبر عنه ويؤمأ إليه ويرمز نحوه إلى ما شاء الله ﴿إِلَّا﴾ مثبتٌ محفوظٌ ﴿فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾ هو لوح القضاء وحضرة العلم الإلهي الذي فصّل فيه جميع ما كان ويكون أزلاً وأبداً، بحيث لا يشذ عن حيطته ما من شأنه أن يعلم ويحس به.

ومما يدل عليه وعلى حيطة حضرة علمه الكتب الإلهية النازلة من عنده سبحانه، المنتخبة من حضرة علمه ولوح قضائه سيما القرآن.

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ من كمال جمعيته وإحاطته ﴿ يَقُصُّ﴾ أي يظهر ويبين ﴿ عَلَىٰ﴾ علماء ﴿ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ﴾ الأمور والشأن ﴿ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ من الأمور المتعلقة لدينهم وملتهم.

﴿ وَإِنَّهُۥ﴾ في نفسه ﴿لَهُدًى﴾ هادٍ موصل إلى طريق التوحيد ﴿ وَرَحْمَةٌ﴾ نازلةٌ ﴿ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ الموحدين المحمديين من قبل الحق؛ ليهديهم إلى وحدة ذاته، ويوصلهم إلى غاية ما جبلوا لأجله من المعرفة والتوحيد.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿ يَقْضِي بَيْنَهُم﴾ أي بين المختلفين من

بِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ ....

بني إسرائيل ﴿ بِحُكۡمِهِۦۚ ﴾ المستنبط من حكمته المتقنة ﴿وَ﴾ كيف لا ﴿هُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الغالب في أحكامه المبرمة ﴿ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ ﴾ في حكمته المتقنة المتفرعة على عدالته الحقيقية، وإن كذبوك يا أكمل الرسل وكتابك وجادلوا معك مراء ومكابرة.

﴿ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ ﴾ المتكفل لحفظك وحضانتك ﴿ إِنَّكَ ﴾ في أمر دينك وكتابك ورسالتك وهدايتك، وفي جميع ما جئت به من قبل ربك ﴿عَلَى ٱلۡحَقِّ ﴾ والصدق الذي لا يأتيه الباطل والكذب من بين يديه ولا من خلفه ﴿ ٱلۡمُبِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾ الظاهر حقيته عند ذوي البصائر وأولي الألباب، المستكشفين عن لب الأمور، المعرضين عن قشورها، فإن أعرضوا عنك ولم يقبلوا إرشادك وهدايتك، لا تبال بهم وبإعراضهم وانصرافهم، إذ هم أموات عند التحقيق لا حياة لهم حقيقة.

﴿ إِنَّكَ ﴾ وإن بالغت واجتهدت في إرشادك وهدايتك ﴿ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾ ما جئت به من الأوامر والنواهي المقربة إلى الله، المبينة لطريق توحيده، إذ هم عن السمع معزولون ﴿ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ ﴾ أي ليس في وسعك إسماع الدعاء للأصمين الفاقدين آلة الاستماع سيما ﴿ إِذَا وَلَّوۡاْ ﴾ وأعرضوا عنك ﴿مُدۡبِرِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ بلا التفاتٍ وتوجهٍ منهم إلى الاستماع والإصغاء.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَآ أَنتَ﴾ أيها المرسل للهداية والمبعوث للإرشاد

بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ ....

والتكميل ﴿بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ﴾ الفاقدين لآلات الهداية وأسبابها ﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ﴾ المركوزة في جبلتهم، الراسخة في طباعهم ﴿إِن تُسۡمِعُ﴾ أي ما تسمع أنت هدايتك وإرشادك أيها الهادي بوحينا وتوفيقنا ﴿إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الدالة على كمال وحدة ذاتنا وقدرتنا وعلمنا وإرادتنا، ويصدق بجميع ما جئت به من عندنا ﴿فَهُم مُّسۡلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ منقادون لأوامرنا وأحكامنا، مجتنبون عن نواهينا ومحظوراتنا، فهم من شدة شقاوتهم وغلظ غشاوتهم لا يؤمنون بك ولا يسلمون، فكيف يتأتى لك إسماعهم وإرشادهم.

﴿۞ وَ﴾ اصبر يا أكمل الرسل ﴿۞إِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ﴾ الموعود ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ ولاح أمارات الساعة وظهر علامات القيامة، ودنا وقت قيامها ﴿أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ﴾ قبيل قيام الساعة ﴿دَآبَّةٗ﴾ عظيمةً ﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ لتكون أمارة على قيامها، دالة على كمال قدرتنا على إحياء الأموات من العظام الرفات، طولها سبعون ذراعا، ولها قوائم وزغب أي شعرات صفر كريش الفرخ وريش وجناحان، يقال لها: الجساسة، لا يفوتها هارب ولا يدركها طالب.

سئل عليه السلام عن مخرجها فقال: «مِنْ أَعْظَمِ المَسَاجِدِ حُرْمَةً عَلَى اللهِ تَعَالَى»(١) يعنى المسجد الحرام فإذا خرجت عليهم ﴿تُكَلِّمُهُمۡ﴾ وتخاطب

(١) رواه الحاكم في المستدرك [٤/ ٥٣٠ رقم/ ٨٤٩٠/ باب:كتاب الفتن والملاحم] والطبراني في الأوسط [٢/ ١٧٦رقم/ ١٦٣٥/]. وأنظر مجمع الزوائد [٧ / ٨ / باب: خروج الدابة].

أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ....

معهم بسوء فعالهم وحسن خصالهم، فتفرّقُ المؤمن من الكافر، وحينئذ ظهر ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ﴾ المنهمكين في بحر الغفلة والنسيان لأي شيء ﴿كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ الواصلة إليهم من ألسنة رسلنا ﴿لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾ ولا يذعنون، بل ينكرون ويكذبون عناداً أو مكابرة؟

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ﴾ ونسوق عند قيام الساعة ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ فرقة وجماعة هي صناديدهم ورؤساؤهم ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ التي جاء بها رسلنا لإهدائهم وإرشادهم ﴿فَهُمْ﴾ في حين حشرهم وسوقهم ﴿يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ أي يحبس أولهم لآخرهم حتى يتلاقوا ويزدحموا، ويساقون أولئك المجرمون هكذا.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾ المحشر وحضروا الموعد وعُرضوا على الله صافّين صاغرين ﴿قَالَ﴾ قائل من قبل سرادقات العظمة والجلال معيداً عليهم: ﴿أَكَذَّبْتُم﴾ أنتم أيها المسرفون ﴿بِـَٔايَـٰتِى﴾ في بادي الرأي بلا تأمل وتدبر فيها ﴿وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا﴾ أي لم تطرحوا نظركم وعقولكم عن فحص معانيها وفحاويها، حتى ظهر عندكم ولاح عليكم هل هي جديرة بالرد والإنكار، أم حقيق بالقبول والاعتبار، فبادرتم إلى تكذيبها بلا إمعانٍ فيها ﴿أَمَّاذَا﴾ أي أم أيّ شيء شنيع ﴿كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾ أيها الجاهلون المسرفون؟!.

وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ ....

وبعد ما جرى من أنواع التوبيخ ما جرى سكتوا حائرين خائبين منكوسين.

﴿وَ﴾ حينئذ ﴿ وَقَعَ ٱلْقَوْلُ﴾ المعهود منا، وتحقق الوعد، وحل العذاب الموعود ﴿عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟﴾ أي بسبب ظلمهم السابق ﴿ فَهُمْ﴾ حينئذ ﴿لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾ ولا يعتذرون، ولا يتضرعون، يكبهم على النار منكوسين بحيث لا يسع لهم التنطق والتضرع أصلاً.

﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ ﴾ ولم ينظروا أولئك الحمقى بنظر العبرة إلى مصنوعاتنا المتبدلة المتغيرة بقدرتنا واختيارنا؛ ليتحقق عندهم أمر الساعة، ولم يبادروا إلى إنكارها حتى لا يلحقهم ما لحقهم ﴿ أَنَّا ﴾ من كمال قدرتنا ووفور حولنا وقوتنا كيف ﴿جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ ﴾ مظلماً ﴿ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ ﴾ بلا دغدغة منهم إلى الحركة والاشتغال ﴿وَ﴾ كيف جعلنا ﴿ ٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ مضيئا تتحركون وترددون فيه بشغل معاشكم ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الإظلام والإضاءة على التعاقب والتوالي ﴿ لَءَايَـٰتٍ ﴾ دلائل قاطعات وشواهد ساطعات على قدرة القديم القادر المقتدر على أمثال هذه المقدورات المتقنة والمصنوعات المحكمة الصادرة عن محض الحكمة ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾ ويذعنون بوحدة ذات الله وكمال أوصافه وأسمائه.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل تنبيها على التائهين في بيداء الغفلة ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ وهو البوق لحشر الأموات من أجداثهم ﴿ فَفَزِعَ﴾ وارتعد من هول

مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ ....

تلك الصدى ﴿ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ من سكانها ﴿ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾ تمكنه وقرار قلبه مطمئن بلا قلق واضطراب، وهم الأولياء المتمكنون في مقر الفناء في الله، المتحققون بمقام البقاء ببقائه، الواصلون إلى شرف لقائه بلا تلوين، منسلخين عن جلباب ناسوتهم رأساً، وصاروا إلى حيث لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿وَ﴾ بعد ما أفاقوا من دهشتهم وهيبتهم العارضة إياهم من هول ما سمعوا ﴿كُلٌّ﴾ ممن يتأتى منهم الإتيان ﴿ أَتَوْهُ ﴾ ـ على كلتا القراءتين فعلاً، أو اسم فاعل ـ أي حضروا عنده وحاضروه ﴿ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ صاغرين ذليلين منتظرين إلى ما جرى عليهم من حكم الله، يُساقون إلى النار بمقتضى عدله، أم إلى الجنة بمقتضى فضله وإحسانه.

﴿ وَتَرَى ﴾ أيها الرائي يومئذ ﴿ ٱلْجِبَالَ ﴾ الراسيات التي ﴿ تَحْسَبُهَا ﴾ وتظنها ﴿جَامِدَةً﴾ ثابتةً مستقرة في مكانها بلا حركة وذهاب ﴿وَهِيَ﴾ في نفسها ﴿تَمُرُّ﴾ أي تتحرك وتذهب ﴿ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾ أي كمروره وسرعة سيره، إذ الأشياء العظيمة التي لا يحيط الأبصار بجميع جوانبها، قلما يحس بحركتها، وإن أسرع فيها، بل يظن أنها ثابتةٌ في مقره، وهكذا حال الجبال وجميع الأظلال والأطلال قبل قيام الساعة لو تفطنتَ بمرورها أيها الفطن اللبيب، وجدتها في كل آنٍ على التقضي والانصرام، إذ الأعراض لا قيام لها ولا قرار بل كل يوم وآن في شأن وكل من عليها فان، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام،

صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ ....

ومرور الجبال على هذا المنوال ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ أي من صنع الله ﴿ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ﴾ وأحكم ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ إتقاناً بديعاً ودبّره تدبيراً أنيقاً عجيباً، وأودع فيه من الحكم والمصالح ما لم يطلع عليها أحدٌ من عباده، إذ لا يسع لهم الإطلاع على أفعاله سبحانه بل ﴿إِنَّهُۥ﴾ بذاته وبمقتضى أسمائه وصفاته ﴿خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [المفسر بقراءة يفعلون، وهي قراءة ابن كثير، وابن عامر وغيرهما] أي بجميع أفعالهم وأحوالهم وأقوالهم الظاهرة والباطنة، يجازيهم عليها على مقتضى خبرته، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

لذلك﴿مَن جَآءَ﴾ من المكلفين في دار الابتلاء ﴿بِٱلْحَسَنَةِ﴾ أي الخصلة الواحدة المقبولة عند الله وعند الناس ﴿فَلَهُۥ﴾ في دار الجزاء ﴿خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ إذ يُعطى له بدله سبع مائة من الحسنة، وقد أبدل الخسيس بالشريف سيما بأضعافه والفاني بالباقي ﴿وَهُم﴾ أيضاً مع وجود هذه المثوبات ﴿مِّن فَزَعٍ﴾ هائلٍ مهولٍ للناس ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم ينفخ في الصور ﴿ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾﴾ مطمئنون متمكنون، ولا يضطربون من هولها ولا يفزعون.

﴿وَمَن جَآءَ﴾ في دار الاختبار ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ المردودة عند الله، وعند الناس من الأمور التي حرمها الشرع والعقل والمروءة ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ أي كبوا على وجوههم في النار صاغرين، قيل لهم حينئذ زجراً عليهم وطرداً

﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝٩١﴾ .....

لهم: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ أي ما تُجزون بهذا الهوان والصغار ﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٩٠﴾ من السيئات الجالبة له في النشأة الأولى.

ثم لما أمر سبحانه الرسول ﷺ بتبليغ ما أوحي إليه من الوعد والوعيد والأوامر والنواهي المصلِحة لأحوال الأنام في النشأتين، وبيان مبدئهم ومعادهم، وما يؤول إليه أمرهم بعد ما انقرضوا من هذه النشأة التي هي دار الابتلاء والاختبار، إما إلى دركات النيران وإما إلى درجات[1] الجنان، ثم بين لهم طريق الوصول إلى مقر التوحيد والتمكن في مقام التجريد والتفريد آمراً أيضاً بأن قال لهم إمحاضاً للنصح كلاماً ناشئاً عن محض الحكمة، خالياً عن وصمة الميل إلى الهوى:

﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ﴾ الله الواحد الأحد الصمد عبادة خالصة عن الرياء والرعونات ﴿رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ﴾ أراد بها مكة شرفها الله خصها بالإضافة للتعظيم، وإلا فهو ربّ جميع البلاد والأماكن ﴿الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ هذه البلدة من الأمور التي أباحها في غيرها من البلاد ﴿وَلَهُ﴾ سبحانه ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾ خلقه وملكه وتصرف فيه كيف يشاء وأراد بلا منازعٍ ومخاصمٍ ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝٩١﴾ المنقادين لأحكامه سبحانه، الممتثلين لأوامره ونواهيه، بلا التفات إلى إيمان أحد وكفره وهدايته وضلاله.

---

(١) في المخطوط (دركات).

وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ ....

﴿وَ﴾ أُمرت أيضاً ﴿أَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ المنزل عليّ من عند ربي، وأداوم على تلاوته بين أظهر الأنام؛ لأنه إنما أوحي للهدى والإرشاد بالنسبة إلى جميع العباد ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ به بعد ما سمعه وتأمل معناه وامتثل بمقتضاه ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾، ونفعُ هدايته عائدٌ إليها، مفيدٌ لها، ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ أي أعرض عنه بعد ما سمع واستكبر وكذب ﴿فَقُلْ﴾ أي أمرني ربي أن قل للمكذبين: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ أي أمري منحصرٌ بالإنذار والتخويف كسائر الرسل المنذرين فالهداية والضلال إنما هو مفوض إلى الكبير المتعال.

﴿وَ﴾ بعد ما أمرني ربي بهذه المأمورات المذكورة أمرني بتجديد التحميد على تبليغ ما أُوحيت به بقوله: ﴿قُلِ﴾ بعدما تلوتَ عليهم ما تلونا عليك ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ما علمني ربي من الحقائق والمعارف، وشرفني بأنواع المكاشفات والمشاهدات، ويسَّر علي تبليغ ما أوحي إليّ، وأُمرت بتبليغه إلى قاطبة الأنام، وإن أعرضوا عن قبول ما بلغت لهم من مصالح دينهم في النشأة الأولى والأخرى، قل لهم على سبيل التهديد: ﴿سَيُرِيكُمْ﴾ سبحانه في النشأة الأخرى وقيام الساعة الموعودة صدق ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالة على عظمة ذاته المتبينة لمواعيده ووعيداته ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ حينئذٍ وتسمعونها سمع قبول ورضا، ولا يجديكم قبولها حينئذ نفعا وفائدة، إذ قد مضى وقت الإرشاد والامتثال بها والعمل بمقتضاها ﴿وَ﴾ بعد ما بلغت لهم ما بلغت يا أكمل الرسل لا تبالِ بإعراضهم وإنكارهم إذ ﴿مَا رَبُّكَ﴾ المطلع بالسرائر والخفايا ﴿بِغَٰفِلٍ﴾ ذاهلٍ

عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [المفسر بقراءة يعملون، وهي قراءة ابن كثير وغيره] من الرد والقبول، بعد ما سمعوا منك وفهموا معناه، يجازيهم على مقتضى إطلاعه وعلمه.

ربنا اشرح لنا صدورنا بتأمل آياتك المنزلة من عندك، ويسر لنا أمورنا بأن نمتثل بمقتضاها بفضلك وجودك.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المواظب على تلاوة كتاب الله اللازم للاسترشاد والاستهداء منه: أن تلاحظ أولاً منطوقات ألفاظه المفردة، ثم مفهومات الكلام المركب منها، ثم التأمل والتدبر في رعاية المطابقة لمقتضيات الأحوال الموردة لأجلها، ثم التعمق في الأساليب والأغراض المسوقة لها الكلام، ثم سرائر الأوامر والنواهي الموروودة فيها والعبر والأمثال المشتملة عليها الكلام، ثم الحكم والمصالح الباعثة لإيراد الكلام على وجهها، ثم التفطن والتنبه من النظم المتلو المقروء على المعارف والحقائق والمكاشفات والمشاهدات التي هي العلل الغائية لإنشائه، والأسرارُ الباعثة لنظم كلماته وتأليف حروفه.

وعليك أيها الفطن الخبير أن تدرك أن «لِلْقُرَآنِ ظَهْرَاً وَبَطْنَاً، وَلِبَطْنِهِ بَطْنَاً إِلَى سَبْعَةِ أَبْطُنٍ»(١)، على ما نطق به الحديث الصحيح صلوات الله على قائله وسلامه.

وإياك إياك أن تقنع منه بألفاظه ومنطوقاته التي تعرفها عوام العرب أو تقنع منه بالخواص والمزايا التي تعرفها أربابُ اللسن منهم، بل لك أن تلاحظ على الوجه المذكور، إلى أن صار علمك المتعلق به لدُنيّاً ذوقياً خالياً بحيث تسمعه من قلبك، وتفهمه بقلبك بلا وسائل الألفاظ والحروف الجارية على لسانك، إذ الألفاظ والحروف، إنما هي من جملة الحجب الغليظة عند أولي الألباب، الناظرين في لب القرآن، فحينئذ فزتَ بحظك منه، ونلت نصيبك من هدايته وإرشاده.

رب هب لي بفضلك من خزائن جودك التي أودعتها في كتابك الكريم، إنك أنت الوهاب الملهم بالخير والصواب.

---

(١) المشهور هو: «إن للقرآن ظهراً وبطناً وحدّاً ومطلعاً» فقط من غير هذه الزيادة.

قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء [١/ ١٧٠]: رواه ابن حبان في صحيحه من حديث ابن مسعود.

[قلت]: رواه ابن حبان في الصحيح [١/ ٢٧٦ رقم / ٧٥/ ذكر العلة التي من أجلها قال النبي ﷺ: وما جهلتم منه فردوه على عالمه] بلفظ: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثم أنزل القرآن على سبعة أحرف لكل آية منها ظهر وبطن».



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة القصص

لا يخفى على من تحقق بوحدة الحق وانكشف باستقلاله وتوحده في التحقق والوجود، وشهد حضوره في الأكوان كلها بلا مزاحمة ضدٍ وشريكٍ ومظاهرة مثلٍ وظهيرٍ: أن وحدة الحق تستدعي نفي الكثرة والتعدد مطلقاً ولهذا ما ظهر في فضاء الوجود إلا ما لمع عليه بروق تجلياته الحبيبة حسب أوصافه وأسمائه الذاتية، ومن انكشف له هذا وتمكن في هذا المشهد العظيم، لم يسمع من أحدٍ أن يدعي الوجود لنفسه، فكيف يدعي الألوهية والربوبية والاستقلال بالآثار والتصرفات الواردة في عالم الغيبة والشهادة مَن ظهر على الله الواحد الأحد الصمد بهذه الدعوى وترقى فيها جهلاً وعلواً إلى أن قال: «أنا ربكم الأعلى»ومن غِيرة الله وكمال حميته على نفسه أن يطرد من يدعي هذا عن ساحة عز حضوره ويهلكه بأشد العذاب وأسوأ النكال في النشأة الأولى والأخرى.

لذلك خاطب سبحانه حبيبه ﷺ بما خاطب وأخبره عن أنباء أخيه موسى عليه السلام مع من تكبر واستعلى في الأرض إلى حيث استعبد من عليها مدعياً الألوهية والربوبية لنفسه ؛ لذلك أخذه الله نكال الآخرة والأولى، إن في ذلك لعبرة لمن يخشى من قهر الله وغضبه، فقال سبحانه متيمناً باسمه العلي الأعلى:

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ ....

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ المتجلي بجمعيته في الأكوان على مقتضى الأوصاف والأسماء ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ لعموم المكونات بإفاضة الوجود على سبيل الاستواء بلا تفاوت في خلقه وإظهاره ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ لخواص عباده يوصلهم إلى توحيد ذاته بإفاضة أنواع الرشد وأصناف من الهدى

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾﴾ يا طالب السعادة المؤبدة المخلدة ويا طيب الطينة، وسالم السر والسريرة المنيِّرة المقدَّس عن المكدرات الطبيعية المورثة لأنواع الجهالات والضلالات، المنافية لصفاء مشرب التوحيد.

﴿ تِلْكَ ﴾ الآيات المتلوة عليك يا أكمل الرسل في هذه الصورة الحاكية عن قصص إخوانك من الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم أجمعين ﴿ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ أي نبذٌ مما ثبت في لوح القضا وحضرة العلم الإلهي الظاهر إحاطته وشموله لجميع ما لاح عليه شروق شمس الوجود.

﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ﴾ ونحكي لك يا أكمل الرسل ﴿ مِن نَّبَإِ﴾ أخيك ﴿ مُوسَىٰ ﴾ الكليم ﴿ وَفِرْعَوْنَ ﴾ المستكبر المستعلي المفرط في العتو والعناد، إنما أنزلته إليك هذا ملتبساً ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ المطابق للواقع مع كونك خال الذهن عنه وعن أمثاله ؛ لكونك أمياً لا تقدر على مطالعة كتب التواريخ، وإنما أنزلناه لتكون آيةً ودليلاً لك على صدقك في دعواك ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾﴾ ويصدقون رسالتك ونبوتك.

إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى

وذلك ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ ﴾ المفسد المسرف ﴿ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أي أرض مصر وترقى أمره إلى حيث تفوه بأنا ربكم الأعلى ﴿وَ﴾ من كمال علوه واستكباره ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا ﴾ أي أهل مصر ومن يسكنون حولها ﴿ شِيَعًا ﴾ أي فرقاً وأحزاباً يشايعونه لدى الحاجة، ويزدحمون عليه عند الإرادة طوعاً وكرهاً.

وبعد ما رأى فرعون في منامه ليلاً أن ناراً تخرج من دور بني إسرائيل وتقع على داره وتحرقها وما حولها من دور القبط ولم تضرّ بدور بني إسرائيل أصلاً، فأصبح وأمر بإحضار الكاهن العليم، فاستعبر منه الرؤيا فقال الكاهن: سيخرج من بني إسرائيل رجلٌ يستولي عليك ويستأصلك ومن معك، وبعد ما سمع من الكاهن ما سمع صار ﴿ يَسْتَضْعِفُ﴾ ويضعف ﴿ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ ﴾ هي بنو إسرائيل وبالغ في إضعافهم إلى حيث ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ أي أمَرَ الشرطة أن يقتلوا من ولد منهم ذكراً، لئلا يتقووا على قتاله، ولم يحدث بينهم من أخبر به الكاهن ﴿ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ ﴾ ليتزوجهن القبط ظلماً ويزدادوا، ويلحق العار والصغار على بني إسرائيل، وبالجملة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ﴾ أعظم ﴿ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ في الأرض، يريد أن يظهر على الله بقتل ما أوجده سبحانه عتواً واستكباراً.

﴿وَ﴾ بعدما بالغ في الإفساد والعناد وتمادى في الجور والفساد زماناً ﴿نُرِيدُ﴾ بمقتضى جودنا وسعة رحمتنا ﴿ أَن نَّمُنَّ ﴾ منةً عظيمةً ﴿عَلَى﴾

ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ ....

عبادنا ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ أي أرض العمالقة، وهم بنو إسرائيل الأسراء المظلومون في أيدي القبط ﴿ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ ﴾ قدوة كراماً متبوعين، بعدما كانوا أتباعاً أذلاء صاغرين ﴿ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ ﴾ من ظالميهم، يرثون منهم أرضهم وديارهم وأموالهم.

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ﴾ أي نقررهم ونوطنهم ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي أرض مصر والشام بعدما كانوا مضطربين متزلزلين ﴿ وَنُرِيَ ﴾ بمقتضى قهرنا وجلالنا ﴿ فِرۡعَوۡنَ ﴾ المفرط في العتو والعناد ﴿وَ﴾ ظهيره ﴿وَهَٰمَٰنَ﴾ المفتخر على أهل الزمان بنيابته ووزارته ﴿وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم﴾ أي بني إسرائيل ﴿ مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ منه، وهو ظهور مولود منهم يذهب به دولةُ القبط، وصار سبباً لهلاكهم بالمرة.

﴿وَ﴾ بعدما ولد موسى وظهر من أراد به سبحانه زوال ملك فرعون، استوحشت أمه من وقوف الشرطة عليه وقتله ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾ وألهمنا ﴿ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ ﴾ مهما أمكنك إرضاعه وإخفاؤه ﴿ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ﴾ من وقوفهم إياه، ضعيه في التابوت ﴿فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي﴾ من هلاكه وغرقه ﴿وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ﴾ من فراقه ﴿ إِنَّا﴾ من وفور لطفنا وعطفنا ﴿رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ﴾

وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ ....

لتحضنَه وتحفظَه إلى وقت كبره ﴿وَ﴾ بعدما استوى وبلغ أشده ﴿جَاعِلُوهُ مِنَ﴾ جملة ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ المؤيدين بالوحي والإلهام وظهور أنواع المعجزات والخوارق من يده.

وبعدما تفرست أم موسى بوقوف الشرطة وتجسسهم بعدما أرضعته ثلاثة أيام، وضعته في التابوت على الوجه المأمور، وألقته في اليم، مفوضة أمرها إلى الله المتكفل بحفظه، فذهب البحر بتابوته إلى حذاء دار فرعون، فرآه من فيها.

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ أي أخذوه وأخرجوه من اليم، وأحضروه وبعدما كشفوا عنه ستره، رأوا وليداً في غاية الحسن والجمال إلى حيث تبهر به عيون الناظر إليه يمضغ إبهامه، فلما رآه فرعون وامرأته وجميع من في بيته من الخدمة أحبوه وأعجبوا حسنه، وألقينا محبته في قلوبهم جميعاً إلى أن اتفقوا لحفظه غافلين عن مكرنا معهم ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ﴾ أي موجب حزن طويل وعداوة مستمرة ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾ مجبولين على الخطأ في جميع أفعالهم، ومن جملتها محافظة العدو الموجب لأنواع العذاب والنكال في النشأة الأولى والأخرى.

﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾ آسية رضي الله عنها من كمال محبتها له وتحننها

قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ ....

نحوه لفرعون: هو ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ﴾ كسائر أبناء بني إسرائيل على ظنٍ أنه منهم، بل نحفظه ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ أي رجاء أن ينفع بنا نفعا ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ خلفاً لنا إذا ظهر على رشدٍ تام وعقلٍ كاملٍ ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ إنه عدوهم الذي يذهب به دولتهم وملكهم بيده وهلاكهم بسببه.

﴿وَ﴾ بعد إلقائه في البحر ﴿أَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ صفراً من العقل ومقتضياته، وصارت قلقةً حائرةً هائمةً بحيث اضمحلت عنها أمارات الحياة تحنناً إلى ولدها وشوقاً إليه وخوفاً من قتله، سيما سمعت بالتقاط آل فرعون إياه ووقوعه بأيديهم ﴿إِن كَادَتْ﴾ أي أنه صارت من غاية الحزن والأسف إلى أن قربت ﴿لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ أي لتظهر وتبوح بأمره صائحةً عليه، فاجعة في شأنه من التقاط عدوه ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا﴾ وألقينا ﴿عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ السكينة والطمأنينة ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾ المصدقين لما وعدنا إياها برد ولدها لها بلا ضر من العدو.

﴿وَ﴾ بعدما سكنت من البوح والنوح والإظهار ﴿قَالَتْ لِأُخْتِهِۦ﴾ أي مريم أخت موسى ﴿قُصِّيهِ﴾ أي اتبعي أثره وتتبعي أمره كي تدرك إلى ما فعلوا معه فذهبت بأمرها ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ﴾ أي موسى ﴿عَن جُنُبٍ﴾ بعد

وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ

﴿وَ﴾ أخفت حالها عنهم إلى حيث ﴿هُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾ بقرابتها إياه، وهم بعد ما اتفقوا على حفظه وتركوا قتله، أرادوا أن يرضعوه، فطلبوا المرضعة لحضانته ورضاعته.

﴿۞ وَ﴾ قد كنا من متانة حكمنا وحكمتنا ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ أي قبل إلقائه أمه في البحر، وحين عهدنا مع أمه بِردّه إياها، بقولنا: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ [٢٨-القصص:٧] فأحضروا مراضع كثيرة، فأبى موسى عن مصّهنّ، فتحيروا في أمره ﴿فَقَالَتْ﴾ مريم بعدما انتهزت فرصة: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾ إن ابتغيتم المرضعة ﴿وَهُمْ﴾ أي أهل ذلك البيت ﴿لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾﴾ إلى أن كبر بحيث لا يغفل من تربيته وحفظه، فلما سمع هامان منها ما سمع قال: إنها قد عرفت أهله ومنشأه، خذوها حتى تخبر ما حاله؟ قالت مريم: إنما أردت: وهم[1] للملك ناصحون، فأمرها فرعون بإتيانها، فأتت بأمها وموسى على يدي فرعون يبكي ويصيح، فلما شم ريح أمه استأنس والتقم ثديها ومص بلا إباءٍ، فقال لها فرعون: من أنت منه فقد أبى كل ثدي إلا ثديك، فقالت: إني امرأة طيبة الريح واللبن، لا أوتي بصبي إلا قَبِلَني، فدفعه إليها وعين أجرة حضانتها ورضاعتها، فذهب به إلى بيتها من يومه كما قال سبحانه.

﴿فَرَدَدْنَاهُ﴾ في يوم إلقائه في البحر ﴿إِلَىٰ أُمِّهِ﴾ إيفاء لوعدنا إياها

---

(١) أي أهل ذلك البيت.

كَيْ نَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ ....

﴿كَيْ نَقَرَّ﴾ وتنور ﴿عَيْنُهَا﴾ بولدها، ﴿وَ﴾ بعدما رددناه إليها ألهمنا لها أن ﴿لَا تَحْزَنَ﴾ بعد اليوم، وتثق بوعدنا إياك ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ القادر على إيفاء العهود ﴿حَقٌّ﴾ ثابت مطابق للواقع، فكما أوفى سبحانه وعد رده إليك، يوفي وعد رسالته ونبوته أيضاً بلا خلف منه، فعليك أن تثقي بالله وتفوضي أمره إليه، فإنه سبحانه يكفي مؤونة شرور أعدائه، ويوصل إلى منتهى ما جبله لأجله، إذ هو قادر غالبٌ على كل ما أراد وشاء ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ أي أكثر الناس ﴿لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ كمال قدرته وحكمته.

﴿وَلَمَّا﴾ ربته أمه وأحسنت تربيته بمعاونة عدوه إلى أن ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ كمال قوته في نشوئه ونمائه ﴿وَاسْتَوَىٰ﴾ أي كمل وتم عقله ورشده إلى أن صلح لحمل أعباء الرسالة ﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾ من كمال جودنا إيفاءً لما وعدنا له في سابق علمنا وكتبنا لأجله في لوح قضائنا ﴿حُكْمًا﴾ نبوةً ورسالةً ؛ ليضبط به ظواهر الأحكام بين الأنام ﴿وَعِلْمًا﴾ لدُنياً متعلقاً بمعرفة ذات الحق المتصف بجلائل الأوصاف والأسماء وبمعرفة توحيده وتنزهه عن سمة الكثرة مطلقاً ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ما جزينا موسى ﴿نَجْزِي﴾ عموم ﴿الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ من خُلّص عبادنا البالغين رتبة الإحسان ؛ لأنهم يعبدون الله كأنهم يرونه، وإنما أتى بلفظ الماضي مع أنه إنما أرسل بعدما هاجر من بينهم إلى مدين تلميذ

وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ

شعيب(١) عليه السلام تنبيهاً على تحقق وقوعه.

﴿وَ﴾ بعد ما بلغ أشده ﴿دَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ﴾ أي مصر ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ لأنهم لا يترقبونه في ذلك الوقت قيل: هو وقت القيلولة، وقيل: وقت العشاء ﴿فَوَجَدَ﴾ بعدما دخل ﴿فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ قتالاً شديداً ﴿هَٰذَا﴾ أي أحد المقاتلين ﴿مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أي بني إسرائيل ﴿وَهَٰذَا﴾ أي الآخر ﴿مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ﴾ وبعدما وصل موسى إليهما ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ﴾ أي طلب منه الغوث والإغاثة الرجل ﴿ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ﴾ هو ﴿عَلَى﴾ الرجل ﴿ٱلَّذِى﴾ هو ﴿مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ لأن العدو غالب عليه، وبعد ما وجد موسى صديقه مظلوماً مغلوباً ﴿فَوَكَزَهُۥ﴾ أي العدو ﴿مُوسَىٰ﴾ أي ضم أصابعه مجتمعة مقبوضة فضرب بها العدو مرةً ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ﴾ أي هلك وانفصل روحه بوكزةٍ واحدة، فخجل من فعله هذا، واسترجع إلى الله مستحيياً منه سبحانه حيث ﴿قَالَ هَٰذَا﴾ أي ما جئت به من الفعلة الشنيعة ﴿مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ﴾ إذ هو يغريني عليه ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الشيطان المغري المغوي ﴿عَدُوٌّ﴾ لأهل الحق وأرباب اليقين ﴿مُّضِلٌّ﴾ لهم يضلهم عن الطريق المستبين ﴿مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ ظاهر العداوة والضلالة بالنسبة إلى أرباب الرشد والكمال.

﴿قَالَ﴾ موسى متضرعاً نحو الحق آيبًا إليه تائبًا عما صدر عنه مناجياً له

---

(١) في المخطوط (شعيباً).

رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥۚ ....

عن محض الندم: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني بأنواع اللطف والكرم بين يدي عدوي وخلّصني من البلية العامة بمقتضى جودك ﴿إِنِّي﴾ بالإقدام على هذا الأمر الشنيع ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ وعرضتها لعذابك بالخروج عن مقتضى حدودك بقتل هذا الشخص بلا رخصةٍ شرعيةٍ ﴿فَٱغْفِرْ لِي﴾ يا ربّ زلتي[1] بعد ما تبتُ إليك ورجعتُ عن ذنبي نادماً والتجأتُ إلى بابك راجياً ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ﴾ ربه زلته بعدما رجع إليه مخلصاً ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ لذنوب عباده بعدما رجعوا نحوه متذللاً خائباً خاسراً ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ لهم يقبل توبتهم بعد ما أخلصوا فيها وبعد ما تاب ورجع عما عمل خطأً.

﴿قَالَ﴾ مقسماً: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني بأنواع الكرامات أقسمت ﴿بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ من النعم العظام ﴿فَلَنْ أَكُونَ﴾ بعد اليوم ﴿ظَهِيرًا﴾ مُغيثاً ومعيناً ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ الذين أدت إغاثتهم إلى جرمٍ كبيرٍ وذنبٍ عظيمٍ، وبعدما صدر عن موسى ما صدر.

﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي مصر ﴿خَآئِفًا﴾ من أولياء المقتول ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ منهم الاستقادة ﴿فَإِذَا﴾ أي فوجئ[2] بغتةً بالرجل ﴿ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ﴾ واستغاث منه ﴿بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥۚ﴾ ويستغيثه لقبطي آخر يخاصم معه ويغلب عليه

(١) في المخطوط (ذلتي).

(٢) في المخطوط (فاجأ).

قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ﴾ أي للمستغيث ﴿إِنَّكَ﴾ مع ضعفك وقلة قوتك ﴿لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ ظاهر الغواية والضلال.

﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ﴾ موسى بعد ما نسبه الإسرائيلي إلى الغواية ﴿أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى﴾ أي بالقبطي الذي ﴿هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ أي لموسى والإسرائيلي، إذ القبطي عدو للسبطي[1] مطلقا ﴿قَالَ﴾ القبطي: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى﴾ ظلماً ﴿كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾ جبراً بغير حق ﴿إِن تُرِيدُ﴾ أي ما تقصد بفعلك هذا ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا﴾ قتّالاً ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ظلماً وعدواناً مباهياً بقدرتك وقوتك ﴿وَمَا تُرِيدُ﴾ أنت بهذه الجرأة والجريمة ﴿أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ بين المتخاصمين، بل من المفسدين أشدّ إفساد.

﴿وَ﴾ بعد ما انتشر الخبر بين القوم وشاع بين الأنام إلى أن وصل الخبر إلى فرعون وملئه بقتل موسى، بعدما شاوروا في شأنه ﴿جَآءَ رَجُلٌ﴾ مؤمن ﴿مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ إلى موسى وهو ابن عمه حال كونه ﴿يَسْعَىٰ﴾ يسرع ويتبختر ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ﴾ أي فرعون وأشراف قومه ﴿يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ وتشاوروا في شأنك واستقر رأيهم ﴿لِيَقْتُلُوكَ﴾ قصاصاً ﴿فَٱخْرُجْ﴾ من المدينة ذا الساعة ﴿إِنِّى﴾ من كمال عطفي ﴿لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾

---

(١) أي الذي من أسباط بني إسرائيل.

فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ ....

أنصحك بالخروج [من] بينهم لئلا يلحقك شرهم وضرهم، وبعدما سمع من الناصح ما سمع

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا﴾ أي من المدينة على الفور ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ إدراكه من الخلف ﴿قَالَ﴾ حين خروجه ملتجأً إلى الله مناجياً له: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني بكنفك وجوارك ونجاني من أنواع الفتن والمحن ﴿نَجِّنِي﴾ بلطفك ﴿مِنَ﴾ إدراك ﴿ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ القاصدين لمقتي وقتلي

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ أي جهة قرية شعيب عليه السلام ﴿قَالَ﴾ راجياً إلى الله، ذاكراً سوابق نعمه عليه من كمال فضله وكرمه: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي﴾ بمقتضى جوده العميم ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ أي الطريق المستقيم المنجي عن العدو، الموصل إلى الصديق المشفق؛ ليهديني إلى صراط الله الأقوم الأعدل الذي هو التوحيد المخلص عن وساوس التقليد، فعنَّ له ثلاث طرق، فاختار أوسطها بإلهام من الله إياه، وجاء الطلاب عقيبه، فاختاروا الآخرين، فنجا من شرورهم سالماً.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ﴾ ووصل بعد ما سار ثمانية أيام بلا زاد، يأكل الكلأ ﴿مَآءَ مَدْيَنَ﴾ أي بئراً قرب مدين، كان أهلها يسقون منها مواشيهم ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً﴾ أي فرقة عظيمة ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ قعد عندهم من شدة الوصب والجوع

يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ﴿٢٣﴾ ....

والعطش وهم ﴿يَسۡقُونَ﴾ مواشيهم بالدلو منها ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾ أي في مكان أبعد وأشغل من مكانهم ﴿ٱمۡرَأَتَيۡنِ﴾ معهما غنم كثير ﴿تَذُودَانِۖ﴾ أي تطردان وتصرفان غنمهما عن اختلاط غنمهم، وتبعدان عن الماء ﴿قَالَ﴾ موسى سائلاً عنهما بعدما شاهد حاليهما وذودَهُما ﴿مَا خَطۡبُكُمَاۖ﴾ أي شأنكما وأمركما، وأي شيء مقصودكما من الذود، مع أن أغنامكما في غاية العطش ﴿قَالَتَا﴾ مع كمال الاستحياء والتحفظ من مكالمته: ﴿لَا نَسۡقِي﴾ أغنامنا مع هؤلاء الرجال، إذ نحن من أهل بيت النبوة، لا نجتمع معهم في السقي، بل نصبر ﴿حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ﴾ أي يخلوا الدلو، ويُخرجوا مواشيهم إلى المرعى عن رأس الماء ـ الرعاء جمع راعٍ كتجار جمع تاجر، هذا على قراءة: ﴿يُصْدِر﴾ ـ بضم الياء، وكسر الدال ـ وأما على قراءة: ﴿يَصْدُر﴾ ـ بفتح الياء، وضم الدال ـ أي يذهب الرعاء بمواشيهم مرتبةً وينصرفوا من شفير البئر، إذ نحن لا نختلط مع أجانب الرجال ﴿وَ﴾ نحن من كمال اضطرارنا جئنا للسقي إذ ﴿أَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ﴿٢٣﴾﴾ فاقد البصر، وما لنا أخٌ وعمٌّ، وليس لأبينا سوانا.

وبعد ما سمع موسى منهما ما سمع ورأى ما رأى من كمال العطف والعفة والعصمة، قام مع أنه في غاية الضعف من شدة الجوع والوصب، وعلى رأس البئر حجرٌ عظيمٌ يقلّه عند الاستسقاء جمع كثير، فأقله وحده.

فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ جميع أغنامهما ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ﴾ وانصرف ﴿إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ وازداد جوعه ووصبه ﴿فَقَالَ﴾ ملتجئاً إلى ربه: ﴿رَبِّ إِنِّى﴾ من شدة جوعي وضعفي ﴿لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ﴾ ورزقتني من موائد إفضالك وإنعامك ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ وصل إليّ حينئذ ﴿فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ محتاجٌ مريد، وبعدما تم مناجاته مع ربه وطلب حاجتَه منه سبحانه.

﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا﴾ أي إحدى المرأتين ﴿تَمْشِى﴾ نحوه ﴿عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ تام منه فلما وصلت حوله، سلمت عليه ثم ﴿قَالَتْ﴾ له مستحيية: ﴿إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ﴾ ويكافئك ﴿أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ تبرعاً فأجابها موسى تبركاً برؤية شعيب عليه السلام لا طمعاً لأجرته.

روي أنه لما دخل عليه أتى أولاً بالطعام فامتنع موسى عليه السلام، وقال: نحن من أهل بيتٍ لا نبيع بالدنيا، قال شعيب عليه السلام: هذا من عادتنا مع كل من ينزل بنا، وإنّ من أتى بمعروف وأُهدي له، لم يحرم أخذه وأكله في جميع الأديان ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ﴾ أي جاء موسى شعيباً عليهما السلام وتبرك بشرف صحبته لاح عليه حاله ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ الذي جرى عليه من أوله إلى آخره وسمع منه الشيخ على التفصيل ﴿قَالَ لَا تَخَفْ﴾ بعد اليوم

﴿نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا ....

﴿نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ يعني فرعون وملأه، وبعدما جلس موسى عند شعيب عليهما السلام، وقص عليه ما جرى من الخوف والحزن وأنواع الكآبة.

﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا﴾ أي إحدى الابنتين وهي التي استدعته للضيافة: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ﴾ لرعي الغنم، وأنت تريد الأجير ﴿إِنَّ خَيْرَ﴾ جميع ﴿مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ﴾ من الرجال هو ؛ لأنه ﴿ٱلْقَوِيُّ﴾ أي شديد القوة ﴿ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ ذو الأمانة والديانة، قال لها أبوها حمية وغيرة: من أين عرفت قوته وأمانته؟ فذكرت لأبيها إقلال الحجر العظيم وحده من رأس البئر مع أن الناس يقلونه في جمعٍ كثير، فهذا دليل قوته، وأما أمانته فإني بعدما دعوته قام ومشى قدامي، وأمرني بالمشي خلفه صيانة عن النظر إلي، فقال لي: دليني عن الطريق إن ضللت، وهذا دليلٌ على كمال أمانته وصيانته حدود الله، ولما سمع شعيب عليه السلام من ابنته ما سمع من أمارات أمانته ومروءته، رغب إلى ألفته ومؤانسته.

حيث ﴿قَالَ﴾ شعيب لموسى عليه السلام: ﴿إِنِّىٓ﴾ بعدما وجدتك شاباً صالحاً سوياً ذا رشدٍ وأمانةٍ ﴿أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ﴾ على صداقٍ معينٍ ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى﴾ نفسك برعي الغنم ﴿ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا﴾

فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ....

كاملاً ﴿فَمِنْ عِندِكَ﴾ تبرعاً وإحساناً ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ بأن أحمِّلك أزيد من ذلك ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ للخدمة والمصاحبة والمؤاخاة والموافاة في أداء الحقوق والعهود.

﴿قَالَ﴾ موسى مجيباً له راغباً لقبول ما ألقاه من الكلام: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الوقت الذي عينته ملزماً علي أولاً ﴿بَيْنِى وَبَيْنَكَ﴾ معهود ثابت، والذي قلته ثانياً تبرعاً مني، وبالجملة ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ﴾ يعني أجل الالتزام وأجل التبرع ﴿قَضَيْتُ﴾ يقع المعهود بلا تردد ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ﴾ ولا تعدي ﴿عَلَىَّ﴾ بعد انقضاء كل واحد من الأجلين ﴿وَٱللَّهُ﴾ الشهيد المطلع لعموم أحوال عباده ﴿عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ من المشارطة والمعاهدة ﴿وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾ حفيظٌ يحفظه على وجهها.

﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ أي أقصى الأجلين ومكث عنده عشراً[1] أخر بعدما تزوج ابنته للاسترشاد والاستكمال، وبعد ما كمل بصحبة المرشد الكامل المكمل، أراد أن يرجع إلى قومه فخرج من عنده ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ نحو مصر، وهي حاملةٌ فجاءها الطلق في ليلةٍ شاتيةٍ مظلمةٍ، وهم على جناح السفر ضالين عن الطريق ﴿ءَانَسَ﴾ أي أبصر موسى ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ أي من

(١) يقول ابن كثير : وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: قضى عشر سنين وبعدها عشراً آخر وهذا القول لم أره لغيره.

نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ ....

الجهة التي تجاه الطور ﴿نَارًا﴾ ففرح من رؤيتها ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ﴾ ساعة ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ﴾ وأبصرت ﴿نَارًا﴾ ومِن هذا يُعلم أن أهله لم يروها، اذهبُ إليها ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ من الطريق استخبر من عندها ﴿أَوْ جَذْوَةٍ﴾ أي عودٍ غليظ معه شيء ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ إن لم أجد عندها أحداً ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ تستدفئون من البرد، فمكثوا، فبادر إليها سريعاً.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ أتاها وقرب إليها ﴿نُودِىَ مِن شَٰطِىِٕ ٱلْوَادِ﴾ أي شفيره وجانبه ﴿ٱلْأَيْمَنِ﴾ باليُمن والكرامة الواقعة ﴿فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ التي كثر الخير والبركة فيها ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ أي نودي من الشجرة التي تعقد النار عليها نداءً عجيباً معرباً عن اسمه مصرحاً به ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ﴾ المتحير في بيداء الطلب، القَلِق الحائر في فيافي التعب ﴿إِنِّىٓ﴾ مع كمال إطلاقي، وإن ظهرتُ على صورة نار وتقيدتُ بها متنزهاً عن كمال تنزهي عن عموم الصور والتعينات ﴿أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ الجامع لجميع الأسماء والصفات، المتجلي لجميع الصور والشؤون وعموم الهياكل والتماثيل، المتعالي عن الحلول في شيء والاتحاد به والمعية معه مطلقاً، فاطلبني تجد جميع حوائجك عندي ؛ لأني رب العالمين، أي مرب الكل ومدبره بعد ما

وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ....

أظهرتُ الأشياء وأوجدتُها من كتم العدم.

وبعدما سمع موسى ما سمع استوحش من هذا النداء، وارتعد من هيبة هذا الصدى ؛ لأنه في ابتداء انكشافه وشهوده، أَنِس معه ربه إزالةً لرعبه ووحشتها، فقال مخاطبا له آمراً:

﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ التي في يدك حتى ترى عجائب صنعنا وغرائب حِكمتنا، وليزول استبعادك من ظهورنا على صورة النار، فألقاها فإذا هي حيةٌ تسعى ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ وتتحرك على وجه السرعة ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ أي حيةٌ صغيرةٌ سريعة السير ﴿وَلَّىٰ﴾ موسى وانصرف عنها ﴿مُدْبِرًا﴾ بعدما أدبر مرعوباً مرهوباً ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي لم يرجع ولم يلتفت إلى أخذها خائفاً منها، هائباً قلنا له منادياً إزالةً لرعبه: ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ﴾ إلى عصاك وخذها ﴿وَلَا تَخَفْ﴾ منها ﴿ إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ عن ضرر ما ظهرتْ عليك من الصورة الحادثة المهيبة، فإنا سنعيدها سيرتها الأولى.

ثم أمر سبحانه ثانياً تأكيداً لتأنسيه إياه بقوله:

﴿ ٱسْلُكْ﴾ وأدخل ﴿يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ﴾ على الفور ﴿بَيْضَآءَ﴾ مضيئةً منيرةً محيّرةً للعقول والأبصار من كمال إشراقها وضوئها مع أنها ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي مرضٍ من برص وبهقٍ، فأدخلَ وأخرجَ، فرأى ما رأى

وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ ....

﴿وَ﴾ بعد ما رأى موسى يده في غاية البياض والصفاء، استوحش أيضاً منها، واسترهب عن عروض المرض إليها، أمره سبحانه ثالثاً إزالة لحزنه بقوله: ﴿اضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ أي يدك واطو كشحك ﴿مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ﴾ أي الخوف والحزن، وهذا كناية عن الطمأنينة والوقار، وعدم إخطار الخوف في البال ﴿فَذَٰنِكَ﴾ أي العصا واليد البيضاء ﴿بُرْهَـٰنَانِ﴾ أي شاهدان على نبوتك ورسالتك، ومعجزتان باهرتان لك لمن يعارض معك، وأنكر عليك رسالتك منتشئان ﴿مِن﴾ أمر ﴿رَّبِّكَ﴾ تأييداً لك ولأمرك حين أرسلك ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ﴾ لتدعوهم إلى توحيد الحق وصراط مستقيم، وتنذرهم عما هم عليه من الإفراط والتفريط ﴿إِنَّهُمْ﴾ من غاية انهماكهم في الغفلة والغرور ﴿كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ خارجين عن مقتضى الحدود الإلهية الموضوعة في شرائع الأنبياء الماضين والرسل المنقرضين.

ثم لما سمع موسى من ربه ما سمع

﴿قَالَ﴾ معتذراً مستظهراً: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني بسوابق النعم ﴿إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾ خطأً وأنت أعلم به مني ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾﴾ ويبادرون إلى قتلي قبل دعوتهم إلى دينك وتوحيدك لو ذهبتُ إليهم وحيداً فريداً بلا ظهير ومعين.

وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ ....

﴿ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ وأوضح بياناً وأتم تقريراً وتبياناً ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ﴾ وأشركه في أمري ليكون ﴿رِدْءًا﴾ أي معاوناً في أمري ﴿يُصَدِّقُنِيٓ﴾ لدى الحاجة ﴿إِنِّيٓ﴾ من كمال عداوتهم معي وشدة شكيمتهم وغضبهم عليّ ﴿أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ دفعةً ولا ينطلق لساني بمجادلتهم بسبب لَكْنَتي، فَأُفَوِّتُ بِلَكْنَتِي حكمة رسالتي وأحكام دعوتي ونبوتي.

﴿قَالَ﴾ له سبحانه على وجه التأييد والتعضيد: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ﴾ ونقويك ﴿بِأَخِيكَ﴾ مع ذلك لا تيأس من توفيقنا إياك، إذ بعد ما أرسلناكما إلى فرعون وملئه ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا﴾ حجةً قاطعة بها تغلبان عليهم ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ بقهرٍ واستيلاءٍ ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ أي بسبب آياتنا التي معكما، ولا تخافا عن غلبتهم عليكما بسبب شوكتهم وكثرة عَددهم وعُددهم بل ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا﴾ من المؤمنين هم ﴿ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ المقصورون على الغلبة، لا تتعدى الغلبة عنكم، وهم المغلوبون المنحصرون على المغلوبية، لا يتجاوزون عنها أصلاً.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ﴾ مؤيداً ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ الدالة على صدقها في دعواه مع كونها ﴿بَيِّنَـٰتٍ﴾ ظاهرات واضحات أنها من عندنا بلا تردد وريب ﴿قَالُوا۟﴾ من كمال قسوتهم وانهماكهم في الضلال: ﴿مَا هَـٰذَآ﴾ الذي أتى به على

إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ ....

صورة المعجزة والبرهان ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ اختلقه من تلقاء نفسه ونَسَبه إلى الله افتراءً وترويجاً لباطله من صورة الحق، ﴿وَ﴾ من شدة حرصه على ترويج ما زخرفه من عند نفسه سماه ديناً وهدايةً ورشداً، ونَسَبه إلى الوحي والإنزال من الإله الواحد الموهوم، مع أنا ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ أي بوحدة الإله المرسل للرسل والمنزل للكتب بالوحي والإلهام، الواضع للأديان والشرائع بين الأنام كائناً ثابتاً ﴿فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾﴾ إن هو إلا إفكٌ افتراه، ولبَّس على الأنام أمره تغريراً عليهم وتضليلاً لهم.

﴿وَ﴾ بعدما أبصروا الآيات القاطعة والبراهين الساطعة ونسبوها من غاية غيهم وضلالهم إلى السحر والشعوذة، مع أنها بمراحل عنها ﴿قَالَ مُوسَىٰ﴾ بعد ما قَنط من إيمانهم وصلاحهم ﴿رَبِّيٓ﴾ الذي رباني بأنواع الكرامات ﴿أَعْلَمُ﴾ مني ﴿بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ والرشد المنزل ﴿مِنْ عِندِهِۦ﴾ بمقتضى وحيه وإلهامه، ومن اهتدى واسترشد به ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ يعني العاقبة الحميدة المترتبة على هذه النشأة التي هي دار الابتلاء والاختبار، وبالجملة ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه بمقتضى عدله وحكمته ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ الخارجون عن مقتضى الحدود الإلهية، ولا يفوزون بما فاز المتقون من المثوبة العظمى والدرجة العليا.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ......

﴿وَ﴾ بعدما أتم موسى كلامه الصادر عن محض الحكمة ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ مستكبراً مستحيياً عمن حوله من الأنام ؛ لئلا ينسبوه إلى العجز والإفحام منادياً لهم على سبيل العظمة والكبرياء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ﴾ يُعبد بالحق ويستحق لها ﴿غَيْرِى﴾ ومن أين يدّعي هذا الكذاب في السماء إلهاً سواي ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ أي من العملة أن يتخذوا من الطين لبنها، وأوقِدوه بالنار إلى أن صار آجراً متحجراً ﴿فَٱجْعَل لِّى﴾ منها ﴿صَرْحًا﴾ رفيعاً وقصراً منيعا سمكها متصلاً إلى السماء، فأستعلي عليه ﴿لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ فإن أقبلَ بالقتال أغلبه وأحطه على الأرض صاغراً مهاناً ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿إِنِّى لَأَظُنُّهُۥ﴾ في هذه الدعوة ﴿مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ القائلين بقولٍ لا منشأ لها في الواقع، ولا أصل.

قيل: بنى رصدا ليطلع على نظرات الكواكب هل يجد فيها نظراً يدل على زوال ملكه باستيلاء موسى عليه السلام.

﴿وَ﴾ من كمال سكرتهم وعمههم وإمهالنا إياهم متمتعين ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ﴾ أي فرعون ﴿وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ والاستحقاق وترقبوا في عتوهم وعنادهم إلى أن ظهروا على الله بأمثال هذه الهذيانات الباطلة

وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةً يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ ....

﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ بالإقدام والجرأة على مثل هذه الخرافات ﴿أَنَّهُمۡ﴾ بعد خلعهم لوازم الناسوت ﴿إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾ رجوع الأظلال إلى الأضواء المنعكسة من شمس الذات والأمواج إلى الماء، وبعدما بالغوا في العتو والعناد، وظهروا على الأرض بأنواع الفساد.

﴿فَأَخَذۡنَٰهُ﴾ أي فرعون بمقتضى قهرنا وجلالنا ﴿وَجُنُودَهُۥ﴾ أيضاً بأنواع العذاب ﴿فَنَبَذۡنَٰهُمۡ﴾ أي طرحناهم ﴿فِي ٱلۡيَمِّۖ﴾ وغطّيناهم بالماء، فأغشيناهم بها مثل غشي وجوداتهم الباطلة بالوجود الحق الإلهي ﴿فَٱنظُرۡ﴾ يا أكمل الرسل ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ ومآل أمرهم وما يؤول إليه حالهم وشأنهم ﴿وَ﴾ من كمال ابتلائنا إياهم ومكرنا معهم

﴿جَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةً﴾ قدوة للضلال ﴿يَدۡعُونَ﴾ من تبعهم ويقتفي أثرهم ﴿إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾ أي أسبابها وموجباتها، إذ مآل الكل إليها تابعاً ومتبوعاً ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ أي لا يُدفع عنهم العذاب، ولا يُخفف عليهم بشفاعة أحد.

﴿وَ﴾ كيف ينصرون أولئك الضالون المضلون مع أنّا ﴿وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ﴾ وألزمنا عليهم ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ﴾ مستمرةً جاريةً على ألسنة مَن على

وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ ....

الأرض ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ المعدة للجزاء ﴿هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ المطرودين المسوقين نحو جهنم صاغرين مهانين.

﴿وَ﴾ بعدما نبذنا فرعون وجنوده في اليم ﴿لَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾ وأعطينا من كمال جودنا ﴿مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي التوراة الجامعة لظواهر الأحكام ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ واستأصلنا آثارهم وأحكامهم، بحيث لم يبق من شرائع المتقدمين وآثارهم وأحكامهم شيئاً بين الأنام كنوح وهود وصالح وإبراهيم، وإنما آتيناه ليكون ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ أي ينوِّروا بأحكامه وأوامره عيونَ بصائرهم ويستيقظوا من منام الجهل والغفلة، ويشتغلوا بطلب الحق ﴿وَهُدًى﴾ يهديهم إلى سلوك مسالك التوحيد ﴿وَرَحْمَةً﴾ يبشرهم إلى البقاء الأبدي السرمدي بعد انخلاعهم عن خلع تعيناتهم العدمية والإفناء عن هوياتهم الباطلة ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ رجاء أن يتذكروا ويتنبهوا من المواعظ والأحكام التي ذُكرت فيه إلى ما جُبلوا لأجله من المعارف والحقائق والرموز والإشارات والمكاشفات والمشاهدات.

ثم لما قص سبحانه [على] حبيبه ﷺ ما قصّ من قصة موسى الكليم وكيفية انكشافه من النار الموقدة على الشجرة وكيفية عروجه مترقياً من العلم إلى العين ثم إلى الحق، أراد أن يمنّ عليه سبحانه بما اصطفاه وفضّله من بين

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا ....

البرايا على الرسالة العامة، وأخبره من المغيبات بطريق الوحي والإلهام ما ليس في وسعة لولا وحيه والهامه سبحانه إياه فقال:

﴿وَمَا كُنتَ﴾ يا أكمل الرسل حين انكشف موسى بالواد المقدس وشهد من فضل الله عليه ما شهد ﴿بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ أي الوادي الذي على شفيرها الشجرة بالطرف الغربي من مقام موسى أي ما كنت حاضراً عنده ﴿إِذْ قَضَيْنَآ﴾ وأوحينا ﴿إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ الذي هو مطلوبه الحقيقي من مطلوبه الصوري ﴿وَمَا كُنتَ﴾ حينئذ ﴿مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾ الحاضرين المطلعين على شأنه وشهوده.

﴿وَلَٰكِنَّآ﴾ من كمال لطفنا وجودنا أخبرناك بما جرى بينه وبيننا في تلك الليلة كما أخبرنا لك أحوال أمم ﴿أَنشَأْنَا﴾ من بعد موسى ومن قبلك ﴿قُرُونًا﴾ أي زماناً متطاولةً ومدةً بعيدةً ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ ومكثوا في الدنيا كثيراً ودار بينهم الدول والحول، وحدثت الفتن والمحن ووقعت التغييرات والتحريفات في الشرائع والأديان، واندرست معالم الهدى، وفشى الجدال والطغيان، واستولت الهوية الفاسدة والآراء الباطلة على أهل الزمان، فأخبرنا لك في كتابك هذا من وقائعهم لتكون تذكرةً لك وعبرةً للمؤمنين بك ﴿وَمَا كُنتَ﴾ أيضاً يا أكمل الرسل ﴿ثَاوِيًا﴾ مقيما

فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ

﴿فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ شعيب عليه السلام ﴿تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ الدالة على كمال القسط والعدالة بلسان نبينا شعيب عليه السلام حين انحرفوا عن جادة الاعتدال في المكيلات والموزونات، واشتغلوا بالبخس والتطفيف وأنواع التنقيص والتخسير ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾ مخبرين لك، موحين إليك[1] ما جرى عليهم من الأحوال.

﴿وَمَا كُنتَ﴾ أيضاً حاضراً ﴿بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ الذي هو موعد موسى وقت ﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾ موسى لأخذ التوراة ووحينا إليه ﴿وَلَٰكِن﴾ علمناك به لتكون ﴿رَّحْمَةً﴾ لك نازلة إليك ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ تأييداً لك وتقوية لشأنك، بل إنما أوحيناك ما أوحيناك ﴿لِتُنذِرَ﴾ به ﴿قَوْمًا﴾ بقوا على فترة من الرسل إذ ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ من لدن عيسى عليه السلام وهي خمسمائة وخمسون سنة، أو إسماعيل عليه السلام بناء على أن دعوة أنبياء بني إسرائيل مختصة بهم لا يتعدى إلى غيرهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ يتعظون بما في كتابك ويتنبهون بما في حكمه وأحكامه إلى مبدئهم ومعادهم، ويفوزون منها إلى المعارف والحقائق التي جُبلوا لأجلها.

ثم قال سبحانه على سبيل التوبيخ والتقريع:

﴿وَلَوْلَآ﴾ كراهة ﴿أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾ عظيمةٌ جالبةٌ لنزول أنواع العذاب

(١) في المخطوط (لك).

بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُۖ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا

والنكال ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي بشؤم ما اقترفوا من المعاصي ﴿فَيَقُولُواْ﴾ حينئذ مجتمعين علينا، مجادلين بنا، بعدما أخذناهم عليها: ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ﴾ وهلاّ ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ من عندك مؤيداً من لدنك بالآيات البيّنات ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ البالغة إلينا برسالته ونصدقها ونعمل بمقتضاها ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ الموقنين بوحدانيتك، المخلَصين من عذابك.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي الرسول المرسل ﴿مِنْ عِندِنَا﴾ ملتبساً بالحق المؤيد بالآيات الساطعة القاطعة ﴿قَالُواْ﴾ من خبث طينتهم وشدة شكيمتهم وضغينتهم: ﴿لَوْلَآ أُوتِيَ﴾ وهلاّ أوتي بهذا الرسول المرسل إلينا من الدلائل والمعجزات ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ﴾ حتى نصدقه ونؤمن به، وما هذا إلا من غاية غيّهم وضلالهم وغلظ حجبهم وغشاوتهم، وإلا لو أوتي له مثل ما أوتي موسى، لكفروا له البتة ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُۖ﴾ حيث ﴿قَالُواْ﴾ بعدما شاهدوا دلائله ومعجزاته مبالغين في رده وإنكاره: ﴿سِحْرَانِ﴾ أو ساحران على القراءتين ﴿تَظَٰهَرَا﴾ يعنى موسى وهارون مع أنّ ما أتيا به بعيدٌ بمراحل عن السحر، وأنتم أيضاً من بقية ما كفروا بدلائل موسى، ونسبوها إلى السحر، ولو آتينا محمداً ﷺ مثل ما آتينا موسى لكفرتم به البتة كما كفر أسلافكم بآيات موسى ومعجزاته، مع أن دلائل محمد أقوى من

وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ ....

دلائل موسى، وكتابَه أجمعُ من كتابه، وأتم نظماً وأكمل معرفة وأعم حكما وأشمل فائدة، وبعدما سمعوا ما دل على خباثة فطرتهم ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ مظهرين ما في نفوسهم من الشرك والنفاق: ﴿إِنَّا بِكُلٍّ﴾ مما يدعي الرسالة والنبوة والإرشاد والهداية ﴿كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ منكرون له، لا نقبل عن أبناء جنسنا مثل هذه المفتريات التي اختلقوها من تلقاء أنفسهم، ونسبوها ترويجا لها إلى ما لا وجود له في الواقع وسموه إلهاً واحداً أحداً صمداً فرداً وتراً، لم يتخذ صاحبةً ولا ولداً.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل على سبيل التعجيز والتوبيخ بعدما ما عاينت منهم الكفر على أبلغ وجه وآكده: ﴿فَأْتُواْ﴾ أيها المفسدون المسرفون ﴿بِكِتَٰبٍ﴾ نازلٍ ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ المنزل للكتب لإرشاد عباده ﴿هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ﴾ أي من التوراة والقرآن ﴿أَتَّبِعْهُ﴾ أي الكتاب وما فيه من الأحكام، وأمتثل لأوامره، وأجتنب عما نهي فيه ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ في نسبتنا إلى السحر

﴿فَإِن﴾ عجزوا عن الإتيان و﴿لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ﴾ ما طلبت منهم ﴿فَٱعْلَمْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي أنهم إنما يتبعون أهواءهم الفاسدة وآراءهم الباطلة بلا متابعةٍ منهم إلى ملةٍ من الملل السالفة، وإلى دينٍ من الأديان السابقة ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ طريقاً وأشد غياً وأسوأ حالاً ومآلاً

مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ....

﴿مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ حال كونه ﴿بِغَيۡرِ هُدٗى﴾ أي توفيقٍ وإرشادٍ ﴿مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾ الميسِّر لأمور عباده، وكيف يوفقهم الحق ويهديهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ الحكيم المتقن في أفعاله ﴿لَا يَهۡدِي﴾ إلى الطريق المستبين ﴿ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ الخارجين عن مقتضى أوامره ونواهيه، إذ هم منهمكون في بحر الغفلة والضلالة، لا يرجى نجاتهم منها.

﴿۞وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا﴾ وفصلنا ﴿لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ﴾ بأنا أَتْبَعنا الأحكام بالحِكم، والأوامرَ بالمواعظ، والتذكيرات والنواهي بالعبر والأمثال، وأوضحنا الكل بالقصص والوعيدات الهائلة لأهل الغفلة والنسيان، وتنزيل أنواع العذاب والنكال على أهل الكفر والإنكار ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾ ويتعظون منها، فيؤمنون ويقبلون، ومع ذلك لم يتعظوا ولم يتأثروا، فلم يقبلوا ولم يؤمنوا. ثم قال سبحانه:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي الفرقة الذين آتيناهم التوراة ووفقناهم على امتثال ما فيها من الأوامر والنواهي وجميع الأمور المتعلقة بالمعتقدات الدينية ﴿مِن قَبۡلِهِۦ﴾ أي قبل نزول القرآن ﴿هُم بِهِۦ﴾ أي بالقرآن وبمحمد ﷺ وإنزال القرآن إليه ﴿يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ إذ هم مصدقون بجميع ما في كتابهم.

ومن جملة الأمور المثبتة في كتابهم إرسال محمد ﷺ وإنزال القرآن إليه،

وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ ....

وهم يؤمنون به قبل بعثته ﷺ ونزول القرآن لمدة متطاولة

﴿وَ﴾ بعد نزول القرآن ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ﴾ مسلِّمين مصدقين: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ المطابق للواقع النازل ﴿مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي من قبل نزوله ﴿مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾ منقادين لما فيه، مصدقين له، مؤمنين بما أنزل إليه، إذ الإيمان به من جملة المعتقدات المثبتة في كتابنا، فالآن لِمَ لَمْ نؤمن مع أنا وجدناه مطابقاً لما علمناه في كتابنا وعلى الوجه الذي تلوناه فيه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ السعداء المقبولون عند الله ﴿يُؤْتَوْنَ﴾ ويعطون ﴿أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ أي ضعفين أي مرةً على الإيمان السابق بالقرآن وبمحمد ﷺ بمقتضى ما ثبت في كتابهم، ومرةً على الإيمان اللاّحق، بعدما عاينوا ما وصف لهم في كتابهم وإنما ضوعفوا ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ وثبتوا على ما نزل عليه من قبل الحق ولم يتركوا امتثاله سابقاً ولاحقاً بواسطة دوامهم وثباتهم على الأمر أو في كتابه ﴿وَيَدْرَءُونَ﴾ أي يدفعون ويسقطون ﴿بِٱلْحَسَنَةِ﴾ أي الخصلة الحميدة الموجبة لأنواع الإفضال والإنعام ﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾ الجالبةَ لأنواع العذاب والخذلان ﴿وَ﴾ هم أيضاً من كمال اتصافهم بالكمال والإحسان ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ وأقدرناهم على كسبه ﴿يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾ في سبيلنا طلبا لمرضاتنا.

﴿وَ﴾ من كمال تحفظهم وصيانتهم نفوسهم عن نواهينا ﴿إِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ﴾ أي الكلام الخالي عن المصلحة الدينية ﴿أَعْرَضُواْ عَنْهُ﴾ اتقاءً

وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ

وتحرزاً عن وصمة المداهنة والمراضاة بما لا يرضى منه سبحانه ﴿وَقَالُوا۟﴾ من سلامة نفوسهم وكمال علمهم[1] للمرتكبين بعد ما لم يقدروا على نهيهم ﴿لَنَآ﴾ جزاء ﴿أَعْمَـٰلُنَا﴾ التي اقترفناها بسعينا واجتهادنا ﴿وَلَكُمْ﴾ جزاء ﴿أَعْمَـٰلُكُمْ﴾ التي أنتم عليها مصرين، وقالوا لهم حين توديعهم والذب عنهم: ﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي سلمكم الله العفو الرحيم عن عوائد ما كنتم عليه، ووفقكم على التوبة والإنابة، وما لنا معكم مطالبةٌ ومجادلةٌ سوى إنا ﴿لَا نَبْتَغِى﴾ ولا نطلب مصاحبة ﴿ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ بسوء عواقب الخصائل الغير المرضية عند الله وعند خالص عباده.

ثم لما احتضر أبو طالب ودنا أن يخرج من الدنيا جاءه الرسول ﷺ مهتماً بإيمانه وتوحيده، فقال له: «قُلْ يَا عَمّ مَرَّةً لَا إِلَهَ إِلَّا الله، أَحَاجُّ بَهَا لَكَ عِنْدَ رَبِّي، وَأُخْرِجُكَ بَهَا عَنْ زُمْرَةِ الْمُشْرِكِيْن»، قال: يا ابن أخي، والله إني علمت إنك لصادق في جميع ما جئت به، لكن أكره أن يقال: جزع أبو طالب عند الموت أي ضعف وجبن، أنزل سبحانه هذه الآية تأديباً لحبيبه ﷺ، وردعاً عن طلب شيء لا يُعرف حصوله[2] فقال: ﴿إِنَّكَ﴾،

---

(١) في المخطوط (حلمهم).

(٢) حديث متفق عليه ذكره البخاري بلفظ: (عن سَعِيدُ بن الْمُسَيَّبِ، عن أبيه أَنَّهُ أخبره أَنَّهُ لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ جَاءَهُ رسول الله ﷺ فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلِ بن هِشَام وَعَبْدَ اللهِ بن أبي أُمَيَّةَ بن الْمُغِيرَةِ قال رسول اللَّهِ ﷺ لِأَبِي طَالِبٍ: «يا عَمِّ قُلْ: لَا إِلَهَ إلا الله كَلِمَةً أَشْهَدُ لك بها عِنْدَ الله»، فقال أبو جَهْلٍ وَعَبْدُ الله بن أبي أُمَيَّةَ: يا أَبَا طَالِبٍ أَتَرْغَبُ عن مِلَّةِ عبد الْمُطَّلِبِ؟! فلم يَزَلْ رسول الله ﷺ يَعْرِضُهَا عليه وَيَعُودَانِ بِتِلْكَ الْمَقَالَةِ حتى قال أبو طَالِبٍ آخِرَ ما كَلَّمَهُمْ هو على مِلَّةِ عبد الْمُطَّلِبِ وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إلا الله ، فقال رسول الله ﷺ: أَمَا والله لَأَسْتَغْفِرَنَّ لك ما لم أُنْهَ عَنْكَ» فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى

لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا

يا أكمل الرسل من شدة حرصك واهتمامك ﴿لَا تَهْدِي﴾ وترشد إلى طريق الحق وسبيل التوحيد كلّ ﴿مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ وأردت إيمانه ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ﴾ المطلعَ على استعدادات عباده ﴿يَهْدِي﴾ ويوفق على الإيمان والإطاعة بدين الإسلام ﴿مَن يَشَاءُ﴾ هدايته وأثبت سعادته وتوحيده في لوح قضائه ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ من عباده، بعد [أن] بلغتَ لهم ما أمرك الحق بتبليغه، وما عليك إلا البلاغ، والهدايةُ والرشادُ أنما هو بإرادته سبحانه واختياره.

ومن الأعراب قوم جاؤوا إلى رسول الله ﷺ ﴿وَقَالُوا﴾إنا قد علمنا يقيناً أنك على الحق والهداية والرشاد لكن ﴿إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ﴾ ونؤمن بك ونعمل بدينك واتبعناك بجميع ما جئتَ به من عند ربك على الوجه الذي اعتقدناك ﴿نُتَخَطَّفْ﴾ ونُخرج ﴿مِنْ أَرْضِنَا﴾ التي كنا مستقرين عليها بمخالفتنا العرب، إذ نحن أكلة رأسٍ متفقين، ومتى خالفناهم في أمر لم يرضوا عليه، أخرجونا من بينهم صاغرين مهانين، فردّ الله عليه سبحانه عذرهم هذا بقوله: ﴿أَ﴾ يخافون أولئك الخائفون ﴿وَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ﴾ في ما مضى، ولم نجعل مكانهم الذي يستقرون فيه ﴿حَرَمًا﴾ ذا حرمة عظيمة ﴿آمِنًا﴾ ذا أمن من جميع المكروهات جالباً لأنواع الخيرات والبركات؟.

فيه ﴿ما كان لِلنَّبِيِّ﴾ الآيَةَ صحيح البخاري [١/ ٤٥٧ رقم / ١٢٩٤ / باب: إذا قال المشرك عند الموت لا إله إلا الله] صحيح مسلم [١/ ٥٤ رقم / ٢٤/ باب: الدليل على صحة إسلام من حضره الموت مالم يشرع في النزع وهو الغرغرة].

﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥٨﴾ ....

إذ ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ ويجمع فيه ويحمل نحوه ﴿ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي نفائسه من كل أمدٍ بعيد، وفج عميق، ليكون ﴿رِّزْقًا﴾ لهم سابقاً ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾ إياهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ المجبولين على الجهل والنسيان ﴿لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧﴾ كمال لطفنا معهم ووفور نعمتنا ورحمتنا إياهم.

﴿وَ﴾ قل لهم يا أكمل الرسل نيابة عنا: لا تغرنكم الحياة الدنيا وإمهالنا إياكم فيها مترفهين متنعمين إذ ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ﴾ أي كثيراً أهلكنا أهل قرية قد ﴿بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ﴾ أي كان أهلها بطرين بسعة عيشها ووفور معيشتها أمثالكم، فدار عليهم الدول، فأخذناهم بأنواع النقم بدل نعمهم، فأهلكناهم واستأصلناهم صاغرين ﴿فَتِلْكَ﴾ الأطلال الخربة والآثار الكربة، التي تجاه وجوهكم ﴿مَسَٰكِنُهُمْ﴾ وأوطانهم التي يتمكنون فيها مترفهين بطرين[1]، انظر كيف اندرست وتفتتت إلى حيث ﴿لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ في بلادهم وأماكنهم ﴿إِلَّا قَلِيلًا ۖ﴾ من أهل السفر والعبور، ينزلون فيه ويرحلون بلا إقامة فيها ووراثةٍ لها، وهكذا الدنيا وحياتها والاستقرار عليها والتمتع بمتاعها عند العارف المتحقق بحقيقتها ﴿وَ﴾ بعدما أهلكناهم وخربنا بلادهم ﴿كُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥٨﴾ منهم، حيث لا نمكن فيها خلفا من أبناء نوعهم من شؤم آثارهم ومعاصيهم التي كانوا عليها مصرين غير

(١) في المخطوط (بطريق).

وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ....

ممتنعين، وإن أرسلنا عليهم الرسل وأنزلنا عليهم الكتب.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ وما ينبغي ويليق بشأن العليم الحكيم أخذهم بغتة بلا منبه منذر، بل ما أخذهم على ظلمهم ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا﴾ أي البلدة التي هي أم القرى الهالكة، إذ أهلها قبل المرشد والهداية من أصحاب القرى والنواحي، وهم تابعون لهم في معظم أمورهم ﴿رَسُولًا﴾ مؤيداً من عندنا، مرسلاً إليهم ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَاۚ﴾ الدالة على عظيم ذاتنا وكمال قدرتنا على الإنعام والانتقام ويدعوهم إلى توحيدنا والتديّن بالدين الموضوع من عندنا، فتلا عليهم آياتنا فدعاهم إلى توحيدنا وديننا، فلم يقبلوا قوله ولم يستجيبوا له بل كذبوه وجميع ما جاء به من الرشد والهداية، مصرين على ما هم عليه من الغواية، فاستحقوا الهلاك والعذاب فأهلكناهم ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ يعني ما كنا مبادرين على إهلاك القرى الهالكة بلا سبق أسباب صدرت عنهم واستوجبت هلاكهم، بل إنما أخذناهم بعد ما ظلموا أنفسهم بالخروج عن مقتضى حدودنا الموضوعة فيها ظلماً وعدواناً، وصاروا مصرين مباهين بما آتيناهم من زخرفة الدنيا المستعارة الفانية التي ألهاهم عن اللذائذ الأخروية الباقية فيهم.

﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿مَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ﴾ في هذه النشأة ﴿فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾

﴿وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٠ أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ٦١﴾

الدنية التي هي[1] على طرف التمام، مشرفة على التقضي والانصرام ﴿وَزِينَتُهَاۚ﴾ الزائلة الذاهبة بلا قرار ولا دوام ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من المعارف والحقائق والمكاشفات والمشاهدات لأرباب المراتب العلية والمناصب السنية من المنقطعين نحو الحق بعد انخلاعهم عن لوازم هوياتهم البشرية الفائضة عن التلذذ باللذات الروحانية ﴿خَيۡرٞ﴾ لا يتخلل بينه شيءٌ ولا يعرضه ضرٌ ﴿وَأَبۡقَىٰٓۚ﴾ إذ لا يلحقه انصرام ولا انقضاءٌ ولا زوالٌ ولا فناءٌ، ﴿أَ﴾ تستبدلون أيها الحمقى الأدنى الفاني بالأعلى الباقي وتختارون اللذة الجسمانية على اللذات الروحانية ﴿فَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٠﴾ ولا تستعملون عقولكم الموهوبة بمقتضاها ليتميز عندكم ما هو الأليق بحالكم والأولى بمآلكم؟!.

﴿أَ﴾ تسوُّونَ الأجل الباقي بالعاجل الزائد الفاني، مع أن الكل من عندنا وتحت قدرتنا ﴿فَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا﴾ أي موعداً ذا حسن وكرامة وبهجة وبهاء ﴿فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ أي مدركه وموصله إليه، إذ لا خلف لوعدنا، أتظنون وتعتقدون أيها الجاهلون أن منزلة هذا السعيد الموفق على السعادة من عندنا ﴿كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ﴾ في هذه النشأة ﴿مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ مكدرةً بأنواع الكدورات، مشوبةً بالآلام والحسرات، منغمسةً بالخبائث والقاذورات ﴿ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ بعد انقراض النشأة الأولى ﴿مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ٦١﴾ للحساب والجزاء على ما تمتعوا في النشأة الأولى. ثم قال سبحانه:

(١) في المخطوط (فهي).

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ ....

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل لمن أشرك بالله وأثبت له شريكاً في الوجود سواه ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ الله المتعزز برداء العظمة والكبرياء، حين ظهر على مظاهره باسم القهار المفني لأظلال السوى والأغيار مطلقاً ﴿فَيَقُولُ﴾ على مقتضى غيرته وجلاله مخاطباً لمن أشرك به شيئاً من عكوسه وأظلاله، مع أن الكل حينئذ مطموس مقهور تحت حوله وقدرته: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ أيها المشركون شركائي، وتعبدونهم كعبادتي عدواناً وظلماً، ثم أظهرهم الحق وأوجدهم أي التابعين والمتبوعين جميعا بعدما قهرهم وعذبهم جميعاً إظهاراً للقدرة الكاملة وإلزاماً للحجة البالغة، وبعد ما أظهرهم وسأل عنهم.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ﴾ أي ثبت وتوجه ﴿عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أي السؤال من الله وهم الشياطين المعبودون مناجين نحو الحق متضرعين قائلين: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا على فطرة التوحيد كيف صدر منا أمثال هذه الجرأة بل[1] ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الغواة الهالكون في تيه الغي والضلال هم ﴿ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾ عن منهج الاستقامة والسداد بأنواع التذلل والانقياد والإطاعة والعبادة إيانا على مقتضى أهويتهم الفاسدة وآرائهم الباطلة، مع أنا لا نستحق بها على توهّم منهم إنّا قادرون على إنجاح ما في نفوسهم من الأماني والشهوات، ونحن أيضاً ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ﴾

(١) في المخطوط (له).

كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ ....

بأنواع التغرير والتضليل ﴿كَمَا غَوَيْنَا﴾ هؤلاء إيانا بعبادتهم وطاعتهم نحونا، فتعارض إغواؤنا بإغوائهم، وحين ظهر الحق تساقطا، فالآن ﴿تَبَرَّأْنَا﴾ عنهم وعن عبادتهم والتجأنا ﴿إِلَيْكَ﴾ تائبين آيبين مع أنهم ﴿مَا كَانُوٓا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ حين ادعوا عبادتنا، بل إنما عبدوا أهوية نفوسهم وأماني قلوبهم، وتوسلوا بنا فيها، والعابدون أيضاً يتبرؤون عن معبوداتهم بأشد من ذلك.

﴿وَقِيلَ﴾ حينئذ من قبل الحق للمشركين: ﴿ٱدْعُوا شُرَكَآءَكُمْ﴾ الذين تطمعون وتدعون شفاعتهم لكم ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ صائحين متضرعين ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ من كمال عجزهم وحيرتهم في أمر أنفسهم ﴿وَ﴾ بعدما ﴿رَأَوُا﴾ النازل على أربابهم، قالوا متمنين على سبيل التلهف والتحسر: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾ في النشأة الأولى، لينقذوا أنفسهم من العذاب اليوم، فكيف إنقاذهم بنا.

﴿وَ﴾ بعدما سألَ سبحانه عن شركهم، سألهم عن تكذيب رسله، اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ الحق ﴿فَيَقُولُ﴾ سبحانه معاتباً إياهم ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ حين دعوتكم إلى الإيمان والتوحيد والعمل الصالح والاجتناب عن المحظورات وترك المنكرات

فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ....

﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ﴾ يعني ضلوا وتحيروا عن جميع طرق الكلام، وسُدت عليهم سبل الأجوبة والإخبار مطلقاً، وذلك من كمال دهشتهم وحيرتهم وشدة عمههم وسكرتهم ﴿فَهُمْ﴾ يومئذٍ من غاية ولههم وحيرتهم ﴿لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ ولا يتقاولون، أي لا يسأل بعضهم بعضاً حتى يعلمه، بل كلهم حينئذ حيارى سكارى تائهين هائمين، لا يُسمع لهم ولا يتأتى منهم الالتفات والتلقي أصلاً.

﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ عما جرى عليه من المعاصي ﴿وَءَامَنَ﴾ بالله على مقتضى ما أمرهم الحق بلسان رسله وأنبيائه ﴿وَعَمِلَ﴾ عملاً ﴿صَٰلِحًا﴾ امتثالاً لما نطق به الكتب والرسل ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ﴾ هذا السعيد ﴿مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾ الفائزين بالمثوبة العظمى والدرجة العليا عند الله، ومن المبشرَّين من عنده بشرف اللقاء والوصول إلى دار البقاء.

﴿وَرَبُّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿يَخْلُقُ﴾ ويُظهر بمقتضى تجلياته الحِبِّية الجمالية جميع ﴿مَا يَشَآءُ﴾ من المظاهر ﴿وَيَخْتَارُ ۗ﴾ منها ما يختار، فالكل مجبور تحت قدرته ومشيئته ﴿مَا كَانَ﴾ أي ما صحَّ وثبت ﴿لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ﴾ أي التخيّر والاختيار حتى يريدوا لأنفسهم ما هو الأصلح لهم، بل جميع شؤونهم وأمورهم مفوضةٌ إلى الله أوّلا وبالذات، وهم مقهورون مجبورون

﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٨ وَرَبُّكَ يَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٦٩ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٧٠﴾ ....

تحت حكمه وقضائه، وكيف لا يكونوا مجبورين، إذ هم من عكوس أسمائه وظلال أوصافه، ما لهم وجودٌ في أنفسهم وتحققٌ في ذواتهم ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ المنزه عن المثل والشبيه ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٨﴾ من الشريك والنظير.

﴿وَرَبُّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿يَعۡلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿مَا تُكِنُّ﴾ وتخفي ﴿صُدُورُهُمۡ﴾ أي ضمائرهم وقلوبهم ﴿وَمَا يُعۡلِنُونَ ٦٩﴾ بجوارحهم وآلاتهم.

﴿وَ﴾ كيف يخفى عليه شيء إذ ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾ الواجب لذاته، المستقل في وجوده وظهوره على عروش عموم مظاهره ومصنوعاته بالاستقلال التام والاستيلاء الكامل ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ في الوجود سواه، ولا عالم لما ظهر وبطن ﴿إِلَّا هُوَۖ﴾ لذلك ثبت ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ﴾ والثناء من ألسنة ذرائر الأكوان، وجميع من رش عليه من رشحات جوده ولمعات وجوده ﴿فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ من نشأتي الظهور والخفاء، والبروز والكمون، والقبض والبسط ﴿وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾ والأمر في الصعود والهبوط، والنزول والعروج، وجميع الشؤون والتطورات ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿إِلَيۡهِ﴾ لا إلى غيره، إذ لا غير في الوجود ﴿تُرۡجَعُونَ ٧٠﴾ وتُحشرون، كما أن منه تبدؤون وتنشؤون.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ

ثم أشار سبحانه إلى معظم ما أنعم على عباده من تجدد الملوين وتعاقب الجديدين امتناناً لهم وحثاً على مواظبة شكره ومداومة ذكره والتذكر بإحسانه وإنعامه، وتعريضاً للمشركين، فقال آمراً لحبيبه ﷺ:

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل للناس الناسين توالي نعمنا المترادفة، مستفهماً إياهم مستخبراً منهم على سبيل التنبيه والتذكير ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أي أخبروني أيها المغمورون بنعمي ﴿إِن جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ المحوِّل للأحوال، المدبرُ لجميع التدابير ﴿عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ﴾ المظلم ﴿سَرْمَدًا﴾ ممتداً مستمراً بلا تخلل ضوءٍ بينه ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ﴾ قادرٌ على إيجاد الضوء في خلال الظلمة ﴿غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ على زعمكم الفاسد ﴿يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ تفوزون إلى أمور معاشكم بسببها ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾ أمثال هذه التذكيرات ولا تفهمون معناها ولا تستكشفون عن الحِكم والمصالح المدرجة فيها أيها المجبولون على الفهم والاستكشاف. ثم قال سبحانه

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ المصلح لجميع حالاتكم ﴿عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ﴾ المضيء ﴿سَرْمَدًا﴾ مستمراً دائماً بلا لحوقِ ما يضاده ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ الواحد الأحد المستقل بالألوهية والربوبية ﴿يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ وتستريحون من تعبكم اللاحق

أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا ....

من أشغالكم ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ آلاء الله الفائضة عليكم على التعاقب والتوالي لإصلاح أحوالكم ليلاً ونهاراً حتى تواظبوا على شكرها وتداوموا لأداء حقها سراً وجهاراً.

﴿وَمِن﴾ كمال ﴿رَّحْمَتِهِۦ﴾ ووفور مرحمته[1] ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ متجددَين متعاقبَين ﴿لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ أي في الليل، وتستريحوا عما عرض عليكم في النهار من المتاعب والمشاق ﴿وَلِتَبْتَغُواْ﴾ وتطلبوا ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ وسعة جوده في النهار ﴿وَ﴾ إنما أفاض عليكم كل ذلك ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ نعمه سبحانه كي تفوزوا إلى ما أعد لكم من موائد كرمه، ولا تشركوا معه شيئاً من مظاهره ومصنوعاته، ولا تنظروا إلى الوسائل والأسباب العادية، ولا تنسبوا الأفعال الحادثة في الآفاق على غيره سبحانه، بل نزهوه عن مطلق المشاركة والمماثلة، وقدّسوه عن جميع ما لا يليق بشأنه.

﴿وَ﴾ اذكر للمشركين أيضاً يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ الحق ﴿فَيَقُولُ﴾ مغاضباً عليهم، مستفهماً على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ أيها الحمقى شركاءَ معي، أحضروهم حتى يظهر الحق ويقمع الباطل الزاهق الزائل.

﴿وَ﴾ بعدما بهتوا وسكتوا من الجواب ﴿نَزَعْنَا﴾ وأخرجنا

---

(١) في المخطوط (رحمته).

مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ ....

﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ يشهد عليهم جميعَ ما صدر عنهم وجرى عليهم في دار الاختبار، والشهيدُ هو النبي المبعوث إليهم حين انحرافهم عن سبيل الاستقامة ﴿فَقُلْنَا﴾ للأمم بعد نزع شهدائهم ﴿هَاتُوا۟﴾ أيها الضالون ﴿بُرْهَـٰنَكُمْ﴾ أي مستندكم ودليلكم الذي أنتم تضلون لأجله وتشركون بسببه وتنحرفون عن جادة العدالة وسبيل السلامة بمتابعته ﴿فَعَلِمُوٓا۟﴾ حينئذٍ ﴿أَنَّ ٱلْحَقَّ﴾ أي اللياقة والاستحقاق على العبادة ﴿لِلَّهِ﴾ الحقيق بالحقيّة، الجدير بالألوهية، اللائق بالربوبية، ليس كمثله شيء يُعبد له ويُرجع إليه ﴿وَ﴾ بعدما جاء الحق وزهق الباطل ﴿ضَلَّ﴾ أي غاب وخفي حينئذ ﴿عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ المعبودية إليه، وينسبون الألوهية والربوبية نحوه جهلاً وعناداً، ويدّعون اشتراكه مع الله في استحقاق العبادة والرجوع إليه لدى الحاجة.

ثم قال سبحانه تذكيراً للمؤمنين وعبرة لهم عن تفظيع حال من تكبر على الله وعتا على كَلِيمِه وخرج عن ربقة الإيمان وقلادة الإخلاص معه بسبب ما بسط الله عليه من حطام الدنيا ومن زخرفاتها ابتلاءً وفتنةً.

﴿۞ إِنَّ قَـٰرُونَ﴾ المتجبر المتكبر الذي ظهر على الله وعلى رسوله مفتخراً بماله وجاهه ﴿كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ أي من جملة من آمن له وصدّقه، قيل هو ابن عمته، وقيل ابن خالته، وكان أميراً بين بني إسرائيل قد أمّره عليهم

فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ

فرعون، وبعدما ظهر موسى وهارون، فآمن له وحفظ التوراة وأحسن حفظه إلى حيث يقرؤه عن ظهر القلب، ثم لما استولى موسى وأخوه على مملكة العمالقة وانقرض الفراعنة رأساً حسدهما قارون، وأنكر جاههما إتكاءً بما عنده من الكنوز، فقال يوْماً لموسى: لك الرسالة ولأخيك الحبور، وأنا في غير شيءٍ إلى متى أصبر ؟! ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ﴾ وقصد مغالبتهم ﴿وَ﴾ ما ذلك إلا أن ﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾ وأعطينا له مكراً له وافتناناً عليه ﴿مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ أي الأموال التي عهد ادخارها من الذهب والفضة وغيرها، وبلغت من الكثرة إلى ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾ أي إلى حد مفاتح أقفال مخازنه وأقفال الصناديق الموضوعة فيها المختومة المقفولة ﴿لَتَنُوٓأُ﴾ وتثقل من كثرتها ﴿بِٱلْعُصْبَةِ﴾ أي الجماعة الكثيرة من الحفظة مع إنهم من ﴿أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ أقوياء على حمل الثقيل جداً، وكان مفتخراً بها بطراً فرحاناً يمشي على وجه الأرض خيلاء ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ أي بعض منهم من أقربائه وقرنائه بعدما أبصروا بطره المفرط نهياً له وتشنيعاً عليه وحثاً له على الإنفاق والصرف في سبيل الخيرات: ﴿لَا تَفْرَحْ ۖ﴾ بما عندك من الزخرفة الفانية، فإنها عن قريب ستفوت، وأخرِجها من قلبك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ منهم سيما بحطام الدنيا ومزخرفاتها، الملهية عن اللذات الروحانية.

﴿وَٱبْتَغِ﴾ واطلب ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ المنعم المفضل من الرزق

ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ....

الصوري الزائل الغير القار ﴿ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ﴾ أي الرزق المعنوي القار المسمى في دار القرار، وذلك لا يحصل لك إلا بإنفاق ما في يدك من الرزق الصوري في سبيل الله للفقراء طلباً لمرضاته بلا شوب المنّ والأذى وسدّ الثغور وبناء القناطير والخانات والمساجد وبقاع الخيرات، وغير ذلك من الأمور المتعلقة لعموم مصالح العباد والتسهيل عليهم ورفع العسرة عنهم ﴿وَ﴾ إن أردت أن تكون من أهل الثروة والجاه المخلّد في النشأتين ﴿لَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ وهو الاجتهاد في مرتبة الاستخلاف والنيابة على مقتضى كريمة: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِ﴾ [٥٧-الحديد:٧] الآية. إذ العبد وما في يده لمولاه والتصرفات الحادثة في عالم الكون والفساد إنما هي مستندة إلى الله أولاً بالذات ﴿وَ﴾ بعد ما علمتَ ما هو نصيبك وحظك من دنياك، وما معك منه في أخراك إلا الإحسان والإنفاق ﴿وَأَحۡسِن﴾ مما جعلك الحق خليفةً عليه ﴿كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ﴾ أي لا تطلب ﴿ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ اتكالاً على ما في يدك من أسبابه التي هي الأموال المؤدية إلى أصناف الفسادات وارتكاب أنواع المحذورات والمنهيات ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلع لجميع حالات عباده ﴿لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ منهم سيما بمظاهرة حطام الدنيا الدنيّة.

وبعدما سمع قارون منهم المواعظ والتذكيرات المتعلقة بإصلاح حاله،

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾

النافعةَ له في الأولى والأخرى، أعرضَ عنهم وعن مقالهم عتواً واستكباراً حيث ﴿قَالَ﴾ مستعظماً بشأنه، مستبداً برأيه: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ﴾ أي ما أوتيت بما أوتيت من الرزق الصوري إلا ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ حاصلٍ ﴿عِندِيٓ﴾ يعني منشأ إتيان المال عليّ وحصولهُا عندي اتصافي بعلم كامل موجب لحصولها وتحصيلها أي ما هي وجمعها إلا بحولي وقوتي وعلمي بطرق تحصيلها.

إنما قال هذا بطراً واستغناءً وكبراً وخيلاءَ وقيل: إنه عالم بعلم الكيمياء، قال سبحانه رداً عليه على سبيل التعيير والتوبيخ: ﴿أَ﴾ يتفوه ويقول هذا الطاغي الباغي الهالك في تيه الغي والضلال أمثال هذه الخرافات ﴿وَلَمْ يَعْلَمْ﴾ بالتواتر ومطالعة كتب التواريخ، ومن القصص المثبتة في التوراة ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿قَدْ أَهْلَكَ﴾ واستأصل كثيرا ﴿مِن قَبْلِهِۦ مِنَ﴾ أهل ﴿ٱلْقُرُونِ﴾ الماضية ﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً﴾ بحسب الأولاد والأتباع ﴿وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ لحطام الدنيا، أما يستحي هذا الطاغي المسرف يظهر على الله ولم يخف من بطشه وانتقامه بغتة ﴿وَ﴾ من سرعة نفوذ قضاء الله وقت إرادة إنفاذه عند الغضب على أعدائه ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ إذ اطلاعه سبحانه بحالهم وضلالهم يكفي في انتقامهم، فلا يحتاج إلى سؤالهم.

فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ ....

وبعدما ذكروا عنده من الزواجر والعبر فلم ينزجر ولم يعتبر، بل ما زاد إلا بطراً وخيلاء ﴿فَخَرَجَ﴾ يوماً من الأيام من بيته مباهياً ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ مستكبراً عليهم مستغرقاً ﴿فِي زِينَتِهِۦ﴾ الكاملة، إذ هو على بغلة شهباء - هي الأبلق الذي كثر بياضه على سواده - وعليه ثياب فاخرةٌ حمرٌ كلها تسر الناظر إليها من صفاء لونها وبهائها، وعلى البغلة سرج من ذهب ومعه أربعة آلاف على زيّه، وقيل تسعون ألفا على زيّه، وعلى خيولهم ومراكبهم أيضاً لبسةٌ حمراء فخرج الناس معه، صافين حوله، ناظرين نحوه، متعجبين من حاله، متمنين من الله رتبته حيث ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ وزينتها، وهمهم مقصورٌ إليها، وغاية متمناهم حصول مثلها لهم: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا﴾ من حظوظ الدنيا ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ ونصيبٍ كامل من الدنيا.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ اللّدنّي والمعرفة الكاملة وبالنشأة الأخرى رداً عليهم وإزالةً لحسرتهم وردعاً لهم عن متمناهم على أبلغ وجه وآكده ﴿وَيْلَكُمْ﴾ أي يلزمكم ويلكم ويحل عليكم هلاككم أيها القاصرون عن معرفة الحق وما يترتب عليها من المكاشفات والمشاهدات التي ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، بل ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾ المحسن

﴿خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ٨٠ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ ....

المفضل ورضاه من عبده ﴿خَيۡرٞ﴾ من الدنيا وما فيها من أضعافها وآلافها ﴿لِّمَنۡ ءَامَنَ﴾ له احتساباً على نفسه ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ أي قرَن إيمانه بالعمل الصالح إحساناً منه بالنسبة إليه سبحانه وطلباً لمرضاته ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿لَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي لا يصل إلى هذه المثوبة العظمى والدرجة العليا التي أعدها الله لعباده ﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ٨٠﴾ على ما جرى عليهم من البليات وعلى مشاق الطاعات ومتاعب العبادات، والرضا بما أعطاهم الحق ورزقهم من الحظوظ بلا تمنٍ منهم ولا تحسرٍ إلى مرتبة أحد من أصحاب الجاه والثروة، بل هم بما عندهم راضون وبما أعطاهم الحق على مقتضى قسمته الأزلية متمكنون مطمئنون، ألا أنهم هم المؤمنون حقاً وأولئك الفائزون المفلحون.

ربنا اجعلنا من زمرتهم بمنّك العظيم وجودك الكريم.

وبعد ما أمهلناه زمانا ورفهّناه نشطاً فرحاناً، أخذناه غضباناً ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ قلقاً حيراناً يعني طبّقنا الأرض عليه وعلى أمواله وخزائنه بعد ما أخذتها وابتلعتها امتثالاً لأمر موسى الكليم صلوات الله عليه وسلامه، وذلك أنه كان يؤذي موسى دائماً حسداً عليه، وكان موسى يداريه صيانةً لقرابته.

ثم لما نزلت الزكاة صالح معه من كل ألفٍ بواحدة من أي جنس كان

....

فحاسبه، فبلغ مبلغاً عظيماً، فاستكثره، فمنعه، فعمد إلى أن يفضح موسى بين بني إسرائيل بغياً عليه وعدواناً فبرطل بغيّةً، وأعطى لها رشوةً لترمي موسى بنفسها.

فلما كان يوم عيدٍ قام موسى خطيباً فقال في خطبته: من سرق قطعناه، ومن زنى غير محصن جلدناه، ومن زنى محصناً رجمناه.

فقال قارون: ولو أنت يا موسى، قال: ولو كنت أنا ؟

قال إن بني إسرائيل يزعمون أنك فجرت مع فلانة.

قال موسى: فأحضروها فأُحضرت، فناشدها موسى بالله الذي فلق البحر وأنزل التوراة أن تصدق، فقالت بإلقاء الله في قلبها كرامةً لموسى وتنزيهاً له عما لا يليق بشأنه وتفضيحاً لقارون: جعل لي قارون جعلاً كذا على أن أرميك بنفسي، فخر موسى ساجداً، فقال في سجدته: إلهي إن كنتُ نبيك ورسولك فانصرني واخذل عدوي، فأوحى الله في سجدته: أن مُر الأرض أي شيء شئتَ، فتجيبك يا موسى.

فرفع رأسه من سجدته مرتعداً غيوراً غضباناً، فقال: يا أرض خذيه فابتلعته على الفور إلى ركبته، فأخذ يتضرع: يا موسى ارحمني! فأنا قرابتك، ثم قال موسى مغاضباً على الأرض: خذيه ! فأخذتْه إلى وسطه، فازداد في تضرعه وتفزعه، ثم قال: خذيه! فأخذتْه إلى عنقه، فتضرع وصرخ نحو موسى من أول أخذه إلى خسفه سبعين مرة لم يرحم عليه، ثم قال: خذيه! فخسفت به وطبقت عليه، فلم يرحمه حتى عاتبه سبحانه: ما أفظّك يا موسى! حتى

﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ ....﴾

استرحمك سبعين مرة فلم ترعه، فوعزتي وجلالي: لو دعاني مرةً لأجبته.

وبعد ما خُسف قارون قال بنو إسرائيل: إنما قتله ليرث أمواله، فأشعر بهم موسى، فأمر الأرض بخسف داره وأمواله وخزائنه إلى حيث لم يبق من منسوباته شيء على وجه الأرض ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ﴾ حينئذ ﴿مِن فِئَةٍ﴾ أعوانٍ وأنصارٍ ﴿يَنصُرُونَهُۥ﴾ ويدفعون عذاب الله عنه ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ القادر المقتدر على دفع أمثاله وهو بريء من الله ﴿وَ﴾ هو غير ملتجئ إليه ومتضرع نحوه ولذلك ﴿مَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ الممتنعين من العذاب لا بنفسه ولا بمعاونيه وأنصاره.

وبعد ما خُسف قارون بشؤم أمواله التي جعلها وسيلة إلى أنواع الفسادات، من جملتها: رمي كليم الله وخُلّص رسله بالزنا التي هي بمراحل عن طهارة ذيله ونجابة طينته، إذ الأنبياء كلهم معصومون عن الكبائر مطلقاً.

﴿وَأَصْبَحَ﴾ الفقراء ﴿ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ﴾ ومنزلته ﴿بِٱلْأَمْسِ﴾ أي الزمان الذي هو أقرب زمنٍ بخسفه، متحسرين بما عنده من الثروة والجاه، أخذوا ﴿يَقُولُونَ﴾ متمنين على عكس متمناهم السابق، متعجبين من كمال علم الله ومتانة حِكمته قائلين كل منهم لصاحبه: ﴿وَيْكَأَنَّ﴾ ـ المعنى على الانفصال بين (وَيْك) و(أَنَّ)، والاتصال بينهما انما هو بمتابعة المصحف - يعني ويلٌ لك، وهلاكك لازمٌ بمتمناك الذي تمنيته بالأمس، اعلم أن ﴿ٱللَّهَ﴾ الحكيم

﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ ....

المتقن في أفعاله ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ بمقتضى حكمته ﴿لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ على مقتضى استعداداتهم ﴿وَيَقْدِرُ ۖ﴾ أي يقبض عن من يشاء أيضاً على وفق استعداده، وما لنا اطلاع على متانة علمه وحكمته ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ﴾ المصلح لمفاسدنا ﴿عَلَيْنَا﴾ بمنعنا عن متمناها ﴿لَخَسَفَ بِنَا ۖ﴾ أيضاً من شؤم مبتغانا مثل ما خسف قارون، وإنما مَنّ علينا ما مَنّ لإيماننا به سبحانه وإخلاصنا فيه ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ ولا يفوزون بالنجاة عن عذابه سبحانه، بل يوفقهم سبحانه على ما يوقعهم في عذابه افتتاناً منه وانتقاماً.

ثم قال سبحانه تبشيراً للمؤمنين المتواضعين وتنشيطاً للمتقين الموقنين:

﴿تِلْكَ﴾ الجنة التي سمعتَ وصفها وبلغك خيرها في كتب الله وألسنة رسله وأنبيائه وأوليائه، المنكشفين بها، الفائزين بمقاماتها ﴿ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾ أي الموصوفة بهذه الصفة، إذ لا مقر لأهل الله سواها ؛ لذلك سميت بها ﴿نَجْعَلُهَا﴾ بمقتضى فضلنا وجودنا مقراً ﴿لِلَّذِينَ﴾ أي للمؤمنين الموحِّدين الذين ﴿لَا يُرِيدُونَ﴾ من كمال حلمهم وعلمهم ﴿عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي تفوقاً وتكبراً على من عليها، ولا يمشون عليها خيلاء غافلين عن تزود الآخرة ﴿وَلَا﴾ يقصدون فيها ﴿فَسَادًا ۚ﴾ مؤدياً إلى هتك محارم الله والخروج عن مقتضى حدوده ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ الحميدة التي عبر بها عن الجنة ودار

لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾.........................

الآخرة ودار السلام والخلد وغير ذلك من العبارات معدةٌ مهيأةٌ ﴿لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ الذين يحفظون نفوسهم عن ارتكاب المنهيات والمحظورات مطلقاً، ويجتنبون عن جميع ما يؤدي إلى إسقاط المروءة رأساً، ويتصفون بجميع ما جاء به الرسل ونطق به الكتب من الأمور المشعرة للهداية والصلاح والفوز بالنجاح والفلاح، فأولئك السعداء المقبولون هم الواصلون إلى درجة القرب والشهود، الوالهون بشرف مطالعة لقاء الخلاق الودود.

ثم أشار سبحانه بشارةً جميلة محتوية على أصول جميع المواعظ والتذكيرات المتعلقة لعموم مصالح عباده فقال:

﴿مَن جَآءَ﴾ في النشأة الأولى ﴿بِٱلْحَسَنَةِ﴾ والخصلة المقبولة عند الله وعند عموم عباده ابتغاءً لمرضاته سبحانه، وأداءً لحقوق عباده ﴿فَلَهُۥ﴾ عند الله في النشأة الأخرى جزاءً عليها ﴿خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ وبأضعافها تفضلاً وإحساناً ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ والخصلة الذميمة أيضاً فيها، المستقبحة عقلاً وشرعاً ﴿فَلَا يُجْزَى﴾ من قبل الحق في يوم الجزاء المسيئون ﴿ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ التي لا يرضى بها الله ولا خُلّص عباده ﴿إِلَّا﴾ مثل ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾ عدلاً منه سبحانه.

ثم لما اغتم رسول الله ﷺ حين هاجر من مكة بسبب مكر المشركين، فلما وصل إلى جحفة اشتد اشتياقه إلى مولده وموطن آبائه وتحزن حزناً شديداً

إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۖ ....

إلى حيث أراد أن يعود منها إليها، فنزلت تسليةً عليه ﷺ وإزالةً لحزنه:

﴿إِنَّ﴾ القادر المقتدر ﴿ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ وقدر لك إنزاله، وأقدرك على الامتثال بجميع ما فيه من الأوامر والنواهي، وكشف عليك ما فيه من الحقائق والمعارف والرموز والإشارات المتعلقة بصفاء مشرب التوحيد، وذكرَ لك فيه القصص والعبر والأمثال إرشاداً لك إلى مقامك الذي وعدك الحق تفضلاً وامتناناً، وسماه من عنده مقاماً محموداً ﴿لَرَآدُّكَ﴾ ومعاودك ﴿إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾ معهود هو مولدك وموطن آبائك وأسلافك على أحسن وجه وأكمله.

وبعد ما عدتَ ورجعتَ إليه بعد هجرتك من بينهم أن أضلوك ونسبوك إلى ما لا يليق بشأنك ﴿قُل﴾ لهم على سبيل المجاراة: ﴿رَّبِّىٓ﴾ الذي وسع علمه كل شيء ﴿أَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ منا أنا أو أنتم ﴿وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾ منا ومنكم.

﴿وَ﴾ عليك يا أكمل الرسل أن تفوض أمورك إلينا اتكالاً علينا واعتصاماً لحولنا وقوتنا، ولا تلتفت إلى المشركين وإيمانهم ولا تداريهم ولا تك في رعبٍ منهم، إنا كفيناك مؤنة شرورهم عنك.

إذ ﴿مَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ﴾ وتأمل ﴿أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ الجامع لفوائد جميع الكتب المنزلة من عندنا، لكن ما أنزل إليك هذا ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۖ﴾ تفضلاً عليك وتلطفاً معك بلا تطلب منك وترقب من قِبلك،

فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَـٰهَ ....

فكذلك يكفيك جميع مهماتك على الوجه الأصلح، فاتكل عليه واتخذه وكيلاً، وفوِّض أمورك كلها إليه، ومتى سمعت نبذاً من شأنك الذي أنت عليه في ابتداء حالك ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا﴾ أي معاوناً ومعيناً ﴿لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ ولا مستظهراً ومستعيناً بهم، بل فلك أن تمضي وتبلغ على الوجه الذي أُمرت بلا مبالاة لهم ومداراة معهم.

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾ ويصرفنك مواساتهم ومداراتهم والمسامحة معهم ﴿عَنْ﴾ تبليغ ﴿ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ المشتملة على الإنذارات والوعيدات الشديدة إياهم ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ﴾ وأُمرت بتبليغها ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ﴾ توحيد ﴿رَبِّكَ ۖ﴾ بعد ما بعثك إلى كافة البرايا، وعامة الأمم كله، مَن جبله الحق على صورة الإنسان وكلَّفه بالمعرفة والإيمان ﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾ بالمداهنة والمسامحة معهم ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾﴾ المشتركين في شركهم وكفرهم.

﴿وَ﴾ بعدما ظهرتَ على التوحيد الذاتي، وأكملت مراسم الدين، وأتممتَ مكارم الأخلاق واليقين ﴿لَا تَدْعُ﴾ بحالٍ من الأحوال ﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد الفرد الوتر الذي لم يلد ولم يولد ولم يتخذ صاحبةً ولا ولداً ﴿إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ شريكاً له في الوجود والألوهية والربوبية وجميع التصرفات الواقعة في مظاهره ومماليكه، إذ ﴿لَآ إِلَـٰهَ﴾ في الوجود ولا موجود في

إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٨٨﴾

الشهود ﴿إِلَّا هُوَۚ﴾ هذا هو نهاية ما نطق العارف عنه سبحانه، وبعد ذلك يقلق ويدهش ويهيم ويفنى ويتلاشى إذ ﴿كُلُّ شَيۡءٍ﴾ يتراءى لك من أظلال أسمائه وعكوس صفاته ﴿هَالِكٌ﴾ في حد ذاته باقٍ على عدمه مستمراً على استحالته وامتناعه ﴿إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ الذي اقتبس به النور من تجليات الحق على حسب أسمائه وصفاته، واستمد به العكس من شوارق بوارق شؤونه المتشعشعة المتجددة، وعن دقائق رقائق لوائح لوامع تطوراته التي تخطف بها أبصار أرباب الكشف والشهود من المنجذبين نحو الحق، المتأملين في شأنهم، الوالهين بمطالعة جماله وجلاله، وبالجملة بعدما ثبت هلاك الكل في ذاته سبحانه وظهوره وانعكاسه منه ابتداءً ثبتَ ﴿لَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾ والأمر في جميع ما كان ويكون، أزلاً وأبداً ﴿وَإِلَيۡهِ﴾ انتهاء لا إلى غيره، إذ لا غير في الوجود معه ﴿تُرۡجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ رجوع الأمواج إلى الماء، والأظلالِ إلى الأضواء.

سبحان من ظهر على الكل فأظهره، وبطن في الكل فأهلكه، هو الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم.

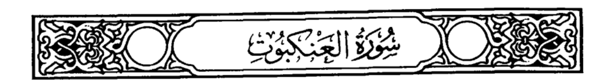
خاتمة السورة

عليك أيها السالك المتوجه نحو الحق بوجهك الذي يلي الحق المقتبس به منه أشعة أنوار تجلياته الذاتية حسب أسمائه الحسنى وصفاته العليا: أن تتأمل في كيفية نشآت[1] الكثرات الغير المحصورة عن الواحد من كل الوجود، وتتعمق بمقتضى العقل المفاض لك من حضرة علمه سبحانه على سبيل التوديع ؛ لتتدبر معرفة مبدئك ومعادك حسب استعدادك الفطري وقابليتك الجِبلِّية التي بها امتيازك عن سائر المظاهر والمصنوعات، وبها تستحق الخلافة والنيابة عن الله، وبواسطة تلك الوديعة البديعة المودعة فيك، كلّفك الحق إلى ما كلّفك، وأعد لك من المراتب العلية والمقامات السنية عنده ما أعد لك، حسب صعودك وترقيك في معارفك وحقائقك على مقتضى التكاليف التي توصلك إليها إن أخلصتَ فيها.

فلك أن تتحمل على مشاق التكليفات ومتاعب الرياضات ما دمت في مجال التكاليف ومنازل العروج إلى أن جذبك الحق منك نحوه، ومكنك بموعدك المعهود ومقامك المحمود الذي هو مرتبة الكشف والشهود، وحينئذ اتحد قوسا الوجوب والإمكان، وارتفعتَ الزبد والأمواج عن بحر العيان، وفزتَ بما فزت من موالد اللطف والإحسان، فظهر لك حينئذ معنى قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [٢٨-القصص:٨٨].

---

(١) في المخطوط (نشاء).



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة العنكبوت

لا يخفى على من تدرج في درجات الكمال، وترقى من حضيض الجهل ومضيق الغفلة إلى سعة ذروة المعرفة وفضاء الوصال، وتمكن بمقر التوحيد بلا تلوينٍ وتقليدٍ، وانكشف له ما في استعداده من الودائع الإلهية المقتضية لظهوره، الباعثة لبروزه من موطن الكمون والخفاء إلى صحراء الجلاء والانجلاء: أن الاختبارات والابتلاءات الإلهية الواقعة بين مظاهره ومصنوعاته إنما هي لحصول الاعتدال الحقيقي والقسط المعنوي المنبئ[1] عن مرتبة الخلافة والنيابة عن الله المستلزم للتخلق بأخلاقه العظيمة، والتثبت على الصراط المستقيم، لذلك جرت سنته السنيّة وعادته العليّة على تنقيد أعمال جميع من كلف على الإيمان والعرفان بالعرض على محك الإخلاص؛ ليتميز المغشوش المكدر بأنواع الكدورات من الرياء والسمعة والعجب وأنواع الأهوية الفاسدة والرعونات الكاسدة الناشئة من النفوس الخبيثة عن الصافي الخالص الخالي عن شوب اللوث بالأمور الطبيعية،الطاهر المطهر على الأدناس البشرية الحاصلة من تسويلات النفوس الأمارة وتلبيسات الشياطين المنبعثة على قوى البهيمية لأنواع الجهالات والضلالات.

(١) في المخطوط (المبني).

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا ....

لذلك خاطب سبحانه حبيبه ﷺ بما خاطب وبين في خطابه على أبلغ وجه وآكده ما عاتب به عباده من ترك الإخلاص والاغترار على مجرد الأقوال بلا مطابقة الاعتقاد متيمناً باسمه العلي الأعلى:

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ﴾ الذي كلف عباده بما كلف ليتأدبوا بآداب العبودية حتى يستعدوا لفيضان آثار الربوبية ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾ عليهم بإفاضة ما يصلحهم عما هم عليه من المفاسد البشرية ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ لهم يوصلهم بعد ما امتثلوا بما أمروا إلى أقصى ما هيأ لهم من الدرجات العلية والمقامات السنية.

﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾ أيها الإنسان الأكمل الأعلم اللائق لفيضان لوامع أنوار الوجود ولوائح آثار الفضل والجود، المؤيد الملازم لاستكشاف مكنونات ما في مظاهر المكونات من المعظمات آثار الألوهية ومكرمات أنواع الربوبية اللامعة اللائحة على نواصي عموم ما ظهر وبطن غيباً وشهادة على التعاقب والتوالي بلا انقطاع وانصرام، أزلاً وأبداً، وبلا ذهول وغفلة وفتور وفترة، بحيث لا يعزب عن حيطة حضرة علمه، ذرة من ذرائر ما ظهر ولاح دون إشراق شمس وجهه الكريم

﴿ أَحَسِبَ ﴾ وظن ﴿ٱلنَّاسُ ﴾ المنهمكون في الغفلة والنسيان ﴿أَن يُتۡرَكُوٓاْ ﴾ ويُهملوا على ما هم عليه من عدم مطابقة قلوبهم لأفواههم، وأعمالهم بنياتهم وأفعالهم بحالاتهم بمجرد ﴿أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا ﴾ بلا موافقةٍ من قلوبهم مع أن الإيمان في الأصل هو الإذعان والقبول والإخلاص بالقلب، والانقياد

وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ..................

والتسليم بالجوارح والآلات من لوازمه ومتمماته ﴿وَهُمْ﴾ بمجرد ما يلقلق به لسانهم ويظهره بيانهم ظنوا أنهم ﴿لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ ولا يمتحنون بلى والله لنبلونهم ونختبرنهم بشيءٍ من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، حتى ظهر إخلاصهم في جميع ما آمنوا، فترتب خلاصهم حينئذ على إخلاصهم

﴿وَ﴾ ليس افتتاننا واختبارنا إياهم ببدع منا بل ﴿لَقَدْ فَتَنَّا﴾ وامتحنّا ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم السالفة مع أنهم يدّعون الإيمان ويتفوهون ويتقوهون[1] به أمثالهم، ومع ذلك لم نتركهم بلا ابتلاء واختبار، وليس اختبارهم وامتحانهم إلا لإظهار حجتنا البالغة عليهم وإلا ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ﴾ المطلعُ على ضمائر عباده وسرائرهم ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ منهم وأخلصوا في إيمانهم ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ أيضاً منهم، وهم الذين لا يخلصون مع الله في حالٍ من الأحوال وعملٍ من الأعمال، ولا يسمعون أوامر الله ونواهيه من ألسنة رسله سمعَ قبولٍ ورضا، وإنما أرادوا بإيمانهم الظاهر الذي أتوا به على سبيل الكراهة إسقاط لوازم الكفر من حقن الدماء وسلب الذراري ونهب الأموال، وإلا فهم ليسوا ممن يذعنون بدلائل التوحيد وبراهين الإيمان عن صميم قلوبهم ظناً منهم أنا غافلون عن بواطنهم ونياتهم .

﴿أَمْ حَسِبَ﴾ أي بل ظن المسرفون ﴿ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ مصرين

(١) في القاموس المحيط: قوّه تقويهاً: صرخ. ويتقاوهان: يصرخان، فيتعارفان، كأنهما يصيحان بصوت هو أمارة بينهما.

أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٥﴾ ....

عليها، مبالغين في إتيانها ﴿ أَن يَسۡبِقُونَاۚ﴾ ويفوتوا عنا جزاء ما عملوا، ويسقطوا عن حسابنا ما أتوا به من المعاصي، بل نحن مطلعون عليها حين كانوا في استعداداتهم قبل ظهورهم في فضاء الوجود، فكيف حين وجودهم وظهورهم وصدور الآثام عنهم بالفعل ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٤﴾﴾ علينا حكمهم هذا ونسبتهم هذه، أعاذنا الله وعموم عباده عن أمثال هذه الظنون الفاسدة بالنسبة إليه سبحانه، كل ذلك عن جهلهم بالله وبمقتضى عزّه وعلوّه وإنكارهم بلقائه والوقوف بين يديه.

إذ ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ﴾ ويأمل ﴿ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ المتجلي على الأكوان حسب أسمائه العلية وصفاته السنية، ويترصد أن ينكشف له ما هو الموعود من لدنه سبحانه من الدرجات العلية والمقامات السنية حال كونه متأدباً بالآداب المنزلة من عنده بواسطة أنبيائه ورسله، متحملاً على متاعب التكاليف ومشاق الطاعات المفروضة المشروعة له، مترقباً للانكشاف والشهود، راجياً لقياه بلا يأس وقنوط، فاز بمبتغاه على الوجه الذي وُعد بعد ما وفقه الحق وجذبه إلى نفسه ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ الذي وعده لعباده أن يشرفهم بشرف لقائه ﴿لَأٓتٖۚ﴾ بلا شك وارتياب ﴿وَ﴾ كيف لا يشرفهم بعد ما وعدهم إذ ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لمناجاتهم ﴿ٱلۡعَلِيمُ ﴿٥﴾﴾ بحاجاتهم التي هي الفوز بشرف اللقاء، والوقوف عند سدرة المنتهى، والتدلي إلى مقام دنا فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى.

وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ ....

﴿وَمَن جَٰهَدَ﴾ واجتهد في الوصول إلى ما ذكر من المقام المحمود والموعود الذي هو مرتبة الكشف والشهود ﴿فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ﴾ إذ نفعه عائد إليه، وهو واصلٌ إلى منتهى مطلوبه بعد ما كان طالباً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المنزه عن الطلب والاستكمال المبرأَ عن الترقب والانتظار ﴿لَغَنِيٌّ﴾ في ذاته ﴿عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ وطاعاتهم وعباداتهم ورجوعهم إليه وتوجههم نحوه.

ثم قال سبحانه حثاً لعباده على التوجه نحو بابه؛ ليفوزوا بما أعد لهم من الحسنات والدرجات

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وأخلصوا إيمانهم ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ المشعرة المؤيدة لإخلاصهم بلا شوب الهوى والرياء والرعونات أصلاً ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ﴾ ونمحون عن ديوان أعمالهم ﴿سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ التي جاؤوا بها وقت جهلهم وضلالهم ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ﴾ ونعاملن معهم ﴿أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٧﴾﴾ يعني أحسن من الجزاء الذي كانوا يستحقون بأعمالهم بعد إيمانهم وأزيد منه بأضعافه تفضلاً وإحساناً.

وبعدما حثهم سبحانه على الإيمان والعمل الصالح أوحى لهم وأمرهم ببر الوالدين وحسن المعاشرة معهما والتحنن إليهما؛ لأنهما من أقرب أسباب ظهورهما على مقتضى سنة الله سبحانه فقال:

﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ بعدما كلفه بالإيمان والعمل الصالح أن يأتي كل منهم

بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ

ويعمل ﴿بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ﴾ أي معاملة ذات حسنٍ يستحسنه العقل والشرع ويرضيه الحق ويقتضيه المروءة بحيث لا يحوم حولها شائبة منٍّ ولا أذىً ولا استخفاف واستحقار، بل يتذللون لهما ويتواضعون معهما على وجه الانكسار التام والتذلل المفرط.

وعليكم أيها المكلفون امتثال جميع أوامرهما ونواهيهما سوى الشرك بالله والطغيان على الله والعدوان معه ومع رسله وخُلّص عباده ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾ أيها المأمور على بر الوالدين أبواك وبالغا في حقك مقدِمين أشدّ إقدام وألّحا لك أبلغ إلحاح وأتمّ إبرام ﴿لِتُشۡرِكَ بِي﴾ شيئاً من مظاهري ومصنوعاتي ﴿مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ﴾ أي ليس علمك ويقينك متعلقاً بألوهيته وربوبيته واستحقاقه للعبادة والرجوع إليه في المهمات، فلا تطعهما ولا تقبل أمرهما المتعلق بالإضلال والإشراك، ولا تمتثل قولهما هذا، بل أعرض عنهما وعن قولهما هذا، ولا تمض على دينهما وملتهما، إذ ﴿إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ أصلاً وفرعاً، مؤمناً وكافراً، موحداً ومشركاً، وبعد رجوعكم إلي ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ وأخبركم ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ في دار الاختبار أحاسب[1] عليكم أعمالكم، وأجازيكم على مقتضاها، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ منكم في دار الاختبار مخلصين ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ تكميلاً لإيمانهم وتتميماً له بما هو من لوازمه ومتفرعاته ﴿لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ﴾ حين

(١) في المخطوط (لكلّب).

فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ ....

رجوعهم إلينا ﴿فِي﴾ زمرة السعداء ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾ المقبولين الآمنين المستبشرين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والذين كفروا منكم في النشأة الأولى وأصروا على الكفر والشرك، ولم يرجعوا عنه بعد بعث الرسل ونزول الكتب وورود الزواجر والروادع الكثيرة فيها، لنعذبنهم عذاباً شديداً، ولندخلنهم يوم يُعرضون في زمرة الأشقياء المردودين المغضوبين الذين لا نجاة لهم من النار، ولا يرجى خلاصهم منها.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ المجبولين على التزلزل والتذبذب ﴿مَن يَقُولُ﴾ خوفاً من عذاب الله ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ بلا تمكن له واطمئنان في قلبه ﴿فَإِذَآ أُوذِىَ فِى﴾ سبيل ﴿ٱللَّهِ﴾ من أعدائه، انقلب على الكفر حيث ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾ وإيذاءهم ﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ القادر بالقدرة الكاملة على أنواع المحن والابتلاءات، يعني يُسَوّن بين خوف الله وخوف الناس، فكما يؤمنون بالله من خوف عذابه، يكفرون به من خوف عذاب الناس بلا تفاوت بين الخوفين وبين العذابين، بل يرجحون خوفهم على خوف الله، فيختارون الكفر على الإيمان من ضعف يقينهم وعدم رسوخهم وتمكينهم على الإيمان وذلك من عدم ترقيهم من حضيض الجهل والتقليد إلى ذروة العرفان والتوحيد ﴿وَ﴾ من غاية تزلزلهم وتلونهم ﴿لَئِن جَآءَ نَصْرٌ﴾ وعون للمؤمنين الباذلين مهجهم في سبيل الله ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل وصاروا غالبين على أعداء الله بنصر الله إياهم وفازوا

﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا ....

بالفتح والغنائم وأنواع الكرامات ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ أولئك المذبذبون المتزلزلون مبالغين في دعوى الموافقة والمؤاخاة: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ موافقين ظاهراً وباطناً، وفي دين الإسلام متمكنين مطمئنين سراً وجهراً، فأشركونا في ما نلتم من الغنيمة والخير، وهم يقصدون بقولهم هذا التغرير والتلبيس على المؤمنين، بل على الله أيضاً، لذلك قال سبحانه:

﴿أَ﴾ تعتقدون التلبيس والتشبيه أيها الجاهلون بعلو شأنه ﴿وَلَيْسَ اللَّهُ﴾ المتجلي على جميع ما ظهر وبطن في الأكوان غيباً وشهادةً ﴿بِأَعْلَمَ﴾ بعلمه الحضوري ﴿بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ بل بما في استعداداتهم وقابلياتهم التي كانوا عليها حيث لم يكونوا؟ وإن كان حالهم أيضاً كذلك الآن عند من له أدنى حظ من المعرفة والإتقان.

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ﴾ المطلع لضمائر عباده ويُمَيِّزَنَّ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله، وبذلوا جهدهم في سبيله وليظهرن إخلاصَهم ورسوخهم على الدين وتمكنَهم واطمئنانهم في مرتبة اليقين، بعدما أمرهم بالجهاد والقتال الصوري والمعنوي ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ﴾ ويظهرن أيضاً كيد ﴿الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾﴾ ومكرهم وتقاعدهم عن القتال واحتيالهم في التخلف عن المؤمنين.

﴿وَ﴾ من جملة مكرهم واحتيالهم مع المؤمنين وخداعهم إياهم ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ قاصدين إضلالهم عن طريق الحق وانصرافهم

اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ ....

عن الدين المستبين: ﴿اتَّبِعُوا﴾ أيها الحمقى المتذللون في أيدينا ﴿سَبِيلَنَا﴾ واختاروا طريقنا الذي كنا عليه من عبادة الأوثان والأصنام التي هي دين آبائنا وأسلافنا ﴿وَ﴾ إن خفتم على مقتضى زعمكم من أثقال ذنوبكم يوم العرض والجزاء ﴿وَلْنَحْمِلْ﴾ أثقال ﴿خَطَايَاكُمْ﴾ عنكم حينئذ فتصيروا مخففين بلا وزر وذنب، إنما قالوا[1] هكذا تغريراً عليهم وتضليلاً لهم واستهزاءً، وإلا فهم منكرون بالآخرة وجميع ما فيها من الوعيدات الهائلة والإنذارات ﴿وَ﴾ هم وإن فرض أنهم اعتقدوا النشأة الأخرى وما فيها ﴿مَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ﴾ أي شيئاً قليلاً من خطاياهم فكيف بجميعها وبالجملة ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾﴾ في جميع مواعيدهم وعهودهم؛ إذ الكل لا يطابق اعتقادهم ولا الواقع، إذ لا تحمل يومئذ وازرةٌ وزر أخرى، عدلاً من الله تعالى، ولهذا قال سبحانه مقسماً:

﴿وَ﴾ اللهِ ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ﴾ حينئذٍ ﴿أَثْقَالَهُمْ﴾ أي خطاياهم التي اقترفوها لنفوسهم يزيدون عليها ﴿وَأَثْقَالًا﴾ أُخر حاصلةً من إضلالهم وتضليلهم عباد الله ﴿مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ الأصلية ﴿وَ﴾ اللهِ مع تلك الأثقال على الأثقال ﴿وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ على الله من إثبات الشريك له في الوجود واستحقاق العبادة، وعن نسبتهم إليه ما لا يليق بشأنه افتراءً ومراءً.

(١) في المخطوط (قالوا له هكذا).

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ ....

ثم ذكر سبحانه نبذاً من أحوال أهل الضلال والإضلال من المفترين الذين مضوا في سالف الزمان تسليةً لرسول الله ﷺ وإزالةً للحزن الذي لحقه ﷺ من تمادي المشركين في الغفلة والفساد وتطاولهم في الغي والعناد فقال:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ وقت إذ ظهر فيهم أنواع الفسوق والجدال وأصناف الغي والضلال ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ﴾ وتحمل على مشاق دعوتهم وأنواع أذاهم ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ فهم كانوا يضربونه ويشتمونه وينسبونه إلى الجهل والجنون والخرف وأنواع الاستخفاف والاستحقار، ومع ذلك لم يتقاعد عن دعوتهم، ولم ينزجر عن زواجرهم بل يبلغهم ما أمره الحق بتبليغه من الآيات الظاهرة والمعجزات الباهرة، وهم من شدة شكيمتهم وخبث طينتهم لم يزيدوا من سماعها إلا تعنتاً واستكباراً، وعتواً واغتراراً وإصراراً على ما هم عليه، وبعد ما استحقوا كمال العذاب والنكال ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ حين خرج الماء من التنور المعهود وطاف عليهم فأغرقهم واستؤصلوا ﴿وَهُمْ﴾ في أنفسهم ﴿ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ خارجون عن مقتضى الحدود ومنهمكون في بحر الغفلة والغرور، ضالون في تيه الجهل والطغيان، لذلك أخذهم الله بالطوفان واستأصلهم بالمرة إلى حيث لم يبق منهم أحد على وجه الأرض بعدما أغرقناهم وأهلكناهم.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ أي نبينا نوحاً عليه السلام ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ وهم

وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ ....

المؤمنون الذين ركبوا معه عليها حين نبع الماء من التنور، قيل: كانوا ثمانين، وقيل: كانوا ثمانية وتسعين، وقيل: نصفهم ذكور ونصفهم إناث ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ﴾ أي قصة هلاكهم بالطوفان ﴿ءَايَةً﴾ عظيمةً ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ تستدلون بها على كمال قدرتنا ووفور حكمتنا في انتقام من خرج على حدودنا وأحكامنا وأوامرنا ونواهينا.

﴿وَ﴾ أرسلنا أيضاً يا أكمل الرسل جدك ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ الخليل صلوات الرحمان عليه وسلامه إلى قومه الذين تمادوا زماناً في الغفلة والغرور؛ ليصلح مفاسدهم ويرشدهم توحيدَنا اذكر: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ بعدما بعثناه إليهم ليهديهم إلى طريق الحق ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ الواحد الأحد الصمد المستحق للعبادة والإطاعة استحقاقاً ذاتياً ووصفياً ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ عن ارتكاب محارمه ومنهياته واجتنبوا جميع ما لا يرضى به حتى لا تستجلبوا سخطه وغضبه عليكم ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الذي أوصيكم به من العبادة والعرفان واجتناب عن المحارم والطغيان والاتصاف بالتوحيد والتقوى وجميع لوازم الإيمان ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وأولى بحالكم وأنفع لنفوسكم في أولاكم وأخراكم مما أنتم عليه من عباده التماثيل التي تنحتونها بأيديكم وتسمونها من تلقاء أنفسكم آلهة دون الله ظلماً وزوراً ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾ أي إن كنتم من ذوي العقول المستكملين بالقوة النظرية المفاضة لكم من حضرة العلم الإلهي ليميزكم به عن سائر الحيوانات ويَعِدكم للخلافة والنيابة عن الله.

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ﴾ ....

ثم نبه سبحانه على خطئهم في عبادة غير الله فقال:

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ المستحق للعبادة والاستقلال بلا شريك ومثال ﴿أَوْثَٰنًا﴾ تسمونهم آلهة ظلماً وعدواناً وتعبدونهم كعبادة الله عناداً وطغياناً ﴿وَتَخْلُقُونَ﴾ أي تفترون وتنسبون إلى الله بإثبات الشريك له سيما هذه التماثيل الباطلة العاطلة ﴿إِفْكًا ۚ﴾ كذباً وافتراءً مجادلةً ومراءً مع أن هؤلاء التماثيل لا تنفعكم ولا تضركم ولا ترزقكم ولا تمنع رزقكم بل ﴿إِنَّ﴾ الآلهة ﴿ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الحقيق بالإطاعة والعبادة مطلقا سواء كان هؤلاء الجمادات أو ذوي الحس والحركات ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ أي أمر الرزق مقصور على الله المتكفل لأرزاق عباده ليس في وسع غيره أن يرزق أحداً من عباده رزقاً صورياً أو معنوياً وإنما خص سبحانه الرزق بالذكر مع أنهم لا يملكون سواه أيضاً لأنه أظهر لإلزامه وأتم لشدة احتياجهم إليه، وأن أردتم رزقا جسمانياً أو روحانياً ﴿فَٱبْتَغُوا۟﴾ واطلبوا ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ القادر المقتدر ﴿ٱلرِّزْقَ﴾ الصوري المقوي[1] لمزاجكم والمعنوي الموصل إلى مبدئكم ومعادكم لتتزودوا برزقه في أولاكم وأخراكم ﴿وَ﴾ إذا سمعتم وعلمتم أن لا رازق لكم سوى الله ﴿وَٱعْبُدُوهُ﴾ حق عبادته واعرفوه حق معرفته ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ﴾ أداء لحق شيء من حقوق نعمه ونبذ

(١) في المخطوط (المقوم).

إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ.......................

من موائد فضله وكرمه واعلموا أنكم ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ رجوع الظل إلى ذي الظل والأمواج إلى الماء ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟﴾ أي إن تكذبوني في قولي ولم تقبلوا مني رسالتي ولم تتعظوا بنصحي وإرشادي ﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ﴾ أمثالكم رسلهم مثلي ﴿مِّن قَبْلِكُمْ ۖ﴾ ومن قبلي فصار تكذيبهم وبالاً عليهم وسببَ هلاك لهم ونزولَ عذاب عليهم ﴿وَ﴾ مع ذلك ما أبالي بتكذيبكم كما لم يبالوا بتكذيب أممهم إذ ﴿مَا عَلَى ٱلرَّسُولِ﴾ المرسل إلى قوم من عند الله ﴿إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾ أي تبليغ ما أرسل به مكشوفاً ظاهراً بلا سترة وحجاب وزيادة ونقصان، وأما أمر القبول والامتثال بالمأمور فمفوض إلى مشيئة الله وإرادته وقدرته له أي يتصرف في عباده بأن يجعل الكافرَ الجاحد مؤمناً مطيعاً، والمطيع المؤمن كافراً نافياً للصانع العياذ بالله من سخطه وغضبه، فالكل مقدور له مثبت في لوح قضائه حاضر في حضرة علمه لا يُسأل عن فعله وحكمه، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ إلى كمال قدرته ومتانة حكمه وحكمته ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ﴾ أي يظهر ويبدع ﴿ٱللَّهُ﴾ القادر المقتدر ﴿ٱلْخَلْقَ﴾ أي جميع المخلوقات والموجودات من كتم العدم بلا سبق مادة ومدة ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ﴾ ويعدمه كما برأه وأظهره على مقتضى النشأتين نزولاً وعروجاً هبوطاً وصعوداً ظهوراً وبطوناً مداً وقبضاً نشراً وطياً لطفاً وقهراً جمالاً وجلالاً ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ التبديل

عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ

والتحويل ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ المتجلي في الأكوان في كل آن في شأن ﴿يَسِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ إذ لا يعرضه العسر والفتور ولا يلحقه العجز والقصور ولا يبرمه مر الدهور وكر الشهور.

وإن أنكروا لك ولم يقبلوا منك تنويرك الذي جئت به ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الحلم والخلة ﴿سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ سير معتبر خبير ﴿فَٱنظُرُواْ﴾ بنظر الاعتبار والاستبصار ﴿كَيْفَ بَدَأَ﴾ وأظهر ﴿ٱلْخَلْقَ﴾ في أقطار الآفاق ونشرهم فيها وبسطهم عليها بامتداد أظلال أسمائه وصفاته ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ﴾ القادر المقتدر على كل ما أراد وشاء بالاختيار والاستقلال ﴿يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ﴾ المقابلة لنشأة الظهور والإبداع وهي نشأة الكمون والإخفاء والفناء والإفناء بأن قبض سبحانه بمقتضى قهره وجلاله جميع ما امتد من أظلال وطَوَى نحوه ما نشر من أثار الأوصاف والأسماء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المتردي برداء العظمة والكبرياء ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من مقدوراته ومراداته ﴿قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ لا تنتهي قدرته عند مقدورٍ بل له أن يتصرف فيه كيف شاء ومتى أراد أزلاً وأبداً.

ومن كمال قدرته ومقتضى حكمته ومشيئته:

﴿يُعَذِّبُ﴾ من عباده ﴿مَن يَشَآءُ﴾ لا ملجأ لهم دونه ولا مرجع لهم سواه

وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ ....

إذ ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ برحمته الواسعة أيضاً كذلك على مقتضى لطفه وجماله ﴿وَ﴾ لا ملجأ لهم دونه ولا مرجع لهم إذ ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره إذ لا غير في الوجود معه ﴿تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾﴾ انقلاب الزبد هواء والأمواج ماء

﴿وَ﴾ إذا ثبت أن منقلبكم إليه ومرجعكم نحوه فعليكم الإطاعة والإيمان بالله وبوحدانيته طوعاً بلا تذبذب وتلعثم إذ ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ على إدراككم وأخذكم ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لو تحصنتم فيها ﴿وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ لو تدليتم إليها، إذ الكل في قبضته وقدرته وتحت تصرفه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ المعيد المبدئ، المحيي المميت ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يولي أموركم بالاستقلال ويتصرف فيكم بالإرادة والاختيار ﴿وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ ينصركم على أعدائكم ويدفع ضررهم عنكم.

ثم قال سبحانه حثاً لهم إلى الإيمان وترغيباً لهم إلى التوحيد والعرفان:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالة على عظمة ذاته وكمال أسمائه وصفاته ﴿وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ أي أنكروا بلقائه الموعود لأرباب الكشف والشهود ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ البعداء المطرودون عن ساحة عز القبول هم الذين ﴿يَئِسُواْ﴾ وقنطوا ﴿مِن رَّحْمَتِي﴾ مع سعتها ووفورها ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المردودون في تيه

لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ

الغفلة والضلال ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ في النشأة الأولى والأخرى، لا يرجى نجاتهم وخلاصهم أصلاً.

وبعدما بلغ الخليل صلوات الرحمن وسلامه عليه في الدعوة والإرشاد، وأيده بأنواع المواعظ والتذكيرات والرموز والإشارات، ونُبذٍ من الوعيدات والإنذارات رجاء أن يتنبهوا منها ويتفطنوا بها على ما هو الحق

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ بعد استماعهم مقالاته تفصيلا ﴿ إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾ متفقين مجتمعين: ﴿ٱقْتُلُوهُ﴾ حداً فإنه قد أعرض عن دينكم وانصرف عن آلهتكم وشفعائكم ﴿أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ فإنه جدير بالإحراق لعظم جرمه وكبر ذنبه، وبعدما اتفقوا على حرقه، أوقدوا ناراً عظيمة بحيث لا يمكن التقرب إليها إلا بمسافة بعيدة فوضعوه في المنجنيق فرموه بها إليها ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ الرقيب المطلع على إخلاص عباده وأخلصه ﴿مِنَ﴾ حرقِ ﴿ ٱلنَّارِ ۚ﴾ وجعلها له برداً وسلاماً ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الإنجاء والإنقاذ مع أن طبع النار على الإحراق والإفناء ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ عظام ودلائل جسام على كمال قدرة الله وحوله وقوته ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ بوحدة ذاته وكمال أسمائه وصفاته، لأنهم هم المنتفعون بأمثال هذه الشواهد والبراهين، وبعد ما أنجاه الله منها.

﴿وَ﴾ أيس من إيمان قومه ﴿قَالَ﴾ لهم موبخاً عليهم وموعداً لهم بوحي

إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ ....

الله وإلهامه: ﴿ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم﴾ وأخذتم ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ المتوحد بالألوهية والربوبية ﴿أَوۡثَٰنٗا﴾ آلهة لتكوِّنوا أسباباً لكم توجب ﴿مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ﴾ وتوقع المحبة والمؤاخاة بين أظهركم ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ بأن تجتمعوا عندها وتعتكفوا حولها وتتقربوا إليها بالهدايا والقرابين ﴿ثُمَّ﴾ اعلموا أيها الضالون المنهمكون في بحر الغفلة والضلال والجهل بالله وبقدره وقدر حوله وقوته ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ المعدة للعرض والجزاء وحساب ما صدر عنكم في دار الابتلاء ﴿يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ﴾ يعني يقع التناكر والتخاصم بينكم فيكْفُر بعضكم ببعض ﴿وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا﴾ أي كل منكم ومن معبودكم يتلاعنون ويتخاصمون حال كونكم متبرئين كل منكم عن صاحبه تابعاً ومتبوعاً، عابداً ومعبوداً ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿وَمَأۡوَىٰكُمُ﴾ ومرجعكم إليها أنتم وآلهتكم جميعاً خالدون فيها لا نجاة لكم منها بأعمالكم وأفعالكم ﴿ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ ليشفعوا لكم وينقذوكم منها بشفاعتهم.

وبعد ما أنجى سبحانه خليله صلوات الرحمن عليه وسلامه من النار، وخرج منها سالماً سوياً بلا لحوق ضرر.

﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ﴾ ابن أخيه ﴿لُوطٞۘ﴾ وهو أول من آمن به وأنكره غيره ونسبوه

وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا

إلى السحر والشعبذة وأنواع الخرافات ﴿وَ﴾ لما أيس الخليل عن إيمانهم ﴿قَالَ﴾ للوط وزوجته سارة ابنة عمه: ﴿إِنِّي﴾ بعدما أيست عن إيمان هؤلاء الجهلة الضالين ونجوت عن مكائدهم ﴿مُهَاجِرٌ﴾ مبعد منهم ﴿إِلَىٰ﴾ أرض أمرني ﴿رَبِّيٓ﴾ للهجرة إليها، وأوحاني أن أذهب نحوها فعليّ أن أمتثل لأمره وأمضي على موجب حكمه ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه في ذاته وأسمائه وأفعاله ﴿هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على جميع ما جرى عليه مشيئته وقضاؤه ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ المتقن في جميع ما صدر عنه إرادة واختياراً.

﴿وَ﴾ بعدما خرج عليه السلام من سواد الكوفة مع لوط وزوجته وصل إلى حران ثم منها إلى الشام فنزل فلسطين، ونزل لوطٌ سدومَ، ثم لما استقر وتمكن على فلسطين ﴿وَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾ من كمال لطفنا معه وفضلنا إياه ابنه ﴿إِسْحَٰقَ﴾ نافلة ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ ليزول بهما كربة الغربة ووحشة الجلاء، مع أن هبة ولده إياه من محض الجود الإلهي على سبيل خرق العادة، إذ هو كبير السن وامرأته عاقر ﴿وَ﴾ أيضاً من كمال لطفنا معه ﴿جَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ﴾ مستمرةً إلى يوم الجزاء ﴿وَٱلْكِتَٰبَ﴾ أي آتينا الكتاب لبعضٍ منهم يعني رسلهم، وإنما فعلنا معه كذلك؛ لئلا تنقطع سلسلة كرامتنا عنه، بل تستمر إلى انقراض العالم ﴿وَ﴾ بالجملة بعدما هاجر إلينا الخليل بالكلية وانخلع عن لوازم ناسوته بالمرة ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ﴾ أي أجر هجرته ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾ على

وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ

وجه لا ينقطع صيته عن الآفاق أبداً ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ لقبولنا، المقبولين في ساحة عز حضورنا.

﴿وَ﴾ أرسلنا أيضاً ﴿لُوطًا﴾ إلى قوم انحرفوا عن جادة الاستقامة وضلوا عن سواء السبيل، اذكر يا أكمل الرسل ﴿إِذۡ قَالَ﴾ لوط ﴿لِقَوۡمِهِۦٓ﴾ بوحي الله إياه وإلهامه ﴿إِنَّكُمۡ﴾ أيها المفسدون المسرفون ﴿لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ أي الفعلة الذميمة التي ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا﴾ بغاية قبحها وهجنتها ونهاية شنعتها ﴿مِنۡ أَحَدٖ﴾ أي أحد ﴿مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ من بني نوعكم، بل انتم ابتدعتموها واخترعتموها من خباثة نفوسكم وشؤم شهوتكم.

ثم وبخهم وقرعهم بهُجنة أفعالهم وأعمالهم فقال:

﴿أَئِنَّكُمۡ﴾ أيها المفرطون في متابعة القوة الشهوية ﴿لَتَأۡتُونَ﴾ وتطؤون ﴿ٱلرِّجَالَ﴾ من أدبارهم وهم أمثالكم ﴿وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي سبيل التناسل والتوالد، وتبطلون الحكمة البالغة الإلهية المتعلقة بإبقاء النوع ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ﴾ أي مجالسكم ومحافلكم ﴿ٱلۡمُنكَرَۖ﴾ أي الفعلة الذميمة، أي تأتون بها على رؤوس الملأ بلا مبالاة واستحياء وإخفاء، بل يتباهون بإظهارها مع أن إعلان المنكرات من أعظم الجرائم وأقبح الفواحش عند الله وعند المؤمنين، سيما هذا المنكر المستبدع المستقذر

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ بعدما سمعوا منه التشنيع والتقبيح على أبلغ وجه وآكده ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾ متهكمين له، مصرين على ما هم عليه من الفعلة الذميمة الشنيعة: ﴿ٱئْتِنَا﴾ يا لوط ﴿بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ الذي ادعيت نزوله علينا بسبب فعلنا هذا ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ في دعواك، فنحن لم نمتنع بهذياناتك عن فعلتنا هذا قط، ولم نقبل منك نصيحتك أصلاً.

وبعد ما أيس من صلاحهم وإصلاحهم.

﴿قَالَ﴾ مشتكياً ملتجئاً نحوه مستنصراً منه: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني على صفة الصلاح والنظافة ﴿ٱنصُرْنِي﴾ بحولك وقوتك بإنزال العذاب ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾ المسرفين المفرطين في الإفساد، الخارجين على مقتضى حدودك.

وبعد ما استحقوا الإهلاك والاستئصال بإصرارهم عليها وعدم امتناعهم عنها مع كونهم مجاهرين بها، مفاخرين بإظهارها، أخذناهم بغتة واستأصلناهم مرة.

﴿وَ﴾ ذلك ﴿لَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ أي ليبشروه بهبة الولد والنافلة ﴿قَالُوٓاْ﴾ مخبرين له على طريق الوحي من الله: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ يعني سدوم وجاعلوها منقلبةً على أهلها

إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ

﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ خارجين عن مقتضى الحدود الإلهية، منقلبين الحكمة البديعة بالبدعة الشنيعة.

ولما سمع إبراهيم عليه السلام منهم ما سمع

﴿قَالَ﴾ مضطرباً قلقاً: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ﴾ من خُلّص عباد الله، ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ﴾ منك ﴿بِمَن فِيهَا ۖ﴾ بتعليم الله إيانا ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ مما سيصيب قومه بأمر الله علينا بإنجائه، ومن معه من أهل بيته والمؤمنين له ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ الهالكين لنفاذ قضاء الله على هلاكها فيهم، إذ هي من جملتهم ومن عدادهم وفي زمرتهم.

﴿وَ﴾ بعدما بشروا إبراهيم بما بشروا وأخبروا له ما أخبروا، توجهوا نحو لوط اذكر يا أكمل الرسل ﴿لَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ﴾ أي فجاءته المساءة والسآمة والكرب بقدومهم ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي ضاق ذرع طاقته بنزولهم، إذ اشتد عليه حفظهم عن أهل القرية، وضاقت طاقته عن تدبير خلاصهم له منهم؛ لأنهم جاؤوا على صورة صبيان صباح ملاح أمارد في غاية الحسن وكمال الجمال، فهم مشغوفون بطلب أمثالهم ﴿وَ﴾ لما تفرس الرسل منه الخوف والحزن والضجرة وأنواع الغموم والهموم العارضة لهم من إلمامهم إياه ﴿قَالُوا۟﴾ له تفريجاً لهمه: ﴿لَا تَخَفْ﴾ يا لوط إضرارهم بنا

وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾..............

﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾ من لحوق العار عليك بسببنا؛ لأنا رسل ربك، أرسلنا الله لنصرك وتأييدك وإنزال العذاب على قومك، ولا تحزن أيضاً تعذيبنا لك ولمن تبعك ﴿إِنَّا﴾ بأمر ربنا ﴿مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ مما يصيبهم من العذاب والهلاك ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ الهالكين، هكذا ثبت في حضرة علم الله ولوح قضائه، ثم فصلوا له العذاب وقالوا:

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي عذاباً ذا رجز أي قلقاً واضطراباً يقلقل المضطرب المعذب ويضطربه اضطراباً شديداً حين نزوله ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾ أي بفسقهم الذي باهوا به، وتمادوا فيه مجاهرين مصرّين.

﴿وَ﴾ بعدما انتقمنا منهم وأخذناهم بفسقهم ﴿لَقَد تَّرَكْنَا﴾ وأبقينا ﴿مِنْهَآ﴾ أي من حكايتهم وقصتهم ﴿ءَايَةًۢ بَيِّنَةً﴾ أي عبرة ظاهرة لائحة ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ حتى يستعملوا عقولهم في مواضع العبر، ويتأملون فيها معتبرين منها، مستبصرين بها.

فاعتبروا يا أولي الأبصار، واعلموا أن الأبرار إنما يتميزون عن الأشرار بالاعتبار والاستبصار.

بصَّرنا الله بعيوب نفوسنا، وجعلنا من المعتبرين بعيوب الغير عند وجوده.

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم

﴿وَ﴾ أرسلْنا أيضاً ﴿إِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ حين ظهر فيهم الخيانة في المكيلات والموزونات ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ ليصلح ما فيهم من المفاسد ﴿فَقَالَ﴾ بعدما بعثناه إليهم منادياً لهم ليقبلوه ويطيعوا أمره: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ أضافهم إلى نفسه لكمال العطف والشفقة وإمحاض النصح ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ الواحد الأحد الحقيق بالعبادة والإطاعة ﴿وَٱرْجُوا۟﴾ من الله ﴿ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ أي ائتوا بالإيمان والإخلاص والعمل الصالح، راجين من الله الثواب في يوم الجزاء ﴿وَ﴾ عليكم أن ﴿لَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ولا تتحركوا عليها حال كونكم ﴿مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾﴾ لمصالح عباد الله وأمور معاشهم ومعادهم.

وبعدما سمعوا مقالتهم

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فجاؤوا بتكذيبه بلا مبالاة له وبكلامه فاستحقوا المقت العظيم ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ أي الزلزلة الشديدة مع الصيحة الهائلة ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ﴾ التي بنوها للحياة والمعاش ﴿جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ مائتين هالكين باركين على ركبهم، ساقطين على وجوههم.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل ﴿عَادًا﴾ المبالغين في الظلم والعدوان ﴿وَثَمُودَا۟﴾ المتجاوزين عن مقتضى حدود الله بالبغي والطغيان ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم﴾ وظهر عندكم ولاح عليكم أيها الناظرون المعتبرون عتوهم

مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ ....

واستكبارهم ﴿مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ﴾ الرفيعة وحصونهم الحصينة المنيعة ﴿وَ﴾ ذلك بأنهم قوم ﴿زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ وحسَّنها في نفوسهم، فاستبدوا بها ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي أعرضهم الشيطان بتزيين أعمالهم الفاسدة عن الصراط المستقيم والطريق المستبين ﴿وَ﴾ هم ﴿كَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾ متمكنين قادرين على الاستبصار والاعتبار، فلم يعتبروا، إذ لم يُسلب عنهم لوازم عقولهم، بل لبَّس عليهم الشيطان أفعالهم، وحسَّن عندهم أعمالهم، فظنوا أنهم مهتدون وما كانوا مهتدين.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل ﴿قَٰرُونَ﴾ المباهي بالمال والنسب على أهل عصره وزمانه ﴿وَفِرْعَوْنَ﴾ المستعلي بالسلطنة والملك إلى أن تفوه من غاية عتوه واستكباره بدعوى الألوهية لنفسه ﴿وَهَٰمَٰنَۖ﴾ وزيره قد تفوق على أقرانه وأهل زمانه بالثروة والجاه والنيابة الكاملة وعلو المكانة والمنزلة بين الأنام ﴿وَ﴾ من كمال تعنت هؤلاء المفسدين المسرفين واستعلائهم ﴿لَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ﴾ بوحينا رسولاً منا ليهديهم إلى طريق الحق وصراط مستقيم، فكذبوه ولم يبالوا به وبكلامه مع كونه مؤيداً ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ القاطعة والمعجزات الساطعة ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ على الله وعلى رسله وعموم عباده وانصرفوا عن مطلق أوامره ونواهيه منكرين وجوده وإرساله ووحيه عناداً ومكابرةً ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿مَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ بنا حافظين نفوسهم عن إدراك عذابنا إياهم وانتقامنا منهم.

فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ....

﴿فَكُلًّا﴾ منهم ﴿أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ﴾ الذي صار علةً تامةً لبطشه وانتقامه على مقتضى عدلنا.

ثم فصّل سبحانه أخذه إياهم بعدما أجمل، فقال:

﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ أي ريحاً عاصفاً فيها حصباء رميناهم ورجمناهم بها كقوم لوط وعاد ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ الهائلة كثمود وأصحاب مدين ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ كقارون وما معه من زخارفه التي هي سبب طغيانه وبغيه ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ كقوم نوح وفرعون وهامان وجميع جنودهما ﴿وَ﴾ ما أخذنا كلاً منهم إلا بذنوب عظيمة صدرت عنهم على سبيل الإصرار والاغترار إذ ﴿مَا كَانَ ٱللَّهُ﴾ المستوي على العدل القويم والطريق المستقيم، وما صح عليه وحق له سبحانه ﴿لِيَظْلِمَهُمْ﴾ ويأخذهم بلا ذنب صدر عنهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ أي هم كانوا يظلمون أنفسهم باستجلاب عذاب الله عليها بارتكاب أسبابه وموجباته وعرضها على غضب الله بالخروج عن مقتضى أوامره ومنهياته، وما ذلك إلا من رسوخ التقليدات والتخمينات في نفوسهم، واستقرار الرسوم والعادات في جبلتهم، لذلك أصروا بما هم عليه وانصرفوا عن سواء السبيل، وكذّبوا الرسل الهادين إليه وأنكروا عليهم عتواً واستكباراً، فهلكوا خساراً وبواراً.

مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ ....

ثم أشار سبحانه إلى توهيم جميع التقليدات والتخمينات الحاصلة من هوية النفوس الخبيثة بالماديات والعقول السخيفة المكدرة بكدورات الأوهام والخيالات، فقال على سبيل التمثيل والتشبيه على مقتضى إدراك العوام توضيحاً لهم ليتنبهوا على طريق الحق ويتفطنوا بالتوحيد القويم:

﴿مَثَلُ﴾ القوم ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ المنزه عن الأشباه والأنداد مطلقا ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ يوالونهم كولاية الله ويعبدونهم مثل عبادته متوهمين أنهم شركاء معه أو شفعاء لهم عنده سبحانه مع أنهم لا يتأتى منهم الشركة والشفاعة أصلاً، إنما مَثَلهم في هذا الاتخاذ والاعتقاد ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ التي ﴿ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ﴾ من لعابها ثم تركتها واتخذت آخر مثلها ثم تركتها، وهكذا حالها دائماً، مع أن هذه الأبنية والبيوتات المتخذة لا تدفع حراً ولا برداً، ولا تصير مانعاً له من العدو وحجاباً كهؤلاء المقلدين الضالين الذين اتخذوا تقليد بعض الضُّلال ديناً، ثم تركوها بتقليدٍ آخر منهم بلا رسوخ ولا تمكن، وهكذا حالهم دائماً، مع أن الأديان المتَخذة لا تكشف لهم طريق الحق، ولا توصلهم إلى معرفته وتوحيده، ولا تنقذهم من الأوهام والخيالات الباطلة العائقة عن مشرب التوحيد، ولا تخرجهم من سجن الطبيعة وقيود الإمكان وأغلال الأنانيات وسلاسل العينات

وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَ

﴿وَ﴾ قال سبحانه على سبيل التأكيد والمبالغة والتصريح بالتوهين بعدما كنّى لينزجروا ويرتدوا على ما هم عليه من الأديان الباطلة: ﴿ إِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ ﴾ وأضعف الأبنية ﴿لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ إذ لا بيت أضعف منه، وأشرف إلى التخريب والانهدام وأقل وقاية من الحر والبرد ودفع الضر ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ وهنه وعدم نفعه لما اتخذوها، لكنهم لم يعلموا فاتخذوا جهلاً وعناداً، فسيعلمون عاقبة ما اتخذوا ووبال ما عبدوا.

ثم قال سبحانه على وجه الوعيد إياهم آمراً لحبيبه صلى الله عليه وسلم: قل لهم يا أكمل الرسل:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ﴾ المطلع لضمائر عباده وسرائرهم ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿مَا يَدْعُونَ ﴾ [المفسر بقراءة: ﴿تَدْعُوْنَ﴾ وهي قراءة ابن عامر وغيره] وتعبدون ﴿مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ من الأصنام والأوثان على التفصيل، إذ لا يعزب عن حيطة علمه شيءٌ مما ظهر وبطن وخفي وعلم، ولكن يمهلهم ويؤخر أخذهم بها زماناً لِحكم ومصالح استأثر الله بها ولم يطلع أحداً عليها ﴿وَ﴾ كيف لا يأخذهم بما صدر عنهم إنه ﴿هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على الانتقام بالقوى الكاملة والبطش الشديد ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾﴾ المتقن في أفعاله بما لا مزيد عليه.

﴿وَ﴾ إن استهزؤوا معك يا أكمل الرسل متهكمين بما في كتابك من التمثيلات بأحقر الأشياء وأضعفها مثل الذباب والعنكبوت والنمل وغيرها،

﴿تِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾............

لا تبال بهم وبتهكمهم واستهزائهم إذ ﴿تِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ﴾ التي ﴿نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ المنهمكين في الغفلة والنسيان؛ لنوضح لهم طريق التوحيد والعرفان وسبيل السلامة والإيمان، إنما هو للموقنين منهم، المجبولين في استعداد القبول وفطرة الإسلام، لا كل أحدٍ من أهل الغفلة والمترددين في أودية الجهل والخيال وهاوية المراء والجدال ﴿وَ﴾ لذلك ﴿مَا يَعْقِلُهَآ﴾ ويفهم معناها وما يصل إلى مغزاها ﴿إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ الواصلون بما فاض عليهم من رشحات بحر العلم الإلهي ينبوع بحر الوحدة الذاتية التي هي منبع جميع الكمالات اللائحة على صحائف الآفاق وصحفات الأكوان حيث

﴿خَلَقَ ٱللَّهُ﴾ المتجلي بجميع صور الكمالات وأظهر على مقتضى الأسماء والصفات ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي العلويات المتفاوتة المتخالفة باختلاف الأسماء والصفات المنتشئة من الذات الأحدية حسب الشؤون والتطورات المترتبة على الكمالات المندمجة فيها ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ أي طبيعة العدم القابلة لجميع الانعكاسات المنعكسة من أشعة التجليات الذاتية غيباً وشهادةً، ظهوراً وبطوناً، بروزاً وكموناً، جمالاً وجلالاً، يعني ما خلق وأظهر ما ظهر وبطن إلا ملتبساً ﴿بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ المطابق للواقع بلا شائبة شك فيه وارتياب ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الإيجاد والإظهار على الوجه الأبدع الأبلغ والنظام الأتم الأكمل ﴿لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾ الموحدين الموقنين بوحدة ذاته وكثرة

﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾

أسمائه وصفاته حسب شؤونه وتطورات على مقتضى التجليات المتجددة الغير المتكررة أزلاً وأبداً.

﴿ ٱتْلُ ﴾ يا أكمل الرسل ﴿مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ الجامع لما في النشأتين الحاوي لجميع الأمور الجارية في المنزلتين، وتأمل في مرموزاته وإشاراته حق التأمل والتدبر، واتصف بأوامره واجتنب عن نواهيه، واعتبر عن عبره وأمثاله وذق حلاوة معارفه وحقائقه ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ﴾ أي داوم على الميل المقرب إلى الله بجميع جوارحك وأركانك بالانخلاع عن لوازم ناسوتك مطلقا ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ على الوجه المذكور ﴿تَنْهَىٰ﴾ وتكف صاحبه ﴿عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ المترتبة عن القوى البهيمية من الشهوية والغضبية ﴿وَٱلْمُنكَرِ ۗ﴾ المترتب على البشرية المنغمسة بالعلائق المادية والشواغل الجسمانية ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ﴾ المنزه في ذاته عن جميعِ الأكوانِ المبرئِ أوصافه وأسماءَه عن وصمة النقصان وسمة الحدوث والإمكان، والاشتغالُ بذكره حسب إطلاقه ﴿ أَكْبَرُ ۗ﴾ شمولاً وأتم توجهاً وأكمل حصولاً ووصولاً لو جذبتك العناية من لدن جنابه ووفقك التوفيق منه نحو بابه ﴿وَ﴾ كن يا أكمل الرسل في نفسك متوجهاً إلى ربك متقرباً إليه على الوجه الذي أمرت به، ولا تلتفت إلى هذيانات أهل البدع والأهواء الفاسدة إذ ﴿ٱللَّهُ ﴾ المطلع بجميع حالاتهم ﴿ يَعْلَمُ ﴾ منهم ﴿مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ من الاستخفاف والاستهزاء وعدم المبالاة بمعالم الدين ومراسم التوحيد واليقين، فيجازيهم على مقتضى علمه بهم.

﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦﴾ ....

﴿۞﴾ بعدما سمعتم أيها المؤمنون خطاب ربكم مع نبيكم ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ﴾ ولا تخاصموا ﴿أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي الأحبار الذين واظبوا على محافظة كتاب الله المنزل إليهم، واستَنبَطوا منه الأحكام، وامتَثَلوا بأوامره، واجتَنَبوا نواهيه ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي﴾ أي بالطريق التي ﴿هِيَ أَحۡسَنُ﴾ الطرق وأبعد عن المكابرة وأقرب إلى الصواب هيّنين ليّنين معهم بلا قلق واضطراب وفضول الكلام، ما داموا متصفين معتدلين بلا ميل منهم وانحراف إلى المكابرة والاعْتِسَاف[1] ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ جهلاً وعناداً وخرجوا عن منهج الصواب بغياً وعدواناً ﴿وَقُولُوٓاْ﴾ لهم على مقتضى ما أُمرتم به في كتابكم: ﴿ءَامَنَّا﴾ وصدقنا ﴿بِٱلَّذِيٓ﴾ أي بالكتاب الذي ﴿أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ من ربنا على طريق الوحي لنبينا ﴿وَ﴾ آمنا أيضاً بالكتاب الذي ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ منه سبحانه وحياً على نبيكم ﴿وَ﴾ كيف لا نؤمن لكتابكم ونبيكم إذ ﴿إِلَٰهُنَا﴾ الذي أَنزل علينا كتاباً ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ﴾ الذي أَنزل عليكم أيضاً كتاباً ﴿وَٰحِدٞ﴾ لا تعدد فيه ولا شريك له ولا مثل له يماثله ولا كفو له يشابهه ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦﴾ مؤمنون منقادون مطيعون وبجميع ما حكم به سبحانه في كتبه وعلى ألسنة رسله مصدقون ممتثلون إلا ما نسخ في كتابنا.

(١) في المخطوط (والاعناق).

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾..............

﴿وَ﴾ كيف لا يقول لهم المؤمنون هكذا ولا يؤمنون بالكتب المنزلة من عندنا ﴿كَذَٰلِكَ﴾ وعلى ذلك ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ الجامع لما في الكتب السالفة؛ لتكون أنت ومن تبعك مؤمنين مصدقين لجميع الكتب والرسل بلا تفرقة ولا تفاوت ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ قبل كتابك ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي بكتابك ويصدقون بك أيضاً كذلك على الوجه الذي وعدناهم في كتبهم من أنا سنرسل رسولاً موصوفاً بأوصافٍ مابيناه لهم في كتبهم، ومعه كتاب جامعٌ مصدق لجميع الكتب السالفة والرسل السابقة، وإن كان مشتملاً على النسخ والتبديل لبعض أحكام الكتب السالفة على مقتضى سنتنا القديمة وعادتنا المستمرة من نسخ بعض الأحكام السابقة باللاحقة ﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي الأعراب ﴿مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ أي بهذا الكتاب وإن لم يسبق لهم وعد؛ لأنهم ليسوا من أهل الكتاب في وقت من الأوقات بل إنما آمنوا به لكونهم من أرباب اللسن والفصاحة، تأملوا في نظم ألفاظه العجيبة واتساق معانيه البديعة، انكشفَ لهم أنه ما هو من جنس كلام البشر فجزموا بإعجازه وآمنوا به، فصدقوه أنه نازل من عند الله على سبيل الوحي ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَا يَجْحَدُ﴾ وينكر ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ الظاهرة الإعجاز، العجيبة الشأن، الباهرة البيان ﴿إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾ الساترون نور الهداية والإيمان بظلمة الكفر والطغيان عناداً ومكابرةً.

وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ ....

﴿وَ﴾ كيف لا يكون القرآن وحياً نازلاً من عند الله بمقتضى إرادته إذ ﴿مَا كُنتَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿تَتْلُوا۟﴾ وتتعلم ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي قبل القرآن ونزوله ﴿مِن كِتَٰبٍ﴾ من الكتب المنزلة ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ﴾ وتنسخه ﴿بِيَمِينِكَ ۖ﴾ على سبيل النقل يعني ما كنت من أهل النسخ والإملاء والكتابة، إذ هي مسبوقة بالتعلم وأنت أميّ عارٍ عن الدراسة والكتابة والتعلم مطلقاً، ولم يعهد منك أمثال هذه الأمور الدالة على الأخذ والاستنباط، ولو كنت متصفاً بها وأهلاً لها ﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ﴾ شَكَّ وتردَّدَ ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ المجاهرون بالقول الزور الباطل في شأنك وفي شأن كتابك وكونه معجزاً، مع أنه ما هو أي القرآن حينئذ أيضاً محل ارتياب؛ لأنه في نفسه باعتبار نظمه العجيب البديع ومعانيه الغريبة[1]، وأسلوبه المحكم معجز خارق للعادة عند من له أدنى دُربة[2] في أساليب الكلام، ولا ينبغي لأحد أن يشك في إعجازه إلا من هو متناهٍ في البلادة وسخافة العقل وركاكة الفهم.

﴿بَلْ هُوَ﴾ أي القرآن في نفسه ﴿ءَايَٰتٌۢ﴾ ودلائل دالة على توحيد الحق ﴿بَيِّنَٰتٌ﴾ واضحات الدلالات في أنفسها ثابتات ﴿فِى صُدُورِ﴾ الموحدين ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ﴾ اللدني المترشح من حضرة العلم الإلهي المفاض لهم ، منها حسب استعداداتهم وقابلياتهم تفضلاً عليهم وامتناناً لهم

(١) في المخطوط (الغريب).

(٢) في المخطوط (درية).

وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ ....

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَا يَجْحَدُ﴾ وينكر ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ مع قواطع برهانه وسواطع تبيانه ﴿إِلَّا﴾ القوم ﴿ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ الخارجون عن مقتضى العلم والعين، والكشف والشهود.

﴿وَ﴾ من غاية بغضهم مع رسول الله ﷺ وشدة شكيمتهم وضغينتهم معه ﴿قَالُواْ﴾ مقترحين منه على سبيل التعجيز والإنكار: ﴿لَوْلَآ﴾ أي هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ إن كان صادقاً في دعواه كالآيات التي نزلت على الأنبياء الماضين مثل ناقة صالح وعصا موسى ومائدة عيسى وسائر معجزاته، وغير ذلك ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل كلاماً ناشئاً عن محض الحكمة، خالياً عن وصمة الشبهة: ﴿إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ﴾ كلها ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أنزلها، وفي قبضة قدرته وعلى مقتضى إرادته ومشيئته حتى تعلقت[1] إرادته بإنزال آية منها، أنزلها على من أنزلها إرادةً واختياراً ﴿وَ﴾ ليس في وسعي وطاقتي ولا في وسع كل من مضى قبلي من الأنبياء والرسل إنزال عموم ما طلبتم وإتيان جميع ما اقترحتم من الآيات، وكذا حال الأنبياء الماضين مع أممهم المقترحين عليهم بالآيات بل ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ﴾ من قبل الحق إياكم ﴿مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ ظاهر الإنذار والتخويف، وكلٌّ من الأنبياء والرسل أيضاً كانوا كذلك بالنسبة إلى أممهم، إذ نحن معاشر الأنبياء والرسل ما لنا إلا التبليغ والإنذار على مقتضى الوحي والإلهام الإلهي بلا تحريف

---

(١) في المخطوط (تعلق).

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ ....

منا وتبديل، وأما التنزيل والإنزال من قبل الحق، والقبول منكم فمُفوضٌ إلى القادر الحكيم.

ثم قال سبحانه على المقترحين وتقريعاً لهم:

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ ولم يغنهم من جميع الآيات التي اقترحوا عنك يا أكمل الرسل ﴿أَنَّآ أَنزَلْنَا﴾ من مقام جودنا ولطفنا معك ﴿عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الجامع لما في الكتب السالفة، المحتوي على أحوال النشأتين على الوجه الأبلغ، مع أنه لا يغيب عنهم بل ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ ويُقرأ عندهم دائماً بخلاف سائر الآيات، فإنها كما ظهرت غابت هي وأثرها، وهو وأثرها حاضرٌ عندهم غير مغيب عنهم، وبالجملة ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الكتاب الذي هو في نفسه آيات عظيمة الفوائد، دائمة العوائد، غير منقعطة آثارها عن من تمسك بها واستهديها ﴿لَرَحْمَةً﴾ أي نعمةً عامةً نازلةً من قبل الحق ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ أي عظةً وتذكيراً شاملاً لعموم عباده، ملقاةً من عنده سبحانه ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ بتوحيده وأسمائه وصفاته، ويصدقون المبدأ والمعاد والعرض والجزاء، والفوز بشرف اللقاء جميع ما وعد لهم في النشأة الأخرى.

ثم لما أتى قومٌ من ضعفاء المسلمين إلى رسول الله ﷺ بكتف رُقم فيها بعض أراجيف اليهود وأقاويلهم الكاذبة، متبركين بها، متيمنين[1] بما فيها،

(١) في المخطوط (متمينين).

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٥٢)﴾

فقال ﷺ مبغضاً عليهم: كفى بضلالة قوم أن يرغبوا عما جاءهم به نبيهم من قبل ربهم إلى ما جاء به غير نبيهم، وصدَّقوا ما جاء به غير نبيهم، مع أنه كذبٌ مفترى، وكذّبوا ما جاء به النبيُّ، مع أنه صدقٌ مطابقٌ للواقع، فنزلت حينئذ تسلية لرسول الله ﷺ[1]:

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل للمكذبين لك وبما جئت به، مصدقين لأعدائك وبما جاءوا به: ﴿كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أيها المكابرون ﴿شَهِيدًا﴾ حاضراً معي ومعكم مطلقاً، على حالي وحالكم وما جرى في ضميري وضمائركم، إذ هو سبحانه ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري جميع ﴿مَا﴾ ظهر ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾ ﴿وَ﴾ ما ظهر في ﴿الْأَرْضِ﴾ وكذا ما ظهر بينهما وما بطن فيهما، فيجازي كلاً منا ومنكم على مقتضى علمه بنا وبكم ﴿وَ﴾ كيف لا يجازي القادر المقتدر على انتقام عصاة عباده ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وأطاعوا ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ الذي هو بمراحل عن الحق والصدق ﴿وَكَفَرُوا بِاللَّهِ﴾ الحق الحقيق بالحقية، المستوي على منهج الصدق والصواب، وأعرضوا عن إطاعته وانقياده عناداً ومكابرةً، وبالجملة ﴿أُولَٰئِكَ﴾ البعداء المطرودون عن ساحة عزِّ[2] الحضور، والاشقياءُ المحرومون عن سعة رحمة الملك الغفور ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ (٥٢)﴾ المقصورون على الخسران والخذلان، لا

(١) مذكورة في تفسير الطبري ٢١/ ١٠، وتفسير البيضاوي ٤/ ٣٢٠، وتفسير الزمخشري ٣/ ٢٠٩.
(٢) في المخطوط (عن).

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾

يُرجى ربحهم وتفريجهم أصلاً.

﴿وَ﴾ من غاية غيهم وضلالهم ونهاية انهماكهم في بحر الغفلة والغرور ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ ﴾ تهكماً واستهزاءً ﴿بِٱلْعَذَابِۚ﴾ واستهزاءً بك الذي أنذرتهم بوحيٍ منا إليك بنزوله إياهم من كمال إنكارهم وتكذيبهم ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ ووقت معين موعود مثبت في لوح قضائنا ﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ اليوم فجأةً عاجلاً؛ لاستحقاقهم بنزوله إلا أنه مؤقت موعود على مقتضى سنتنا القديمة المستمرة من ترهين الأمور على الأوقات المعينة المثبتة في لوح القضاء وحضرة العلم. قل لهم يا أكمل الرسل نيابةً عنا: لا تغتروا بإمهالنا إياكم زماناً ﴿وَ﴾ اللهِ ﴿لَيَأْتِيَنَّهُم﴾ ولينزلن عليهم العذاب الموعود ﴿ بَغْتَةً ﴾ أي دفعة وفجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ ولا يطلعون بنزوله وأمارات إتيانه.

ومن غاية عمههم وسكرتهم وكمال إنهماكهم في أسباب العذاب وموجباته ولوازمه ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ ظناً منهم أن ما هم عليه إنما هو من موجبات الثواب وأسباب النجاة والجنة، بل هي عينهما، إذ لا إيمان لهم بالنشأة الأخرى وما فيها، كيف لا يعذبون في النشأة الأخرى ولا يدخلون النار ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ ﴾ الموعودة فيها لهم ﴿لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ محتوية عليهم الآن في النشأة الاولى باعتبار أسبابها وموجباتها.

يَوْمَ يَغْشَـٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾

اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ يَغْشَـٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ في الآخرة كغشي أسبابها التي هي عبارةٌ من لوازم الإمكان إياهم اليوم ﴿مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أي من أعلاهم وأسفلهم، ومحيطاً بجمع جوانبهم ﴿وَيَقُولُ﴾ قائلٌ[1] من قبل الحق زاجراً لهم وتوبيخاً: ﴿ذُوقُوا۟﴾ أيها المستكبرون المصرون على الكفر والعناد جزاء ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ أيها المعاندون المكابرون.

ثم قال سبحانه على سبيل التعليم والتنبيه، منادياً لخُلّص عباده الذين جُلُّ همهم[1] الإخلاص في جميع ما جاؤوا به من الأعمال:

﴿يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ أضافهم سبحانه إلى نفسه تفضلاً عليهم ومزيد إكرام لهم: مقتضى إيمانكم الإخلاص والحضور معي والتوجه إليّ مع فراغ البال في كل الأحوال، فإن لم تجدوا الفرصة والفراغة المذكورة في أرضٍ لا تستقرون فيها ولا تتمكنون عليها، بل عليكم أن تفِرُّوا وتخرجوا منها طالبين الجمعية والحضور ﴿إِنَّ أَرْضِى﴾ ومقر عبادي وعبادتي ﴿وَٰسِعَةٌ﴾ فإن لم تجدوا لذة التوجه وحلاوة الرجوع إليّ في أرض، ولم يتيسر لكم الجمعية الحاصلة المنعكسة من صفاء مشرب التوحيد، فعليكم الخروج والجلاء منها، وبالجملة ﴿فَإِيَّـٰىَ﴾ في كل الأماكن والأحوال ﴿فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ عبادةً مقارنةً بالإخلاص والخضوع والخشوع والتبتل والتوكل والتفويض والرضا

(١) في المخطوط (قائلاً).

(١) في المخطوط (هممهم).

كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ....

والتسليم، ولا تغتموا وتحزنوا بالخروج عن الأوطان والجلاء منها خوفاً من الموت الطبيعي، إن كنتم مائلين إلينا راغبين نحونا إذ ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس المستحدثة بحدوث البدن ﴿ذَآئِقَةُ﴾ كأسِ ﴿ٱلْمَوْتِۖ﴾ في أي موطنٍ ومكانٍ كانت ﴿ثُمَّ﴾ بعدما ذاق كأس الموت وخُلّص عن قيود الهويات العدمية المانعة عن الطبيعي لإطلاق الحقيقي فحينئذٍ ﴿إِلَيْنَا﴾ لا إلى غيرنا إذ لا موجود في الوجود سوانا ﴿تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ رجوع الأضواء إلى الشمس والأمواج إلى الماء.

﴿وَ﴾ بعد رجوع الموحدين ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ موقنين ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مقارنين إيمانهم بها، مخلصين فيها إلينا ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ وننزلنهم تفضلاً منا إياهم وتكريماً ﴿مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ المعدَّة لأرباب المعرفة والتوحيد ﴿غُرَفًا﴾ أي لكل منهم غرفةً معينةً تصير له مقراً ومنزلاً ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي أنهار المعارف والحقائق والمكاشفات والمشاهدات على تفاوت طبقاتهم وقدر قابلياتهم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ دائمين غير متحولين عنها أصلاً ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾﴾ الجنة وما فيها، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وهم أُلو العزائم الصحيحة.

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ على جميع مشاق التكاليف ومتاعب الطاعات وأذيات

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٥٩ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٦٠﴾ ....

الأعادي والجلاء من الأوطان ومفارقة الخلان، وغير ذلك مما جرى عليهم من طوارق الحدثان ﴿وَ﴾ مع ذلك هم في جميع حالاتهم وفي عموم ما جرى عليهم ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ لا على غيره من الوسائل والوسائط ﴿يَتَوَكَّلُونَ ۝٥٩﴾ وينسبون إليه ما ينسبون لا إلى الوسائل والأسباب العادية، إذ الكل منه بدأ وإليه يعود، بل الوسائل كلها مطوية عندهم، والأسباب منسية لديهم، بل نظرهم مقصور على المسبب الواحد الأحد الفرد الصمد القيوم المطلق الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد.

وبعدما أمر سبحانه المؤمنين بالجلاء ومفارقة الأوطان لكسب الجمعية وحضور القلب، قالوا متخوفين عن العيْلة والاضطرار في أمر المعاش: كيف نعمل ونعيش في بلاد الغربة، ولا معيشة لنا فيها، قال سبحانه تسليةً لهم وإزالة لخوفهم:

﴿وَكَأَيِّن﴾ أي كثير ﴿مِّن دَآبَّةٖ﴾ تتحرك على الأرض محتاجة إلى الغذاء المقوم لمزاجها مع أنها لضعفها وعدم مكنتها ﴿لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا﴾ أي لا تطيق لحمل رزقها وادخاره وكسبه. ﴿ٱللَّهُ﴾ المتكفل لأرزاق عموم عباده ﴿يَرۡزُقُهَا﴾ من حيث لا تحتسب ﴿وَإِيَّاكُمۡۚ﴾ أيضاً، وأنتم من جملة الحيوانات التي تكفل الله برزقها، بل من أجلتها، فلا تغتموا لأجل الرزق، ولا تقولوا قولاً به زلَّ نعلكم عن خالقكم ورازقكم ﴿وَ﴾ لا تُخطروا أيضاً ببالكم أمثال هذا إذ ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالكم ﴿ٱلۡعَلِيمُ ۝٦٠﴾ بأحوالكم وبيناتكم،

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٦١) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ....﴾

فعليكم أن تتقوا في كل الأحوال بالله المتولي[1] لأمركم، مفوضين كلها إليه، متوكلين عليه، متمكنين في توكلكم وتفويضكم، راسخين فيه بلا تلعثمٍ وتزلزلٍ، ثم قال سبحانه قولاً على سبيل الإلزام والتبكيت:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ يا أكمل الرسل أي أهل مكة مع كفرهم وشركهم ﴿مَّنْ خَلَقَ﴾ وأظهرَ ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ مِن كتم العدم ﴿وَ﴾ مَن ﴿سَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ دائبين ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ المظهرُ للكائنات، المستقلُّ في إيجادها، والمتصرف فيها حسب إرادته ومشيئته، وبعد ما أقروا بتوحيد الحق وانتهاء مراتب الممكنات إليه ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٦١)﴾ ويُصرفون عن توحيده والإيمان به، والامتثال بأوامره ونواهيه الجارية على ألسنة رسله وكتبه، وإن صرفهم عن الإيمان فاقة أهل الإيمان وفقر الموحدين قل لهم نيابةً عنا.

﴿اللَّهُ﴾ المطلع لاستعدادات عباده وقابلياتهم ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ على مقتضى استعداده ﴿وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ ويقبض عنه حسب تعلق إرادته ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتقن في أفعاله ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ صدر عنه إرادة واختياراً ﴿عَلِيمٌ (٦٢)﴾ لا يعزب عن حيطة علمه شيء من لوازمه ومتمماته وجميع مقتضياته.

﴿وَ﴾ أيضاً ﴿لَئِن سَأَلْتَهُم﴾ يا أكمل الرسل ﴿مَّن نَّزَّلَ مِنَ﴾ جانب

(١) في المخطوط (المولي).

ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٦٣﴾ ....

﴿ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحۡيَا بِهِ﴾ أي بواسطة الماء على مقتضى عادته المستمرة من تعقيب الأسباب بالمسببات ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾ الجامدةَ اليابسةَ ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا﴾ أي جمودها ويبسها طبعاً ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ طوعاً، القادرُ المقتدرُ على الإحياء والإماتة، ومع اعترافهم بوحدة الله وانتساب معظم الأشياء إليه يشركون له غيرَه عناداً ومكابرةً ﴿قُلِ﴾ يا أكمل الرسل بلسان الجمع بعدما عصمك الحقُّ عن الشرك وأنواع الجهالات[1] بإفاضة العقل المفاض، وهداك إلى توحيده بالرشد الكامل المكمل المميز لك أكمل التمييز، حامداً لله شاكراً لنعمه، سيما نعمة العصمة عن الشرك والضلال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ والثناء الصادر من ألسنة ذرائر الكائنات المتذكرة لمبُدئها ومنشئها طوعاً وطبعاً ثابتةٌ حاصلةٌ ﴿لِلَّهِۚ﴾ راجعة إليه سبحانه أصالةً، إذ لا مُظهر لهم سواه، ولا موجِد في الوجود إلا هو ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ﴾ من نهاية غفلتهم وضلالهم عن الله ﴿لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ ولا يفهمون وحدة الحق واستقلاله في الآثار والتصرفات الواقعة في الأنفس والآفاق، ولا يستعملون عقولهم المفاضة لهم للتدبر والتأمل في هذا المطلب العزيز حتى يستبعدوا لفيضان نزول الوحدة بطريق الكشف والشهود، فخلصوا عن التردد في هاوية الجهالات، وأودية الخيالات والضلالات، وما يعوقهم ويمنعهم عن الوصول إلى هذا المطلب العليّ والمقصد السني إلا المزخرفات الدنية الدنياوية الملهية للنفوس البشرية

(١) في المخطوط (الجهات).

وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ....

عن اللذات الروحانية، مع أنها ما هي في أنفسها إلا أوهامٌ وخيالاتٌ باطلةٌ، فكيف ما يترتب عليها من اللذات الوهمية والشهوات البهيمية.

كما قال سبحانه مشيراً إلى فناء زخرفة الدنيا وعدم قرارها وثباتها، وبقاء النشأة الأخرى، وما يترتب عليها من اللذات الروحانية، والدرجات العلية النورانية المتفاوتة علماً وعيناً وحقاً على تفاوت طبقات أرباب الكشف والشهود، ومقتضيات استعداداتهم الثابتة في لوح القضاء وحضرة العلم الإلهي:

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ التي لا قرار لها ولا مدار حقيقة، بل لا أصل لها أصلاً سوى سراب انعكس من شمس الذات، وأمواجٌ حدثت في بحر الجود ﴿إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ يعني كما أن السراب يُلهي ويخدع العطشان بالتردد والتبختر نحوَه على اعتقاد أنه ماء، فيتعب نفسه ويزيد عطشه بل يهلكها، كذلك الحياة الدنياوية ومزخرفاتها الفانية ولذاتها الزائلة الذاهبة الإمكانية تُتعب صاحبها طولَ عمره، ولا ترويه[1]، ثم تميته بأنواع الحسرة والضجرة ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ وما يترتب عليها من المكاشفات والمشاهدات اللدنية، وما يترتب عليها من أنواع الفتوحات والكرامات الفائضة لأرباب التوحيد ﴿لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ أي هي مقصورةٌ على الحياة الأزلية الأبدية التي لا يطرأ عليها زوالٌ، ولا يعقبها فناءٌ، ولا يعرض لِلَذَّاتِها انصرامٌ وانقضاءٌ ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ يوقنون بها وبما فيها من الكرامات لم يؤثروا الدنيا

---

(١) في المخطوط (ولا تروا فيه).

فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾

الدنية وحياتها الفانية المستعارة عليها، ولم يختاروا اللذات الوهمية البهيمية على لذاتها الأزلية الأبدية، وبجهلهم وضلالهم اختاروا الفاني على الباقي، والزائلَ على القارّ، والسرابَ المهلك على الفرات المحيي، والعجبُ منهم ومن حالهم كلُّ العجب أنهم مع شركهم وإصرارهم على الكفر، وعدم تأثرهم بالزواجر والروادع الواردة من قبل الحق وظهور المعجزات المزعجة إلى الإيمان.

﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾ متضرعين نحوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي كائنين كالمؤمنين المطيعين الخالصين إطاعتهم وانقيادهم لله بلا شوب الشرك وشين الكفر ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ﴾ من كمال فضلنا وجودنا إياهم ﴿إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ وأخلصناهم من المهلكة آمنين ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ يعني هم ما جاؤوا على الفور بُعيد ما خلصوا من التهلكة إلى الشرك والطغيان وأنواع العصيان والكفران.

قل لهم يا أكمل الرسل نيابة عنا آمراً لهم على سبيل التهديد:

﴿لِيَكْفُرُواْ﴾ أولئك الكافرون ﴿بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ من النعم العظام، سيما نعمة الإنجاء من مضيق البحر ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْۖ﴾ أولئك المتمتعون بما عندهم من الحطام الدنياوية، وما هم عليه من الإصرار على الكفر والضلال ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ ما يترتب على كفرانهم وتمتعهم وشركهم وضلالهم.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ

﴿أَ﴾ ينكرون نعمنا وإنعامنا إياهم أولئك الكافرون المبطلون ﴿وَلَمْ يَرَوْا﴾ ولم يعلموا أهل مكة ﴿أَنَّا﴾ من مقام جودنا وفضلنا إياهم ﴿جَعَلْنَا﴾ بلدهم يعني مكة ﴿حَرَمًا﴾ يعني ذا حرمةٍ عظيمة، يأوي إليها الناس من جميع أقطار الأرض من كل مرمىً سحيقٍ وفجٍّ عميقٍ ﴿ءَامِنًا﴾ ذا أمنٍ أهلُه من النهب والسبي وأنواع الأذى ﴿وَيُتَخَطَّفُ﴾ أي يُختلس ويُؤخذ ﴿ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ نهباً وسبياً، وهم آمنون فيها، مصونون عن المؤذيات كلها، وهم مع ذلك يكفرون نعمنا ويشركون بنا غيرنا ﴿أَ﴾ ما تستحيون من الله أيها المبطلون، وما تخافون من بطشه أيها المفسدون المسرفون ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ﴾ العاطل الزاهق الزائل، يعني الأصنام والأوثانَ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ أي يطيعون ويعبدون، مع أنهم لا يقدرون على جلب نفعٍ ودفع ضرٍ ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ﴾ القادر المقتدر القوي على البطش والانتقام ﴿يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ فستعلمون أيها الجاهلون الضالون: أي منقلب تنقلبون.

ثم قال سبحانه على سبيل التهديد والوعيد الشديد:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ وأشد عدواناً على الله وخروجاً عن مقتضى حدوده وعلى نفسه بالعرض على بطشه وعذابه ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ وانتسب إلى الله مراءً وافتراءً ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ عظيماً بأن يُشرك معه غيره، مع أنه ليس في الوجود سواه ﴿أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ﴾ المطابق للواقع الثابت النازل من عنده سبحانه، يعني

لَمَّا جَآءَهُۥٓۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾

الرسول ﷺ ﴿لَمَّا جَآءَهُۥٓۚ﴾ كذَّبه فجأة بلا تأمل وتدبر عناداً ومكابرةً ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ يعني أيزعمون أولئك المسرعون في التكذيب، المجترئون على الإنكار أنهم لا يدخلون جهنم الطرد وجحيم الخذلان خالدين مخلدين بسبب هذا الجرم العظيم والافتراء البالغ نهاية البغي والفساد على الله وعلى كتابه ورسوله؟! بلى هم المستوجبون المقصودون على الخلود فيها أبداً مهانين صاغرين.

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته المستمرة من تعقيب الوعيد بالوعد:

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ يعني المؤمنين الموقنين الذين حازوا كِلا مرتبتي العين والحق على مقتضى استعداداتهم الفطرية، ثم اجتهدوا ببذل وسعهم بأن يفنوا فينا، ويبقوا ببقائنا، باذلين مهجهم في سبيلنا، تاركين أنانيتهم وأعيانهم الباطلة في هويتنا وعيننا الحق ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ﴾ ونوفقن عليهم ﴿سُبُلَنَاۚ﴾ ولنزيدن[1] هديهم ورشدهم إلينا جذباً منا إياهم، وعنايةً لهم وإحساناً معهم ﴿وَ﴾ كيف لا يجذبهم ولا يعتني بشأنهم ولا يزيد برشدهم وتوفيقهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المتجلي لخُلّص عباده بمقتضى أسمائه وصفاته ﴿لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ منهم، وهم الذين يحسنون الأدب مع الله ويجتهدون في إفناء ذواتهم في ذاته، بعد ما تحققوا بمقام الكشف والشهود، وتيقنوا أن لا موجود سواه، ولا إله في الوجود إلا هو، اجتهدوا حينئذ أن يحكوا أظلال هوياتهم الباطلة

---

(١) في المخطوط (وتزيدون).

وعكوس تعيناتهم الهالكة العاطلة عن دفتر الوجود مطلقاً؛ لئلا يبقى لهم عينٌ ولا اسم ولا رسم.

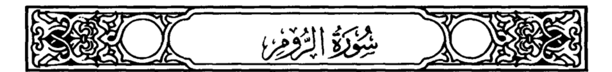
وبعدما طرحوا بتوفيق الله[1] وجذبٍ من جانبه ما أطرحوا من أباطيل التعينات ولوازم الهويات والأنانيات وعموم الاعتباريات عن دفتر الوجود وفضاء الشهود بحيث لم يبقَ لهم عينٌ ولا أثرٌ، بل لا معنى للمعيّة والمصاحبة والمقارنة، ولا تشوشك منطوقات الألفاظ والعبارات إن كنت من أهل الرموز والإشارات، هو يقول الحق، وهو يهدي السبيل، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

(١) في المخطوط (الله) لفظ الجلالة غير وارد.

خاتمة السورة

عليك أيها المجتهد المتوجه نحو الحق المتعطش بزلال توحيده المعرض عن الباطل وما يترتب عليه من غوائل الشيطان ووساوسه: أن تجتهد أولاً في استخلاص نفسك البشرية عن أمانيها مطلقاً سيما أنية أمارتك المائلة بأنواع الفجور المبغية على الله بأصناف الكفر والفسوق والغيبة التي لا تفهم مقتضيات الوحدة وإشارات أرباب التوحيد أصلاً العرية عن مبدأ المعارف والحقائق والأسرار والمكاشفات الواقعة في طريقه رأساً، فلك أن تروضها بمتاعب الرياضات ومشاق التكليفات إلى أن تجعلها مطمئنة راضية بما جرى عليها من القضاء، ثم بعدما صارت نفسك مطمئنة راضيةً انبعث شوقك واقتضى ذوقك مع جذبٍ من جانب الحق إلى أن تجعلها فانية في هوية الله، مضمحلةً في ذاته، متلاشيةً في أوصافه وأسمائه بحيث لا يبقى لها عين ولا أثر فحينئذٍ صرت في زمرة المحسنين المهديين المرضيين الذين هم من الله في جميع حالاتهم لا بطريق المصاحبة والمقارنة، ولا بطريق الحلول والإتحاد على ما يخيلك الألفاظ والعبارات، بل بطريق الفناء فيه، والرجوع إليه، والبقاء ببقائه.

جعلنا الله ممن اجتهد في طريق التوحيد، وجاهد نفسه في مسلك الفناء حتى بذلها في سبيل الله، وأفناها في هويته بمنه وسعة جوده.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الروم

لا يخفى على من تحقق بتجددات التجليات الإلهية وتبدلات شؤونه وتطوراته لطفاً وقهرا، قبضاً وبسطاً، جمالاً وجلالاً: أن دوام العسر واليسر، والنعمة والنقمة، والجدب والرخاء، والفرح والترح، والغالبية والمغلوبية، وكذا جميع الأوصاف المتضادة المتناقضة والأطوار المتخالفة الحاصلة من الإضافات والانتسابات الواقعة بين الشؤون والتطورات الحادثة في الأكوان والأزمان بين أهل الزمان حسب التجليات الإلهية المقتضية لحدوثها مما لا يتصور امتداده أبداً مستمراً بلا تبدلٍ وتحولٍ، بل هي أعراضٌ متبدلةٌ متجددةٌ على تعاقب الأمثال وتوارد الأضداد، لا يبقى زماناً متطاولاً[1] بالنسبة إلى قوم دون قوم، بل يتداول ويدور بينهم على مقتضى سنة الله وجري عادته المستمرة كما هو المشهود المتعارف.

لذلك رد الله سبحانه على مشركي مكة فرحهم وسرورهم حين أُخبروا بغلبة فارس الذين هم ليسوا من أهل الروم الذين هم نصارى من أهل الكتاب، ومن غاية فرحهم وجهلهم قالوا للمؤمنين على سبيل التبجح: نحن نظهر ونغلب، كما ظهر إخواننا على إخوانكم، فاغتم المؤمنون من هذه الوقعة الهائلة، أنزل الله سبحانه هذه السورة تسليةً لهم وإزالةً لغمهم، مخاطبا لحبيبه ﷺ مخبراً إياه

(١) في المخطوط (متطاولة).

الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ ....

متيمناً باسمه الكريم:

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ المتجلي على مقتضى جماله وجلاله حسب إرادته واختياره ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ لعموم عباده بسعة رحمته وسبقها على غضبه ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ لخواصهم بدوام الرحمة عليهم والرضا عنهم والبسط معهم بلا تخلل الغضب والقبض.

﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾ أيها الإنسان الأفضل الأكمل اللبيب اللائق الملازم المداوم لاستكشاف غوامض أسرار الوجود ورقائق دقائق آثار الكرم والجود، الفائضة من الخلاق الودود على خواص مظاهر الأكوان المحبوسين في مضيق الإمكان ؛ ليوصلهم إلى فناء الوجوب وصفاء الكشف والشهود، مخلصين عن جميع الأوهام والخيالات المستتبعة لأنواع الضلالات والجهالات.

﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾﴾ أي صاروا مغلوبين من عسكر الفرس.

﴿ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ وأقربها من أرض العرب وأرض الروم، وهي أذرعات الشام أو الأردن أو فلسطين على اختلاف الروايات من أصحاب التواريخ ﴿وَ﴾ ولا تغتموا أيها المؤمنون من مغلوبية أهل الكتاب وضعفهم إذ ﴿هُم﴾ أي الروم ﴿مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ ﴾ ومغلوبيتهم من الفرس ﴿سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾﴾ ويصيرون غالبين عليهم، آخذين انتقامهم عنهم على أبلغ وجه وأشدّه لأبعد مدة مديدة، وأمد بعيد، بل

﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ والبضع عند العرب من الثلاث إلى التسع.

....

وروي أن فارس غزوا الروم فتلاحقا بأذرعات الشام وهي أقرب أرض الروم من الفرس والعرب أيضاً، فلما اقتحما، غلب الفرس على الروم، فوصل الخبر إلى مكة، فأخذ المشركون في فرح عظيم وسررو مفرط، شامتين[١] بالمسلمين، قائلين إياهم: أنتم والنصارى أهل الكتاب، ونحن وفارسُ أُميون لا كتاب لنا، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم، فنحن لنظهرن أيضاً عليكم مثلهم عن قريب.

فنزلت الآية، فقرأها ﷺ على أبي بكر رضي الله عنه، فخرج عليهم، فقال لهم: لا يقر الله أعينكم أيها المشركون المسرفون، فواللهِ ليظهرن الروم على فارس بعد بضع سنين، فقال له أبي بن خلف: كذبت، اجعل بيننا أجلاً أُنَاحِبُك وأُراهنك[٢]، فناحبه أبو بكر رضي الله عنه على عشر قلائص من كل واحد منهم، وجعل الأجل ثلاث سنين، فأخبر أبو بكر رضي الله عنه ما جرى بينهما على رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «البِضْعُ مَا بَيْنَ الثَّلَاثِ إِلَى التِّسْعِ»[٣].

فرجع رضي الله عنه إلى أُبيّ فزايده الجعل والمدة أيضاً، فجعلاها مائة قلوص إلى تسع سنين، ومات أُبيّ من طعنٍ طعنه رسول الله ﷺ يوم أُحد، وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية أو بدر.

---

(١) في المخطوط (شاتمين).

(٢) في المخطوط (أراهنك معك).

(٣) رواه الطبراني في الأوسط [٧/ ٢٠٠ رقم/ ٧٢٦٦/] والبزار في المسند [١/ ٤٤٨ رقم/ ٣١٦/] ورواه الترمذي بلفظ: (عن بن عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال لِأَبِي بَكْرٍ في مُنَاحَبَةِ ﴿الم غُلِبَتْ الرُّومُ﴾ ألا احْتَطْتَ يا أَبَا بَكْرٍ فإن الْبِضْعَ ما بين الثلاث إلى التسع» قال أبو عِيسَى: هذا حَدِيثٌ غَرِيبٌ من حديث الزُّهْرِيِّ عن عُبَيْدِ اللَّهِ عن بن عَبَّاسٍ[سنن الترمذي [٢/ ٣٤٢ رقم/ ٣١٩١/ باب: سورة الروم].

لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ ....

فأخذ أبو بكر رضي الله عنه الخطر والرهن من ورثة أُبي، وجاء بها إلى رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «تَصَدَّقْ بِهِ»[1] فتصدق.

فهذا قبل تحريم القمار، فلا يصح الاستدلال به على جواز العقود الفاسدة.

وهذه الآية من دلائل النبوة والرسالة لكونها إخباراً عن الغيب بوحي الله وإلهامه إذ ﴿لِلَّهِ﴾ وفي قبضة قدرته واختياره ﴿ٱلْأَمْرُ﴾ كله غيباً وشهادةً، دنياً وعقبى ﴿مِن قَبْلُ﴾ أزلاً ﴿وَمِنۢ بَعْدُ ۚ﴾ أبداً، لا رادّ لأمره، ولا معقب لحكمه، يفعل الله على مقتضى إرادته واختياره ما يشاء، ويحكم حسب حكمته ما يريد ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ أي حين غلب الروم على الفرس في رأس السنة التاسعة، إنجازاً لما وعد به سبحانه المؤمنين ﴿يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾﴾ مثل ما فرح المشركون في الوقعة السابقة، وفرحُ المؤمنين إنما هو:

﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾ وتأييده أهل الكتاب والملة وتقوية أهل دينه وكتابه النازل من عنده، وتغليبهم على أهل الأهواء والآراء الباطلة، لا بمجرد الغيرة والحمية الجاهلية والعصبية، كما هو ديدنة أهل الزيغ والضلال، وإلا ﴿يَنصُرُ﴾ سبحانه ﴿مَن يَشَآءُ ۖ﴾ من عباده على مقتضى مراده، سواءً كان من

(١) ذكر القرطبي في تفسيره قصة طويلة في ذلك عن رهان كان بين المشركين وأبي بكر على بعد نزول آية ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ ثم عندما كسب أبو بكر الرهان أمره النبي بالتصدق به. انظر تفسير القرطبي [١٤/ ٣/ آية غلبت الروم].

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾

أهل الهداية والضلال، أو السعادة والشقاوة، إذ لا يُسأل عما يفعل ﴿وَ﴾ كيف يُسأل عن فعله سبحانه مع أنه ﴿هُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ المنيع ساحة عز حضوره عن أن يسأل عن كيفية أفعاله الغالب المقتدر بالقدرة الكاملة على جميع مراداته ﴿ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾ لعباده يتفضل عليهم بمقتضى سعة رحمته تفضلاً وإحساناً، وما ذلك النصر والتأييد إلا:

﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ﴾ وعهده وعده مع المؤمنين حين اشتد عليهم الحزنُ وهجمُ الهموم وقتَ مغلوبية الروم غيرةً منهم على دين الله وأهله، ومن سنته سبحانه أنه ﴿لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾ الذي وعده مع خُلّص عباده ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ المجبولين على الغفلة والنسيان ﴿لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦﴾ وعده، ولا يؤمنون ويصدقون بإنجازه الوعد وعدم خلفه في الموعود.

بل ما﴿ يَعۡلَمُونَ﴾ إلا ﴿ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ يعني لا يترقى علمهم عن المحسوسات الظاهرة مثل الحيوانات العجم، بل هم أسوأ حالاً منهم، إذ هم مجبولون على التأمل والتدبر والتفطن بما هو المقصود من ظهورها والتفكر في حكمة إظهارها على هذا النمط البديع والنظم العجيب وكيفية ارتباطها بالأسماء الإلهية والأوصاف الذاتية وانعكاسها منها ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿هُمۡ عَنِ﴾ النشأة ﴿ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ المعدة لكشف السرائر، ورفع الحجب والسدل، وجميع الأغطية والأستار المانعة عن ظهور الحق وانكشاف لقائه بلا سترة وحجاب ﴿هُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ غفلةً مؤبدةً تامةً، بحيث لا يرجى منهم الاطلاع أصلاً ؛

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّىۗ ....

لكثافة حجبهم وغلظ أغطيتهم وأغشيتهم ؛ لذلك لم يتدرجوا من عالم الكون والفساد ومضيق الإمكان، وما يترتب عليه من اللذات الوهمية إلى عالم الغيب وفضاء الوجوب وما يترتب عليها من الكشف والشهود وأنواع المعارف والحقائق الفائضة على مقتضى الجود الإلهي.

﴿أَ﴾ يقنعون بهذه المزخرفات الفانية أولئك الضالون الغافلون، ويرضون أنفسهم بلذاتها الوهمية وشهواتها البهيمية ﴿وَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ﴾ ويتدبروا في آلاء الله ونعمائه الفائضة على الترادف والتوالي في الآفاق على الصور العجيبة والهيئات الغريبة سيما ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمۗ﴾ التي هي أقرب الأشياء إليهم وأبدعها نظماً وتركيباً، وأعجبها ظهوراً، وأشملها تصرفاً، وأكملها علماً ومعرفةً، وأعلاها شأناً، وأوضحها برهاناً، لذلك ما وسع الحق إلا فيها، وما انعكس أوصافه وأسماؤه إلا منها، واستحقت هي بخصوصها من بين مظاهره سبحانه لخلافته ونيابته، أيطمئنون بهذه المزخرفات الزائلة الخسيسة، ولم يعبروا منها إلى مبادئها التي هي الأوصاف الذاتية والأسماء الإلهية مع أنهم مجبولون على الجواز والعبرة بحسب أصل الفطرة، ولم يعلموا ولم يفهموا أنه ﴿مَّا خَلَقَ﴾ وأظهر ﴿ٱللَّهُ﴾ الحكيم المتقن في جميع أفعاله ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي العلويات والسفليات ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ من البرازخ المتكونة من امتزاجاتهما واختلاطاتهما أثراً وأجزاءً ﴿إِلَّا﴾ ملتبساً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ ومنتهياً إليه، إعادةً وإبداءً، لكنه قدر بقاءه وظهوره بوقت معين ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّىۗ﴾ عنده،

وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ ....

وحين انقضائه، انتهى إليه، ورجع نحوه ما ظهر من الموجود وانتفى وفنيَ ما لمع عليه نور الوجود، وحينئذ لم يبق في فضاء الوجود إلا الواحد القهار للأظلال والأغيار ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ المجبولين على الكفران والنسيان ﴿بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ﴾ في النشأة الأخرى ﴿لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ منكرون جاحدون عتواً واستكباراً بسبب ما عندهم من حطام الدنيا ومزخرفاتها الفانية.

﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ﴾ أولئك المسرفون المفرطون ﴿فِي﴾ أقطار ﴿ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ﴾ بنظرة العبرة ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ أمر المسرفين ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ كعاد وثمود مع أنهم ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾ لدلالة أظلالهم وآثارهم على تمكنهم ﴿وَ﴾ من دلائل قوتهم أنهم ﴿أَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ﴾ وقلبوها للمعادن وإخراج العيون وإجراء الأنهار وإحداث الزروع وغير ذلك ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿وَعَمَرُوهَآ﴾ أولئك في ما مضى ﴿أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ هؤلاء اليوم، فدل زيادة عمارتهم على ازدياد قوتهم وتمكنهم ﴿وَ﴾ بعدما أفسدوا على أنفسهم بأنواع الفسادات مباهياً بمالهم وجاههم، قلبنا عليهم أمرهم بأن أرسلنا إليهم رسلاً مؤيدين بأنواع المعجزات، فلما ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾ القاطعة والبراهين الساطعة فلجؤوا على تكذيبهم وإنكارهم بلا تأملٍ وتدبرٍ فيما جاؤوا به، فأخذناهم أخذ عزيزٍ مقتدرٍ، فاستأصلناهم وقلبنا

فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ......................

عليهم أماكنهم، وخربنا بلادهم ومزارعهم ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ﴾ العزيز المقتدر الحكيم المتقن ﴿لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي يفعل بهم فعل الظلمة بأخذهم وبطشهم بلا جرمٍ صدر عنهم موجبٍ لانتقامهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ أي يظلمون أنفسهم بعتوهم واستكبارهم على ضعفاء عباد الله وتكذيب خُلّص أنبيائه وأوليائه وخروجهم عن مقتضى حدوده سبحانه.

﴿ثُمَّ﴾ بعد ما تمادوا في الغفلة والعصيان وتكذيب الرسل والاستكبار على عباد الله وأنواع الإساءة مع رسله ﴿كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾ مع الله ورسله والمؤمنين ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ أي الخصلة الذميمة والعاقبة الوخيمة المترتبة على إساءتهم في الأخرى جزاء ما كانوا عليها في الأولى كل ذلك بواسطة ﴿أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وأنكروا عليها واستخفوا بها ولمن أنزلت عليه ﴿وَكَانُواْ﴾ من غاية عتوهم واستكبارهم ﴿بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ ويستسخرون وينسبون إليها ما لا يليق بشأنها افتراءً ومراءً.

وكيف يستهزىء أولئك المسرفون مع الله ورسله وآياته النازلة من عنده إذ ﴿ٱللَّهُ﴾ المستقل بالتصرف في ملكه وملكوته ﴿يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ﴾ ويبدع المخلوقات من كتم العدم بلا سبق مادة وزمان، ويظهر في فضاء الوجود، ثم يميته ويعدمه ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ حياً كذلك في النشأة الأخرى بعد انقراض النشأة

ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ ....

الأولى ﴿ثُمَّ﴾ بعد العرض وتنقيد الأعمال ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ رجوع الأمواج إلى البحر.

﴿وَ﴾ اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ المعدة للعرض والجزاء ﴿يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾﴾ أي يسكتون حيارى سكارى تائهين هائمين آيسين عن الخلاص.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم﴾ حينئذٍ ﴿مِّن شُرَكَآئِهِمْ﴾ ومعبوداتهم ﴿شُفَعَـٰٓؤُاْ﴾ تجتهدون لخلاصهم وإنقاذهم من عذاب الله على مقتضى ما هو زعمهم إياهم، بل ﴿وَ﴾ هم حينئذٍ ﴿كَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ ينكرون ويكفرون بهم حيث يئسوا عنهم، وقنطوا عن شفاعتهم.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ التي يحشر فيها الأموات ويعرضون على الله بما اقترفوا في دار الابتلاء من الحسنات والسيئات ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾ فرقاً فرقاً، وفوجاً فوجاً، كل مع شاكلته في الإيمان والكفر، والصلاح والفساد.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله وكتبه ورسله في دار الاختبار ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ المؤكدة لإيمانهم فيها ﴿فَهُمْ﴾ حينئذ من كمال فرحهم

فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ ....

وسرورهم ﴿فِي رَوْضَةٍ﴾ ذات أزهارٍ وأنوارٍ وأنهارٍ ﴿يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾﴾ يتنزهون ويسيرون مسرورين متنعمين.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بتوحيدنا ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ المنزلة من عندنا على رسلنا ﴿وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ أي أنكروا بلقائها في النشأة الأخرى، مع أنا وعدناهم على ألسنة رسلنا إياهم ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ الأشقياء المردودون عن ساحة عز الحضور ﴿فِي الْعَذَابِ﴾ المؤبَّد المخلَّد ﴿مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ لا نجاة لهم منه، أعاذنا الله من ذلك.

ثم أشار سبحانه إلى أسباب النجاة والخلاص عن الوعيدات الأخروية ونيل لذاتها ومتنزهاتها الروحانية فقال:

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ أي سبحوا الله الواحد الأحد الصمد المنزه عن شوائب النقص وسمات الكثرة مطلقاً أيها الأحرار، المتوجهون نحوه في السرائر والإعلان سيما ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ وتدخلون في المساء الذي هو أول وقت الفراغ عن الشواغل الجسمانية وفتح باب الخلوة مع الله والعزلة عن أسباب الكثرة مطلقا ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾﴾ وتدخلون في الصباح الذي هو نهاية مرتبة خلوتكم مع ربكم، فاغتنموا الفرصة فيه وتعرضوا للنسمات المهبة بأنواع النفحات من قِبل الرحمن.

وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾

وبعدما تزودوا بأنواع الفتوحات الروحانية في تلك الساعة الشريفة التي هي البرزخ بين اللذائذ الروحانية والجسمانية، فاشتغلوا بالأشغال الجسمانية المتعلقة لتدبير المعاش النفساني.

﴿وَ﴾ لكم أيها المتوجهون نحو الحق أن تحمدوه وتشكروا نعمه وتداوموا على أداء حقوق كرمه في خلال أيامكم ولياليكم سيما طرفي النهار إذ ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ والثناء الصادر عن ألسنة جميع ما ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وما في ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ من المظاهر التي لمع عليها برق الوجود، وانبسطت أظلال شمس الذات وأضواؤها ﴿وَ﴾ لا سيما ﴿عَشِيًّا﴾ إذ هو وقتٌ مصونٌ عن الكثرة ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ أيضاً إذ فيها يحصل الفراغ عن أمور المعاش غالباً.

وكيف لا يتوجهون نحو الحق، ولا يديمون الميل إليه في أوقات حياتهم؟. إذ هو سبحانه بمقتضى لطفه وجماله ﴿يُخْرِجُ﴾ ويظهر بكمال قدرته ﴿ٱلْحَىَّ﴾ أي ذا الحس والحركة والإرادة التي هي أنواع الحيوانات ﴿مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ الذي هو النطفة الجامدة ﴿وَ﴾ كذا ﴿يُخْرِجُ﴾ ويظهر بمقتضى قهره وجلاله ﴿ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ يعني يعقبه الموت بالحياة والحياة بالموت ﴿وَ﴾ من كمال قدرته ﴿يُحْىِ ٱلْأَرْضَ﴾ بأنواع النضارة والبهاء ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي يبسها وجمودها ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي مثل إعادة الحياة والنضارة للأرض وقت الربيع ﴿تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾ من قبوركم أيها المنكرون للبعث والحشر وإعادة المعدوم.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً ....

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ الدالة على كمال قدرته على الإعادة والإبداء على السواء ﴿أَنْ﴾ أي أنه ﴿خَلَقَكُم﴾ وقدر جسمكم وصوركم أولاً ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ يابس ثم بدلكم أطواراً وأدواراً[١] لتكميلكم وتشويقكم إمداداً وأدواراً إلى أن صوركم في أحسن صورة وعدلكم في أقوم تعديل ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ﴾ أي بعد ما كمل صورتكم وتمم تمثالكم وشكلكم واستوى بشريتكم فاجأتم ﴿تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ في الأرض على سبيل التناسل والتوالد، ومن قدر على إبدائكم وإبداعكم على الوجه المذكور قدر على حشركم وإعادتكم، بل هو أسهل من الإبداء.

﴿وَ﴾ أيضاً ﴿مِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ الدالة على كمال قدرته ﴿أَنْ خَلَقَ﴾ وقدر ﴿لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي من جنسكم وبني نوعكم ﴿أَزْوَٰجًا﴾ نساء حتى تؤانسوا بهن وتستأنسوا بهن، بل إنما قدر لكم أزواجاً ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ وتتوطنوا معها توطناً خاصاً وتألفاً تاماً إلى حيث يفضي إلى التوالد والتناسل ﴿وَ﴾ بهذه الحكمة البديعة ﴿جَعَلَ بَيْنَكُم﴾ وبينهن ﴿مَّوَدَّةً﴾ خاصة خالصة منبعثة عن محض الحكمة الإلهية، بحيث[٢] لا يكتنه لميتها

(١) في المخطوط (إداداً).

(٢) في المخطوط (إلى حيث إلى التوالد).

وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ ....

وكيفيتها أصلاً ﴿وَ﴾ من كمال قدرته ومتانة حكمته جعل من امتزاج النطفة النازلة منكم ومنهن، الناشئة من المودة المذكورة والمحبة المقررة بينكم ﴿رَحْمَةً﴾ ولداً مثلكم ومحيياً[1] لكم اسمكم ورسمكم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الخلق والإيجاد والتكميل والتمكن والتقدير والانبعاث والانزعاج وأنواع التدبيرات الواقعة فيها والحِكم العجيبة المحيرة لأرباب الفطنة والذكاء ﴿لَآيَٰتٍ﴾ عظام ودلائل جسام ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ في آثار صنائع الحكيم القدير والعليم الخبير البصير.

﴿وَ﴾ أيضاً ﴿مِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ العجيبة الشأن والبديعة البرهان ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وإيجاد العلويات متطابقة مترافعة مع ما فيها من الكواكب المتفاوتة في الإضاءة والإشراق على أبدع نظام وأبلغ التيام وانتظام، بحيث لا يكتنه عند ذوي العقول وأولي الإفهام المجبولين على الاستعلام والاستفهام، بل لا حظ لهم منها سوى الحيرة والعبرة وأنواع الوله والهيمان ﴿وَ﴾ خلق ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ ممهدةً منبسطةً مشتملةً على جبالٍ راسياتٍ، وبحارٍ واسعاتٍ، وأنهارٍ جارياتٍ، وأشجارٍ مثمراتٍ، ومعادن وحيواناتٍ، وأصنافٍ من نوع الإنسان المجبول على صورة الرحمن، الجامع لأنواع التبيان والبيان، وأصناف الدلائل والبرهان ؛ ليصير مرآةً مجلوةً يترآى فيها صور الأسماء والصفات الإلهية، وينعكس منها شؤونه وتطوراته ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ أي

(١) في المخطوط (ومجيباً).

وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾.......

لغاتكم وتكلمكم أيها المجبولون على فطرة النيابة والخلافة ﴿وَ﴾ اختلاف ﴿أَلْوَانِكُمْ﴾ من السواد والبياض وأنواع التخطيطات والتشكيلات والهيئات الصورية والمعنوية التي اشتملت عليها هياكلكم وهوياتكم، إنما هي من آثار الأوصاف والأسماء الإلهية التي امتدت على ماهياتكم وتعيناتكم أظلالها وانبسطت ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الانطباق والالتصاق وأنواع الائتلاف والانتظام الواقعة في الأنفس والآفاق على أغرب الوجوه وأبدع الطرق ﴿لَآيَاتٍ﴾ دلائلَ واضحاتٍ وشواهدَ لائحاتٍ على كمال قدرة العليم الحكيم ﴿لِّلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ أي لكل من يتأتى منه التفطن والتدبر للمبدأ والمعاد من أرباب الهداية والرشاد، والتأمل والتفكر على سبيل النظر والاستدلال من الصنائع والآثار إلى الصانع المؤثر المختار.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ العظام أيضاً ﴿مَنَامُكُم﴾ واستراحتكم تقويماً لأمزجتكم وتقويةً لقواكم ﴿بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ وقت عروض الإعياء والعناء ﴿وَابْتِغَاؤُكُم﴾ طلبكم المعاش فيهما ﴿مِّن فَضْلِهِ﴾ وسعة رحمة جوده، أو على طريق اللف والنشر بأن قدّر لمنامكم زمان الليل ولابتغائكم النهار ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ التقدير والتدبير المبني عن كمال العطف واللطف ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ دلائل توحيده سبحانه سمعَ قبول ورضا، ويتأملون في حكمة الحكيم المدبر لمصالح عباده، وما هو إلا صلح لهم.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ ....

﴿ وَمِنْ ﴾ جملة ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ أيضاً أنه سبحانه ﴿ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ المنبي عن هجوم البلاء ونزول المطر أيضاً إنما أريكم سبحانه ليحصل لكم ﴿خَوْفًا﴾ من خشية الله وحلول غضبه وعذابه ﴿وَطَمَعًا﴾ لنزول فضله ورحمته، وإنما فعل سبحانه معهم كذلك لتكونوا دائما خائفين من سخطه وبطشه، راجين من فضله وجوده ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ﴾ جانب ﴿ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ بعدما أراكم البرق المخيف المطمع ﴿فَيُحْيِۦ بِهِ﴾ أي بالماء النازل ﴿ ٱلْأَرْضَ﴾ اليابسة ﴿بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ أي بعد جمودها ويبسها ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الإراءة والإخافة والإطماع والإنزال والإحياء ﴿ لَءَايَٰتٍ﴾ على حكمة القادر المختار، المستقل في التصرف والآثار ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ ويستعملون عقولهم في التفكر والتدبر في المصنوعات العجيبة والمخترعات البديعة الصادرة من الفاعل المطلق بالإرادة والاختيار.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ المحكمة أيضاً ﴿أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ﴾ يعني من جملة آياته الظاهرة الباهرة قيام السماء والأرض بلا عمد وأوتاد وأسانيد، وقرارهُا ومدارهُا في مكانٍ معينٍ بلا تبدل وتحول، إنما هو بأمره وحُكمه وعلى مقتضى إرادته ومشيئته، بحيث لا يسع لهما الخروج عن أمره وحكمه أصلاً ﴿ ثُمَّ﴾ بعدما تأملتم نفاذ حكمه سبحانه ومضاء قضائه في معظم

إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ....

مخلوقاته، فلكم أن تتيقنوا ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ وقت إرادة إعادتكم وإحيائكم ﴿دَعْوَةً﴾ متضمنةً لإخراجكم ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ يعني بعدما أسمعكم بكمال قدرته مضمون دعوته إليكم فاجأتم إلى الخروج منها أحياءً بلا تراخٍ ومهلةٍ تتميماً لسرعة نفوذ قضائه.

﴿وَ﴾ كيف لا تسمعون وتخرجون منها أحياءً بعدما تعلق قدرته سبحانه بإخراجكم وإعادتكم إذ ﴿لَهُۥ﴾ ملكاً وتصرفاً إبداعاً وإنشاءً ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الملائكة المغمورين في آلاء الله ونعمائه، المستغرقين بمطالعة وجهه الكريم ﴿وَ﴾ من في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ من أرباب الولاء التائهين في بيداء الألوهية، الفانين في فضاء الربوبية، الهائمين في صحراء الوجود، لذلك ﴿كُلٌّ﴾ ممن أشرق عليه شمس الذات، ولاح عليه نور الوجود، ولمع عليه برق التجليات الحبيبة اللطيفة ﴿لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾ منقادون مطيعون طوعاً وطبعاً.

﴿وَ﴾ كيف لا ينقادون ويطيعون لحكمه أولئك المسخرون لصولجان قضائه وقلم تقديره ﴿هُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟﴾ ويظهر ﴿ٱلْخَلْقَ﴾ من كتم العدم في فضاء الوجود بمقتضى اللطف والجود، ثم يعدمه ويميته بمقتضى قهره وجلاله أيضاً فيها ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أيضاً على ما ينشئه في النشأة الأخرى إظهاراً لكمال قدرته ومقتضى حكمته كي يظهر مصلحة الإبداء والإبراز في النشأة الأولى، وفائدةُ ما يترتب عليها في النشأة الأخرى يوم العرض والجزاء

وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ....

﴿وَ﴾ أهل الأهواء والآراء الباطلة ينكرون الإعادة مع أنه ﴿هُوَ﴾ أي الإظهار بعد الإعدام ﴿أَهْوَنُ﴾ وأسهل ﴿عَلَيْهِۚ﴾ سبحانه بالنسبة إلى عقولهم السخيفة وأحلامهم الضعيفة من الإبداء والإبداع لا عن شيء وبلا سبق مادةٍ، وإن كانت نسبة قدرته وإرادته سبحانه إلى كل ما دخل في حيطة حضرة علمه وخبرته على السواء إذ ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر، وكرر النظر هل ترى من فطور وفتور وقصور في مبدعات الحق ومخترعاته ﴿وَ﴾ كيف يتفاوت دون قدرته الأشياء إذ ﴿لَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ واليد الطولى والتصرف التام والاقتدار العام الشامل لكل ما لاح عليه برق الوجود سواء كان ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي العلويات التي هي عالم الأسماء والصفات باعتبار التنزلات من مرتبته الأحدية والعماء التي لا يسع فيه إدراك مدرك وخبرة خبير ﴿وَٱلْأَرْضِۚ﴾ أي السفليات التي هي عالم الهيولي والطبيعة القابلة لأن تنعكس منها أشعة أنوار العلويات المتفاوتة حسب تفاوت الشؤون والتطورات المرتبة على الأسماء والصفات المتخالفة المتكثرة حسب التجليات الحِبِّية الإلهية ﴿وَ﴾ كيف لا يكون له سبحانه المثل الأعلى إذ ﴿هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب في ذاته حيث تفردت بوجوب الوجود ودوام البقاء المنيع فناء على سرادقات سطوته وسلطنته عن شوب النقص والقصور مطلقا ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ المتقن في أفعاله وآثاره بالاستقلال على مقتضى حيطة حضرة علمه الكامل بجميع وجوه الكمالات اللائقة لكل ذرة من ذرائر الكائنات لذلك.

ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ....

﴿ضَرَبَ لَكُم﴾ سبحانه تبييناً وتنبيهاً ﴿مَّثَلًا﴾ متخذاً منتزعاً ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أيها المشركون المتخِذون لله شركاء من مصنوعاته وعبيده، إذ هي أقرب الأشياء إليكم وأوضحها عندكم ﴿هَل لَّكُم﴾ أيها الأحرار المتصرفون بالاستقلال في منسوباتكم متصرف آخر سواكم ﴿مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ وحصلت من أكسابكم من العبيد والإماء[1] الذين هم من جملة منسوباتكم، وهل يصح ويجوز لمملوكيكم أن يكونوا، ويعدوا ﴿مِّن شُرَكَآءَ﴾ معكم يتصرفون أمثالكم ﴿فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ مثل تصرفكم بلا إذنٍ منكم وبالجملة ﴿فَأَنتُمْ﴾ أيها المالكون وما ملكت أيمانكم ﴿فِيهِ﴾ أي في التصرف والاحتياج إلى الأموال ﴿سَوَآءٌ﴾ إذ هم أمثالكم فلأي شيء تحتاجون إليه، أنتم [و] هم أيضاً محتاجون إليه بلا تفاوت ولكن ﴿تَخَافُونَهُمْ﴾ وتحذرون منهم أن تتصرفوا في أموالكم وأكسابكم بلا إذنٍ منكم ﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ يعني تخافون على تضييع أموالكم مثل خوفكم على أنفسكم، بل أشد من ذلك، وبالجملة تخافون منهم أن تساووا معكم في التصرف في أموالكم، فلذلك منعتموهم[2] ولم ترضوا بتصرفهم وشركتهم في الحطام الدنيا، فكيف ترضون لنا شركة عبيدنا ومخلوقاتنا في ألوهيتنا وربوبيتنا، والتصرف في ملكنا وملكوتنا أيها الغافلون المفرطون في شأننا،

---

(١) في المخطوط (الآماء).

(٢) في المخطوط (منعوهم).

كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ

والجاهلون بقدرتنا ومكانتنا ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ﴾ ونوضح ﴿ٱلْأَيَٰتِ﴾ أي دلائل توحيدنا وبراهين وحدتنا وتفريدنا ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ ويستعملون عقولهم في تأمل الآيات والتدبر فيها على وجه العبرة والاستبصار فاعتبروا يا أولي الأبصار.

﴿بَلِ ٱتَّبَعَ﴾ الجاهلون ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ أنفسهم بالخروج على مقتضى الآيات الواضحة والبراهين اللائحة ﴿أَهْوَآءَهُم﴾ الباطلة وآراءهم الزائغة الزائلة مع أن اتباعهم بها ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فائضٍ عليهم من المبدأ الفياض، بل عن جهلٍ مركوزٍ في جبلتهم، مركبٍ مع طبيعتهم في أصل فطرتهم لمقتضى الشقاوة الأزلية والغباوة الفطرية الجِبلِّية وإذا كان الأمر على ذلك ﴿فَمَن يَهْدِي﴾ ويرشد ﴿مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ وأراد ضلاله وأثبته في لوح قضائه وحضرة علمه من جملة الضالين وزمرة الجاهلين ﴿وَمَا لَهُم﴾ بعدما نفذ القضاء على شقاوتهم وضلالهم ﴿مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ ينصرونهم ويرشدونهم إلى سبيل الهداية وطريق السعادة والرشاد.

وبعدما سمعت يا أكمل الرسل أن الهداية والضلال إنما هو مفوضٌ إلى الكبير المتعال ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ فاستقم واعتدل بوجه قلبك الذي فاض عليك من ربك تتميماً لتكميلك وتخليصاً لك عن قيود بشريتك وأغلال طبيعتك لتصل به إلى مقرك من التوحيد الذي جُبلت لأجله ﴿لِلدِّينِ﴾ النازل

حَنِيفًاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ...

لك من عند ربك تأديباً لك يا أكمل الرسل ولمن تبعك وإصلاحاً لشأنك وشأن متابعيك ﴿حَنِيفًاۚ﴾ أي حال كونك مائلاً عن الأديان الباطلة والآراء الفاسدة مطلقاً، واعلم يا اكمل الرسل أن ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾ وصبغته التي صبغهم بها أصليةٌ جبليةٌ لا تزول عنهم أصلاً، إذ ﴿لَا تَبۡدِيلَ﴾ ولا تغيير وتحويل ﴿لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾ الحكيم العليم وتقديره الذي قدره بمقتضى علمه وحكمته، كما قال عز شأنه: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ﴾ [٥٠- ق: ٢٩]، ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ﴾ المنزلُ عليك من ربك يا أكمل الرسل لوقاية الفطرية الأصلية المذكورة هو الدين ﴿ٱلۡقَيِّمُ﴾ والطريق الأعدل الأقوم الموصل إلى توحيده سبحانه على الاستقامة بلا عوجٍ وانحرافٍ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ المجبولين على الغفلة والنسيان ﴿لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ حقيقته ولا يفهمون استقامته وإيصاله إلى التوحيد، فعليكم أيها المحمديون أن تتدينوا[١] بدين الإسلام وتطيعوا[٢] بجمع ما فيه من أوامر الله ونواهيه.

﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾ راجين نحوه بالإخلاص التام ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ واحذروا عن محارمه خوفاً من انتقامه بالخروج عن مقتضى حدوده، ومع ذلك لا تقنطوا من فضله وسعة رحمته وجوده ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وأديموا الميل

(١) في المخطوط (يتدينوا).

(٢) في المخطوط (ويطعوا).

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ﴾ ....

نحوه في جميع أوقاتكم وحالاتكم، سيما في الأوقات المكتوبة والساعات المحفوظة ﴿وَلَا تَكُونُوا۟﴾ أيها المنيبون المتوجهون نحو الحق، المتدينون بدين الإسلام ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾﴾ المشركينَ معه سبحانه غيرَه في حالٍ من الأحوال، ولا تنسبوا الحوادث الكائنة في ملكه وملكوته إلى غيره من الأظلال والأسباب الهالكة المستهلكة في شمس ذاته مع كمال توحده واستقلاله في الوجود والتصرفات الواقعة في مظاهره مطلقاً.

وبالجملة لا تكونوا أيها المحمديون المتدينون بالدين النازل من عند الله لحفظ فطرتكم التي هي التوحيد الذاتي.

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ الوحداني الذي هو وقاية توحيدهم فرقاً مختلفةً وابتدعوا فيه مذاهب متفاوتة متخالفة فتشعبوا شعبا كثيرةً ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ وأحزاباً يشايع ويروج ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ﴾ منهم ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ وعندهم من المذهب المبتدع المستحدث من تلقاء نفوسهم ﴿فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ مسرورون مدّعون كل منهم حقيةَ ما هم عليه من الباطل الزائغ.

ثم أشار سبحانه إلى ما حداهم وأغراهم على هذا الزيغ والضلال من الخصلة الذميمة المركوزة في جبلتهم فقال:

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ﴾ المجبولين على الكفران والنسيان ﴿ضُرٌّ﴾ أي شدة وبلاء، ومصيبةٌ وعناءٌ يزعجهم إلى الدعوة والتوجه نحو الحق لكشفه وتفريجه

دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ ﴿٣٥﴾........................

﴿ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾ مائلين عن الأسباب العادية مطلقاً، مسترجعين نحوه عن محض الندم والإخلاص ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم﴾ الحق وأنجاهم ﴿مِّنۡهُ﴾ أي من الضر ومن آثاره ولوازمه المستتبعة ﴿رَحۡمَةً﴾ لهم وعطفاً إياهم على مقتضى اللطف والجمال ﴿ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم﴾ أي فأجاء[1] فريق منهم ﴿ بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ أي يشركون بربهم، وينسبون الكشف والتفريج إلى الأسباب والوسائل العادية، بل إلى ما اتخذوها من دون الله من الآلهة الباطلة التي اعتقودها شفعاء ينقذونهم عن أمثاله، وإنما فعلوا ذلك ونسبوا ما نسبوا إلى الأظلال الباطلة

﴿ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾ وأعطيناهم من النعم العظام والفواضل الجسام وما ذلك إلا من خبث طينتهم وتركب جهلهم في جبلتهم. قل لهم يا أكمل الرسل نيابة عنا: ﴿ فَتَمَتَّعُواْ﴾ أيها الكافرون لنعمنا ولفواضل لطفنا ولكرمنا، ولتعيشوا بها بطرين مسرورين ﴿ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ عاقبة تمتعكم وكفرانكم وما يترتب عليها من أنواع العذاب والنكال، إذ يأتي عليهم زمان يعترف كل منهم بما جرى عليه من الكفران والعصيان وقت رؤيتهم أحوال الكافرين وأهوالهم في النار.

﴿ أَمۡ أَنزَلۡنَا﴾ يعني بل أنزلنا ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ حينئذ ﴿سُلۡطَٰنٗا﴾ ملكاً ذا سلطنة وسطوة ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ معهم ويذكّرهم ﴿ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي

---

(١) في المخطوط (متطاولة).

وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٧﴾ ....

بجميع ما صدر عنهم من الشرك والكفران وأنواع الفسوق والعصيان بلا فوت شيء منها.

ثم قال سبحانه:

﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ﴾ وأعطيناهم نعمة وسعة في الرزق وصحة في الجسم على الترادف والتوالي ﴿فَرِحُواْ بِهَاۖ﴾ وأفرطوا في الفرح والسرور إلى أن بطروا وباهوا مفتخرين بما عندهم من الأسباب ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ﴾ أحياناً ﴿سَيِّئَةُۢ﴾ مثل جدبٍ وعناءٍ ومصيبةٍ وبلاءٍ تسؤهم مع أنهم إنما أصابهم ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ أي بشؤم ما اقترفوا من المفاسد والمعاصي الموجبة للبطش والانتقام، فأنتقمنا منهم، لذلك ﴿إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ ﴿٣٦﴾﴾ أي فاجاؤوا على اليأس والقنوط منا بحيث لا يتوجهون إلينا لكشفها وتفريجها، بل لا يعتقدون قدرتنا على كشفها ورفعها.

﴿أَ﴾ ينكرون قدرتنا أولئك المنكرون المفرطون ﴿وَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ القادر على أنواع اللطف والكرم كيف ﴿يَبۡسُطُ﴾ ويفيض ﴿ٱلرِّزۡقَ﴾ الصوري والمعنوي ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ بسطه إياه ﴿وَ﴾ كيف ﴿وَيَقۡدِرُۚ﴾ ويقبض لمن يشاء قبضه عنه على مقتضى حكمته المتقنة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ القبض والبسط ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ دلائل واضحات وشوهد لائحات ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ بتوحيد

فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ ....

الله وأوصافه الذاتية الكاملة الجارية آثارها على مقتضى الحكمة والعدالة الإلهية المعبرة عنها بالصراط القويم والقسطاس المستقيم.

وبعدما أشار سبحانه إلى بسط الرزق على من يشاء وقبضه عمن يشاء إرادةً واختياراً، أراد أن يشير إلى مصارفه، فقال مخاطبا لحبيبه ﷺ، إذ هو جدير بأمثال هذه الخطابات الإلهية:

﴿فَـَٔاتِ﴾ وأعط يا أكمل الرسل من فواضل ما رزق لك من النعم ﴿ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ المنتمين إليك من قبل أبويك ﴿حَقَّهُۥ﴾ أي ما يليق به من الصلة وحفظه ورعايته، فهم أولى وأحق بالرعاية من غيرهم ﴿وَ﴾ بعد أولئك، الأولى بالرعاية: ﴿ٱلْمِسْكِينَ﴾ وهو الذي أسكنه الفقر في هاوية الهوان وزاوية الحرمان ﴿وَ﴾ أعطِ بعده: ﴿ٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ﴾ وهم الذين فارقوا عن الأموال والأوطان بأسباب أباحها الشرع لهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ التصرف المذكور ﴿خَيْرٌ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ﴾ بأموالهم وصرفها ﴿وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ﴾ وابتغاء مرضاته وخوضاً في طريق شكره أداء حق شيءٍ من نعمه وفواضل كرمه ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ الباذلون أموالهم في سبيل الله على الوجه الذي أمرهم الحق به ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾ المقصورون على الفوز والفلاح من عنده سبحانه.

ثم أشار سبحانه إلى أحوال الجهلة الذين بذلوا أموالهم لطلب الجاه والثروة

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ ....

والسمعة وازدياد مال صديقه بلا وجه الله وابتغاء رضوانه وطلب الثواب منه بل لمجرد الكبر والخيلاء فقال:

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم﴾ وأعطيتم مما عندكم ﴿مِّن رِّبًا﴾ زيادةً من أموالكم حاصلةً من الربا إنما أعطيتم ﴿لِّيَرْبُوَاْ﴾ ويزيد ﴿فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ مكافأة لهم أو نية فاسدة أخرى بلا امتثال أمر الله وطلب مرضاته ﴿فَلَا يَرْبُواْ﴾ ولا يزيد لكم صرفكم هذا ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ شيئاً من الثواب بل لا يقبل عنده سبحانه أصلاً لإفسادكم في أغراضكم ونياتكم ﴿وَ﴾ أما ﴿مَآ ءَاتَيْتُم﴾ وأعطيتم للفقراء ﴿مِّن زَكَوٰةٍ﴾ قد فرضها سبحانه عليكم امتثالاً لأمره وإطاعةً لدينه على الوجه الذي أُمرتم به مع أنكم ﴿تُرِيدُونَ﴾ وتقصدون بإخراجها وصرفها ﴿وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ ومحض رضاه بلا خلط شيء من أماني أهويتكم وتسويلات أمّارتكم معها ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الفاعلون للزكاة على الوجه المذكور المأمور ﴿هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾ عند الله ثوابها إلى سبعين بل إلى سبعمائة بل إلى ما شاء الله، عنايةً من الله وإفضالاً لهم.

وكيف لا تطلبون وتقصدون بخيراتكم وصدقاتكم خالص وجه الله وتشركون معه غيره من التماثيل والأظلال الهالكة الباطلة العاطلة؟

إذ ﴿ٱللَّهُ﴾ المتوحد المتفرد في ذاته القادر المقتدر الحكيم العليم ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ وأظهركم من كتم العدم ولم تكونوا شيئاً مذكوراً لا بالقوة ولا

﴿ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ ....

بالفعل ﴿ثُمَّ﴾ بعدما أظهركم في بيداء الوجود ﴿رَزَقَكُمْ﴾ وأنعم عليكم من أنواع النعم ليربيكم بها على مقتضى اللطف والكرم ﴿ثُمَّ﴾ بعد ما انقضى الأجل المسمى عنده لبقائكم في النشأة الأولى ﴿يُمِيتُكُمْ﴾ على مقتضى قهره وجلاله تتميماً لقدرته الكاملة الغالبة ﴿ثُمَّ﴾ بعد ما انقرضت النشأة الأولى المعدة لأنواع الابتلاءات والاختبارات الإلهية المتعلقة لحكمة إظهاركم وإيجادكم في عالم الكون والفساد ؛ لتتزودوا فيها من المعارف والحقائق والاتصاف بالأخلاق الإلهية لنشأتكم الأخرى ﴿يُحْيِيكُمْ﴾ فيها للعرض والجزاء وتنقيد ما اقترفتم من الأعمال والأحوال في النشأة الأولى؛ لتجازوا[1] بها على مقتضاها فيها.

وبعدما سمعتم ما سمعتم، تأملوا وتدبروا منصفين أيها المشركون بالله المتوحد المتفرد المستقل في التصرفات الواقعة في ملكه غيرةً منه سبحانه وحميةً لحمى قدس ذاته من أن يحوم حول سرادقات عزه وجلاله شائبةُ فتورٍ وقصورٍ، وبعدما سمعتم هذا من خواص أوصافه سبحانه تأملوا ﴿هَلْ مِن شُرَكَائِكُم﴾ الذين ادعيتم شركتهم مع الله القادر المقتدر على أمثاله بالاستقلال والاختيار ﴿مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم﴾ الذي سمعتم صدوره منه سبحانه ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ حقيرٍ قليلٍ، كلا وحاشا صدورُ شيء من الأشياء من غيره ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي هو في ذاته منزهٌ عن شوب الشركة والمظاهرة مطلقاً

(١) في المخطوط (ليجازوا).

وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟

﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾ شأنه ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾ أولئك المشركون المسرفون علواً كبيراً.

ومن كمال جهلهم بالله وغفلتهم عن علو قدره وسمو مكانته

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ﴾ وأنواع البليات والمصيبات الواقعة ﴿فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ من الجدب والعناء والوباء والزلزلة وأنواع الحرق والغرق والضلالات الواقعة في السفن الجارية، مع أن أصل الظهور والبروز باعتبار الفطرة الأصلية على العدالة والإستقامة، وإنما ظهر ما ظهر من الانحرافات والانصرافات المنافية لصرافة الاعتدال الحقيقي الإلهي ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ أي بشؤم ما اقترفوا من الكفر والكفران والفسوق والعصيان والخروج عن مقتضى الحدود الإلهية الموضوعة على الاعتدال والقسط القويم، والحكمةُ في صدور هذه الانحرافات والفسادات منهم ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ أي ليذيق لهم العليم الحكيم في الدنيا وبالَ بعض أعمالهم الفاسدة، ويبقى بعضها إلى الآخرة ليستوفيها، وإنما نذيقهم نبذاً منها عاجلاً ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ إلينا بعد ما ذاقوا ما ذاقوا من أنواع المحن والشدائد.

وإن أنكر هؤلاء المشركون إذاقتنا العذاب لأمثالهم

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل نيابة عنا: ﴿سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ المعدة لأنواع الكون والفساد ﴿فَٱنظُرُوا۟﴾ نظرَ معتبرٍ منصفٍ ومتأملٍ مستبصرٍ ؛ ليظهر

كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا ....

عندكم ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلُۚ﴾ مع أنهم ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾ أمثالكم، مشاركين معكم في الشرك والكفر وأنواع الفسوق والعصيان.

وبعد ما أشار سبحانه إلى وخامة عاقبة أصحاب الآراء الفاسدة والأهواء الباطلة من المنحرفين عن جادة الاستقامة، المنصرفين عن سبيل السلامة، أمرَ حبيبه ﷺ بالإقامة والاستقامة في منهج العدالة التي هي دين الإسلام الناسخ لجميع الأديان الباطلة والآراء الزاهقة الزائلة فقال:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ أي استقم وتوجه يا أكمل الرسل بوجه قلبك الذي يلي الحق ﴿لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ المنزل من عنده سبحانه على الاستقامة والعدالة تفضلاً عليك وامتناناً ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ﴾ ويجيء ﴿يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ أي لا يرد فيه ما نفذ من القضاء المبرم ؛ لأن إتيانه ﴿مِنَ ٱللَّهِۖ﴾ العليم الحكيم على هذا الوجه، إذ لا استكمال ولا رجوع حينئذ، ولا ينفع الطاعة والعبادة حين حلوله بل ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أي يتفرق الناس فرقاً ويتحزبون أحزاباً على مقتضى ما كانوا عليه في نشأة الابتلاء والاختبار.

﴿مَن كَفَرَ﴾ فيما مضى ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥۖ﴾ أي وبالُ كفره وفسقه ملازمٌ معه يُدخله في النار ويُخلده فيها مهاناً ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فيما مضى

فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ

﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ أي فهم بإيمانهم وعملهم الصالح يمهدون ويبسطون لأنفسهم منزلاً ومهاداً في الجنة هم فيها خالدون.

والسر في قيام الساعة والنشأة الأخرى:

﴿ لِيَجْزِيَ ﴾ سبحانه ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ وأيقنوا بتوحيده وبجميع ما جاء من عنده على رسله ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ المقبولة عنده امتثالاً لما أُمروا به على ألسنة رسله ﴿مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ أي يجزيهم من محض فضله ولطفه معهم ومحبته إياهم بأضعاف ما استحقوا بأعمالهم وإيمانهم، ويجزي الكافرين أيضاً بمقتضى عدله بمثل ما اقترفوا من الكفر والشرك وأنواع الظلم والضلال ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾ المصرين على الكفر والضلال، سيما بعد إرساله سبحانه إليهم من يصلحهم ويهديهم إلى صراط مستقيم، فكذبوه وأنكروا له عناداً واستكباراً.

﴿ وَمِنْ ﴾ جملة ﴿ءَايَٰتِهِۦٓ ﴾ سبحانه الدالة على كمال رأفته ورحمته للمؤمنين المتحققين لمرتبة التوحيد، المتمكنين بمقر الوحدة الذاتية ﴿ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ ﴾ المشتملة لأنواع الروح والراحة المهبةِ من نفحات النفسات الرحمانية ليتعرضوا لها ويستنشقوا منها فيضان آثار اللطف والجمال مع كونها ﴿مُبَشِّرَٰتٍ ﴾ لمزيد فضله وطوله ونزول أنواع رحمته وجوده ﴿وَلِيُذِيقَكُم ﴾ ويفيض عليكم ﴿مِّن ﴾ سعة ﴿رَّحْمَتِهِۦ ﴾ ما ينجيكم ويخلصكم من لوازم بشريتكم وناسوتكم

﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا ....

﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ﴾ أي سفن تعيناتكم الجارية في بحر الوجود ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ وعلى مقتضى مشيئته وإرادته ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟﴾ وتطلبوا بعدما فوضتم أموركم إليه واتخذتموه وكيلا ﴿مِن﴾ موائد ﴿فَضْلِهِۦ﴾ وإحسانه وعوائد كرمه وجوده، ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ﴿وَ﴾ إنما فعل معكم سبحانه هذه الكرامات ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ رجاء أن تشكروا نعمه وتفوزوا بمزيد كرمه وتتحققوا بمقام معرفته وتوحيده الذي جبلتم لأجله.

ثم قال سبحانه مقسماً تسلية لرسول الله ﷺ، وإزالةً لهمه وحزنه من تكذيب الجهلة المسرفين المشركين بالله المستهزئين مع رسوله

﴿وَ﴾ الله ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿رُسُلًا﴾ مبشرين ومنذرين ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ الذين ظهرت عليهم أمارات الكفر والطغيان وعلامات الكفر والعدوان ﴿فَجَآءُوهُم﴾ مؤيدين من عندنا ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الواضحة والمعجزات اللائحة، ففاجؤوا على تكذيبهم عناداً واستكباراً بلا تدبرٍ وتأملٍ منهم في آياتهم وبيناتهم ﴿فَٱنتَقَمْنَا﴾ بمقتضى قهرنا وجلالنا ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ﴾ بالجرائم العظام سيما تكذيب الرسل عليهم السلام ﴿وَ﴾ كيف لا ننتقم عنهم بتكذيبهم رسلنا مع أنه ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾ بمقتضى ما ثبت في لوح قضائنا وحضرة

نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ....

علمنا ﴿نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ أي نصر الرسل والمؤمنين بهم وتغليبهم على الكافرين بعد ما امتثلوا لأوامرنا واجتنبوا عن نواهينا، وبلّغوا جميع ما أمرناهم وأوحيناهم إلى ما أرسلناهم فكذبوهم ولم يقبلوا منهم، فكيف لا يقبل منهم أولئك البعداء المنكرون المسرفون وحي الحق إياهم وإلهامهم عليه؟.

مع أنه ﴿ ٱللَّهُ ﴾ الجامعُ لجميع مراتب الأسماء والصفات الظاهرة، المتجلي على مقتضاها بالاستقلال إرادةً واختياراً ﴿ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ ﴾ المنتشئةَ من محض فضله وجوده بلا سبق سببٍ يوجبها وعلةٍ تقتضيها على ما جرى عليه عادته سبحانه في سائر الموجودات ﴿فَتُثِيرُ﴾ وتحرك أجزاء البخار والدخان ويمتزج بعضها مع بعض فتركمها وتكشفها حتى صارت ﴿سَحَابًا﴾ هامراً ﴿فَيَبْسُطُهُۥ﴾ سبحانه ﴿فِى﴾ جو ﴿ ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ عرضاً وطولاً، سائراً وواقفاً، مطبقاً وغير مطبقٍ، إلى غير ذلك من الأوضاع الممكنة الورود عليها ﴿وَ﴾ بعدما مهّده سبحانه وبسطه ﴿يَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ أي قطعاً مختلفةً ﴿فَتَرَى ﴾ أيها الرائي ﴿ٱلْوَدْقَ ﴾ المطر ﴿يَخْرُجُ﴾ ويفيض ﴿مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ﴾ وفتوقه بعد ما تكوّن فيه بقدرة الله من اجتماع أجزاء الأبخرة والأدخنة المتصاعدة الممتزجة المتراكمة المتكاثفة المتفاعلة بعضها مع بعضٍ إلى أن صارت ماءً فتقطرُ وتسيلُ ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ﴾ أراضي ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ عنايةً منه سبحانه

إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَانظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا

إياهم وتفضلاً عليهم ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ أي فوجئوا بنزوله إلى أنواع الإستبشار والابتهاج والفرح والسرور متفائلين بنزوله إلى الخصب والرخاء وأنواع البهجة والصفا.

﴿ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم ﴾ المطر ﴿ مِّن قَبْلِهِۦ ﴾ أي من قبل ثوران الأبخرة والأدخنة وانعقاد السحب وتراكمها منها ﴿لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾ آيسين قانطين لطول عهد عدم نزوله إياهم.

﴿ فَانظُرْ ﴾ أيها المؤمن المعتبر الناظر بنور الله ﴿إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ وكمال فضله وجوده ﴿كَيْفَ يُحْيِ﴾ ويُخضّر ﴿ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ أي جمودها ويبسها وعدم نضارتها ونزاهتها، ويظهر عليها أنواع الأزهار[1] والأثمار عنايةً منه سبحانه لعباده وفضلاً لهم ليتزودوا بها ويسلكوا سبيل هدايته وتوحيده ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ ﴾ القادر المقتدر بالإرادة التامّة والاختيار الكامل ﴿ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ ومخرجها البتة من قبورها وقت تعلق إرادته بإحيائها ﴿وَ﴾ كيف لا ﴿هُوَ﴾ بذاته ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ دخل في حيطة حضرة علمه وإرادته ﴿قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ على الوجه الأتم الأكمل بلا فتور وقصور.

﴿وَ﴾ من عدم رسوخهم في الدين القويم وقلة تثبتهم على الصراط المستقيم ﴿لَئِنْ أَرْسَلْنَا﴾ عليهم ﴿رِيحًا فَرَأَوْهُ﴾ أي ما هبّت عليه من الزروع ﴿مُصْفَرًّا ﴾ من

---

(١) في المخطوط (الفراغ الأزهار).

لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ يَكۡفُرُونَ ۝٥١ فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ۝٥٢ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ ....

أثرها بعدما كان مخضراً، يعني لا يربي زروعهم ولا ينميها بل يضعفها ويرديها مع أن إضرارها واصفرارها أيضاً إنما هو بشؤم ما اقترفوا من المعاصي والآثام ﴿لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ أي صاروا وأخذوا بعد اصفراره ﴿يَكۡفُرُونَ ۝٥١﴾ بالله وبنعمه وينكرون بعموم فضله وكرمه، مع أن أخذهم بالبأساء والضراء إنما هو ليتضرعوا نحوه ويلتجئوا إليه مُنيبين خاشعين خاضعين ؛ ليكشف عنهم ما يضرهم، إذ لا كاشف إلا هو، ولا منجي لهم سواه.

وبالجملة هم من خبث طينتهم وجمود قريحتهم أمواتٌ حقيقة[1] ومعنى، وإن كانوا من الأحياء صورةً، لا تُبال يا أكمل الرسل بهم وبشأنهم، ولا تجتهد إلى إهدائهم وتكميلهم.

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ أي ليس في وسعك وطاقتك إسماع الموتى، بل ما عليك إلا التبليغ والدعوة ﴿وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ الجبلّي ﴿ٱلدُّعَآءَ﴾ والدعوة سيما ﴿إِذَا وَلَّوۡاْ﴾ وانصرفوا عنك ﴿مُدۡبِرِينَ ۝٥٢﴾ معرِضين منكرِين لك، مكذِّبين رسالتك ودعوتك.

﴿وَ﴾ كيف تجتهد وتسعى يا أكمل الرسل في حصول ما هو خارج عن وسعك وطاقتك مع أنك لا تُؤمر به إذ ﴿مَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ﴾ إذ هم مجبولون على الغواية الجبلية في أصل فطرتهم، فاقدون بصائر قلوبهم المدركة دلائل التوحيد وشواهد الوحدة الذاتية، ولا يتأتى لك أن تهديهم إلى

(١) في المخطوط (حقية).

إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ ....

طريق التوحيد وترشدهم إليه ﴿إِن تُسْمِعُ﴾ بتبليغك وإرشادك ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ ونوفقهم على الإيمان بمقتضى ما ثبت وجرى في لوح قضائنا وحضرة علمنا ﴿فَهُم﴾ بعد ما سبقت العناية منا إياهم ﴿مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾ منقادون لك، مسلّمون منك جميع ما بلغت لهم من شعائر الدين ودلائل التوحيد واليقين.

ثم قال سبحانه على سبيل الامتنان إظهاراً لكمال قدرته على إبداء الشؤون والتطورات الواردة على عباده حسب تعاقب الأزمنة والأوقات في النشأة، الأولى فكيف ينكرون إعادتها في النشأة الأخرى، مع أن الإعادة أهون من الإبداء، وإن كان الكل في جنب قدرته على السواء:

﴿۞ ٱللَّهُ﴾ القادر المقتدر الحكيم المتقن في أفعاله وأحكامه، العليم بمقتضاها هو ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾ وقدر وجودكم بعدما أبدعكم من كتم العدم في عالم الطبيعة والهيولي ﴿مِّن ضَعْفٍ﴾ هو مآء النطفة الضعيفة المهينة ﴿ثُمَّ جَعَلَ﴾ ما صيّر وخلق ﴿مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ﴾ كائنٍ في نشأة النطفة ﴿قُوَّةً﴾ جسمانيةً متزايدةً مستكملةً فيها إلى أن بلغت كمال الشباب ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ كائنةٍ في عالم الشباب ﴿ضَعْفًا﴾ وانحطاطاً ﴿وَشَيْبَةً﴾ مضعفةً[1] لجميع القوى والآلات، منتهيةً إلى الهرم الذي عبر عنه سبحانه بأرذل العمر كي لا يعلم صاحبه من بعد علم شيئاً، وبالجملة ﴿يَخْلُقُ﴾ ويظهر

---

(١) في المخطوط (بضعفة).

مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ ....

سبحانه جميع ﴿مَا يَشَآءُ﴾ ويريد إرادةً واختياراً ﴿وَ﴾ كيف لا ﴿هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بجميع ما أحاط عليه إرادته ومشيئته ﴿ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ لإيجاده وإظهاره في فضاء العيان بلا فتورٍ وقصورٍ.

﴿وَ﴾ كيف ينكر من ينكر الحشر والنشر وإعادة الموتى أحياءً بعد ما شهد هذه التطورات المتخالفة المتعاقبة، اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ الموعودة المعدة لحشر الأموات من الأجداث ﴿يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي يقسم ويحلف كل منهم عند صاحبه بمدة لبثهم في الدنيا مترفهين متنعمين، واتفقوا بعد ما اختلفوا وترددوا في مكثهم فيها أنهم ﴿مَا لَبِثُوا۟﴾ فيها ﴿غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ واحدةٍ بالنسبة إلى طول يوم القيامة، ومن شدّة عذابها وأهوالها وكثرة الهموم والأحزان فيها، صار لبثهم في الدنيا مدة أعمارهم فيها ساعة واحدة عندهم بل بعضهم تخيلوا أقصر منها ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل صرفهم عن طول مدة مكثهم في الدنيا يوم القيامة ﴿كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾ ويُصرفون في النشأة الأولى عن طريق التوحيد وسبيل الهداية والرشاد من كمال غفلتهم وقسوتهم.

﴿وَ﴾ بعد ما سمع منهم المؤمنون الموحدون استقصارهم مدة لبثهم فيها وانصرافهم عن الحق ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ اللّدني من قبل الحق ﴿وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ بالمغيبات التي أمروا بتصديقها على ألسنة الرسل والكتب سيما

لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ ....

يوم البعث والنشور ردّاً عليهم وتخطئةً لهم: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ﴾ في الدنيا بمقتضى ما ثبت ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ ولوح قضائه وحضرة علمه ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ﴾ وحشر الموتى وقيام الساعة ﴿فَهَٰذَا﴾ اليوم الذي أنتم فيه معذبون الآن ﴿يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ الموعود لكم في الدنيا على ألسنة الرسل ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ﴾ من خبث طينتكم وجهلكم ﴿ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ ولا تؤمنون به ولا تصدقون قيامه، بل تنكرونها وتكذبون مَن أخبر بها من الرسل العظام مع أنهم مؤيَّدون من قبل الحق بالدلائل القاطعة والبراهين الساطعة والمعجزات الباهرة الظاهرة، وبعدما فوّتوا الفرص في دار الاختبار، وضيعوا عين العبرة والاعتبار فيها

﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي حين قيام الساعة وانقضاء أيام التفقّد والتدارك ﴿ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أنفسهم بالخروج عن حدود الله والعرض على عذابه ﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أيّ عذر منهم ليعتذروا عن قصورهم ويتوبوا عن فتورهم متداركين لما فوتوا ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾ أي لا يُطلب منهم العتبى حتى يزول عتابهم بالتوبة والإنابة والندم والرجوع، إذ قد انقضت[1] نشأة الابتلاء والاختبار، حينئذٍ لا يقبل منهم التوبة والعبادة أصلا.

ثم قال سبحانه عل سبيل التأكيد والمبالغة مشيراً إلى كمال قسوة أهل الزيغ والضلال:

(١) في المخطوط (انقضى).

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ ....

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا﴾ وبينا ﴿لِلنَّاسِ﴾ الناسين طريق الوصول إلى توحيدنا ووحدة ذاتنا ﴿فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ المنزل من عندنا لتبيين طريق توحيدنا وسلوك سبيل الاستقامة والرشاد فيه ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ ينبئ لهم عنه وينبئهم عليه ويبين لهم كيفية التنبه والتفطن منه، ومع ذلك لم يتنبهوا ولم يتفطنوا إلا قليلاً منه ﴿وَ﴾ من غلظ غشاوتهم ونهاية غفلتهم وضلالهم ﴿ لَئِن جِئْتَهُم﴾ يا أكمل الرسل ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ من آيات القرآن ملجئةٍ لهم إلى الإيمان ـ لو تأملوا معناها وتدبروا فحواها ـ ﴿لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ أي أعرضوا عن الحق وانصرفوا عن توحيده والإيمان على سبيل الحصر والمبالغة بلا مبالاة بك وبآياتك: ﴿ إِنْ أَنتُمْ ﴾ أي ما أنتم في دعواكم هذه أيها المدّعون الكاذبون يعنون الرسول والمؤمنين ﴿ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ مفترون مزورون، تفترون على الله ما تختلقون من تلقاء نفوسكم تغريراً وترويجاً.

﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل طبعهم وختمهم الذي شهدتَ يا أكمل الرسل من هؤلاء الجهلة ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ﴾ الحكيم المتقن في أفعاله ويختمه ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ ﴾ جميع الكفرة والجهلة ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ الحق ولا يذعنون به ؛ لتركب جهلهم في جبلتهم، والجهلُ المركب لا يزول بالقواطع والشواهد قطعاً، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور.

﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ٦٠﴾

وما متى سمعت يا أكمل الرسل من أحوالهم وأوصافهم ما سمعت من عدم قابليتهم واستعدادهم إلى الهداية والرشاد

﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ على إيذائهم وثق بالله وبوعده الذي وعدك بأن يظهر دينك على الأديان كلها ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ وإنجازه لما وعد به ﴿حَقّٞۖ﴾ بلا خلفٍ وترددٍ ﴿وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ﴾ أي لا يحملنّك ويبعثنك يا أكمل الرسل على الخفة والاضطراب وقلة التصبر وعدم الثقة بالله القومُ ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ٦٠﴾ ولا يتّصفون باليقين في أمر من الأمور أصلاً، فكيف بالمعارف والحقائق الإلهية، إذ هم مجبولون على فطرة الضلال، مترددون في بيداء الوهم والخيال، لا نجاة لهم منها في حالٍ من الأحوال.

هب لنا من لدنك جذبةً تنجينا عن مضيق الجهل والضلال، وتوصلنا إلى سعة العلم وفضاء الوصال نحمدك على كل حال ونستعيذ بك منك من جميع الأهوال

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المتحقق لمرتبة اليقين العلمي والعيني والحقي مكنك الحق في مقر لاهوتك، وجنّبك عن لوازم ناسوتك مطلقا: أن تتصبر على أذيات أصحاب التقليدات والتخمينات وتتحمل على تشنيعات أرباب الظنون والجهالات، المترددون في تيه الجهل والضلال بمتابعة الوهم والخيال، وتصفيَ خاطرك وضميرك عن معارضتهم ومقابلتهم، والبغض معهم والالتفات إليهم مطلقاً، إذ هم قومٌ خذلهم الله وأحطّهم عن مرتبة الإنسان التي هي التحقق بمقام اليقين والعرفان، والتمكن في مرتبة الخلافة والنيابة من الرحمن المستعان، والتخلّق بأخلاق الحنّان المنّان، وأسكنهم في مضيق الإمكان، مقيَّدين بسلاسل التقليد وأغلال الحسبان، لا نجاة لهم منها أبداً.

وعليك أن تتوجه بوجه قلبك إلى ربك وتفوّض أمورك كلها إليه وتتخذه وكيلاً وتجعله حسيباً وكفيلاً، فإنه سبحانه يكفيك مؤنة شرور أعدائك وحاسديك، ولك التبتّل والانقطاع إلى الله في كل الحالات والرجوع نحوه في جميع المهمات والملمات، إذ ما من خيرٍ يسرُّك، وشرٍ يضرُّك، إلا منه بدأ، وبقدرته ظهرَ، وعلى مقتضى علمه صدرَ، وبموجب حكمته جرى وقدر.

فلك أن تسترجع إليه، وتتضرع نحوه، وتستعيذ منه به، إذ الكل من عنده لا رادّ لقضائه، ولا معقب لحكمه، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة لقمان

لا يخفى على من تحقق بالمرتبة الحكمية العلية من مقامات سالك التوحيد وتمكن عليها مطمئناً راضياً، مداوماً على الميل المعنوي والتوجه التام بجميع الجوارح والأركان نحو الحق مسقطاً عن نفسه جميع ما يشغله عن التوجه والإلتفات إلى المبدأ الحقيقي والمنشأ الأصلي على الوجه الأتم الأكمل: أن الوصول والتحقق بمرتبة التوحيد والهداية الحقيقية، والتكمنَ في مقر الاطمئنان واليقين والنيل إلى شرف الفناء في الله والبقاء ببقائه إنما يحصل برفع الموانع ورفض الرسوم والعادات العائقة عن إدراك السعادات وذلك لا يتم إلا بعد خلْع خُلع الناسوت مطلقاً، وترك مقتضيات الأوصاف البشرية والقوى الجسمانية رأساً.

وذلك لا يتيسر إلا بارتكاب متاعب الطاعات ومشاق التكليفات القاطعة القالعة عرق التعلقات المرتكزة في القوى البشرية وأصول اللذات الوهمية اللازمة للنفوس البهيمية والهياكل الهيولانية المستحدثة من خبث الطبيعة المكدرة بأدناس الإمكان المفضي بالطبع إلى الدناءة والنقصان وأنواع الخساسات والخسران.

والخلاص عن أمثال هذه الموانع والشواغل إنما هو بتوفيق الله وجذبِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ ....

من جانبه وإرشاد مرشدٍ نبيهٍ مؤيداً من عنده سبحانه بالدلائل والتنبيهات وأنواع المعجزات والتبيينات الخوارق للعادات.

ولهذه المصلحة العلية والحكمة السَّنِية خاطب سبحانه حبيبه ﷺ بما خاطب بعدما تيمن بذكره الأجل الأعلى فقال:

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ الذي أنشأ ينابيع الحكمة من قلوب أنبيائه وأوليائه، وأجرى على ألسنتهم أنهار المعارف والحقائق المنتشئة منها إرشاداً لعموم عباده ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ عليهم بإرسال الرسل المؤيدين من عنده بنزول الكتب والصحف تتميماً لمكارم أخلاقهم ومحاسن أطوارهم وشيمهم؛ ليستعدوا بقبول دلائل التوحيد ونزول سلطان الوحدة على قلوبهم ﴿ ٱلرَّحِيمِ﴾ لهم يوصلهم إلى مبدئهم الأصلي ومنشئهم الحقيقي بعد رفع تعيناتهم ونفي هوياتهم الباطلة.

﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾ أيها الإنسان الكامل اللائق للوامع لطائف أنوار الوجود الإلهي ولوائح آثار جوده، المكرمُ المؤيد من عنده بمزيد اللطف والكرم، الممتازُ المتخصص من بين جميع مظاهره بالمرتبة الجامعة المستجمعة لجميع المراتب العلية.

﴿ تِلۡكَ﴾ الآيات المتلوة عليك يا أكمل الرسل امتناناً لك واختصاصاً بشأنك ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي نبذٌ من آيات الكتاب ﴿ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ المشتمل على الحكمة المتقنة المنبعثة عن اجتماع القدرة الكاملة والإرادة

هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ....

الخالصة، المترتبتين على العلم الكامل الإلهي الذي لا يغيب عن حضرة حضوره ذرةٌ من ذرائر ما لاحت عليه شمس الوجود، ولجمعيته وشموله وصدق نزوله من عند الله اتصف بوصفه سبحانه تأكيداً ومبالغةً، ولكونه نازلاً من عنده سبحانه على مقتضى الحكمة البالغة لتأييد رسوله المبعوث إلى كافة الأمم صار:

﴿﴿٣﴾ هُدًى﴾ عامّاً ورشداً تامّاً كله للممتثلين بما فيه من الأوامر والنواهي والأحكام والقصص والتذكيرات والعبر والرموز والإشارات ﴿وَرَحْمَةً﴾ خاصةً نازلةً من عنده سبحانه ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾﴾ الذين لا يرون غير الله في الوجود، ولا يعبدون سواه من الوسائل، ولا ينسبون الحوادث الكائنة في الآفاق إلى الأسباب العادية، والمحسنون المرضيون عند الله، الراضون بما جرى عليهم من نفوذ القضاء.

هم ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ويواظبون عليها في جميع أوقاتهم وحالاتهم سيما الأوقات المحفوظة المقبولة ﴿وَيُؤْتُونَ﴾ وينفقون جميع ما في أيديهم من الرزق الذي يسوق الحق إليهم في سبيله طلباً لمرضاته سيما ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المفروضة عليهم من عنده سبحانه تزكيةً لظواهرهم عن الالتفات إلى ما يشغلهم ﴿وَ﴾ مع ذلك لا يقتصرون أولئك السعداء المقبولون بتهذيب الظاهر والباطن بل ﴿هُم بِٱلْآخِرَةِ﴾ المعدة لتنقيد الأعمال وجزاء الافعال ﴿هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ علماً وعيناً وحقاً وبالجملة:

أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ ....

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ السعداء المتصفون بالخصائل السنية والأخلاق المرضية ﴿عَلَىٰ هُدًى﴾ صريحٍ صحيحٍ فائضٍ نازلٍ إياهم ﴿مِّن رَّبِّهِمْۖ﴾ تفضلاً عليهم وامتناناً لهم ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الأمناء المقبولون المرضيون عند الله ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ المقصورون على الفوز والفلاح لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون. جعلنا الله من خدامهم وتراب أقدامهم.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ المجبولين على كفران نعم الله ونسيان حقوق كرمه وجوده ﴿مَن يَشْتَرِي﴾ ويستبدل آيات الكتاب المشتمل على أنواع الفضائل والكمالات وأصناف الهدى والكرامات ﴿ لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ أي يستبدل الآيات الإلهية ويختار بدلها من الأراجيف الكاذبة ما يلهي النفوس ويشغلها عن ما يعنيها ويفيدها ويقربها إلى ما لا يعنيها ويضرها، وما ارتكب ذلك الضال المضل بما ارتكب من الاشتراء والاستبدال الفاسد إلا ﴿ لِيُضِلَّ﴾ ويصرف ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ من يميل إليها ويتوجه نحوها ليتدين بدين الله وينقاد لنبيه على مقتضى فطرته الأصلية، مع أنه صدر عنه هذا الصرف والمنع ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يتعلق به منه نقلاً أو عقلاً عن جهلٍ مرتكزٍ في جبلّته وحميّته مركوزةٍ في خبث طينته وطبيعته ﴿وَ﴾ بسبب ذلك الجهل الجبلي ﴿يَتَّخِذَهَا﴾ إلى الآيات الموصلة إلى طريق الحق وتوحيده ﴿هُزُوًاۚ﴾ أي محل استهزاءٍ وسخريةٍ لجهله وغفلته عن

أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ....

السرائر المودعة فيها والأسرار المكنونة في فحاويها ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ البعداء المجبولون عن الغواية والضلالة أصلاً وفرعاً، تابعاً ومتبوعاً ﴿لَهُمۡ﴾ في النشأة الأخرى ﴿عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٦﴾﴾ يهينهم فيها بدل ما استهانوا بكتاب الله واستهزؤا برسله ظلماً وزوراً بلا تدربٍ وتدبرٍ.

﴿وَ﴾ من شدة شكيمته وبغضه بالله ورسوله وكتابه ونهاية عتوه وعناده ﴿ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ﴾ وقرئ عنده ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ الدالة على توحيد ذاتنا وكمال أسمائنا وصفاتنا ﴿وَلَّىٰ ﴾ عنها وأعرض عن استماعها وانصرف عن قبولها ﴿مُسۡتَكۡبِرٗا ﴾ عليها متجافياً كشحه عنها ﴿كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا ﴾ مع أنها تتلى عليهم قصد الاستماع ولم يلتفت إليها ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ ﴾ صمماً يعوقه عن السماع والاستماع ﴿فَبَشِّرۡهُ﴾ يا أكمل الرسل بعدما أعرض عن كتاب الله واستنكف عن استماعه وإصغائه مستخفاً عليه مستحقراً إياه ﴿ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾﴾ مؤلمٍ في غاية الشدة والألم.

ثم عقب سبحانه وعيد الكفرة الهالكين في تيه الغي والضلال بوعد المؤمنين على مقتضى سنته المستمرة فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ بتوحيد الله وصدقوا رسله ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ المرضية له سبحانه، المقبولة عنده على مقتضى ما نزّل عليهم من الآيات

لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ ....

الواردة إياهم، المصفية لظوارهم وبواطنهم ﴿لَهُمْ﴾ في النشأة الأخرى جزاء ما أتوا به من الإيمان والعمل الصالح في النشأة الأولى ﴿جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ متنزهات مملوءةٌ بألوان النعم وأصناف الجود والكرم، لا يتحولون منها أصلاً بل صاروا ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ﴾ مترفهين بنعيمها لا يمسهم فيها نصبٌ ولا وصب ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ الذي وعد لخُلّص عباده من عنده على مقتضى علمه وإرادته، لا بد له أن ينجزه ﴿حَقًّا ۚ﴾ صدقاً بلا خلفٍ وتردد ﴿وَ﴾ كيف يخلف في وعده ﴿هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على جميع ما دخل في حيطة علمه وإرادته ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾ المتقن في إيجاده وإظهاره على الوجه الذي أراد.

ومن جملة حكمته المتقنة المتفرعة على حضرة علمه المحيط وقدرته الشاملة وإرادته الكاملة أنه:

﴿خَلَقَ﴾ وأظهر ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي عالم الأسباب ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ وأسانيد على الوجه الذي ﴿تَرَوْنَهَا ۖ﴾ معلقةً على الأرض بلا استنادٍ واتكاءٍ ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ التي هي عالم المسببات ﴿رَوَٰسِىَ﴾ شامخاتٍ وجبالاً راسياتٍ كراهة ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ وتميل عليكم وقت ترددكم وتحرككم عليها ﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾ أي بسط عليها ونشر ﴿مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ﴾ تتحرك عليها متبادلةً متقابلةً

وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ ....

كيف اتفق؛ لتستقر وتتمكن؛ لأن طبيعتها في حد ذاتها كانت على الحركة والإضطراب، إذ هي محفوفة[1] بالماء السائل المجبول على الحركة والسيلان، و بالهواء المتموج بالطبع، و بالنار المضطربة، و بالأفلاك المتحركة بطبقاتها ﴿وَ﴾بعد ما شهدناها وألقينا عليها من الرواسي العظام تتميماً لتقريرها ﴿أَنزَلْنَا مِنَ﴾ جانب ﴿ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ مستحدثاً من الأبخرة والأدخنة المتصاعدة المتراكمة المستحيلة بالماء بمجاورة الكرة الزمهريرية ﴿فَأَنۢبَتْنَا﴾ وأخرجنا بإنزال الماء عليها ﴿فِيهَا﴾ أي في الأرض المنبسطة اليابسة بالطبع ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ صنفٍ من النبات مزدوجٍ مع شاكلته ﴿كَرِيمٍ ﴿١٠﴾﴾ كثير المنافع والفوائد، مصلحٍ للأمزجة، مقومٍ لها؛ لتعيشوا عليها مترفهين متنعمين، شاكرين لنعمنا، غير كافرين بمقتضى جودنا وكرمنا.

ثم قال سبحانه من مقام العظمة والكبرياء، وكمال المجد والبهاء على سبيل الإسكات والتبكيت لمن أشرك معه غيره عناداً ومكابرة:

﴿هَٰذَا﴾ الذي سمعتم أيها المجبولون على السمع والإصغاء ﴿خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ القادر المقتدر ذي الحول والقوة الغالبة والطول العظيم ﴿فَأَرُونِى﴾ أيها المشركون المسرفون المفرطون في دعوى الشرك معه سبحانه ﴿مَاذَا خَلَقَ﴾ أي أيّ شيء أظهر وأوجد الشركاء ﴿ٱلَّذِينَ﴾ تعبدونهم

(١) في المخطوط (محفوف).

مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿١١﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ ....

وتدعون نحوهم في الخطوب وتذعنون، أنهم آلهةٌ ﴿مِن دُونِهِۦۚ﴾ سبحانه مستحقةٌ للعبادة والرجوع، قادرةٌ على لوازم الألوهية والربوبية، فسكتوا بعد ما سمعوا ما سمعوا باهتين وانقلبوا حينئذ صاغرين ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ المجبولون على الظلم والخروج عن مقتضى الحدود الإلهية، سيما بدعوى الشركة واتخاذ إلهٍ سواه ـ العياذ بالله منه ـ ﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿١١﴾﴾ وغوايةٍ ظاهرةٍ، وطغيانٍ عظيمٍ.

أعاذنا الله وجميع عباده عن أمثاله.

ثم قال سبحانه عن سبيل إظهار الفضل والامتنان والتفرد بمقتضى الألوهية والربوبية:

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا﴾ من مقام عظيم لطفنا وجودنا ﴿لُقۡمَٰنَ﴾ بن باعورا بن ناخور بن آزر، فكان ابن أخت أيوب عليه السلام أو [ابن] خالتِه وعاش إلى أن أدرك داوود عليه السلام فأخذ منه العلم و﴿ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ وهي عبارةٌ عن اعتدال الأوصاف الجبلية المودعة في النفوس البشرية على مقتضى الفطرة الأصلية والتخلق بالأخلاق المرضية المنتشئة من الأوصاف الذاتية الإلهية، وقلنا له بعد ما أنعمنا عليه نعمة الحكمة وأعددناه لقبول فيضان أنواع اللطف والكرامات: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ﴾ واصرف بمقتضى الحكمة الموهوبة لك من عندنا جميع ما أعطيناك من النعم العظام على

وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ ....

ما جبلناها لأجله؛ لتكون من زمرة الشاكرين المواظبين على أداء حقوق جودنا وكرمنا، ومن جملة المطيعين لمقتضيات حكمتنا وأحكامنا ﴿وَ﴾ اعلم أيها المجبول على الحكمة الفطرية أنه ﴿مَن يَشْكُرْ﴾ نعمنا عاد على نفسه فوائد كرمنا ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ﴾ إذ فائدة شكره عائدة إليه، مزيدة لنعمنا إياه، مستجلبة لأنواع لطفنا وإحساننا معه ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ لنعمنا من خبث طينته، وأعرض عن أداء حقوق كرمنا إياه، فوبالُ كفرانه أيضاً عائد إلى نفسه، إذ عندنا الشكر والكفر سيّان، ونحن منزهون عن الربح والخسران ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ المتجلي على عموم الأنفس والآفاق بالاستحقاق ﴿غَنِىٌّ﴾ بذاته عن جميع صور إحسان عباده معه ﴿حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ هو في ذاته باعتبار أوصافه الذاتية الظاهرة آثارها على صفائح الأكوان والمكونات، المتجهة نحو مبدعها، المثنية له حالاً ومقالاً، سراً وجهاراً.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل لمن تبعك من المؤمنين معناه تذكيراً لهم وعظةً عليهم ﴿ إِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ﴾ المسمى بأنعم أو أشكم أو ماثان قولاً ناشئاً عن محض الحكمة المتقنة الموهوبة له من عنده سبحانه ﴿ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ ويقصد تهذيب ظاهره وباطنه عن الأخلاق الردية والخصائل الدنية، منادياً إياه مصغّراً على سبيل التحنن والتعطف وكمال الترحّم والتلطف، مضيفاً إلى نفسه ليقبل منه ما أوصاه: ﴿ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ﴾ المنزه عن الشريك والشبيه والكفء والنظير، واعلم أن أجلَّ أخلاقك

إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ ....

وأعزَّ أوصافك التوحيدُ وتنزيهُ الحق عن الشبيه والتعديدِ، وأخسَّ أوصافك وأرذلَ أخلاقك وأردى ما جرى في خلدك وضميرك الشركُ بالله ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ﴾ واعتقادَ التعدد والاثنينية في حق الحق الحقيقي بالحقية، الوحيد بالقيومية، الفريد بالديمومية، المستقل بالألوهية والربوبية ﴿ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ لا ظلمَ أعظم وأفحش، أعاذنا الله وعموم عباده منه.

ثم قال سبحانه على سبيل التوصية والمبالغة تأكيداً وتحقيقاً على ما أوصى به لقمان ابنه من النهي عن الشرك والزجر عنه:

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ وألزمنا عليه أولاً بعدما أظهرناه قابلاً لحمل التكاليف المستكملة ﴿بِوَٰلِدَيْهِ﴾ أي بإطاعتهما وبحفظ آداب المعاشرة والمصاحبة معهما ورعاية حقوقها على ما ينبغي ويليق بلا فوت شيء من حقوقهما، سيما الوالدة المتحملة لاجله أنواع المحن والمشاق، إذ ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ﴾ بواسطة حمله في بدء وجوده ﴿وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ أي ضعفاً على ضعفٍ، إذ كلما ازداد نشوءه ازداد ضعفها، إلى أن انفصل عنها، وبعد انفصاله تداوم لحفظه وحضانته إلى فطامه ﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾ أي فطامه إنما هو ﴿فِى عَامَيْنِ﴾ وبعدما انفطم تلازم أيضاً على حفظه إلى وقت بلوغه، وبعد ما بلغ سن التكليف قلنا له: ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى﴾ أيها المكلف المتنعم بأنواع النعم مني أصالةً وتسبباً؛ لأني خلقتك وأظهرتك من كتم العدم ولم تك شيئاً ﴿وَ﴾ اشكر أيضاً ﴿لِوَٰلِدَيْكَ﴾ واخفض لهما جناح الذل

إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ ....

من الرحمة لإقامتهما على حفظك وحضانتك إلى أن كبرتَ وبلغتَ مرتبة أشدك وكمال عقلك ورشدك، واعلم أن شكرك لهما راجع إليّ أيضاً إذ أقدرتهما ومكنتهما على حفظك، وألقيت محبتك في قلبيهما، وبالجملة ﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ والمرجعُ في جميع الأفعال الصادرة من العباد ظاهراً، إذ هم وما صدر عنهم من الأفعال مستندون إلينا أولاً وبالذات، وكيف لا تستند أفعالهم إلينا، إذ جميع ما صدر عنهم تابعٌ لوجوداتهم، مترتبٌ عليها، والحال أنه ليس لهم وجود في أنفسهم، بل وجوداتهم إنما هي رشحةٌ من رشحات وجود الحق، وَفَيءٌ من أظلال أوصافه وأسمائه الذاتية.

﴿وَ﴾ بعدما أكّدنا عليكم أيها المكلفون في حفظ حقوق والديكم وبالغنا فيه ﴿إِن جَٰهَدَاكَ﴾ أي والداك أيها المكلف واجتهدا في شأنك وبالغا في الجهد والسعي إلى أن قاتلا معك وأرادا مقتك ﴿عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي﴾ وتعتقد ربّاً سواي وتعبده مثل عبادتي مع أنك خالي الذهن إذ ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ يتعلق بنفي الشريك وإثباته أيضاً ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ في أمرهما هذا وسعيهما فيه، إذ أصل فطرتك مجبولةٌ على التوحيد، سواء تعلق علمك به أو لم يتعلق، فلك أن لا تطعهما وتنصرف عن أمرهما هذا ﴿وَ﴾ مع انصرافك عن أمرهما هذا ﴿صَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا﴾ وإن كانا مشركين ﴿مَعْرُوفًا﴾ مستحسناً عقلاً وشرعاً ومروءةً؛ حفظاً لحقوقهما ﴿وَ﴾ لا تتبع بشركهما وكفرهما بل ﴿ٱتَّبِعْ﴾

سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ

في الدين والملة ﴿سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ﴾ ورجع ﴿إِلَيَّ﴾ ودينَ من توجه نحوي موحداً إيّاي، بريئاً من الشرك معي، وبالجملة امض على التوحيد واسلك طريقه ما دمتَ في دار الابتلاء ﴿ثُمَّ﴾ بعدما انقرضت النشأة الأولى ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ تابعاً ومتبوعاً، أصلاً وفروعاً ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ وأخبركم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ أي بتفاصيل أعمالكم التي صدرت عنكم في دار الاختبار، وأجازيكم على مقتضاها، إن خيراً فخيرٌ وإن شراً فشرٌّ.

وبعدما سجل لقمان على ابنه التوحيد بنفي ضده على طريق المبالغة والتأكيد أراد أن ينبّه عليه بأنه لا بد له أن يحفظ[1] على نفسه الأدب مع الله في كل الأحوال، بحيث لا يصدر عنه شيء يخالف توحيده، ولا يلائمه ولو كان ذرةً حقيرة، إذ لا يعزب عن حيطة حضرة علمه سبحانه شيء، فقال أيضاً مناديا:

﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ﴾ أي الخصلة الذميمة التي أتيتَ بها المنافية للتوحيد، أو الخصلة الحميدة الملائمة له، لا يعزب كلاهما عن علم الله مطلقاً، وبالجملة ﴿إِن تَكُ﴾ فرضاً ما جئت به من الخصلة الذميمة والحميدة في صغر الحبة والوزن ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ واحدةٍ كائنةٍ ﴿مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ أي هي مثلٌ في الحقارة والصغر ﴿فَتَكُن﴾ أنت بعد ما جئتَ بها ﴿فِي صَخْرَةٍ﴾ أي في جوفها، وهي أخفى المواضع وأستر الأمكنة ﴿أَوْ فِي﴾ أعلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وفوقها وهو

---

(١) في المخطوط (أن يحفظه).

أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ....

ما وراء الفلك الأطلس ﴿ أَوْ فِي ﴾ أسفل ﴿ ٱلْأَرْضِ ﴾ وقعرها[1]، وبالجملة إن كنت في أخفى الأماكن وأحفظها ﴿ يَأْتِ بِهَا ﴾ أي بك وخصلتك التي صدرت عنك ﴿ ٱللَّهُ ﴾ الرقيبُ عليك في جميع حالاتك ويجازيك بمقتضاها إن تعلق إرداته ومشيئته بإحضارك وإتيانها، وبالجملة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ﴾ المطلع على السرائر والخفايا ﴿ لَطِيفٌ ﴾ لا يحجبه حجبٌ ولا يمنعه سدلٌ ﴿ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ ﴾ ذو خبرة يعلم كنه الأشياء وإن دقت ورقت ولا يكتنه ذاته مع أنه أظهر وأبين في ذاته من عموم مظاهره ومصنوعاته، وبعدما سمعت.

﴿ يَٰبُنَيَّ ﴾ وصف ربك وحيطة علمه وقدرته ولطافة اطلاعه وخبرته ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي داوم ميلك نحوه بجميع أركانك وجوارحك، مخلصاً في ميلك ورجوعك إليه سبحانه، محرّماً على نفسك جميع ما يشغلك عن ربك، مجرداً، عارياً قلبك عن جميع منسوباتك ومقتضايات بشريتك ولوازم هويتك ﴿ وَأْمُرْ ﴾ يا بني على بني نوعك أولاً إن قصدت تكميلهم وإرشادهم إلى مقصد التوحيد ﴿ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ المستحسن عقلاً وشرعاً، وكلّم معهم على قدر عقولهم بلا إغراءٍ ولا إغواءٍ، ولا تفش عليهم سر التوحيد ما لم يستحقوا لحفظه ولم يستعدوا له قبوله ﴿ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ المستهجن عقلاً وشرعاً وعادةً ومروءةً، ونبهّهم على وجوه القبح والهجنة، وألطف معهم في تبيينها لعلهم يتفطنون بقبحها بمقتضى فطرتهم التي فُطروا عليها في بدء

(١) في المخطوط (مقعرها).

وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ ....

الأمر ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ في تمشية سلوك التوحيد وتقوية طريقه، وكن متحملاً على مشاق الطاعات ومتاعب العبادات، وارض من ربك بجميع ما جرى عليك وثبتَ لك في لوح قضائه ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ المذكور أي كل واحد من الأمور المذكورة والخصائل المأمورة ﴿ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ أي من الأمور التي عزم الحق عليها وأوجبها على أولي العزائم الصحيحة من خُلّص عباده إرشاداً لهم إلى وحدة ذاته وزلالِ هدايته الصافية عن كدر الضلالات والجهالات.

وكن يا بني في تمدنك ومعاشرتك مع بني نوعك ليناً هيناً بشاشاً بساماً.

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ﴾ أي لا تَمل ولا تعرض ﴿ خَدَّكَ﴾ أي صفحة وجهك التي بها مواجهتك ﴿ لِلنَّاسِ﴾ ولا تلوِ عنقك عنهم كبراً وخيلاء كما يفعله أرباب النخوة من الجهلة المستكبرين المتفوقين المفتخرين بما عندهم من المال والجاه والثروة والسيادة والعلوم الرسمية على الفقراء الضعفاء الفاقدين لها ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ لَا تَمْشِ﴾ يا بني ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ التي بسطت للتذلل والانكسار ﴿مَرَحًا﴾ أي ذا فرحٍ وسرور مفتخراً بما عندك من الحطام الفاني ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ﴾ يمشي على وجه الأرض خيلاءَ، بحيث يتبادر منه الكبر والنخوة في بادئ النظر ﴿فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾ بما عنده من الحسب والنسب والمال والجاه، بطرٌ

﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩ أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ﴾ ....

بها، مباهٍ بسببها.

﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ﴾ اي توسط يا بني في مشيك بين الإسراع المذهب بهاء المؤمن ووقاره، وبين الدبيب الموجب للعُجب والخيلاء ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ﴾ أيضاً وأنقص منه ولا ترفعه وإن كان حَسناً، فإنك ـ يقصد رفعة صوتك مبالغاً فيها ـ تشبه الحمار، إذ هو مخصوص من بين سائر الحيوانات بترفيع الصوت والمبالغة فيه، ومن بالغ في رفع صوته، فقد أشبه نفسه به، ولا شك أن صوته منكرٌ عند جمهور العقلاء وجميع الحيوانات أيضاً، حتى إن الكلب يتأذى من صوته ويفزع منه عند سماعه من غاية تأثيره وتألمه، وبالجملة ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ﴾ وأوحشها وأقرعها للآذان ﴿لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩﴾ وكيف تشبّهون أنفسكم أيها المجبولون على الشرف والكمال على أدون الحيوانات وأذلّ المخلوقات، وأنزلها رتبة.

﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ﴾ ولم تعلموا أيها المجبولون على الدربة والدراية ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ الحكيم المتقن في عموم أفعاله ﴿سَخَّرَ لَكُم﴾ وسهّل عليكم تتميماً لفضلكم وكرامتكم جميع ﴿مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي العلويات التي هي عللٌ وأسبابٌ وإن كانت معلولاتٍ في أنفسها ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي السفليات أي هي مسببات عن العلويات وقوابل لما يفيض عنها بطريق جري العادة؛ ليحصل من امتزاجها ما تعيشون بها، مترفهين متنعمين من أنواع الفواضل والنعم ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿أَسۡبَغَ﴾ أي أكثر وأوفر سبحانه ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ أيها المجبولون على

نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ ....

الكرامة الفطرية والكمال الجبلي ﴿نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً﴾ تدركون بها ظواهر الآفاق من المبصرات والمسموعات والملموسات والمشمومات والمذوقات ﴿وَبَاطِنَةً﴾ تدركون بها سرائر المعلومات والمعنويات، وتنكشفون بها إلى المعارف والحقائق الفائضة على قلوبكم التي أودعها الله العليم الحكيم في بواطنكم؛ ليسع فيها وينزل عليها سلطان وحدته الذاتية السارية في ظواهر الأكوان وبواطنها الكائنة أزلاً وأبداً، مع أنه سبحانه لا يسعه في سعة السموات والأرض، وإن فرض لها أضعافٌ وآلافٌ؛ لكنه يسع في قلب عبده العارف المؤمن الموقن المنكشف بتوحيده وبظهور وحدته الذاتية المتجلية على صفائح ما ظهر وبطن ومع ظهور وحدته سبحانه في ذاته واستقلاله في إظهار المظاهر الكائنة أزلاً وأبداً ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ المجبولين على الجدال والنسيان، المنهمكين في بحر العناد والطغيان ﴿مَن يُجَٰدِلُ فِى﴾ توحيد ﴿ٱللَّهِ﴾ المتوحد المتفرد بالألوهية والربوبية، المستقل بالتصرف في ملكه وملكوته إرادةً واختياراً، ويثبت له شريكاً سواه ويعبده كعبادته، مع أن جداله ما يستند إلى سندٍ يصلح للاستناد بل ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ دليلٍ عقلي يمكن التوصل به إلى إثبات ما ادعاه بطريق النظر والاستدلال ﴿وَلَا هُدًى﴾ أي كشفٍ صريحٍ لدني نبعَ من قلبه بلا افتقارٍ إلى المقدمات والوسائل العادية التي يستنتج منها المطالب ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾ أي دليلٍ نقلي ينوّر خلده

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ....

ويعدّه لفيضان المعارف والحقائق من المبدأ الفياض، بل إنما نشأ ما ادعاه من محض التقليد والتخمين الحاصل من متابعة الوهم والخيال.

﴿وَ﴾ لذلك ﴿ إِذَا قِيلَ لَهُمُ ﴾ على سبيل العظة والتذكير إمحاضاً للنصح: ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ المصلح لأحوالكم من الدين والكتاب المشتمل على أنواع الرشد والهداية والنبي المؤيدِ من عنده المبعوث إليكم لهدايتكم وإصلاحكم ﴿قَالُوا۟﴾ في الجواب: ما نتبع بمفترياتكم المستحدثة التي ابتدعتموها من تلقاء أنفسكم ونسبتموها إلى الله تغريراً وترويجاً ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ إذ هو مستمرٌ قديمٌ، فنحن بأثرهم متّبعون، وبدينهم راضون متخذون.

قل لهم يا أكمل الرسل نيابة عنا: ﴿أَ﴾ يتبعون آباءهم أولئك الضالين ﴿وَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ المغوي المضل إياهم ﴿ يَدْعُوهُمْ ﴾ وآباءهم أيضاً إلى الباطل ليصرفهم عن الحق ويوصلهم ﴿ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾ الذي أُعد لمتابعيه، ومن يقتفي أثره ويقبل دعوته.

ثم قال سبحانه:

﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ ﴾ الذي يلي الحق ﴿ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ويخلص في توجهه نحوه ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ ناظرٌ إلى الله بنوره سبحانه،

فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾

مطالعٌ بوجهه الكريم ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ﴾ وتمسك ﴿بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ التي لا انفصام لها، وهي حبل الله الممدود من أزل الذات إلى أبد الأسماء والصفات، ومن تمسك بها فقد فاز بكنف حفظه وجواره، وأمِن من شر الشيطان وغوائله وتضليلاته عن طريق الحق وصراطه المستقيم ﴿وَ﴾ كيف لا ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ المستجمع لجميع الأسماء والصفات المترتبة لما في الكائنات لا إلى غيره من الوسائل والأظلال العادية ﴿عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾ ومصيرُها ومن تشبَّث بحبل الله مخلصاً، فقد لحق بخُلّص أوليائه الذين لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون.

﴿وَمَن كَفَرَ﴾ وأعرض عن التشبُّث بحبل توفيقه وانصرف عن الاستمساك بدلائل توحيده وشواهد استقلاله في آثاره ﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿كُفْرُهُۥٓ﴾ وإعراضه عنا وعن مقتضى ألوهيتنا وربوبيتنا إذ ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ ومصيرهم كما أن منا مبدأهم ومنشأهم ﴿فَنُنَبِّئُهُم﴾ ونخبرهم ونفصل عليهم ﴿بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾ بعدما رجعوا إلينا، ونجازيهم على مقتضاها بلا فوت شيء مما صدر عنهم، وكيف لا يجازون بأعمالهم ولا يحاسبون عليها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلع على جميع ما ظهر وبطن من ذرائر الأكوان ﴿عَلِيمٌۢ﴾ محيط حضرة علمه ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾﴾ وخفيات الأمور وإن دق ولطف، لا يعزب عن حيطة علمه شيء.

قل لهم يا أكمل الرسل نيابة عنا: لا يغتروا بإمهالنا وتمتيعنا إياهم وعدم

﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ ....

التفاتنا نحوهم وعدم انتقامنا عنهم.

إذ ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾ أي زماناً قليلاً تسجيلاً للعذاب عليهم وتغريراً ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ بعد بطشنا إياهم ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ لا عذاب أغلظ منه وأشد لغلظ غشاوتهم وقساوتهم.

﴿وَ﴾ كيف لا نأخذ أولئك المكابرين المعاندين ﴿لَئِن سَأَلْتَهُم﴾ سؤال اختبارٍ وإلزام: ﴿مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ﴾ وأوجد العلويات وما فيها من الكواكب والبروج وأنواع الفجاج ﴿وَالْأَرْضَ﴾ ومن عليها وما عليها مما لا يعدّ ولا يحصى؟ ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ في الجواب مضطرين حاصرين: ﴿اللَّهُ﴾ إذ لا يسع لهم إسناد خلقهما وإيجادهما إلى غيره سبحانه؛ لظهور الدلائل والشواهد المانعة من الاستناد إلى غيره سبحانه. ﴿قُلِ﴾ يا أكمل الرسل بعد ما اعترفوا بأن الموجد للعلويات والسفليات هو الله سبحانه بالأصالة والاستقلال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ حيث اعترفتم بتوحيد الله مع أنكم اعتقدتم خلافه، فيُلزمهم لقولهم هذا التوحيد الحق ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ لزومه ولا يفهمون استلزامه، لذلك ينكرون له ويشركون معه غيره عناداً واستكباراً، تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً، وكيف لا يعلمون ويفهمون مع أنه

﴿لِلَّهِ﴾ الواحد الأحد المستحق للألوهية والربوبية وفي قبضة قدرته

مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ ....

وتحت تصرفه جميع ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي العلويات والسفليات والممتزجات سواء علموا وحدته واستقلاله في ملكه أو لم يعلموا، أو اعتقدوا بتوحيده أو لم يعتقدوا، إذ لا يرجع له سبحانه نفعٌ من اعتقادهم، وضرٌ من عدمه، بل نفع اعتقادهم وإيمانهم إنما يرجع إليهم، وضر كفرهم وشركهم أيضاً كذلك، إذ هو سبحانه منزهٌ عنهما جميعاً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المستغني عن جميع ما ظهر وبطن ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ المقصور على الغنى الذاتي ﴿ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾ بمقتضى أوصافه الذاتية وأسمائه الحسنى التي بها ظهر ما ظهر وما بطن، سواء نطقت بحمده ألسنة مظاهره وأظلاله، أولم تنطق، إذ هو في ذاته متعالٍ عن النقص والاستكمال واستجلاب النفع والإجلال مطلقا.

ثم لما أمر اليهود وفدَ قريش بأن يسألوا رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [١٧- الإسراء:٨٥] كيف قال سبحانه هذا، مع أنا قد أُنزل إلينا التوراة، وفيها علم كل شيءٍ ظاهراً وباطناً ؟

ردّ الله عليهم حصرهم علم الحق بالتوراة بل بجميع الكتب والصحف المنزلة على عموم الرسل وقاطبة الأنبياء، إذ كل ما دخل في حيطة الإنزال والإتيان متناهٍ، وحضرة علمه سبحانه في نفسه غير متَناهٍ، ولا نسبة بين المتَناه وغير المتَناه، بل علمه سبحانه بالنسبة إلى معلومٍ ومقدورٍ واحدٍ باعتبار شؤونه وتطوراته غيرُ متَناه، فكيف بعموم المعلومات والمقدورات.

فقال سبحانه على مقتضى استعداد من على الأرض وقابليتهم وقدر عقولهم مبيناً عن عدم نهاية حضرة علمه منها لها:

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ ....

﴿وَلَوْ أَنَّ﴾ جميع ﴿مَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ﴾ أي كل ما لها ساقٌ من هذا الجنس ﴿أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ﴾ أي المحيط الذي هو كرة الماء الكائن حول الأرض ﴿يَمُدُّهُ﴾ أي يصير مداداً لها وحبراً لثبتها ومدها بل يفرض أيضاً ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي بعد نفاذ البحر المحيط ﴿سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ مثلاً محيطات كذلك تشيعه وتمد مده، فكُتبت بهذه الأقلام والمداد على الدوام كلمات الله العليّ العلام ﴿مَّا نَفِدَتْ﴾ وتمّت ﴿كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ وتنفد المدد والأقلام المذكورة، بل إن فرض أمثالها وأضعافها وآلافها إذ الأمور الغير متناهية لا تقدر بمقدار المتناه ولا يكال بمكيال مقدّر، وكيف يكال ويقدّر علمه ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿عَزِيزٌ﴾ غالبٌ قادرٌ على كل ما جرى في حضرة علمه مع أنه لا نهاية لمعلوماته ﴿حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ لا ينتهي حكمته وقدرته بالنسبة إلى مقدور دون مقدور، بل له التصرف في كل واحدة من مقدوراته ومراداته إلى ما لا يتناهى أزلاً وأبداً، إذ لا يكتنه طور علمه وخبرته وحكمته وقدرته مطلقاً.

ومن جملة مقدوراته الصادرة منه سبحانه على مقتضى حكمته إرادةً واختياراً خلقُكم وإيجادُكم أولاً على سبيل الإبداع بمقتضى اللطف والجمال، وإعدامكم ثانياً على مقتضى القهر والجلال، وإعادتكم وبعثكم ثالثاً إظهاراً للحِكم المودعة فيه هوياتكم وأشباحكم، والمصلحةِ المندرجة في إيجادكم وإظهاركم.

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي﴾

والمحجوبون المقيدون بسلاسل الأزمان والساعات يتوهمون بين الأطوار الثلاثة والنشأة المتعاقبة أمداً بعيداً وأزمنةً متطاولةً، وهي عند الله بعدما تعلق إرادته ونفذ قضاؤه وصدر عنه الأمر بقوله: كن، فيكون الكلُّ بلا تراخٍ ومهلةٍ في أقصر مدةٍ وآنٍ، إذ لا يشغله شأن عن شأن، ولا يقدر أفعاله زمانٌ ومكانٌ، لذلك قال سبحانه:

﴿مَّا خَلْقُكُمْ﴾ وإظهارُكم في فضاء الوجود في النشأة الأولى ﴿وَلَا بَعْثُكُمْ﴾ وحشرُكم في النشأة الأخرى، بعد ما انقرضتم عن الأولى ﴿إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ يعني إيجادكم جملةً أولاً وبعثكم ثانياً كذلك في جنب قدرتنا وإرادتنا كإيجاد نفسٍ واحدةٍ بلا تفاوتٍ، إذ متى صدر عنا قولنا: كن، إشارةً منا إلى خلْقكم وبعْثكم جملةً فيكون الكل في الحال ككون نفسٍ واحدةٍ ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لسرائر ما ظهر وبطن ﴿سَمِيعٌ﴾ لعموم ما صدر عن ألسنة استعداداتهم وقابلياتهم ﴿بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾ بما لاح عليهم من إشراق نور الوجود، وكيف لا يطلع سبحانه لجميع الكوائن والفواسد.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي المتأمل المتدبر ﴿أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ﴾ ويُدخل ﴿اللَّيْلَ﴾ أي أجزاء منه ﴿فِي النَّهَارِ﴾ ويطيله بها في الربيع تتميماً لتربيتكم وأرزاقكم وأقواتكم ﴿وَيُولِجُ﴾ أيضاً في الخريف ﴿النَّهَارَ﴾ أي أجزاءه ﴿فِي اللَّيْلِ﴾ ويطيله بها تقويةً وتعميراً للأرض لتربية ما حدث منها ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿سَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ لمصلحة معاشكم وتربية نفوسكم إلى حيث ﴿كُلٌّ يَجْرِي﴾

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ ....

ويدور بأمره ويتم دورته بحكمه ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ عيّنه الله سبحانه، وسمّاه من عنده على مقتضى حكمته؛ تربيةً لعباده وتقويماً لأمزجتهم ليشتغلوا على ما جبلوا لأجله ﴿وَ﴾ اعلموا أيها المجبولون على فطرة التوحيد والعرفان ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ الرقيب عليكم في جميع حالاتكم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي بجميع ما صدر عنكم من الأعمال والأفعال ﴿خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ لا يعزب عن خبرته ذرّةٌ من ذرائر ما لمع عليه نور الوجود، وإنما ظهر منه سبحانه كل

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي سمعتم أيها المجبولُون على فطرة الدّراية والعرفان، والمترصدُ لانكشاف سرائر التوحيد والإيقان من بدائع القدرة والألوهية وعجائب العلم والإرادة وغرائب الشؤون والأطوار اللامعة من لوائح لوامع شروق شمس الذات، ليدل ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾ المتجلي على عروش الأنفس والآفاق بالأصالة والاستحقاق الوجود ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الثابت المثبت أزلاً وأبداً، القيوم المطلق الدائم الباقي وبلا انقضاءٍ ولا انصرام[1] ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ ويدّعون الوجود له من العكوس والأظلال الهالكة في شروق شمس الذات ﴿ٱلْبَٰطِلُ﴾ المقصور المنحصر على العدم والبطلان، المستهلك في مضيق الإمكان بأنواع الخذلان والحرمان ﴿وَ﴾ بالجملة اعلموا أيها المتأملون في آثار الوجود الإلهي المتحقق بوحدة ذاته وكثرة شؤونه وتطوراته حسب أسمائه وصفاته ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ المستقلَ بالألوهية

(١) في المخطوط (الباقي إلا هو بلا انقضاء ولا انصرام).

هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ....

والربوبية، المستحقَ لأنواع التذلل والعبودية ﴿هُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ بذاته لا بالإضافة إلى غيره، إذ لا غير معه ﴿ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾ في شؤونه وتطوراته حسب تجلياته الجمالية والجلالية واللطفية والقهرية.

وكيف لا يستقل سبحانه بتصرفات ملكه وملكوته ؟!.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي المستبصر ﴿ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ﴾ حاملةً ﴿ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ المنعِم المفضِل عليكم بمقتضى لطفه وسعة جوده ﴿ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ﴾ الدالة على توحيده؛ لتتفطنوا منها إلى وحدة ذاته ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الإجراء والإمداد بالرياح المعينة لجريها، والحفظِ من الغرق والهلاك ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ دلائلَ قاطعةٍ وشواهدَ ساطعاتٍ ﴿ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ صبَر على متاعب ما جرى عليه من القضاء ﴿شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾ لما وصل إليهم من الآلاء والنعماء.

﴿وَ﴾ من كمال صبرهم وشكرهم ﴿ إِذَا غَشِيَهُم﴾ وغطّاهم ﴿مَّوْجٌ﴾ عظيمٌ واستعلى مغلقاً[1] عليهم ﴿ كَٱلظُّلَلِ﴾ المغطية إياهم من الجبال والسحب ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ﴾ الواحد الأحد الصمد، المنجي لهم عن أمثاله ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ منحصرين التوجه والانقياد إليه، بلا ميلٍ منهم إلى الأسباب والوسائل العادية، متضرعين نحوه، داعين إليه بلا رؤية الوسائل في البين على ما هو

(١) في المخطوط (ملحقاً).

فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا

مقتضى التوحيد ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ﴾ سبحانه بفضله من أهوال البحر ومضيقه وأوصلهم ﴿إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ وسعة فضائه، سالمين غانمين ﴿فَمِنْهُم﴾ حينئذٍ ﴿مُّقْتَصِدٌ﴾ أي معتدل في قصده نحو الحق، غير مائلٍ إلى طرفي الإفراط والتفريط، ومنهم مائلٌ عن الاعتدال، منحرفٌ عنه، ساعٍ إلى تحصيله ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَا يَجْحَدُ﴾ منهم وينكر ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ الدالة على وحدة ذاتنا وكمال أسمائنا وصفاتنا ﴿إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾ غدارٍ ناقضٍ للعهد الفطري والميثاق الجِبلّي ﴿كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ للآلاء والنعماء المترادفة المتوالية.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ المجبولون على الكفران والنسيان، المشغوفون عن البغي والعدوان ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ الذي أظهركم من كتم العدم، ولم تكونوا شيئاً مذكورا، واحذروا عن بطشه وانتقامه، فإن بطشَه شديدٌ، وعذابَه لعصاة عباده أليمٌ مزيدٌ ﴿وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا﴾ وأي يوم يوماً ﴿لَّا يَجْزِى﴾ أي لا يقضي ولا يسقط ولا يحمل[1] ﴿وَالِدٌ﴾ مع كمال عطفه ورأفته ﴿عَن﴾ وزر ﴿وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ بل كل نفس حينئذٍ رهينةٌ ما كسبت، ضمينةٌ ما اكتسبتْ بمقتضى ما وعد الله لها وكتب، وبالجملة ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ الذي وعده لعباده ﴿حَقٌّ﴾ لا ريب في إنجازه ولا خلف في وقوعه ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾ أيها المجبولون على الغفلة والغرور ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾

(١) في المخطوط (أي لا تقتض ولا تسقط وتحمل).

وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ ....

بتغريراتها وتلبيساتها من مالها وجاهها ولذاتها الفانية الغير القارة ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ﴾ عفوُه وغفرانُه وسعةُ رحمته وجودِه ﴿ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ أي الشيطان المبالغ في الغرور والتغريرِ بأن يجبركم على المعاصي اتكالاً على عفو الله وغفرانه.

ثم لما أتى الحرث بن عمرو رسول الله ﷺ فقال: متى تقوم الساعة وأني قد ألقيت بذراً على الأرض، فمتى تمطر السماء، وامرأتي ذات حمل حملها ذكرٌ أم أنثىٰ، وما أعمل غدا، وأين أموت ؟ فنزلت:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المستقلَ باطلاع الغيوب ﴿عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ وقت قيامها، ولم يُطلع أحداً عليها سوى أنه سبحانه أخبر بوقوعها وقيامها في جميع الكتب المنزلة من عنده على رسله ﴿وَ﴾ أيضاً هو ﴿يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ ولم يُطلع أحداً بوقت نزوله ﴿وَيَعْلَمُ﴾ أيضاً سبحانه ﴿مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ﴾ ولم يُطلع أحدا عليه ﴿وَ﴾ أيضاً ﴿مَا تَدْرِى﴾ وتَعلم ﴿نَفْسٌ﴾ من النفوس ﴿مَّاذَا تَكْسِبُ﴾ وتعمل ﴿غَدًا ۖ﴾ وإن تدبّرت وتدرّبت وبذلت جهدها وسعيها، لا تفوز إلى دراية أحوال غدها، بل هو أيضاً من جملة المغيبات التي أحاط بها علمه سبحانه بلا اطلاع أحدٍ عليها ﴿وَمَا تَدْرِى﴾ وتعلم ﴿نَفْسٌ﴾ أيضاً، وإن بالغت في السعي وبذلِ الجهد والطاقة ﴿بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ﴾ بل هو أيضاً من

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ٣٤﴾

جملة الغيوب التي استأثر الله بها، وبالجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المستقل بالألوهية والربوبية، المستجمعَ لجميع أوصاف الكمال ﴿عَلِيمٌ﴾ لا يعزب عن حيطة حضرة علمه ذرةٌ، ﴿خَبِيرٌۢ ٣٤﴾ لا يخرج عن حيطة خبرته طرفةٌ، وإن كان لا يكتنه علمه وخبرته، والله أعلم بحقائق أسمائه وصفاته ودقائق معلوماته ورقائق آثاره ومصنوعاته المترتبة عليها.

ربنا زدنا بفضلك وجودك علماً، تنجينا عن الجهل بك وبأسمائك وأوصافك، إنك على ما تشاء قدير.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المتحقق بمقام التوحيد، والمتمكنُ في مقعد الصدق، خالياً عن إمارة التخمين والتقليد: ألا تتأمل ولا تتمنى في نفسك حصول ما لا يسع في وسعك وطاقتك من الأمور التي ليست في استعدادك وقابليتك حصولها وانكشافها دونك، إذ الإنسان وإن سعى وبذل جهده في طريق العرفان بعد ما وفقه الحق وجذبه[1] نحوه، لا يبلغ إلا إلى التخلق بأخلاق الله والفناء في ذاته، منخلعاً عن لوازم ناسوته بقدر ما يتمكن له ويسع في قابليته واستعداده.

وأما الاطلاع على جميع معلوماته سبحانه والانكشاف بالمغيبات التي استأثر الله به في غيب ذاته، فأمرٌ لا يحوم حوله إدراك أحد من الأنبياء

(١) في المخطوط (وفق الحق وحذب).

والرسل، والكمَّل من أرباب الولاء والمحبة الخالصة، بل لا يتفوه به أحدٌ من خُلّص عباده أصلاً، إذ هو خارج عن استعداداتهم مطلقاً، وما المعجزات والكرامات الخارقة للعادة، الصادرةُ عن خواص عباد الله من الأنبياء والأولياء، فما صدرت أيضاً منهم هذه الأمور إلا بإطلاع الله إياهم، وتوفيقهم عليها، وهم مجبورون مضطرون في ظهورِ أمثال تلك الكرامات عنهم، مع أن بعض أرباب المحبة والولاء الوالهين بمطالعة جمال الله وجلاله، تحزنوا وتغمموا عند ظهور أمثال هذه الخوارق منهم؛ لمنافاتها بصرافة استغراقهم، كما تشاهد من بعض بدلاء الزمان ـ أدام الله بركته على معارف أهل الإيمان والعرفان ـ.

وبالجملة لا بد أن يكون الموحدُ متمسكاً بحبل الرضا والتسليم بما جرى عليه من صولجان القضاء[1] بلا تطلبٍ منه وترقب له.

جعلنا الله ممن تمكن بمقام الرضا، ورضي بجميع ما أثبت له الحق في لوح القضاء.

(١) في المخطوط (القضا).

سُورَةُ السَّجْدَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة السجدة

لا يخفى على أهل العناية الموفقين من عند الله باستكشاف ما في طي كتابه من المعارف والحقائق المتعلقة بسرائر التوحيد، والمسترشدين منه بقدر ما يسّر الله من الأخلاق الإلهية المودعة فيه: أن أمثال هذه الأسرار والرموز والإشارات المندرجة في هذا الكتاب لا يليق إلا بجناب الحكيم الوهاب، المطلع على سرائر ما ظهر وبطن من آثار الوجود غيباً وشهادة، دنياً وعقبىً، إذ لا يسع لبشرٍ أن يتفوه بهذا الحِكم والأحكام على هذا النهج والنظام الأبلغ الأكمل، وليس في طاقتهم واستعدادهم الوقوف على المغيبات التي تخصص بها سبحانه، والإحاطةُ بالأمور التي تعلقت بالنشأتين، وترتب عن المنزلتين.

ومن له أدنى دربة بأساليب الكلام، ودراية في اتساقه وانتظامه وترتيب ألفاظه وكمالاته، وتطبيق معانيه، وترصيف فحاويه ومبانيه، جزم أنه خارج عن طرق البشر، ومعلوماتهم، إذ لا مناسبة لعقولهم به.

ثم لما بلغ المرتابون في قدحه وطعنه ونسبته إلى الاختلاق والافتراء مجادلة ومراء، رد الله سبحانه عليهم على أبلغ وجه وآكده، مخاطباً لحبيبه ﷺ متيمناً باسمه الكريم:

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ ....

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ﴾ الذي أنزل على عبده الكتاب ليبين لهم طريق الصدق والصواب في سلوك سبيل التوحيد والعرفان ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾ لهم بإرسال الرسول الهادي إلى دار السلام وطريق الجنان ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ لهم يوصلهم فيها إلى لقاء الرحمن.

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ﴾ أيها الإنسان الأكمل الأعلم للوازم لوامع أنوار الوجود اللائح على صفحات وجود الأكوان بمقتضى الجود، الملاحظُ المطالعُ لها بتوفيق الله الملك الودود.

﴿ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ الجامعِ لما في الكتب السالفة،المبينِ لأحكام دين الإسلام المنزل عليك يا أكمل الرسل لتأييدك وترويج دينك ﴿ لَا رَيۡبَ فِيهِ ﴾ أنه نازل من الله الجامع لجميع الأسماء والصفات، كما أن مرتبتك جامعة لجميع مراتب أهل العلم، وأنت مبعوث إلى كافة الأمم، ولذا صار كتابك نازلاً ﴿ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ﴾ يشكّون ويترددون في نزوله من عنده سبحانه أولئك الطاعنون الضالون.

﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ ﴾ واختلقه من تلقاء نفسه ونسبه إلى الله افتراء ومراء، تغريراً وتلبيساً، لا تحزن يا أكمل الرسل عليهم، ولا تلتفت إلى قولهم هذا ﴿ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ ﴾ الثابت المحقق المثبت نزوله ﴿ مِن رَّبِّكَ ﴾ الذي رباك بأنواع الكرم، واصطفاك من بين البرايا لرسالته العامة، أنزله إليك مشتملاً على

لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ ....

الإنذارات الشديدة والتخويفات البليغة ﴿لِتُنذِرَ﴾ بوعيداته ﴿قَوْمًا﴾ انقطع عنهم آثار النبوة والرسالة لبعد العهد أو ﴿مَّآ أَتَىٰهُم﴾ بعد عيسى صلوات الله عليه وسلامه ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾ أنذرهم عن الباطل وأرشدهم إلى طريق الحق ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ بل هم على فترةٍ من الرسل فأرسلك إليهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾﴾ بهدايتك وإرشادك إلى توحيد الحق واتصافه بأوصاف الكمال.

وكيف لا يوحّدون ولا يؤمنون بتوحيده وأسمائه وصفاته

﴿ٱللَّهُ﴾ الواحد الأحد الفرد الصمد ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ وأوجد بقدرته الكاملة ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي العلويات ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ أي السفليات ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي الممتزجات ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ وساعاتٍ منبسطة في الأقطار والجهات الستّ ﴿ثُمَّ﴾ بعد ما تمّ التمهيد والبسط ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ واستولى وتمكن سبحانه ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي انبسط على عروش عموم ما ظهر وبطن من الآفاق والأنفس بالاستقلال التام والتصرف العام على صرافة وحدته الذاتية بلا شائبة شركةٍ وطرقِ كثرةٍ، لذلك ﴿مَا لَكُم﴾ أيها الأظلال المنعكسة من شمس ذاته ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ سبحانه ﴿مِن وَلِىٍّ﴾ يولي أموركم ويتصرف فيكم ﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾ ينصركم ويعاون عليكم سواه سبحانه ﴿أَ﴾ تشكون وترددون في توحيده وولايته سبحانه أيها المنهمكون في الغفلة والضلال ﴿فَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾

يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ....

وتتعظون بمواعظه وتذكيراته، مع أنه كررها مراراً، وكيف لا هو الذي

﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ أي عالم الأمر المنبئ عن الإيجاد والإظهار بإنزال الملائكة الذين هم مظاهر أوصافه وأسمائه ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي سماء الأسماء المتعالية عن الأقطار والجهات مطلقاً ﴿ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي الطبيعة القابلة لقبول آثارها، وإنما أنزلهم وأهبطهم إليها، ليعدّ حسب حكمته المظاهرَ والمصنوعاتِ لقبول فيضان سلطان توحيده ﴿ ثُمَّ﴾ بعدما تم على الوجه الأبدع والنظام الأتم الأبلغ ﴿يَعْرُجُ﴾ ويصعد ﴿ إِلَيْهِ﴾ سبحانه ما يترتب على عالم الأمر من المعارف والحقائق والأسرار الكامنة في سريان الوحدة الذاتية بعد انقراض النشأة الأولى ﴿فِي يَوْمٍ﴾ معدٍ لعروجه وصعوده ﴿ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ ﴾ أي مقدار ذلك اليوم في الطول والامتداد ﴿أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾﴾ في هذه النشأة من الأيام والأعوام.

وإنما دبر سبحانه ما دبر من المعارف والحقائق المترتبة على الإيجاد والإظهار، وقدّر للعروج والصعود ما قدر لحكمٍ ومصالحَ استأثر بها سبحانه في غيبه، ولم يطلع أحداً عليها، إذ:

﴿ ذَٰلِكَ﴾ الذات البعيد ساحة عزّ حضوره عن أن يحوم حوله إدراك أحدٍ من مظاهره ومصنوعاته ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ الذي لم يتعلق به علمُ أحدٍ سواه ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ المنعكسة منه حسب تجلياته الجمالية والجلالية ﴿ ٱلْعَزِيزُ﴾

﴿ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ﴾ ....

الغالبُ القادرُ على جميع ما دخل في حيطة حضرة علمه، بأن يتصرف فيه كيف يشاء، إرادةً واختياراً ﴿ٱلرَّحِيمُ ۝٦﴾.

﴿ٱلَّذِيٓ﴾ وسعت رحمته كلما لاحت عليه بروق تجلياته لذلك ﴿أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ﴾ أي قدّر وجوده بعدما دخل في حيطة علمه وقدرته وإرادته ﴿وَبَدَأَ﴾ من بينهم ﴿خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ أي آدمَ وقدّر وجوده أولاً ﴿مِن طِينٖ ۝٧﴾ إذ هو أصلٌ في عالَم الطبيعة، قابلٌ لفيضان آثار الفاعل المختار، مستعداً لها استعداداً أصلياً، وقابليةً ذاتيةً.

﴿ثُمَّ﴾ بعد تعلق إرادته سبحانه بإبقاء نوعه ﴿جَعَلَ نَسۡلَهُۥ﴾ أي قدّر بصنعه وجودَ ذرياته المتناسلة المتكثرة، المتخلفة منه على سبيل التعاقب والترادف ﴿مِن سُلَٰلَةٖ﴾ فضلةٍ منفصلةٍ مني كائنةٍ ﴿مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ۝٨﴾ ممتهنٍ مسترذلٍ مستقذرٍ ؛ لخروجه عن مجرى الفضلة.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما قدّر خلقه أولاً من الطين، وثانياً من الماء المهين ﴿سَوَّىٰهُ﴾ سبحانه إظهاراً لقدرته، أي قوّم وعدّل أركانه على أحسن التقويم ﴿وَ﴾ بعد تسويته وتعديله ﴿نَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ﴾ المضافة إلى ذاته، المستجمع لجميع أوصافه وأسمائه، تتميماً لرتبة خلافته ونيابته واستحقاقه لمرآتية الحق، قابليته انعكاس شؤونه وتطوراته ولياقته للتخلق بأخلاقه ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿جَعَلَ﴾ وهيّأ ﴿لَكُمُ﴾ أيها المجبولون على فطرة المعرفة

ﭐلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾..................

والتوحيد ﴿ ٱلسَّمۡعَ﴾ لتسمعوا بها آيات التوحيد، ودلائل اليقين والعرفان ﴿وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ ليشاهدوا بها آثار القدرة والإرادة الكاملة المحيطة بذرائر الأكوان ﴿ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ﴾ المودعة فيكم، لتتأملوا بها سريان الوحدة الذاتية على هياكل الأشباح الكائنة والفاسدة، وتتفكروا بها في آلاء الله ونعمائه المتوالية المتوافرة، ومع وفور تلك[1] النعم العظام والفواضل الجسام ﴿قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿٩﴾﴾ وتصرفونها إلى ما مقتضياتها التي جبلها الحق لأجلها.

﴿وَ﴾ من غاية كفرانهم بنعم الله ونهاية عمههم وسكرتهم فيه ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي أُبيّ بن خلف ومن معه من المنافقين بعدما سمعوا من البعث والحشر ويوم العرض والجزاء مستبعدين مستفهمين مكرِّرين على سبيل المبالغة في الإنكار: ﴿ أَءِذَا ضَلَلۡنَا﴾ واضمحللنا ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وصرنا من جملة الهباء المنبثة المتلاشية المتناسلة التي لا تمايز فيها أصلاً ﴿أَءِنَّا﴾ بعدما كنا كذلك أيها العقلاء المجبولون على الدراية والشعور ﴿لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ﴾ مثل ما كنا عليها قبل موتنا؟!! كلا وحاشا ما لنا عودٌ إلى الحياة الدنيا، سيما بعدما متنا وصرنا تراباً وعظاماً، وهم أيضاً ما يقتصرون من شيء بمجرد قولهم هذا، ﴿بَلۡ هُم﴾ من غلظ غشاوتهم وغطائهم ﴿ بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ﴾ الذي رباهم بأنواع النعم في النشأة الأولى، وأفاض عليهم سجال اللطف والكرم في النشأة الأخرى، وقبض ملك الموت أرواحهم بأمر الله إياه ﴿ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾﴾ منكرون جاحدون.

---

(١) في المخطوط (ذلك).

﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ۝١١ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ۝١٢﴾ ....

﴿قُلۡ﴾ لهم يا أكمل الرسل نيابة عنا بعد ما سمعت قولهم ﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾ ويستوفي أجلكم أيها المنهمكون في الغفلة والضلال ﴿مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ﴾ بإذن الله لقبض أرواحكم ﴿ثُمَّ﴾ بعدما قُبضتم في النشأة الأولى وبُعثتم من قبوركم أحياءً في النشأة الأخرى ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ۝١١﴾ للعرض والجزاء.

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾ أيها المعتبر الرائي يومئذ بعد ما بُعث الخلائق، وعرضوا على ربهم حيارى سكارى، تائهين هائمين ﴿إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ المنكرون بالبعث والنشور والعرض والجزاء وشرف اللقاء حينئذ ﴿نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ من غاية الخجالة والحياء، قائلين من نهاية اضطرارهم واضطرابهم، مناجين معه سبحانه: ﴿رَبَّنَآ﴾ يا من ربانا بأنواع الكرامة، فكفرناك وأرسلت لنا رسلاً فكذبناهم عناداً، وأنكرنا عليهم وعلى دعوتهم مكابرةً، فاليوم ﴿أَبۡصَرۡنَا﴾ ما هو الحق المطابق للواقع ﴿وَسَمِعۡنَا﴾ منك حقاً صدقَ رسلك وجميع ما جاؤوا به من عندك ﴿فَٱرۡجِعۡنَا﴾ بفضلك ولطفك إلى الدنيا مرةً بعد أخرى ﴿نَعۡمَلۡ﴾ فيها ﴿صَٰلِحًا﴾ مرضياً عندك مقبولاً على مقتضى ما أبصرتنا وأسمعتنا الآن ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ ۝١٢﴾ اليوم بجميع ما جاء به رسلك، ونطق به كتابك.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ ....

لو رأيت حالهم هذا، وسمعتَ مناجاتهم هذه حينئذ، لرأيت أمراً فظيعاً فجيعاً، ثم نودوا من وراء سرادقات العز والجلال: الآن قد مضى وقت الاختبار والابتلاء، وانقرض زمان التدارك والتلافي.

﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ وتعلق إرادتنا بهدايتكم أولاً ﴿لَآتَيْنَا﴾ في دار الابتلاء ﴿كُلَّ نَفْسٍ﴾ منكم ﴿هُدَاهَا﴾ ووفقكم عليها، كما آتينا لخُلّص عبادنا، ويسرنا لهم الهداية والرشاد ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ﴾ أي صحَّ وثبت ﴿الْقَوْلُ﴾ والحكم ﴿مِنِّي﴾ على مقتضى حكمتي ومصلحتي ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ بمقتضى عزتي وجلالي ﴿جَهَنَّمَ﴾ المعدة لأصحاب الشقاوة الأزلية ﴿مِنَ الْجِنَّةِ﴾ التي هي جنود إبليس ﴿وَالنَّاسِ﴾ الناسين مقتضى العهود الفطرية والمواثيق الجبلية بتغريرات شياطين نفوسهم الأمّارة بالسوء ﴿أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ وما يبدل القول لديّ، ولا معقب لحكمي.

﴿فَذُوقُوا﴾ أي قلنا لهم بعدما لم نستجب دعوتهم: ذوقوا اليوم أيها الضالون المسرفون ﴿بِمَا نَسِيتُمْ﴾ أي بسبب نسيانكم ﴿لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ مع أن الرسلَ بالغوا بإخباره إياكم، والكتبَ نطقت بتبيينه عليكم على أبلغ وجه وآكده، وأنتم أصررتم على الإنكار، غافلين ناسين مكابرين ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ اليوم في أنواع العذاب كما نسيتم أنتم إيانا في ما مضى

وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ....

﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ أي المخلَّد المؤبد ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ من الكفران الدائم والنسيان المستمر في النشأة الأولى ـ أعاذنا الله وعموم عباده من ذلك ـ.

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته المستمرة:

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ﴾ ويذعن ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ الدالة على توحيد ذاتنا وكمال أسمائنا وصفاتنا: الموحدون المخبتون ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا﴾ أي بالآيات تبشيراً وإنذاراً ﴿خَرُّواْ﴾ وسقطوا ﴿سُجَّدًا﴾ مستقبلين مبادرين لقبولها وامتثال ما فيها من الأوامر والنواهي، والعبر والتذكيرات الواردة في فحاويها ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿سَبَّحُواْ﴾ ونزّهوا ربهم عن ما لا يليق بجناب قدسه قائلين ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ عادّين نعمه على أنفسهم مواظبين على شكرها خاضعين خاشعين أذلاء، واضعين جباههم على تراب المذلة تواضعاً وإسقاطاً للكِبر والخيلاء المذمومَين عقلاً وشرعاً ﴿وَهُمْ﴾ حينئذ ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾ عن عبادة الله وعن الانقياد بأوامره وأحكامه الواردة في كتابه.

ومن كمال إطاعتهم وانقيادهم؛

﴿تَتَجَافَىٰ﴾ أي تتنحى وترتفع ﴿جُنُوبُهُمْ﴾ وضلوعهم ﴿عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ أي البُسُط والوسائد التي رَقدوا عليها في الليل، يعني بعُدوا عن مواضع

يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ....

رقودهم واستراحتهم في خلال الليالي ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا ﴾ من بطشه وخشيته ﴿وَطَمَعًا﴾ لمرضاته وعموم رحمته وسعة جوده ومغفرته﴿وَ﴾ هم لا يقتصرون على قيام الليل للتهجد بل ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ وسُقْنا نحوهم من الرزق الصوري والمعنوي ﴿يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ في سبيلنا على الطالبين المتوجهين إلينا، منقطعين عن لذائذ الدنيا ومزخرفاتها، سوى سدِّ جوعةٍ وسترِ عورةٍ، وهم بارتكاب هذه المتاعب والمشاق ما يريدون إلا وجه الله، وما يطلبون إلا رضاه سبحانه، مؤثِرين رضاء الله على أنفسهم، مخلصين فيه، بحيث:

﴿ فَلَا تَعْلَمُ ﴾ ولا تغيب ﴿نَفْسٌ﴾ منهم ﴿مَّآ أُخْفِيَ﴾ وأُعدَّ ﴿لَهُم﴾ من قِبل الحق ﴿مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ هي فوزهم بشرف لقائه برؤية وجهه الكريم، وإنما أعد لهم سبحانه ما أعد لهم ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ على وجه الإخلاص من إيثارهم جانب الحق على أنفسهم.

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ﴾ أي أتظنون أيها الظانون المسرفون والجاحدون المنكرون: أنّ من كان مؤمناً موقناً بوحدانية الله، متصفاً بالأعمال الصالحة المؤيدة لإيمانه، كمن كان فاسقاً خارجاً عن ربقة الإيمان والإخلاص وحدود الشرائع الواردة لحفظه ؟! كلا وحاشا ، إنهم

لَا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾

﴿لَا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾﴾ في الشرف والكمال والفوز والنوال.

بل ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بوحدانية الحق ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ المأمورة لهم على وجهها مع كونهم مخلصين فيها خاشعين خاضعين ﴿فَلَهُمْ﴾ في النشأة الأخرى بعد ما انقرضوا عن دار الدنيا ﴿جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أي المتنزهات المعدة لأهل الإيمان والقبول، تأوي إليها نفوسهم على الرغبة الكاملة والطوع التام ليكون ﴿نُزُلًۢا﴾ لهم أي، منزلاً يسكنون فيه، ويستريحون فيها ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ أي بمقابلة ما يرتكبون من حمل المتاعب والمشاق في طريق الطاعات والعبادات.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟﴾ أي تركوا الإيمان بالله وخرجوا عن مقتضى الأوامر والنواهي الموردة في كتبه وعلى ألسنة رسله ﴿فَمَأْوَىٰهُمُ﴾ أي مرجعهم ومثواهم في النشأة الأخرى ﴿ٱلنَّارُ﴾ المعدة لأهل الشقاوة الأزلية، هم فيها خالدون مخلدون مؤبدون، لا نجاة لهم أصلاً بل ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟﴾ وأملوا ﴿أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ﴾ أمهلهم الخزنة إلى أن يصلوا إلى شفيرها، ثم بعد ذلك ﴿أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ زجراً وقهراً تاماً مهانين صاغرين ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ أي الزبانية الموكلون عليهم بإلهام الله إياهم: ﴿ذُوقُوا۟﴾ أيها المنكرون المصرون ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾ حين أخبركم الرسل والكتب، وأنذروكم به.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ ....

ثم أشار سبحانه إلى رداءة فطنة أصحاب الضلال، وخبث طينتهم، فقال على سبيل المبالغة والتأكيد:

﴿وَ﴾ الله ﴿لَنُذِيقَنَّهُم﴾ ونصبّن عليهم في دار الابتلاء ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ الأنزل الأسهل من القحط والطاعون والوباء والقتل والسبي والزلزلة وأنواع المحن والبليات، التي هي أدنى وأسهل بمراحل ﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ أي عند عذاب الآخرة الذي هو في غاية الشدة ونهاية الألم والفظاعة، وإنما أخذناهم بها ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ مما هم عليه من الكفر والشقاق، ويتفطنون منها إلى كمال قدرتنا واقتدارنا على أضعافها وآلافها، ومع ذلك لم يتفطنو ولم يرجعوا عن غَيِّهم وضلالهم، بل أصروا واستكبروا عدواناً وظلماً.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ على الله وأسوأ أدباً معه سبحانه ﴿مِمَّن ذُكِّرَ﴾ وَوُعظ ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ ليهتدي بها إلى الإيمان والتوحيد، ويمتثل بمقتضاها ليتخلص عن الكفر والشرك ﴿ثُمَّ﴾ بعدما سمعها ﴿أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ فجأةً بلا تفكر وتأملٍ في معناها وأنكر على مقتضاها واستكبر على ما أنزل الله إليه، فكذَّبه ونسب إليه ما لا يليق بشأنه، وأصر على ما هو عليه عناداً ومكابرةً ﴿إِنَّا﴾ من مقام قهرنا وجلالنا ﴿مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أي قل لهم

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ....

يا أكمل الرسل نيابةً عنا بعدما بالغوا في الإنكار والإصرار: إنا منتقمون منهم على أبلغ وجهٍ وأشده من عموم المجرمين الظالمين، فكيف من هو أجرمَ وأظلمَ منهم، وأصرَّ على البغي والعناد، فننتقم عنهم، ونخلِّدهم في عذاب النار، إذ لا عذاب أسوأ منه وأشد، أعاذنا الله وجميع عباده منها.

﴿وَ﴾ لا تظنن يا أكمل الرسل أنا لم ننجز وعدنا الذي وعدنا معك في كتابك من أنا ننتقم من أهل الشرك والكفر والإصرار على أبلغ وجهٍ وآكده، بل لك أن تتيقن وتذعن إنجاز وعدنا إياك مثل ما أنجزنا مواعيدنا مع أخيك موسى الكليم، إذ ﴿لَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾ من مقام جودنا أخاك ﴿مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي التوراة مثل ما آتيناك الفرقان ووعدنا فيه معه مثل ما وعدنا معك في كتابك هذا من انتقام أهل الفساد والعناد، بل وعدنا هذا الوعد مع كل نبيٍ ورسولٍ آتيناه الكتاب والصحف ﴿فَلَا تَكُن﴾ أنت أيضاً يا أكمل الرسل ﴿فِى مِرْيَةٍ﴾ أي شكٍ وارتيابٍ ﴿مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ أي إنجاز هذا الموعود وإتيانه على الوجه الذي وعدناه في التوراة ﴿وَ﴾ كيف ترتاب في وعدنا هذا، مع أنا قد ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ أي التوراة ﴿هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾﴾ يهتدون به إلى المعالم الدينية والمعارف اليقينية والحقائق العلية والمكتشفات السَّنية.

﴿وَ﴾ كيف لا، وهم من خواص عبادنا وخُلَّصهم، إذ قد ﴿جَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً﴾ أمناء هادون مهديّون مقتدون ﴿يَهْدُونَ﴾ الناس ﴿بِأَمْرِنَا﴾ ووحينا

لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ ....

إياهم وإلهامنا إليهم إلى ديننا وتوحيدنا، وإنما أعطيناهم ما أعطيناهم من الكرامات ﴿لَمَّا صَبَرُواْۖ﴾ أي حين وطّنوا نفوسهم على تحمل ما لحقهم في إعلاء كلمة الحق، وإفشاء أعلام الدين من المتاعب والمكروهات المؤدية إلى إتلاف النفس وبذل المُهَج وأنواع المصيبات ﴿وَ﴾ هم ﴿كَانُواْ﴾ في أنفسهم ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ النازلة إياهم، الدالة على كمال قدرتنا الواردة في أي شيءٍ أردناه ﴿يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ يذعنون، لا يترددون فيها ولا يتذبذبون، وأنت يا أكمل الرسل أولى وأحقُّ منهم بإيقان آياتنا وإذعانها.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي رباك بأنواع الكرامات، وأيدك بأصناف الخوارق والمعجزات ﴿هُوَ﴾ بذاته ومقتضى حكمته المتقنة وأحكامه المبرمة ﴿يَفۡصِلُ﴾ ويقضي ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ أي بين المحقِّين والمبطلين، ويميز كلاًّ منهم عن صاحبه ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ المعدة للقطع والفصل وتنفيذ الأحكام والحكومات، فيومئذٍ يظهر لهم الحق ﴿فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾ من الأمور الدينية والمعارف اليقينية.

﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ﴾ أي أهل مكة إلى سبيل الرشاد ولم يوقظهم عن هجعة الغفلة ورقاد العناد ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا﴾ أي كثرة إهلاكنا واستئصالنا ﴿مِن قَبۡلِهِم مِّنَ﴾ أهل ﴿ٱلۡقُرُونِ﴾ الماضية الهالكة المغرورين أمثالهم بالكبر

يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍۚ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْۚ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ ....

والخيلاء بما عندهم من المال والجاه والثروة مع أن هؤلاء المعاندين ﴿يَمْشُونَ﴾ ويمرون ﴿فِي مَسَٰكِنِهِمْۚ﴾ الخربة ودورهم[1] المندرسة حين ارتحالهم نحو متاجرهم وما يعتبرون منها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي في رؤية تلك المنازل والأطلال المغمورة والبلاد المقهورة ﴿لَأٓيَٰتٍۚ﴾ دلائل واضحات، وشواهد لائحات على كمال قدرتنا واختيارنا وشدة انتقامنا وقهرنا ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾ مقتضيات الآيات، ولا يتدبرون فيها حق التدبر والتفكر، حتى يتخلصوا عن أودية الضلالات وأغوار الجهالات، ويتصفوا بأنواع الهدايات والكرامات.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ ولم يبصروا أولئك المعاندون المنكرون على كمال قدرتنا ووفور حِكمتنا واختيارنا ﴿أَنَّا﴾ من مقام جودنا ولطفنا كيف ﴿نَسُوقُ ٱلْمَآءَ﴾ بالتدابير العجيبة والحِكم البديعة من تصعيد الأبخرة والأدخنة وتراكمِ السحب منها وتقاطرِ المطر من فتوقها وخلالها ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ التي قطع نباتها من غاية يبسها وجمودها ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ﴾ أي بالماء الذي سقنا ﴿زَرْعًا﴾ أي أنواعاً من الأقوات ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ﴾ أوراقه وتِبْنِه ﴿وَأَنفُسُهُمْۚ﴾ حبوبه وثمرته ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أولئك المصرون المنكرون هذه القدرة العجيبة، فيستدلون بها على قدرتنا الكاملة، وحِكمتنا البليغة

(١) في المخطوط (ديورهم).

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

البالغة، بعد ما سمعوا منك يا أكمل الرسل أن ربك يفصل بينهم في ما كانوا فيه يختلفون.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ مستهزئين معك متهكمين: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾ والفصل الذي وعدتم به، أخبرونا وقته ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾﴾ في دعواكم، حتى نتهيأ ونتزود ونؤمن به كما آمنتم.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل في جوابهم: ﴿يَوْمَ ٱلْفَتْحِ﴾ هو يوم القيامة المعدة لتنقيد الأعمال والحساب، فيومئذٍ ﴿لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ في النشأة الأولى مدة أعمارهم ﴿إِيمَٰنُهُمْ﴾ فيها ﴿وَلَا هُمْ﴾ حينئذٍ ﴿يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ ويُمهلون حتى يتداركوا ما فوّتوا على نفوسهم طول عمرهم من الإيمان بالله، والامتثال بأوامره ونواهيه، وتصديق الرسل والكتب، وجميع معالم الدين وشعائر الإسلام، وبعد ما تمادوا في الغفلة والضلال، وبالغوا في العتو والعناد

﴿فَأَعْرِضْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿عَنْهُمْ﴾ ولا تلتفت إلى هذياناتهم واصرف عنان عزمك عن هدايتهم وإرشادهم، بعد ما تاهوا في تيه الغيّ والضلال، وأصروا عليها ﴿وَٱنتَظِرْ﴾ النصر والظفر والغلبة عليهم ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ أيضاً ليغلبوا عليك ويظفروا.

ربنا أفرغ علينا صبرا، وثبت أقدامنا، وانصرنا على القوم الكافرين.

خاتمة السورة

عليك أيها السالك القاصد سلوك سبيل التوحيد والناسك المجاهد مع أعدى عدوك الذي بين جنبيك، أعانك الله ونصرك على عدوك: أن تتصبر على متاعب العبودية ومشاق التكاليف الواقعة في إتيان المأمورات الشرعية وترك المألوفات الطبيعية، سيما في ما أُشكل أمره عليك ودفعه عندك من انقهار أمّارتك وانزجارها وانتقامك عنها، مفوضاً أمورك كلها إلى ربك، منتظراً إلى أن يغلبك الحق عليها، بعد ما وعدك به، بأن يجعل سبحانه سلطانةَ أمّارتك مأمورةً لك، مطمئنةً بحكمك، راضيةً بجميع ما جرى عليها من سلطان القضاء بلا امتناعٍ وإباءٍ.

فلك حينئذ أن تتمكن في مقام الرضا والتسليم حتى تصير مطمئنتُك فانيةً مضمحلةً متلاشيةً، بحيث لا يبقى فيها من هوية ناسوتها شيءٌ، بل فنيت هويتها في هوية الحق مطلقاً، فحينئذ فزتَ بدوامٍ أبدي، وبقاءٍ سرمدي، بلا عروض انقضاء وانصرامٍ، وبلا لحوق انتهاءٍ وانخرامٍ.

هب لنا من فضلك جذبةً تنجينا من هوية ناسوتنا، وتفنينا في هوية لاهوتك يا أرحم الراحمين.

سورة الأحزاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الأحزاب

لا يخفى على من تحقق بمقام التقوى واجتنب عن مهلكات الهوى، ورجع إلى المولى، متزهداً عن الدنيا وغرورها وأمانيها مطلقاً: أن الموحد والمتحقق بمقام التمكن والرضا لا بد أن يكون همته منحصرةً على التوجه نحو الحق، مطمئناً به، راضياً بما جرى عليه من سلطان القضاء، متوكلاً على الله في السرّاء والضرّاء، والمِنح والعطاء، والمحن والبلاء، مترصداً للوحي الإلهي، مترقباً لإلهاماته الغيبية ؛ لأن من انخلع عن خلع الناسوت مخلصاً تشرَّف بخلعة اللاهوت، إذ وقع أجره على الله ورجع أمره إليه[1]، وعاد حكمه وشأنه على ما كان عليه في بدء الأمر، فصار محفوظاً في كنف حفظه وجواره، فله أن يتخذ سبحانه وكيلاً، ويجعله حسيباً وكفيلاً، يفوض أمره كله إليه منتظراً وصيته وإلهامه.

إذ هو سبحانه بذاته عليمٌ بحاله وحاجاته، حكيمٌ في تربيته وإرشاده، وما له إلا الإطاعة والتسليم والمتابعة لما يُوحى إليه من ربه العليم الحكيم، ماحياً عن لوح قلبه الالتفات إلى غيره.

كما أمر به سبحانه لحبيبه ﷺ تربيةً وتأديباً، وليتأدب به من تابعه وتخلق به من آمن له مخلصاً، فقال منادياً إياه، متلطفاً معه، متيمناً باسمه الكريم:

(١) في المخطوط (إذا وقع أجر الله ورجع أمره إليه).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ﴾ ....

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ الذي اصطفى حبيبه ﷺ من بين البرايا بالخُلق العظيم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ عليه في النشأة الأولى بإفاضة أنواع الكمالات اللائقة له على سبيل التبجيل والتكريم ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ له في النشأة الأخرى بتمكينه في مقعد الصدق والمقام المحمود الذي هو مقام الرضا والتسليم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ المؤيدُ من عند العليم الحكيم: مقتضى نبوتك التي صرت بها خاتماً لدائرة النبوة والرسالة، متمماً لمكارم الأخلاق، مكملاً لأمر التشريع والتدوين:

التقوى والتحفظ من مقتضيات الآراء الباطلة والأهواء الفاسدة والتحصن بالله والثقة إليه وجعله وقايتك عند نزول البلاء وهجوم الأعداء ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ حق تقاته، واجتنب عما لا يرضى به ربك مطلقاً ﴿وَلَا تُطِعِ﴾ في حالٍ من الأحوال أمرَ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ﴾ الذين خاصموا معك في إسرارهم وإعلانهم، ولا تتبع أهواءهم الفاسدة وآراءهم الباطلة، وابتغ فيما آتاك[1] الله من مقتضيات استعدادك وما تفضل عليك امتناناً لك لرضاء الله والفوز بشرف لقاء الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿كَانَ عَلِيمًا﴾ في حضرة علمه الحضوري بقابليتك وبمقتضياتها ﴿حَكِيمًا ۝١﴾ في إفاضة ما يعينك وينبغي لك ويليق بشأنك.

﴿وَ﴾ بعد ما جعلتَ ربك وقاية نفسك واتخذته وكيلا لشأنك وأمرك ﴿ٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ﴾ تأييداً لك، وتدبيرا لأمورك وأحوالك، ولا

(١) في المخطوط (آتيك).

إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ ....

تلتفت إلى هذيانات من عاداك ولا تبال بمكرهم وحيلهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ﴾ الرقيب عليك وعليهم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من المخائل الفاسدة والتلبيسات الباطلة المتعلقة لمقتك وهلاكك ﴿خَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ يكفيك مؤنة شرورهم ومكرهم، ويغلبك عليهم، ويظهر دينك على الأديان كلها.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أيها المتحصن بكنف حفظه وجواره، وثِق بكرمه ولطفه ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ أي كفى بالله المراقب عليك في جميع أحوالك ﴿وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾ لك يراقبك ويحفظك من شرور مَن قصَد مقتك وهجومهم عليك ومكرهم معك، وكن في نفسك متوجهاً إلى ربك، مخلصاً فيه، مائلاً بوجه قلبك إلى قِبلة وجهه الكريم، ولا تلتفت إلى من سواه ولا تُخطر ببالك غيره، إذ لا يسع في القلب الواحد إلا همٌّ واحد، ولهذه الحكمة العلية

﴿مَّا جَعَلَ﴾ وخلق ﴿ٱللَّهُ﴾ العليم الحكيم المتقِن في أفعاله ﴿لِرَجُلٍ﴾ واحد ﴿مِّن قَلْبَيْنِ﴾ مشعرَين مدركَين ﴿فِى جَوْفِهِۦ﴾ حتى لا يتفتت ميله، ولا يتعدد قِبلة مقصده ومرماه، وإن خلق له عينَين وأذنَين ويدَين وغيرهما ﴿وَ﴾ كذا ﴿مَا جَعَلَ﴾ الله العليم الحكيم ﴿أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ﴾ وتقولون لهن: أنت عليّ كظهر أمي ﴿أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ حقيقةً ليترتب عليها أحكام الأمهات من التحريم وعدم القربان والفراش معها وغيرها ﴿وَمَا جَعَلَ﴾ أيضاً

أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ

﴿أَدْعِيَآءَكُمْ﴾ أي الأجانب الذين تدعونهم أبناءً من إفراط المحبة والمودة ﴿أَبْنَآءَكُمْۚ﴾ حقيقةً، حتى يترتب عليهم أحكام الأبناء من الميراث والمحرمية وحرمة زوجتهم وابنتهم، وغير ذلك من الأحكام ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي الأمور الثلاثة المذكورة ﴿قَوْلُكُم﴾ أي مجرد قولٍ صدر عن ألستنكم وتكلمتكم ﴿بِأَفْوَٰهِكُمْۖ﴾ لا حقيقة لها سوى الاشتهار ﴿وَٱللَّهُ﴾ المدبرُ لأموركم المصلحُ لأحوالكم ﴿يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ أي الحُكم الثابت المتحقق عنده سبحانه، المترتب عليه أحكامه إرشاداً لكم وإصلاحاً لحالكم ﴿وَ﴾ كيف لا ﴿هُوَ﴾ بمقتضى ألوهيته وربوبيته ﴿يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾ السويَّ والصراط المستقيم إلى عباده الذين انحرفوا عن سبل السلامة وطرق الاستقامة في الوقائع والأحكام.

وبعدما سمعتم حقيقة القول في أدعياكم وحقيته:

﴿ٱدْعُوهُمْ﴾ أي سموهم أدعياءكم بأسمائهم وانسبوهم حين دعائكم وندائكم إياه ﴿لِءَابَآئِهِمْ﴾ المولِّدين لهم حقيقة لا إلى الداعي إن علموا آباءهم الأصلية النسلية، ﴿هُوَ﴾ أي انتسابهم إلى أبائهم ﴿أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ وأقومُ بين المؤمنين، وأقربُ إلى الصدق، وأبعدُ عن الكذب والفرية، إذ كثيراً ما اشتَهر دعيٌّ باسم من تبناه، فأراد أن يأخذ منه الميراث، فعليكم ألا تنسبوهم إلا لآبائهم الحقيقيين[1] ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ﴾ لتنسبوهم إليهم

---

(١) في المخطوط (الحقيقية).

فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ....

﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ أي فهم إخوانكم في الدين وأولياؤكم فيه كسائر المؤمنين فخاطبوهم مثل خطاب بعضكم بعضاً، فقولوا له: يا أخي، ويا صاحبي، ووليي في الدين، وغير ذلك ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿جُنَاحٌ﴾ إثمٌ ومؤاخذة ﴿فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ أي بقولكم هذا ونسبتكم هذه، إذا صدرت عنكم هفوةً على سبيل الخطأ والنسيان سواء كان قبل ورود النهي أو بعده، ﴿وَلَٰكِن﴾ تؤاخذون في ﴿مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ وصدرت عنكم هذا قصداً إذ قصدُكم به يؤدي إلى الافتراء وتضييع حقوق المؤمنين ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ في حق من أخطأ ونسي، ثم ذكر فتاب ﴿رَّحِيمًا ﴿٥﴾﴾ عليه يقبل توبته ويغفر زلته.

ثم أشار سبحانه إلى تأديب كلٍ من الأمم مع نبيه المؤيَّد من عنده سبحانه بأنواع التأييدات والمعجزات الخارقة للعادات، المبعوث إليهم لإرشادهم وتكميلهم، وأَمرهم بحسن الأدب معهم والمحافظة على خدمتهم وحرمتهم.

وكيفا لا يحسنون الأدب مع الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم، إذ كلُّ نبيٍ بالنسبة إلى أمته كالأب المشفق العطوف معهم، بل هو خير آبائهم، يرشدهم إلى ما هو أصلحُ لهم في دينهم الذي هو حياتهم الحقيقية، فلهم أن يكونوا معه في مقام التذلل والانكسار التام والانخفاض المفرط بأضعاف

ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْۗ ....

ما وجب عليهم من حقوق الوالد النسبي، إذ آثار تربية الأنبياء مؤبدةٌ مخلدةٌ، وآثار تربية هؤلاء الآباء متناهيةٌ منقطعةٌ، وإن ترتب على تأديبهم وانخفاضهم معه من المثوبة الأخروية، فإنما هي راجعة إلى تربية نبيهم.

ولا شك أن نبينا ﷺ أفضل الأنبياء وأكملهم في التربية والإرشاد، فيكون أبوّته أيضاً أكملُ، وإشفاقُه ومرحمته لأمته التي هي أفضل الأمم أتمُّ وأوفر، لذلك قال سبحانه:

﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ أي هذا النبيُ المؤيدُ المبعوثُ إلى كافة الأمم، المتممُ لمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، المكملُ لمعالم الدين ومراسم المعرفة واليقين ﴿أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وأحقُّ لهم أن يرجِّحوا جانبه على نفوسهم، ويختاروا غبطته ﴿مِنْ أَنفُسِهِمْۖ﴾ إذ نسبة تربيته إلى أجسادهم، كنسبة تربية الأب المشفق المحافظ ابنه عن جميع مالا يعنيه، المراقب له في جميع أحواله؛ ليوصله إلى الحياة الأبدية والبقاء الأزلية السرمدية. ونسبة تربية نفوسهم المدبرة لأبدانهم.

وإن كانت هي أيضاً بتوفيق الله وإقداره، إنما هي مقصورة إلى حفظ أجسامهم ؛ لئلا تنهدم وتنخرم، ولا تزول عنها الحياة المستعارة. وشتان ما بين النسبتين ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْۗ﴾ أي وبعدما ثبت أن تربيته ﷺ شاملةٌ وأبوتُه كاملةٌ، صارت أزواجه اللاتي في حجوره ﷺ وحضانتِه أمهاتِ المؤمنين في الدين. وحرمتُهن أعظم وأولى من حرمة أمهاتهم النسبية، إذ هن أتباعٌ له ﷺ

وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم ....

وأهل بيته فيسري الأدب معه إليهن.

وهن أيضاً في أنفسهن من الكاملات اللائقة لأنواع الحرمات والكرامات، ومن جملتها لياقتهن بشرف صحبة النبي ﷺ.

فعليكم أيها المؤمنون ألا تنكحوا أزواجه أبداً إذ هنّ أمهاتكم ﴿وَ﴾ بعدما سمعتم أيها السامعون المؤمنون أن النبي خير آبائكم في الدين، وأزواجه فُضليات أمهاتكم أيضاً فيه، وسائر المؤمنات والمؤمنين إخوانكم وأخواتكم في الدين، لا تظنوا أن حكم أبوته ﷺوأمومتهن رضي الله عنهن، وإخوّة المؤمنين تسري في أحكام الميراث والعصوبة أيضاً، بل ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾ والأقارب المنتمين إليكم بالقرابة النَّسبية على تفاوت طبقاتهم، ذكوراً كانوا أو إناثاً ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ﴾ وأحقُّ شرعاً ﴿بِبَعْضٍ﴾ أي بأخذ الميراث من بعضٍ، يعنى هم أصحاب الفروض والعصبات يأخذون متروكات المتوفى عنهم، ويحرزونها لقرابتهم النسبية على مقتضى سهامهم المقدرة ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ المنزَّلِ عليكم، الموافق لما في حضرة علمه ولوح قضائه من النبي وأزواجه.

وأجانبٌ ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ وإن كانوا إخواناً في الدين لا يأخذون من أموالهم شيئاً بلا قرابةٍ نَسبيةٍ ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ﴾ أي المؤمنون منكم وتخرجون من أموالهم على الوجه المشروع المستحسن ﴿إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم﴾

مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ﴿٦﴾ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ ....

في الدين مع كونهم أجانب لكم ﴿مَّعۡرُوفٗاۚ﴾ أي وصيةً مشروعةً مستحسنةً عقلاً وشرعاً، غير مؤدية إلى إحراز التركة وتحريم الورثة، وهي التي لا تكون أزيدَ من ثلث المال ﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي إخراج الوصية على الوجه المعروف ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ الذي يُتلى عليكم وفي ما قبله، من الكتب المتلوّة على الأمم الماضين ﴿مَسۡطُورٗا ﴿٦﴾﴾ مثبتاً، فللموصي له أن يأخذها على مقتضى ما ثبت في حكم الله وكتابه.

﴿وَ﴾ كيف لم يحسنوا الأدب أولئك المؤمنون الماضون مع أنبيائهم، وهؤلاء معك، مع أنا ما بعثنا الأنبياء والرسل إلا لإرشاد المؤمنين وهدايتهم إلى توحيدنا وإيصالهم إلى زُلال تفريدنا، وعلى ذلك أخذنا العهود والمواثيق المؤكدة من الأنبياء تأكيداً وإلزاماً، اذكر يا أكمل الرسل لمن تبعك من المؤمنين ليحافظوا على ما أُمروا ﴿إِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ﴾ عموم ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ المبعوثين إلى الأمم الماضين ﴿مِيثَٰقَهُمۡ﴾ أي عهودهم الوثيقة المؤكدة ﴿وَ﴾ خصوصاً ﴿مِنكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿وَمِن نُّوحٖ﴾ النجيِّ ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ﴾ الخليلِ ﴿وَمُوسَىٰ﴾ الكليم ﴿وَعِيسَى﴾ الصفيِّ الخالص عن كدر الناسوت من قبل الأب ؛ لأنه ﴿ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ﴾لم يمسها ذكرٌ من بني نوعها، بل إنما ولدتْه بلا أبٍ إرهاصاً لها، ومعجزةً لابنها.

﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ۝٧ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾

خص هؤلاء سبحانه بالذكر اهتماماً بشأنهم صلوات الله عليهم ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم﴾ كرره تأكيدا ومبالغةً، أي كل واحد منهم، وممن لم نذكر أساميهم من ذوي العزائم الخالصة ﴿مِّيثَاقًا غَلِيظًا ۝٧﴾ أي عهداً وثيقاً مؤكداً على أن لا تتهاونوا ولا تتكاسلوا في إرشاد العباد وإبعادهم عن الجور والفساد وإيصالهم إلى ما أعددنا لهم من المراتب العلية والدرجات السنية.

وأنزلنا عليهم الكتب والصحف المشتملة على الأوامر والأحكام المقربة لتوحيدنا والعبر والنواهي المبعدة عن الكفر والضلال، وأمرناهم أيضاً بتبيين الأوامر والنواهي إلى أممهم وتنبيهها عليهم؛ ليتفطنوا على فطرتهم التي جُبلوا عليها في عالم الغيب، وليتميز عندهم الحق الحقيق بالاتباع من الباطل الزاهق الزائل.

كل ذلك ﴿لِّيَسْـَٔلَ﴾ سبحانه في النشأة الأخرى عن أنبيائه ورسله صلوات الله عليهم عن أحوال العباد ﴿ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ الممتثلين بأوامر الله المجتنبين عن نواهيه ﴿عَن صِدْقِهِمْ﴾ وإخلاصهم في أعمالهم ونياتهم فيها وأحوالهم ومواجيدهم واعتقاداتهم وتلقيهم لقبول الحق والمحافظة عليه؛ ليشهد الأنبياء لهم، فيفوزا إلى ما أُعدَّ لهم من المراتب والمقامات وأنواع السعادات والكرامات، مع أن علمه سبحانه بحالهم يغني عن شهادتهم، ليسأل أيضاً سبحانه عن عناد العباد، المصرين على الجور والفساد، المجترئين على الله بالخروج عن حدوده وعن مقتضيات أحكامه ؛ ليَشهدوا صلوات الله عليهم، فيساقوا صاغرين مهانين إلى ما أعد الله لهم من الدركات الهوية الجهنمية ﴿وَ﴾ اعلموا أن الله سبحانه ﴿أَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ الجاحدين لأوامر الله ونواهيه

عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ

المنزلة في كتبه على رسله ﴿عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾ لا عذاب أشد إيلاماً منه.

ثم نادى سبحانه المؤمنين الموحدين المواظبين على الطاعات بارتكاب الأوامر واجتناب المنهيات، كي يصلوا إلى ما أَعد لهم ربهم من المثوبات والمكرمات فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ مقتضى إيمانكم تعداد نعم الله عليكم وإحصاء فواضله المتوالية المتتالية المتسقة ﴿ ٱذْكُرُوا۟ ﴾ في عموم أوقاتكم وأحوالكم ﴿ نِعْمَةَ ٱللَّهِ ﴾ الفائضة ﴿عَلَيْكُمْ﴾ على تعاقب الأزمان وتلاحق الآناء والأحيان سيما نعمة إنجائكم من أعدائكم ونصركم عليهم، مع كونكم آيسين منه، اذكروا يا أهل يثرب ﴿ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ ﴾ متعددةٌ وأحزابٌ متعاقبةٌ متلاصقةٌ قاصدين لمقتكم واستئصالكم، وهم قريش وغطفان ويهود بني قريظة وبني النضير، وكانوا زهاء اثني عشر ألفاً، وأنتم قليلون، فحفرتم الخندق على المدينة، ثم خرجتم تجاه الأعداء ثلاثة آلافٍ، والخندق بينكم وبينهم، فقعدتم متقابلين، ومضى عليها قريب شهرٍ[1] لا حرب[2] بينكم إلا بالترامي[3] بالنبل والحجارة، فاضطررتم واضطربتم، فأوجستم في نفوسكم خيفةً وصرتم متذبذبين متزلزلين لا إلى القرار ولا إلى الفرار.

وبعدما أبصرناكم كذلك، فاجأنا بإرسال الريح والملائكة إمداداً لكم

(١) في المخطوط (سهرب).

(٢) في المخطوط (حراب).

(٣) في المخطوط (بالتراخي).

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ....

وتأييداً ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ أي الصبا، فهبت عليهم إلى حيث تقلع أوتادهم، وتُسقط الخيام عليهم، وتطفئ نيرانهم، وتكفي قدورهم، وتجيل خيولهم، وكانت في ليلة شاتية باردة في غاية البرودة ﴿وَ﴾ أرسلنا عليهم أيضاً ﴿جُنُوداً﴾ من الملائكة ظهرت جوانب معسكرهم بحيث ﴿لَّمْ تَرَوْهَا ۚ﴾ في تلك الليلة المظلمة، بل لم تروها جنوداً مثلها أصلاً، فقال حينئذ صناديدهم وكبراؤهم: النجاء النجاء، فإن محمداً قد بدأ بالسحر، فانهزموا من غير قتالٍ، فنجوتم سالمين، عنايةً من الله وإنجازاً لوعده، ومعجزةً لرسوله ﷺ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ المطلع لأحوال عباده ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من حفر الخندق والتزلزل والتذبذب والرعب الخفي وبما يعملون من التحزب والتوافق على استئصالكم ﴿بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾ رائياً عليماً منكم أمارات التذبذب والتزلزل، وكيف لا يتزلزلون.

﴿ إِذْ جَآءُوكُم ﴾ وهم غطفان ﴿ مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ أي من أعلى الوادي من قِبل المشرق ﴿وَ﴾جاءوكم قريش ﴿مِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ أي من أسفل الوادي من قِبل المغرب، وأحصرتم حينئذ، إذ ليس معكم ما يقابل أحد الجانبين، فكيف بكليهما ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ حينئذٍ منكم، ومالت عن مستوى نظرها، وتقلقلت حيرةً وشخوصاً ﴿وَ﴾ اضطربتم في تلك الحالة إلى حيث ﴿بَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ من غاية الرعب ؛ لأن رئتكم قد انتفخت من

وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ ....

الرعب المفرط، فارتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة، وهي منتهى الحلقوم الذي هو مدخل الطعام والشراب ﴿وَ﴾حينئذٍ ﴿تَظُنُّونَ﴾ أيها الظانون المرعوبون ﴿بِٱللَّهِ﴾ الذي وعدكم الغلبة على الأعداء، وإظهار دينكم وإعلاءه على الأديان كلها ﴿ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾﴾ أي أنواعاً من الظنون، بعضها صالحٌ وبعضها فاسدٌ، على تفاوت طبقاتكم في الإخلاص وعدمه، فمنكم من يظن أن الله منجز وعده الذي وعده لرسوله من إعلاء دينه ونصره على الأعداء، إذ لا خلف لوعده سبحانه، ومنكم من يتردد ويتحير بين الأمرين إلى حيث لا يرجح أحدهما، لذلك يخاف من ضعف الثقة بالله، وعدم رسوخه في الإيمان، وبالجملة.

﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وجُربوا واختُبروا كي يتميز المخلص منهم من المنافق، والثابتُ الراسخ من المتردد المتزلزل ﴿وَ﴾ لذلك ﴿زُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ من شدة الفزع والهول المفرط، إلى حيث كاد أن يخرج أرواحهم من أجسادهم.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ حينئذ ﴿وَ﴾ المؤمنون ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بقي ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ من أمارات الشقاق، ولم يصْفوا بعدُ لحداثة عهدهم حتى يتمكنوا على الوفاق ويتمرنوا بالاتفاق ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ من الظفر على الأعداء وانتشار هذا الدين في الأقطار والأنحاء

إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ....

﴿إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ قولاً باطلاً وزوراً زاهقاً زائلاً، وبالغوا في ذلك، حيث قال متعب بن قشير[1]: يعدنا محمد بفتح فارس والروم، وأحدنا لا يقدر أن يتبرز للقتال مع هؤلاء الفِرق، فظهر أن وعده ما هو إلا غرورٌ باطلٌ.

﴿وَ﴾اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿إِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ أي من منافقي المدينة والذين في قلوبهم مرضٌ وضعفُ اعتقادٍ ويقينٍ من المؤمنين: ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ أي أصحاب المدينة ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ أي لا يحسن إقامتكم الآن ومقاومتكم في مقابلة هذه الأحزاب، إذ هم ذوو عَددٍ وعُددٍ كثيرةٍ، وأنتم شرذمةٌ قليلون بالنسبة إليهم ﴿فَٱرْجِعُوا۟﴾ عن دين محمد، وتشتتوا عن حوله، حتى تَسلموا من يد الأعادي ﴿وَ﴾ بعد سمعوا قول أولئك المنافقين آمرين بالرجوع والارتداد، صاروا مترددين متزلزلين في دينهم حتى ﴿يَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ﴾ معتذرين معللين للرجوع والذب عن حول النبي: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ غير حصينةٍ خاليةٌ عن المحافظ، فأْذن لنا حتى نرجع إلى بيوتنا ونستحفظها ﴿وَ﴾ الحال أن بيوتهم ﴿مَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾ بل هي حصينةٌ محفوظةٌ، لا خلل فيها، بل ﴿إِن يُرِيدُونَ﴾ أي ما يريدون ويقصدون من هذا القول ﴿إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ عن الزحف، وإعراضاً عن الدين.

---

(١) في المخطوط (قشي).

وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ

﴿وَ﴾ من كمال ضعفهم في الدين وعدم تثبتهم ورسوخهم في الاعتقاد واليقين ﴿لَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ وحُصّنت جميع جوانبها، بحيث لا يمكن الظفر عليها إلا لهؤلاء الأحزاب ولا لغيرهم من عساكر الأعداء، ﴿ثُمَّ﴾ بعدما تحصنت عليهم بيوتهم كذلك صاروا آمنين من ظفر العدو مطلقاً ﴿سُئِلُوا الْفِتْنَةَ﴾ أي الارتداد عن الإيمان والإسلام والنصر على المؤمنين ﴿لَآتَوْهَا﴾ وأعطوها البتة هؤلاء الجهلة الضعفة المتمائلين إلى الكفر ومؤاخاة الكفرة عن صميم فؤادهم، ولجاؤوا بالردة عن الدين والقتال مع المسلمين على الفور ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا﴾ وتوقفوا ﴿بِهَا﴾ أي بإعطاء الفتنة والردة، بعدما سئلوا عنها ﴿إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾ أي آناً واحداً إلا زماناً مقدارَ ما يفهمون سؤال السائل واقتراحه.

﴿وَ﴾ كيف لا يعطونها وهم ﴿لَقَدْ كَانُوا﴾ أي بنو حارثة وبنو سلمة ﴿عَاهَدُوا اللَّهَ﴾ أي عهدوا العهد الوثيق مع الله ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي قبل حفر الخندق، وذلك في يوم أحد، حين أرادوا أن يُفشلوا عن رسول الله ﷺ أو تخلفوا عنه يوم بدر، فلما رأوا ما أعطى الأُحديون والبدريون من الكرامة العظيمة آجلاً وعاجلاً، قالوا معاهدين: لئن أشهدنا الله قتالاً فلنقاتلنّ وحلفوا ﴿لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ﴾ أصلاً، فالآن قد تذبذبوا وتضعضعوا[1]، وكادوا أن يولُّوا ﴿وَ﴾ لم يعلموا أنه ﴿كَانَ عَهْدُ اللَّهِ﴾ الذي عاهدوا معه سبحانه من

(١) في المخطوط (تضعضوا).

مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ ....

قبل ﴿مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾﴾ عنه وعن نقضه ووفائه، وهم مجزيون بمقتضى ما ظهر منهم من النقض والوفاء.

﴿قُل﴾ لهم يا أكمل الرسل بعد ما تحقق عندك قصد فرارهم وذبهم عنك ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ﴾ أبداً بل ﴿إِن فَرَرْتُم﴾ من ضعف يقينكم ووهن اعتقادكم ﴿مِّنَ ٱلْمَوْتِ﴾ حتف الأنف كما يفر الناس من الطاعون والوباء والزلزلة وغير ذلك ﴿أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ في يوم الوغاء ﴿وَإِذًا﴾ أي بعد ما تفرون حينئذٍ ﴿لَّا تُمَتَّعُونَ﴾ تمتيعاً كثيراً مؤبداً، بل ما تمتعون ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾ في زمان قليلٍ، إذ لكلٍ منكم أجلٌ، ولكل أجلٍ قضاءٌ وانقضاءٌ، ولا دوام إلا لمن هو متعال عن الأجل والقضاء والإنقضاء، منزهٌ عن الابتداء والانتهاء، وعن الإعادة والإبداء، مقدسٌ عن تعديد الأزمنة وتحديد الأمكنة مطلقاً.

وإن جادلوا معك يا أكمل الرسل وعاندوا بالفرار[1] والتحصن نُنْجِي من العدو وإهلاكه بحيث لا تبقى لهم يدٌ علينا.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل على سبيل التبكيت والإلزام: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم﴾ ويحفظكم ويحرزكم ﴿مِّنَ﴾ قهر ﴿ٱللَّهِ﴾ وعذابه ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا﴾ أي إصابةَ بلاءٍ وشدةٍ ومحنةٍ ﴿أَوْ﴾ من ذا الذي يمنع عنكم لطفه سبحانه إن ﴿أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ عطفاً ومحبةً ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿لَا يَجِدُونَ﴾

(١) في المخطوط (وبانا بالفرار).

لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ ....

أولئك المتذبذبون المتضعضعون ﴿لَهُم﴾ أي لأنفسهم ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ المراقب عليهم في جميع أحوالهم ﴿وَلِيًّا﴾ يولي أمور تحصنهم وتحفظهم ﴿وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ ينصرهم على أعدائهم، وبالجملة جميع أعمال العباد وأفعالهم مفوضةٌ إلى الله أولاً، وبالذات مقهورةٌ تحت قدرته الكاملة، فلهم أن يفوضوها إليه ؛ ليسلموا من غوائل العناد والإصرار.

وإن اعتذروا بك وتبرؤوا عما كانوا وصاروا عليه، قل لهم:

﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿ ٱلْمُعَوِّقِينَ﴾ المثبطين ﴿ مِنكُمْ﴾ عن رسول الله ﷺ، المتخلفين عنه في الحروب والمعارك، وهم المنافقون ﴿وَ﴾ يعلم أيضاً ﴿الْقَآئِلِينَ﴾ منكم أيها المنافقون من أهل المدينة ﴿ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ ممن في قلوبهم مرض من المؤمنين: ﴿ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ أي قرّبوا أنفسكم نحونا ؛ لتنجو عن المخاوف والمهالك ﴿وَ﴾ بعدما سمعوا منكم إخوانكم قولكم هذا ﴿ لَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ﴾ أي الحراب والقتال ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾ أي إتياناً قليلاً، بل يثبطون ويسرفون ويعتذرون بالأعذار الكاذبة.

وبعدما أتوا ما أتوا إلا ﴿ أَشِحَّةً﴾ أي بخلاء ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون المخلصون لما معكم من المعاونة والنفقة في سبيل الله، أو خوف الظفر وفوت الغنيمة، أو من خوف العاقبة، وإنما فعلوا ذلك قبل القتال ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ﴾ وظهرت أمارات القتال والحراب ﴿رَأَيْتَهُمْ﴾ أيها الرائي حين

﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾ ....

﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ من شدة خوفهم وخشيتهم ﴿تَدُورُ﴾ أي تتحرك وتضطرب ﴿أَعْيُنُهُمْ﴾ أي آماقهم في أحداقهم ﴿كَالَّذِى يُغْشَىٰ﴾ أي يحل ويدور ﴿عَلَيْهِ مِنَ﴾ أمارات ﴿الْمَوْتِ﴾ ولاح عليه علامات السكرات ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ﴾ وزال الرعب والخشية، وانهزم العدو، واجتمعت الغنائم ﴿سَلَقُوكُم﴾ أي جاؤوكم متسلقين متسلطين عليكم ﴿ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ ذربةٍ قاطعة، باسطين أيديهم إلى الغنائم وقت قسمتكم، صائحين عليكم: لستم أولى منا وأحق بهذه الغنائم ؛ لأنا شهدنا القتال معكم، بل نحن لا نقصر وأنتم قاصرون، فبم ترجحون أنتم علينا، وإنما سلقوكم بها حال كونهم ﴿أَشِحَّةً﴾ بخلاء ﴿عَلَى الْخَيْرِ﴾ الذي وصل إليكم من الغنائم العظام، وبالجملة ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ البعداء الهالكون في تيه النفاق والشقاق ﴿لَمْ يُؤْمِنُوا ﴾ بتوحيد الله، ولم يخلصوا الإيمان به وبرسوله وكتابه، بل إنما آمنوا واعترفوا باللسان لحقن الدماء والأموال، خداعاً ومكراً، ولذلك مكرَ الله المطلعُ على نياتهم بهم ﴿فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾ الصالحة وأبطلها عليهم بلا ترتيب الجزاء والمثوبات، كما لأعمال المخلصين من المؤمنين ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ الإحباط والإبطال ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ القادر لجميع ما ثبت في لوح قضائه ﴿يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾ سهلاً غير عسيرٍ عنده.

يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ ....

وان استعسرتم أيها المحجوبون بالحجب الظلمانية الكثيفة، ومن كمال غيِّهم وضلالهم، ونهاية جبنهم ورعبهم من الأحزاب.

﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ﴾ ولم ينهزموا مع أنهم ذهبوا منهزمين إلى حيث لم يبق منهم أحد ﴿وَ﴾ هم من كمال محبتهم ومودتهم مع الأحزاب ﴿ إِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ ﴾ ويكروا بعد الفرار ﴿يَوَدُّوا۟ ﴾ هؤلاء المنافقون إتيانهم إلى حيث تمنوا ﴿لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ﴾ ظاهرون ﴿فِى ﴾ البدو ﴿ ٱلْأَعْرَابِ ﴾ أي في ما بينهم خارجون عن أظهر المسلمين لاحقون بالكفرة، معدودون من عدادهم حتى ﴿يَسْـَٔلُونَ ﴾ كلَّ قادم من قبلكم ﴿عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾ وأخباركم، وما جرى عليكم أيها المؤمنون من الوقائع الهائلة والمصيبات المهولة ﴿ وَ﴾ من كمال ودادتهم مع الكفرة ﴿لَوْ ﴾ فُرض أنهم ﴿كَانُوا۟ فِيكُم﴾ وقت كر الكفرة عليكم ﴿مَّا قَٰتَلُوٓا۟ ﴾ من المنافقين من قِبلكم مع أعدائكم ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾ منهم، وهو أيضاً على سبيل الرياء والسمعة، ومقتضى ما زعموا من جلب النفع، أو دفع الضر، لا لرضاء الله وأعلاء دينه ونصرة نبيه.

ثم قال سبحانه تحريكا لحمية المؤمنين:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ ﴾ أيها المؤمنون المخلصون الطالبون التخلق بأخلاق الله الهاربون عن أخلاق أعدائه ﴿فِى رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ المبعوث لإرشادكم وإهدائكم

أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ....

﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي خصلة حميدة بديعة يجب التأسي والاتصاف بها ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ﴾ أي لقاءه ومطالعة وجهه الكريم ﴿وَ﴾ يرجو أيضاً ﴿ٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ الموعود فيه هذه الكرامة العظيمة، وبواسطة هذا الرجاء وغلبة هذه الأمنية العظيمة في خاطره ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ في عموم الأعيان والأحياز؛ لتلذذه بذكره سبحانه، حتى ينال ما وعد من الفوز بشرف اللقاء.

ومن كان كذلك، وهمّه ذلك، فهو مؤتس بالرسول صلى الله تعالى عليه وسلم في تلك الخصلة المحمودة والديدنة المسعودة المقبولة عند الله التي هي الرضا بجميع ما جرى عليه من القضاء.

ومن علاماتها الثبات على العزيمة وتحمل الشدائد ومقاساة الأحزان وارتكاب المتاعب والمشاق في إعلاء دين الله وكلمة توحيده والتوكل نحوه في الضراء والسراء، وكظم الغيظ عند هجوم الغضب والعفو عند القدرة، وغير ذلك من الخصائل الحميدة والأخلاق الجميلة المرضية.

﴿وَ﴾ من شدة تأثير هذه الخصائل الجميلة في قلوب المؤمنين ﴿لَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ المخلصون ﴿ٱلْأَحْزَابَ﴾ حواليهم ﴿قَالُواْ﴾ متذكرين لوعد الله، متثبتين على دينه، متشمرين لإعلاء كلمة توحيده: ﴿هَٰذَا﴾ الوقت وقت إنجاز ﴿مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ من النصر والغلبة على الأعداء، والفوز بأنواع الغنائم

وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ..........

والعطاء عاجلاً وآجلاً بقوله سبحانه: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُم ...﴾ [٢- البقرة: ٢١٤] الآية؛ وقوله عليه السلام: «سيَشْتَدُّ الأَمْرُ باجْتِمَاعِ الأَحْزَابِ عَلَيْكُم وَالعَاقِبَةُ لَكُمْ عَلَيْهِم»(١) وقوله ﷺ: «إِنَّهُمْ سَائِرُوْنَ إِلَيْكُمْ بَعْدَ تِسْعٍ أَوْ عَشْرٍ»(٢) ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ﴾ في جميع ما جاءنا من قبل الله ورسوله من الوعد والوعيد، وأنواع النعم والعطاء، والمحن والبلاء ﴿وَ﴾من كمال تثبتهم وتفويضهم على الله وتوكلهم نحوه ﴿مَا زَادَهُمۡ﴾ إلمام الخطوب وحدوث الوقائع ونزول المحن والبليات ﴿إِلَّآ إِيمَٰنٗا﴾ بالله وكمال قدرته وعلمه وإرادته وسائر صفات الذاتية والفعلية ﴿وَتَسۡلِيمٗا ﴿٢٢﴾﴾ لعموم ما جرى عليهم من صولجان قضائه، بلا تلعثمٍ وتذبذبٍ في إيمانهم واعتقادهم.

ومن غاية خلوصهم في إيمانهم وتسليمهم

﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ المشمرِّين لإعلاء دين الله ونصرة رسوله على العزيمة الكاملة الصادقة ﴿رِجَالٞ﴾ أبطالٌ كاملون في الإخلاص والشجاعة والوفاء ﴿صَدَقُواْ﴾ في جميع ﴿مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ﴾ أي نجزوا مواثيقهم ووفوا عموم عهودهم التي عهدوا مع الله ورسوله من الثبات على العزيمة، والتصبر في المعركة، وعدم التزلزل من المحل الذي عين لهم الرسول ﷺ في صف القتال، ولم يَجْبنوا ولم يضعفوا أصلاً، ﴿فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ﴾ ووفى نذره

(١) ذكره البيضاوي في تفسيره ولم أجده عند غيره [٤/ ٣٧٠سورة الأحزاب آية / ٢٣/].

(٢)ذكره المناوي في الفتح السماوي [٣/ ٩٢٨ رقم / ٨٠٩/ سورة الأحزاب].

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ ....

بأن قاتل مع أعداء الله على مقتضى ما عاهد ونذر حتى استشهد ووصل إلى مرامه ومبتغاه كحمزة ومصعب بن عمير وأنس بن النضر رضوان الله عليهم أجمعين ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ الشهادة كعثمان وطلحة فقاتلوا مع الأعداء وقتلوهم ونجوا منهم سالمين منتظرين إلى قتالٍ آخر ليستشهدوا فيه ﴿وَ﴾ من كمال تثبتهم وتمكنهم في تعيينهم وإخلاصهم في إيمانهم ﴿مَا بَدَّلُوا﴾ من النذور والعهود التي أتوا بها عازمين عليها جازمين، ولا أضمروا في أنفسهم كالمنافقين ﴿تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ شيئاً حقيراً من التبديل والنقص، فكيف بالعظيم الكثير، بل زادوها وأكدوها، كل ذلك،

﴿لِّيَجْزِيَ اللَّهُ﴾ المجازي لأعمال عباده ﴿الصَّادِقِينَ﴾ المخلصين منهم ﴿بِصِدْقِهِمْ﴾ أي جزاءً حسناً يناسب صدقهم وإخلاصهم، أو بواسطة صدقهم وإخلاصهم ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ﴾ منهم، وليجازيهم بمقتضى كفرهم ونفاقهم تعذيباً مخلداً مؤبداً ﴿إِن شَاءَ﴾ وتعلق إرادته ومشيئته بتخليدهم في العذاب ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ ويوفقهم على الإيمان والإخلاص أن تعلق إرادته بإيمانهم وإنقاذهم من العذاب الأبدي ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ القادر المقتدر على جميع ما أحاط تحت قدرته ﴿كَانَ غَفُورًا﴾ ساتراً لذنوب من وفقهم على التوبة من عُصاة عباده ﴿رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ يقبل توبتهم ويرحم عليهم، بعدما أخلصوا فيها.

وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ

﴿وَ﴾من كمال لطف الله على المؤمنين ووفور رحمته وإحسانه عليهم ﴿رَدَّ ٱللَّهُ﴾ عنهم كيد أعدائهم ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني الأحزاب المزدحمين حواليهم، المتفقين على مقتهم ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ أي مع كمال غيظهم في مقت المؤمنين ووفور تهورهم وجرأتهم عليك، لذلك طردهم سبحانه خائبين خاسرين بحيث ﴿لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا﴾ مما أملوا في نفوسهم من الظفر على المؤمنين واستئصالهم ﴿وَ﴾من كمال رأفته سبحانه على المؤمنين ﴿كَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ أي مؤنة قتال الأحزاب بريح الصبا وجنود الملائكة بحيث لم يقدم أحد من المؤمنين لقتالهم، فانهزموا إلى حيث لم يلتفت أحدٌ منهم خلفه، ولم يعاون أخاه ﴿وَ﴾ ليس ببدع من الله أمثال هذه الكرامات لأنبيائه وأوليائه، إذ ﴿كَانَ ٱللَّهُ﴾ المراقب لأحوال عباده ﴿قَوِيًّا﴾ قديراً في نفسه يقوّي أولياءه ﴿عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ غالباً ينصرهم ويغلبهم على أعدائهم، فضلاً لهم وكرامةً عليهم.

﴿وَ﴾بعد ما كفى الله المؤمنين مؤنة الأحزاب، أراد أن يكفيهم مؤنة معاونيهم لذلك ﴿أَنزَلَ﴾ سبحانه ﴿ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم﴾ وعاونوهم أي الأحزاب ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني يهود قريظة والنضير ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ أي حصونهم وقلاعهم جمع صيصية، وهي ما يتحصن به من الجبل وغيره.

وذلك أنه بعد ما انهزم الأحزاب ورجعوا خائبين خاسرين إلى بلادهم، ورجع ﷺ إلى المدينة مع أصحابه، وشرع يغسل رأسه والأصحاب قد انتزعوا عن أسلحتهم.

وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ....

فجاءه جبريل معتجراً بعمامة من استبرق والنقع على ثناياه وعلى فرسه الذي اسمه حيزوم، وقال: وضعتم السلاح إن الملائكة لم تضع أسلحتها منذ أربعين ليلة، إن الله يأمرك بالمسير إلى قريظة، وإني مزلزلٌ حصونها.

وكان ﷺ قد غسل نصف رأسه، فعصبه وأذن بالرحيل فقال: «مَنْ كَانَ سَامِعاً وَمُطِيْعاً، فَلَا يُصَلِّيَنَ العَصْرَ إِلَّا فِي بَنْي قُرَيْظَةَ»[1].

وأعطى رايته علياً كرم الله وجهه فسار بالناس حتى دنا من الحصن، فحاصرهم عليه السلام إحدى وعشرين أو خمسا وعشرين ليلة، وأجهدهم الحصار وضعفوا ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ أي الخوف مع كونهم متحصنين، فأرسل عليه السلام فقال لهم: أتنزلون بحكمي فأبوا، فقال: على حكم سعد بن معاذ، فرضوا بحكمه، فنزلوا، فحكم بقتل مقاتليهم وسبي ذراريهم ونسائهم، فكبّر النبي ﷺ فقال: «لَقَد حَكَمْتَ بِحُكْمِ اللهِ يَا سَعْدُ مِنْ فَوْقِ سَبْعَةِ أَرْقِعَةٍ»[2] فقتل منهم ستمائة وأكثر، وأسر منهم سبعمائة، كما

(١) رواه البغوي بهذا اللفظ في تفسيره [٣/ ٥٢١ سورة الأحزاب]، والطبري في تفسيره أيضاً [٢١/ ١٥١ سورة الأحزاب] ورواية البخاري بلفظ: (عن بن عُمَرَ قال: قال النبي ﷺ لنا لَمَّا رَجَعَ من الْأَحْزَابِ: «لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إلا في بَنِي قُرَيْظَةَ» فَأَدْرَكَ بَعْضَهُمْ الْعَصْرُ في الطَّرِيقِ فقال بَعْضُهُمْ لَا نُصَلِّي حتى نَأْتِيَهَا وقال بَعْضُهُمْ: بَلْ نُصَلِّي لم يُرَدْ مِنَّا ذلك فَذُكِرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فلم يُعَنِّفْ وَاحِدًا منهم صحيح البخاري [١/ ٣٢١ رقم/ ٩٠٤/ باب: صلاة الطالب والمطلوب راكبا وإيماء] وغيره.

(٢) متفق عليه وللفظ للبخاري (عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ أُنَاسًا نَزَلُوا على حُكْمِ سَعْدِ بن مُعَاذٍ فَأَرْسَلَ إليه فَجَاءَ على حِمَارٍ فلما بَلَغَ قَرِيبًا من الْمَسْجِدِ قال النبي ﷺ: «قُومُوا إلى خَيْرِكُمْ أو سَيِّدِكُمْ» فقال «يا سَعْدُ إِنَّ هَؤُلَاءِ نَزَلُوا على حُكْمِكَ» قال: فَإِنِّي أَحْكُمُ فِيهِمْ أَنْ تُقْتَلَ مُقَاتِلَتُهُمْ وَتُسْبَى ذَرَارِيُّهُمْ. قال: «حَكَمْتَ بِحُكْمِ اللهِ أو بِحُكْمِ الْمَلِكِ») صحيح البخاري [٣/ ١٣٨٤ رقم/ ٣٥٩٣/ باب: مناقب سعد بن معاذ]وصحيح مسلم [٣/ ١٣٨٨رقم/ ١٧٦٨/ باب:إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب].

فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ

قال سبحانه: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾﴾

﴿وَ﴾ بعد ما استأصلوا بالأسر والقتل ﴿أَوْرَثَكُمْ﴾ الله سبحانه إليكم أيها المؤمنون ﴿أَرْضَهُمْ﴾ أي مزارعهم ﴿وَدِيَـٰرَهُمْ﴾ التي تسكنون فيها مع ما فيها من الأمتعة والرخوة ﴿وَأَمْوَٰلَهُمْ﴾ أي مواشيهم ونقودهم وتجارتهم تفضلاً عليكم وامتناناً ﴿وَ﴾ كذا تفضل سبحانه عليكم وأورثكم ﴿أَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ﴾ أي لم تتحركوا عليها، بل لم تبصروها ولم تسيروا إليها أصلاً، وهي خيبر أو مكة أو فارس أو الروم أو كل أرضٍ يفتح الله إلى يوم القيامة ﴿وَ﴾ لا تتعجبوا من كمال فضل الله وسعة جوده أمثال هذه الكرامات، إذ ﴿كَانَ ٱللَّهُ﴾ المتفرد بالقدرة الكاملة والقوة التامة الشاملة ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من مقدوراته ومراداته ﴿قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ لا يعسر عنده مقدورٌ دون مقدور، بل الكل في جنب قدرته على السواء، فارجع البصر هل ترى من فطور في مقدور حكيم قدير، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير.

ثم لما اشتكت أزواج النبي ﷺ من العسرة في المأكل والمشرب والملبس، وسألن منه ثياب الزينة والزيادة في النفقة والسعة في المعيشة، وليس معه ﷺ من حطام الدنيا ما يكفي مؤنتهن على هذا الوجه، اغتم رسول الله ﷺ، وتحزّن حزناً شديداً، فقال تعالى منادياً له:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ المباهي بالفقر والعسرة ﴿قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ حين يسألن عنك

إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ....

أسباب التنعم والترفه وسعة العيش على سبيل التخيير: ﴿إِن كُنتُنَّ﴾ أيتها الحرائر العفائف ﴿تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ يعني مطاعمها الشهية وملابسها البهية ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾ وتراضين ﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾ أي أعطيكن المتعة حسب ما ترضين ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾ أي أطلّقكن بعد إعطائها ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ طلاقاً بيناً لا بدعياً بلا ضررٍ ولا إضرارٍ.

﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي رضاء الله ورضاء رسوله ﴿وَ﴾ تطلبن ﴿ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢٩﴾﴾ أي المثوبات المعدة فيها والجنان الموعودة عليها، فعليكن أن تصبرن على ملاذ الدنيا ومشتهياتها وسعة مطعوماتها ولين ملبوساتها حتى تكنّ من زمرة المحسنات اللاتي تحسنّ في توجههن نحو الحق واللذة الأخروية مائلات من أمتعة الدنيا ولذاتها وشهواتها منصرفات عنها وعن أمتعتها وألبستها، سوى سد جوعة وستر عورة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ﴾ المرجحات جانب الله وجانب رسوله على مقتضى نفوسهن واللذات الأخروية على الدنيا وما فيها ﴿مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ يُستحقر دونها الدنيا وما فيها من اللذات الفانية والشهوات الغير باقية.

ثم لما نبه سبحانه عليهن طريق الإحسان وعلمهن سبيل الفوز إلى درجات الجنان، أراد أن يجنبهن ويبعدهن عن دركات النيران، فقال منادياً

يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا ....

عليهن ليقبلن إلى قبول ما يبتلى عليهن:

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ ـ أضافهن سبحانه إياه ﷺ للتعظيم والتوقير ـ من شأنكن التحصن والتحفظ عن الفحشاء، والتحرز عن المكروهات مطلقاً ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ﴾ وفعلةٍ قبيحةٍ وخصلةٍ ذميمة عقلاً وشرعاً ﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾ أي بينةٍ ظاهرةٍ فحشها بنفسها، أو ظاهرة واضحة قبحها شرعاً وعرفاً على كلتا القراءتين[1] ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ يعني عذابكن ضعف عذاب سائر الحرائر لا أزيد منها حتى لا يؤدي إلى الظلم المنافي للعدالة الإلهية، كما يضاعف عذاب سائر الحرائر بالنسبة إلى الإماء ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ التضعيف ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ يعذبكن أن تأتي إحداكن بها.

﴿۞ وَمَن يَقْنُتْ﴾ ويطع على سبيل الخضوع ﴿مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ ويداوم على إطاعتهما وانقيادهما بإتيان الواجبات وترك المحظورات والمكروهات ﴿وَتَعْمَلْ[2] صَٰلِحًا﴾ من النوافل والمندوبات ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا﴾ أي جزاء أعمالها وطاعاتها في يوم الجزاء ﴿مَرَّتَيْنِ﴾ مرةً على مقابلة الأعمال المأتية ومقتضى الطاعات المرضية، ومرة على ترجيحها رضى الله ورضى رسوله على مشتهيات نفسها ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ تفضلاً ﴿لَهَا﴾ وامتناناً عليها وراء

---

(١) في المخطوط (كلا القراءاتين).

(٢) في المخطوط قراءة: (يعمل).

رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ ....

ما استحقت بالأعمال والطاعات ﴿رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ صورياً في الجنة مما تشتهي نفسها وتلذ عينها، ومعنوياً من الحالات الطارئة عليها عند استغراقها بمطالعة جمال الله وجلاله.

ثم ناداهن سبحانه تعظيماً لهن وتنبيهاً عليهن فقال:

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ ﴾ الأفضل الأكمل من بين الأنبياء والرسل، كما أنّ ﷺ ليس في الكرامة والنجابة كآحاد الناس، بل ليس كآحاد الأنبياء والرسل، كذلك ﴿ لَسْتُنَّ ﴾ أيضاً لنسبتكن إليه ﷺ ﴿كَأَحَدٍ﴾ أي كواحدة ﴿مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ﴾ لأن فضيلته ﷺ تسري إليكن، فعليكن ألا تغفلن عنها ولا تذهلن عن مقتضاها ورعاية حقوقها، بل من شأنكن التحصن والتقوي والتحرز عن ملهيات الهوى مطلقاً، فَلَكُنَّ ﴿ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ ﴾ يعني إن أردتن أن تتصفن بالتقوى عن محارم الله ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ﴾ أي لا تُلِنَّ وتُلطفنَ ﴿ بِٱلْقَوْلِ﴾ وقت احتياجكن إلى التكلم مع آحاد الرجال من الأجانب، ولا تجبن عن سؤالهم هيّنات ليّنات مريبات مثل تكلم النساء المريدات لأنواع الفسادات مع المفسدين من الرجال ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ وميلٌ إلى الفجور إليكن، بعد ما سمع منكن تليينكن في قولكن ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿قُلْنَ﴾ بعد ما تحتجن إلى التكلم معهم ضرورة ﴿قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾ مستحسناً عقلاً وشرعاً بعيداً عن الريبة المثيرة للطمع، خالياً عن وصمة الملاينة المحرِّكة للشهوات.

وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ....

﴿وَقَرْنَ﴾ أي اسكنّ ﴿فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ يعني يا نساء النبي من شأنكن التقرر والتخلي في البيوت بلا تبرزٍ إلى الملإ بلا ضرورةٍ، رعايةً لمرتبتكن التي هي أعلى مرتبة عموم النساء ﴿وَ﴾ إن احتجتن إلى التبرز والخروج أحياناً ﴿لَا تَبَرَّجْنَ﴾ ولا تبخترن في مشيتكن مظهراتٍ زينكتن، مهيجاتٍ لشهوات الناظرين ﴿تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي كتبختر النساء المثيرات لشهوات الرجال في الجاهلية القديمة التي هي جاهلية الكفر، والجاهلية الأخرى جاهلية الفسوق في الإسلام.

خص سبحانه الأولى بالذكر، وإن كانت كلتاهما مذمومتان محظورتان شرعاً ؛ لأنها أفحش وأقبح وأظهر فساداً ؛ لأن النساء فيها يتزيّن بأنواع الزينة، ويظهرن على الرجال بلا تسترٍ واستحياءٍ، بل بملاينةٍ تامةٍ وملاطفةٍ كاملةٍ على سبيل الغنج والدلال وأنواع الحركات المطمعة للرجال ﴿وَ﴾ من حقكن يا نساء النبي الاجتناب عن مطلق المنكرات والاشتغال بالطاعات والأعمال الصالحات، سيما المواظبة على الصلوات النوافل والمفروضات ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المقربةَ لكُنَّ إلى الله على الوجه الذي علمتن من النبي ﷺ ﴿وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المطهرة لنفوسكن عن الشح وأنواع المرض المتولدة من حب الدنيا وأمانيها، إن بلغ أموالكن النصاب المقدر في الشرع ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ إطاعة مقارنة بكمال الخشوع والخضوع

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ٣٣ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ﴾ ....

والتذلل التام بالعزيمة الصحيحة الخالصة الخالية عن شوب الرياء والرعونات مطلقاً في جميع ما أُمرتن بها ونهيتن[١] عنها ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ المصلح لأحوال عباده الخُلّص بإتيان هذه المواعيظ والتذكيرات البليغة والتنبيهات العجيبة البديعة ﴿لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ﴾ أي يزيل القذر المستقبح المستهجن عقلاً وشرعاً بالمرة يا ﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ المجبولين على الكرامة والنجابة ﴿وَيُطَهِّرَكُمۡ﴾ عن أدناس الطبيعة وأكدار الهيولى المانعة عن الصفاء الجِبلّي الذاتي ﴿تَطۡهِيرٗا ٣٣﴾ بليغاً، بحيث لا تبقى فيكم شائبة شينٍ ووصمة عيب أصلاً، ذكر الضمير لأن النبي وعلياً وابنيه ﷺ فيهم، فغلب هؤلاء الذكور له على فاطمة وأزواج النبي رضوان الله عليهم.

﴿وَ﴾ بعد ما سمعتن يا نساء النبي ما يليق وينبغي بشأنكن ﴿ٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ﴾ لإصلاح أحوالكن وتكميلكن في الدين ﴿فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ غير مخرجات لطلبه إذ بيوتكن[٢] مهبط الوحي الإلهي ومحل نزول الآيات المنزلة، فلكن أن تلازمن خدمة النبي ﷺ، وتشاهدن عليه من برحاء الوحي الموجب لقوة الإيمان وكمال اليقين والعرفان، فليس لكن أن تخرجن من بيوتكن، وتتعبن أنفسكن في طلب ما يُتلى ﴿مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالة على توحيد ذاته وكمال أسمائه وصفاته ﴿وَٱلۡحِكۡمَةِۚ﴾ المتقنة الدالة على متانة فعله ووثاقة تدبيره

(١) في المخطوط (ما أمرن ونهين).

(٢) في المخطوط (أي بيوتكن).

إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلع للسرائر والخفايا ﴿كَانَ لَطِيفًا﴾ يعلم دقائقَ ما في ضمائر عباده ورقائقه ﴿خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ ذو خبرة كاملة على سوانح صدورهم وخواطر قلوبهم، فعليهم أن يخلصوا الله في جميع ما أتوا به واجتنبوا من الأوامر والنواهي، وانقادوا له ويسلموا إليه مفوضين أمورهم كلها.

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ المسلّمين المخلصين المفوضِين أمورهم كلها إليه سبحانه ﴿وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ المفوضات المخلصات ﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الموقنين الموحدين ﴿وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ الموقنات الموحدات ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ﴾ الخاضعين المتذللين مع الله في جميع الطاعات والعبادات، بل في جميع الحالات ﴿وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾ الخاضعات الخاشعات ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في جميع الأقوال، المخلصين في جميع الأحوال والأعمال ﴿وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ أيضاً كذلك ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ في البأساء والضراء لجميع ما جرى عليهم من القضاء ﴿وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ أيضاً كذلك ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ﴾ المتواضعين المتضرعين نحو الحق بجوانحهم وجوارحهم ﴿وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾ أيضاً كذلك ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ بما عندهم من فواضل الصدقات طلباً لمرضات الله وهرباً من سخطه ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ أيضاً كذلك ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ﴾ الممسكين نفوسهم مطلقاً عما لا يرضى عنه سبحانه ﴿وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ الممسكات أنفسهن كذلك

وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ....

﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ﴾ عن أمارات الزنا ومقدمات السفاح مطلقاً ﴿وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ أيضاً ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ﴾ المشتغلين بذكر الله باللسان والجنان والأركان ﴿ٱللَّهَ﴾ باسمه الجامع الشامل لجميع الأسماء والصفات لا على سبيل التعديد والإحصاء ولا في حينٍ دون حينٍ بل ﴿كَثِيرًا﴾ مستوعباً لجميع الأعيان والأزمان والأوقات والحالات ﴿وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ أيضاً كذلك ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ﴾ المصلح لأحوالهم، المطلع لما جرى في ظهورهم وبواطنهم من الإخلاص على وجه التذلل والانكسار ﴿لَهُم﴾ أي لهؤلاء المتصفين بالصفات المرضية والأخلاق المحمودة المقبولة عند الله ﴿مَّغْفِرَةً﴾ ستراً وعفواً لما صدر عنهم من الصغائر هفوة ومن الكبائر أيضاً بعدما تابوا عنها وأخلصوا في التوبة والإنابة على وجه الندامة ﴿وَأَجْرًا﴾ جزيلاً جميلاً لصالحات[1] أعمالهم ﴿عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ بأضعاف ما استحقوا بحسناتهم، تفضلاً عليهم وامتناناً.

ثم لما أراد رسول الله ﷺ أن يزوج بنت عمته التي هي أميمة بنت عبد المطلب المسماة زينب بنت جحش لزيد بن الحارثة الذي هو مولى رسول الله ﷺ وعتيقه، فأبت هي وأمها أميمة وأخوها عبد الله بن جحش، فأعرضوا

(١) في المخطوط (صالحات).

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ....

عن تزويجها إليه، ولم يختاروا ؛ لئلا يلحق العار عليهم من تزويج الشريفة بالمولى، فنزلت:

﴿وَمَا كَانَ﴾ يعني ما صح وجاز ﴿ لِمُؤْمِنٍ﴾ أي لواحدٍ من المؤمنين ﴿ وَلَا مُؤْمِنَةٍ ﴾ واحدةٍ من المؤمنات بعدما أخلصوا الإيمان بالله ورسوله أن يتخلفوا عن حكمهما أصلاً سيما ﴿ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ ﴾ الحكيم المتقن في أفعاله ﴿وَ﴾ نفذ ﴿رَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾ من الأمور المقضية وحكماً من الأحكام المبرمة ﴿ أَن يَكُونَ﴾ ويبقى ﴿لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ﴾ أي الاختيار والترجيح بأن يختاروا ﴿ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ المحكوم به والمقضي عليه شيئاً يخالف الحكم الواقع منهما أو يوافقه، بل لهم أي يطيعوا وينقادوا لحكم رسول الله ﷺ الذي هو حكم الله حقيقة ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بتغيير ما حكم به رسول الله ﷺ وادعاء الاختيار في المأمور به ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ عن طريق الهداية ﴿ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ وانحرف عن منهج الصواب والرشاد انحرافاً عظيماً.

وبعدما نزلت الأية رضيت زينب وأمها وأخوها، فخطبها رسول الله ﷺ وأنكحها على زيدٍ .

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾

﴿وَ﴾ بعد ما سمعت يا أكمل الرسل من زيدٍ ما سمعت اذكر ﴿إِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بأن يوفقه للإيمان وقبول الإسلام وشرّفه بشرف خدمتك وصحبتك ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بأن أعتقتَه ودعوتَه ابناً ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ بعد ما لم يريك منها شيئاً ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ المنتقم الغيور، واحذر عن بطشه بطلاق العفيفة والمفارقة منها بلا وصمة عيبٍ ظهرت عنها وسمة[1] نقصٍ لاحت منها ﴿وَ﴾ أنت يا أكمل الرسل حينئذٍ ﴿تُخْفِي فِي نَفْسِكَ﴾ حين قولك لزيد هذا ﴿مَا ٱللَّهُ﴾ المظهر لما في الصدور ﴿مُبْدِيهِ﴾ مظهره ومعلنه من ميلك إلى زينب ونكاحها وإرادتك لطلاق زيدٍ وافتراقه عنها ﴿وَ﴾ سبب إخفائك هذا وإظهارك ضد مطلوبك أنك ﴿تَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ من أن يعيروك بمناكحة زوجة عتيقك ودعيّك، ويرموك بما لا يليق بشأنك مع أنك بريءٌ عنه ﴿وَٱللَّهُ﴾ المطلع على جميع ما ظهر وبطن ﴿أَحَقُّ﴾ وأولى من ﴿أَن تَخْشَىٰهُ﴾ وتستحي منه، إذ هو سبحانه غيور ينتقم عن من يشاء، ويأخذه على من يشاء.

وهذا عتابٌ شديدٌ وتأديبٌ بليغٌ، قالت عائشة رضي الله عنها: لو كتم النبي شيئاً مما أنزل إليه، لكتم هذه الآية، فطلقها زيدٌ، ومضى عليها العدة، قال ﷺ: اذهب فاذكرها عليّ، فذهب، فقال: يا زينب إن نبي الله أرسلني إليك بذكرك، فقالت: ما أنا بصانعةٍ شيئاً حتى أؤمر من ربي، وقامت إلى

---

(١) في المخطوط (وسمت) خطأ.

فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ....

الصلوة، فنزلت: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا﴾ أي من زينب ﴿وَطَرًا﴾ أي حاجةً، وطلقها، ومضت عدتها ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ يعني زوجناك يا أكمل الرسل زينب بلا نصبِ ولي من الجانبين على الرسم المعهود في الشرع، بل أبحنا لك الدخول عليها بلا عقدٍ، وجعلناها زوجتك بلا مهر ؛ لذلك كانت تباهي على سائر نسائه ﷺ قائلةً: إن الله تولى نكاحي، وأنتن زوجكن أولياؤكن، فدخل ﷺ عليها بلا إذن ولا عقد نكاح ولا صداق ولا شهود، وأطعم الناس خبزاً ولحماً، ثم قال سبحانه: ﴿لِكَىْ لَا﴾ يعني فعلنا ذلك لكيلا ﴿يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾ ضيقٌ وإثمٌ ﴿فِىٓ﴾ تزوج ﴿أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾ الذين تبنوهم ﴿إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ﴾ يعني بعدما طلقوهن وسرحوهن سراحاً جميلاً ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ وحكمه[1] المبرم المثبت في لوح قضائه ﴿مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾ مقضياً نافذاً كائناً على تعاقب الأحيان والأزمان.

ثم قال سبحانه تسليةً لنبيه وحطاً عنه العار في أمثال هذه الأفعال الكائنة في قضاء الله، المقضية في حضرة علمه:

﴿مَّا كَانَ﴾ أي ما لحق وعرض ﴿عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾ المؤيد من عند الله بأنواع التأييدات المنتظرة على الوحي والإلهام في جميع أفعاله وأعماله ﴿مِنْ حَرَجٍ﴾ ضيق وإثم سآمة ووخامة عاقبة ﴿فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ ﷺ أي في

---

(١) في المخطوط (وحكمة).

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾

جميع ما قدر الله له وكتب لأجله في لوح قضائه من الحوادث الكائنة الجارية عليه ﷺ على تعاقب الأزمان والأوقات، ومن جملتها هذا النكاح، وليس أمثال هذا ببدع منا مخصوص بهذا النبي ﷺ بل ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ الحكيم العليم المتقن في أفعاله، المستمرة القديمة التي سنها سبحانه ﴿فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟﴾ ومضوا ﴿مِن قَبْلُ﴾ من الأنبياء والرسل ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ المثبت في لوح قضائه وحكمه المبرم في حضرة علمه ﴿قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ حتماً مقضياً مبرماً محكوماً به البتة.

وكيف لا يقضي ولا يحكم بالسنن المقدرة للأنبياء والرسل وهم ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ المحمولة عليهم إلى من أُرسلوا إليهم من الأمم بلا تبديل ولا تغيير ﴿وَيَخْشَوْنَهُۥ﴾ ويخافون عنه سبحانه في جميع أحواله ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ﴾ يعني من ديدنة الأنبياء والرسل وخصلتهم الحميدة ألا يخافوا من الناس ولا يستحيوا[1] منهم، لا من لوم لائم، ولا من تعييره وتهديده بالقتل والضرب وغير ذلك، بل ما يخافون إلا الله الغيور المنتقم المقتدر على أنواع العذاب والعقاب ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾ ظهيراً ومعيناً يكفي مؤنة أعدائهم ويدفع عنهم شرورهم وجميعَ ما قصدوا عليهم من المقت والمكر وأنواع الأذى والضرر.

ثم لما عير الناس رسول الله ﷺ بأنه تزوج زوجة ابنه ودَعيِّه وهو زيد، رد

(١) في المخطوط (تخافوا من الناس ولا تستحيوا).

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ ....

الله عليهم تعييرهم هذا وتشنيعهم فقال:

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ أيها الأجانب من المؤمنين على الحقيقة سواء كان زيداً أو غيره، حتى تسري حكم الحرمة في تزويج زوجته بعد ما قضى الوطر عنها ﴿وَلَٰكِن﴾ كان ﷺ ﴿رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ الهادي لعباده أرسله إليكم ؛ ليهديكم إلى طريق الرشاد على مقتضى سنته المستمرة في الأمم السابقة ﴿وَ﴾ لكن من شأنه أنه صار ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ﴾ وختم المرسلين إذ ببعثته ﷺ كملت دائرة النبوة وتمت جريدة الرسالة، كما قال: «بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ»[1]، وقال تعالى:﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [٥-المائدة:٣] أي ببعثته ﷺ.

والسر فيه والله أعلم أنه ﷺ بُعث على التوحيد الذاتي وسائر الأنبياء إنما بعثوا على التوحيد الوصفي والفعلي، وبعد ما بُعث ﷺ على توحيد الذات، خُتم به أمر البعثة والرسالة، وكمُل أمر الدين، إذ ليس وراء الذات مرمى ومنتهى ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ المطلع على جميع ما ظهر وبطن ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ جرى أو يجري في ملكه ﴿عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ يعلم بعلمه الحضوري جميع ما لمع عليه

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى [١٠/ ١٩١باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها]، ومالك في الموطأ [٢/ ٩٠٤ رقم /١٦٠٩/ باب: ما جاء في حسن الخلق]، وقال: (حسن الأخلاق) بدل (مكارم الخلاق) وأحمد في المسند [٢/ ٣٨١ رقم / ٨٩٣٩/] وقال: (صالح الأخلاق) بدل (مكارم الأخلاق)، ورواه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول [٤/ ٨٥] وقال: (محاسن الأخلاق) بدل (مكارم الأخلاق) وغيرهم بألفاظ مختلفة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ﴾ ....

نور وجوده، حكيماً في بعثة الرسل في تنبيه من وفّقه وجبله في سابق قضائه على فطرة التوحيد والإيمان مختاراً في ختم البعثة وتكميل الدين، بعد ما وصل غاية كماله وظهوره.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله وعرفوه حق معرفته وتوحيده وكمال أسمائه وصفاته: مقتضى إيمانكم وعرفانكم المداومة على ذكره ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ الواحد الأحد الفرد الصمد المتصف بجميع أوصاف الكمال، المستجمع لجميع الأسماء الحسنى التي لا تعد ولا تحصى[1] ﴿ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾ مستوعباً لجميع أوقاتكم وحالاتكم، وبالغوا في ذكره كي تصلوا من اليقين العلمي إلى العيني.

﴿وَسَبِّحُوهُ﴾ أي نزهوه عن جميع ما لا يليق بشأنه من لوازم الحدوث وأوصاف الإمكان ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ أي في جميع آناء أيامكم ولياليكم، طالبين الترقي من اليقين العيني إلى اليقين الحقي.

وكيف لا تذكرون الله ولا تسبحون[2] له أيها المؤمنون، مع أن شكر المنعم المفضل واجبٌ عقلاً وشرعاً.

﴿هُوَ ٱلَّذِى﴾ سبحانه ﴿يُصَلِّى﴾ ويرحم ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون بذاته وبمقتضيات أسمائه وصفاته ﴿وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ يستغفرون لكم بإذنه، وإنما يفعل بكم سبحانه هذه الكرامة العظيمة ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ ظلمة العدم الأصلي وظلمة الطبيعة والهيولي وظلمة الحجبة التعينية ﴿إِلَى ٱلنُّورِ ۚ﴾

(١) في المخطوط (لا يعدوا ولا يحصوا).

(٢) في المخطوط (لا يذكرون الله ولا يسبحون).

وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ ....

أي نور الوجود البحت الخالص عن ظلمات التعينات والكثرات مطلقاً ﴿وَكَانَ﴾ سبحانه ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الموفقين على التوحيد الذاتي ﴿رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ يوفقهم إلى الإيمان بمقتضى رحمته الواسعة، ثم يوصلهم إلى مرتبة التوحيد والعرفان، مترقياً من مضيق الإمكان إلى سعة فضاء الوجوب، عنايةً لهم وتفضلاً عليهم، ثم يشرفهم بشرف لقائه بلا كيفٍ ولا أينٍ بعدما انخلعوا عن جلباب الناسوت، وتشرفوا بخلعة اللاهوت، لذلك.

﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ وترحيبهم من قبل الحق ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ سبحانه ﴿سَلَٰمٌ﴾ أي تسليمٌ وتطهيرٌ عن رذائل التعينات ونقائص الأنانيات والهويات المستتبعة لأنواع الضلالات والجهالات ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ سبحانه نُزلاً عليهم ﴿أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾ وجزاءً عظيماً، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ثم قال سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ المؤيد المخصوص بأنواع الفضائل والكرامات ﴿إِنَّآ﴾ من مقام عظيم جودنا ولطفنا ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾ إلى كافة البرايا وعامة العباد ﴿شَٰهِدًا﴾ تشهد لهم الحقائق وتحضرهم المعارف، وتوصلهم بالتنبيهات الواضحة إلى مرتبة الكشف والشهود ؛ لكون أصل فطرتهم وجبلّتهم مجبولة عليها ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ تبشرهم بالتوحيد المسقط للإضافات المستتبعة لأنواع الكثرات المشوشة لنفوسهم ﴿وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ تنذرهم عن مقتضيات

﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ ....

القوى البهيمية من الشهوية والغضبية، الجالبة لأنواع الخذلان والحرمان.

﴿وَدَاعِيًا﴾ تدعوهم ﴿إِلَى﴾ توحيد ﴿ٱللَّهِ﴾ المنزه عن التعديد والتجديد دعوة مسبوقة ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ سبحانه أي بوحيه وإلهامه ﴿وَ﴾ بالجملة أرسلناك إلى عموم العباد ﴿سِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ تضيء لهم، ويستضيؤون منك في ظلمات الضلالات والجهالات المتراكمة من الحجب الظلمانية والكثافات الهيولانية المتولدة من الكدورات الطبيعية الباقية من ظلمة العدم.

﴿وَ﴾ بعد ما سمعت يا أكمل الرسل سبب بعثتك وسره ﴿بَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الموقنين بتوحيد الله، المترقين من اليقين العلمي إلى العيني، الطالبين الوصول إلى اليقين الحقي ﴿بِأَنَّ لَهُم﴾ أي حقّ وثبت لهم عنده سبحانه ﴿مِّنَ﴾ عناية ﴿ٱللَّهِ﴾ معهم ﴿فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾ لا فضل أكبر منه، وهو الرضا والفوز بشرف اللقاء.

﴿وَ﴾ بعد ما سمعت وظيفتك يا أكمل الرسل مع المؤمنين المسترشدين منك، الطالبين هدايتك وشرف صحبتك ﴿لَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ المصرين على الكفر والعناد المجاهرين به ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ الذين يخفون كفرهم وضلالهم عنك لمصلحة دنياوية، ويظهرون عندك خلاف ما في نفوسهم، ولا تجلس معهم ولا تصاحبهم أصلاً ﴿وَ﴾ إن آذوك في مرورك عنهم وملاقاتك معهم بغتة ﴿دَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ أي اتركهم وأذاهم ولا تلتفت إلى الانتقام عنهم، واصبر على

وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ ....

مضضهم، فإن صبرك يقتلهم عن الغيظ، ويطفئ لهب غضبهم ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ في دفع شرورهم، وثِق إليه ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ حسيباً كافياً يكفي عنك مؤنة أعدائك، ويكفي عنك أذاهم عنايةً لك واهتماماً بشأنك.

ثم لما أشار سبحانه إلى ما أباح على نبيه ﷺ بلا حرجٍ أراد أن يشير[1] إلى ما أباح أيضاً على عموم المؤمنين بلا حرج لهم فيه وضيق، وقال سبحانه منادياً لهم على وجه العموم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بالله وصدقوا بجميع أوامره ونواهيه المنزلة من عنده مقتضى إيمانكم ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ﴾ وعقدتم ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ اللاتي هن أحقاء بنكاحكم من المسلمات والكتابيات ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ أي تطؤوهن وتجامعوهن ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ أي ما لزم ووجب لكم في ما يتلى عليكم ﴿عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَاۖ﴾ وتحصونها كما للمدخولات بهن والمتوفات عنهن من المدة المقدرة في الشرع، وبعدما لم تلزم عليكم العدة أيها المطلقون ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أي أعطوهن المتعة المستحسنة عقلاً وشرعاً، إن لم يكن صدقاتهن مقدرة، وإن كانت مقدرة فأعطونهن نصف ما قدر من المهر بلا تنقيص ومماطلة ﴿وَ﴾ بعد أن أعطيتموهن المتعة أو النصف من المهر المقدر ﴿سَرِّحُوهُنَّ﴾ وأخرجوهن من منازلكم ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾

(١) في المخطوط (بشر).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ ....﴾

إخراجاً هيناً ليناً، بلا ضررٍ وإضرارٍ، وتنقيصٍ مما استحققن عليه.

ثم أشار سبحانه إلى تعداد ما أحل لحبيبه ﷺ من الأزواج، فقال منادياً له تبجيلاً وتعظيماً:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ المفضل المكرم من لدنا على سائر الأنبياء والرسل بالعنايات العليّة والكرامات السَّنية ﴿إِنَّآ﴾ من مقام عظيم جودنا ﴿أَحۡلَلۡنَا﴾ وأبحنا ﴿لَكَ﴾ في شرعك ودينك ﴿أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ﴾ وأعطيتَ ﴿أُجُورَهُنَّ﴾ أي مهورهن معجلاً ﴿وَ﴾ أبحنا لك أيضاً ﴿مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ﴾ من الإماء المردودة إليك ﴿مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ﴾ المنعم المفضل ﴿عَلَيۡكَ﴾ ورده سبحانه من خيار المسبيات وصفيات المغنم إليك، وصفية رضي الله عنها منهن ﴿وَ﴾ أحللنا لك أيضاً في دينك ﴿بَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ﴾ من مكة حباً لك وطلباً لمرضاة ربك، وما أبحنا لك ممن لم تهاجر معك ﴿وَ﴾ أبحنا لك أيضاً خاصة ﴿ٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً﴾ قيّد بها؛ لأن الكافرة لا تليق بفراشه ﷺ ﴿إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ تبرعاً بلا جعلٍ ومهرٍ، فعليه الخيار ﴿إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾ أي يطلب أن يدخل عليها ويقبلها للفراش أحللناها ﴿خَالِصَةً﴾ خاصة ﴿لَّكَ﴾ يا أكمل الرسل

مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٠﴾

تكريماً لك وتعظيما لشأنك ﴿مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾ أي لم نبحها لغيرك من أمتك، بل هي من جملة الأمور التي اختصصت بها كالتزوج فوق الأربعة وغيرها، وإنما نخص أمثال هذا لك يا أكمل الرسل ولم نعممها من أمتك، لأنّا من وفور حكمتنا ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا﴾ بعلمنا الحضوري من ظواهر أحوال المؤمنين وبواطنهم استعدادهم على ﴿مَا فَرَضۡنَا﴾ وقدرنا ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ حتماً ﴿فِيٓ﴾ حقوق ﴿أَزۡوَٰجِهِمۡ﴾ من المهر والولي والشهود وجميع متممات النكاح ومكملاته ﴿وَ﴾ علمنا أيضاً منهم سبب ما قدرنا عليهم في حق ﴿مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ من المسبيات الزائدة، ألا يدخلوا عليهن إلا أن يُتملكوا بوجه آخر، لكن أنزلنا عندك يا أكمل الرسل بعض ما أوحينا عليهم، وخصصناك بها دونهم ﴿لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ﴾ ضيق في تحميلها، مع أنا نعلم من ظواهرك وبواطنك أنك لا تهمل شيئاً من حقوق الله ولا حقوق عباده، ولا يقع منك ظلمٌ على أحدٍ من خلق الله ؛ لذلك لم نضيق عليك أمر النكاح، وضيقنا على المؤمنين ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ المراقب لأحوال عباده، المصلح لمفاسدهم ﴿غَفُورٗا﴾ يستر ويعفو عنهم بعض ما يعسر عليهم التحرز في رعاية حقوق المؤمنين والمؤمنات ﴿رَّحِيمٗا ﴿٥٠﴾﴾ يرحمهم ويعين عليهم في حفظها ورعايتها،

ثم لما وسّعنا يا أكمل الرسل أمر نكاحك، وأبحنا لك ما لم يبح لغيرك، فلك الخيار في أزواجك.

﴿۞ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾ ....

﴿۞ تُرْجِي﴾ أي تؤخر وتترك مضاجعة ﴿مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ﴾ أي تلصق وتضم ﴿إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ﴾ منهن بلا حرجٍ وضيقٍ، بل ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ﴾ وطلبت نكاحها ﴿مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ وطلقتَ تطليقاً ثلاثاً، أو أقل ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ ولا إثم ﴿عَلَيْكَ ۚ﴾ أن تعيدها إلى نكاحها، بلا تحليلٍ وتزويجٍ للغير، إذ من جملة خواصك تحريم مدخولتك على الغير مطلقاً ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي تفويض أمورهن إليك ﴿أَدْنَىٰٓ﴾ وأقرب ﴿أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ إذ نسبتك إليهن حينئذ على السواء، بلا ميلٍ منكر وترجيحٍ ﴿وَ﴾ المناسب لهن أن ﴿لَا يَحْزَنَّ﴾ بعد التفويض بل ﴿وَ﴾ لهن أن ﴿يَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ إذ لا تتفاوت نسبتك إليهن أصلاً ؛ لأنك مجبول على العدل القويم والصراط المستقيم، سيما بين أزواجك المنتسبين إليك كلهن بنسبةٍ واحدةٍ ﴿وَٱللَّهُ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿يَعْلَمُ مَا﴾ يجري ﴿فِى قُلُوبِكُمْ ۚ﴾ وضمائركم أيها المؤمنون من الميل إلى بعض النساء دون بعض، ونبينا ﷺ منزهٌ عن هذا الميل وأمثاله ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ المراقب لأحوالكم ﴿عَلِيمًا﴾ بما جرى عنه[1] في صدوركم من الميل إلى الهوى ﴿حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾ ينتقم عليه ولكن لا يعجل.

ثم لما خير سبحانه حبيبه ﷺ في أمر نسائه، وفوض أمورهن كلها إليه ﷺ،

(١) في المخطوط (عليه).

لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ ....

ورضين كلهن بحكمه بلا إباءٍ ومنعٍ، أراد سبحانه أن يمنع وينهي حبيبه ﷺ عن تطليقهن وتبديلهن والزيادة عليهن بعد ما بلغن التسعة فقال:

﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ ﴾ يا أكمل الرسل ﴿ ٱلنِّسَآءُ ﴾ أي تزويجهن ﴿مِنۢ بَعْدُ ﴾ أي بعد أن يتفقن أولئك التسعة على حكمك وأمرك، وفوَّضن أمورهن إليك ﴿وَلَآ ﴾ يحل لك أيضاً ﴿أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ ﴾ أي تطلق بعضهن وتبدل بدلهن ﴿مِنْ أَزْوَٰجٍ ﴾ أخرَ من الأجنبيات ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ أي حسن الأجنبيات، لا يحل لك تزوجهن كما حل لك في ما مضى ﴿ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ ﴾ من الإماء، فلا حرج عليك بدخولها ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ ﴾ المطلع على مقادير أفعال عباده ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ مما جرى في ملكه وملكوته ﴿رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ ﴾ يراقبه ويحافظه إلى أن يكمل، ثم يمنع عنه على مقتضى حكمته البالغة.

ثم أشار سبحانه إلى آداب المؤمنين مع النبي ﷺ في استئذانهم منه، ودخولهم عليه، وتناولهم الطعام عنده وبين يديه، وتكلمهم مع أزواجه ﷺ إلى غير ذلك من الأدب، فقال:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ بالله ورسوله مقتضى إيمانكم رعاية الأدب مع رسولكم ﷺ، سيما من قبل بيوته ومحارمه ومساكنه ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ ﴾ بغتةً بلا استئذانٍ منكم، بل بيوت سائر المسلمين أيضاً ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ دعوةً

﴿إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ﴾ ....

﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ حاضرٍ عنده حال كونكم ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ أي منتظرين لوقته ﴿وَ﴾ عليكم ألا تدخلوا بلا دعوةٍ ﴿لَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟﴾ واطعموا ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟﴾ واخرجوا على الفور وتفرقوا ﴿وَلَا﴾ تتمكنوا بعد الطعام عنده ﴿مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ﴾ يتحدث بعضهم مع بعض، أو تسمعونه منه ﷺ أو من أهل بيته، أو لمهمٍ آخر من مهماتكم ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ أي اللبث على أي وجه ﴿كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ﴾ ﷺ ﴿مِنكُمْ ۖ﴾ أن يخرجكم حسب مقتضى حميته البشرية ؛ لأنه ﷺ حييّ حليمٌ، يصبر على أذاكم ولا يخرجكم عنوة ﴿وَٱللَّهُ﴾ المصلح لأحوال عباده المنبه لهم مصالحهم ﴿لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ﴾ إظهار كلمة ﴿ٱلْحَقِّ ۚ﴾ التي يجب إيصاله إلى المؤمنين ؛ ليترسخ في قلوبهم، ويتمرنوا عليه، ويتصفوا به ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ أي أزواجه ﷺ ﴿مَتَٰعًا﴾ وحوائج ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ﴾ متسترين ﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ بحيث لا يقع نظركم إليهن ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي الستر والتحجب من أزواج النبي ﴿أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ﴾ من أمارات الإثم ومخائل المعصية وسوء الأدب ﴿وَقُلُوبِهِنَّ ۚ﴾ أيضاً ترغيماً للشيطان وتطهيراً لنفوسكم من غوائله وتلبيساته ﴿وَ﴾ بالجملة اعلموا أيها المؤمنون ﴿وَمَا كَانَ﴾ أي ما صح وجاز ﴿لَكُمْ﴾ في حالٍ من

أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ ....

الأحوال ﴿أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ بشيء يكرهه ويستنزه عنه مطلقاً ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ﴾ المدخولة عليها ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ سواءً كن حرائر أم إماء ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ أي إيذاءه ﷺ ونكاح نسائه بعدهُ ﴿كَانَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ المنتقم الغيور المقتدر على أنواع الانتقام ﴿عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾ مستجلباً لأليم العذاب وعظيم العقاب.

واعلموا أيها المؤمنون.

﴿إِن تُبْدُواْ﴾ وتظهروا ﴿شَيْـًٔا﴾ حقيراً مما يتعلق بإيذائه ﷺ من قِبل أزواجه في حياته ﷺ وبعد مماته ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ في أنفسكم غير مجاهرين به ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلعَ على مكنونات صدوركم ﴿كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ ظهر على ألسنتكم أو خطر ببالكم ﴿عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ لا يعزب عن علمه شيءٌ من الدقائق والرقائق.

ثم لما نزلت آية التستر والحجاب قيل: يا رسول الله الأبناء والآباء والأقارب والعشائر أيضاً، يتكلمون معهن من وراء الحجاب؟ نزلت:

﴿لَّا جُنَاحَ﴾ أي لا إثم ولا ضيق ﴿عَلَيْهِنَّ﴾ أي على أزواجه ﷺ ﴿فِىٓ﴾ إختلاط ﴿ءَابَآئِهِنَّ﴾ والتكلم معهن بلا سترة وحجاب ﴿وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ﴾ أيضاً ﴿وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ إذ الكل بعيدٌ عن التهمة،

وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ ....

مصونٌ عن الريبة ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ يعني النساء المؤمنات لا الكتابيات ﴿وَلَا﴾ جناح أيضاً في ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ من العبيد والإماء، وقيل من الإماء خاصةً دون العبيد، كما مر في سورة النور ﴿وَ﴾ بالجملة: يا نساء النبي المحفوظ المصون عن أدناس الطبيعة مطلقاً ﴿ٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ الغيور المنتقم، واحذرن عن محارمه ومنهياته مطلقاً، وامتثلن بأوامره حتى تشاركن معه ﷺ في أخص أوصافه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلع لضمائركن ﴿كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ خلج في خواطركن من الإثم واللمم ﴿شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾ حاضراً عنده غير مغيب عنه إلى حيث لا يخفى عليه سبحانه خافيةً، وإن دق ولطف.

ثم أشار سبحانه إلى تعظيم النبي ﷺ وتوقيره والاعتناء بشأنه وعلوّ منزلته ومكانه، فقال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ﴾ المهيمين عنده، الوالهين بمطالعة جماله، المستغرقين بشرف لقائه ﴿يُصَلُّونَ﴾ يعتنون ويهتمون بإظهار فضله تبجيلاً وتعظيماً ﴿عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ الحقيق لأنواع التوقير والتمجيد، المستحق لأصناف الكرامة والتحميد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله بوسيلة نبيه ﷺ، وتحققوا بتوحيده سبحانه بإرشاده ﷺ: أنتم أولى وأحق بتعظيمه وتصليته وتسليمه ﴿صَلُّوا۟ عَلَيْهِ﴾ مهما سمعتم اسمه وذكرتم

وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ .....

بأنفسكم، وقولوا: اللهم صلِّ على محمد ﴿وَسَلِّمُوا۟﴾ له ﴿تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ قائلين: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته.

والآية تدل على وجوب الصلاة عليه ﷺ للمؤمنين كلما جرى ذكره في أي حالٍ من الأحوال والأحيان اللائقة للدعاء.

ثم لما أشار سبحانه إلى علوِّ شأن نبيه ﷺ وسموِّ برهانه، وأوجب على المؤمنين تعظيمه وتوقيره والانقياد إليه في جميع أوامره ونواهيه، أراد أن يشير إلى أن من قصد إيذاءه، وأساء الأدب معه، يستحق اللعن والطرد، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ حيث يأتون بالأفعال الذميمة القبيحة المستكرهة عقلاً وشرعاً عنده ﷺ، فيؤذونه بها، ذكر سبحانه نفسه تعظيماً لشأن حبيبه ﷺ، وإلا فهو منزهٌ عن التأذي والتأثر، أو لأن إيذاءه ﷺ مستلزمٌ لإيذائه سبحانه، ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ المنتقم عنهم وطردهم عن سعة رحمته ﴿ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ على ألسنة خُلّص عباده، وأبعدهم عن مجالسهم ومحافلهم ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ عن عز حضوره وسعة رحمته وجنته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ في النار ﴿عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ مؤلماً مزعجاً، لا عذاب أسوأ منه وأشد.

ثم أردف سبحانه إيذاءه ﷺ بإيذاء المؤمنين فقال:

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ بذمائم الأفعال والأقوال

بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ ....

وقبائح الحركات ﴿بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ أي بغير جريمةٍ صدرت عنهم، واستحقوا الجناية عليها ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟﴾ وتحملوا هؤلاء المؤذين المفترين ﴿بُهْتَٰنًا﴾ جالباً لأنواع العقوبات ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ ظاهراً عظيماً مستعقباً مستتبعاً لأسوأ الجزاء وأشد العقاب والنكال، إذ رمي المحصنات من أفحش الجنايات.

ثم أشار سبحانه إلى آداب النساء وصيانتهن عن الرجال واستحيائهن منهم ليسلمن عن افتراء المفترين ورمي الرامين، فقال مناديا لحبيبه ﷺ ليبلّغ إلى أمته وأزواجه وأزواجهم إيضاً:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ المؤيد من عندنا المبعوث إلى إرشاد البرايا ذكورهم وإناثهم ﴿قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ أولاً على سبيل الشفقة والنصيحة ﴿وَبَنَاتِكَ﴾ أيضاً و﴿وَ﴾عموم ﴿نِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إذا برزن لحوائجهن أحيانا ﴿يُدْنِينَ﴾ ويغطين ﴿عَلَيْهِنَّ﴾ أي على أيديهن وأرجلهن وجميع معاطفهن ﴿مِن﴾ فواضل ﴿جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ وملاحفهن، بحيث لا يبدو من أعضائهن شيءٌ سوى العينين، بل عينٌ واحدةٌ ؛ ليتميزن بها عن الإماء والبغيات المريبات، المطمِعات لأهل الفجور والفسوق ﴿ذَٰلِكَ﴾ التستر والتغطي على الوجه الأتم الأبلغ ﴿أَدْنَىٰٓ﴾ وأقرب ﴿أَن يُعْرَفْنَ﴾ ويُميزن أولئك الحرائر العفائف

﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥٩ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٠﴾ ....

عن الإماء والمريبات، وبعدما عُرفن ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ ولا يفترين بهتاناً ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ المطلع لما اختلج في جوانحهن ﴿غَفُورًا﴾ لهن بعدما تُبْنَ إلى الله، وأنبْنَ ﴿رَّحِيمًا ۝٥٩﴾ يقبل توبتهن، ويرحم عليهن، إن أخلصن فيها.

ثم قال سبحانه مقسما مبالغا: والله:

﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ ولم ينزجر ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ المفترون الرامون عن إيذاء المؤمنات الحرائر المصونات المحفوظات والسرايا العفائف بعد ما تحفظن وتسترن على الوجه المذكور ﴿وَ﴾ لم يكف عنها المتعرضون ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ وضعف إيمان واعتقاد وميل إلى الفسق والفجور ﴿وَ﴾ خصوصاً ﴿ٱلْمُرْجِفُونَ﴾ المجاهرون المترددون ﴿فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ بالأراجيف والأخبار الكاذبة والمفتريات الباطلة الغليظة ويذيعونها فيها عناداً أو فساداً ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ ولنأمرنك بقتالهم وإجلائهم، ولنسلطنك عليهم بإقامة الحدود الشديدة والتغريرات البليغة إلى حيث لا يمكنهم التمكن والإقامة فيها، فيضطروا إلى الجلاء ﴿ثُمَّ﴾ أي بعد ما وضعنا الحدود وأمرناك بإقامتها ﴿لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ﴾ أي لا يستطيعون ولا يقدرون بمجاورتك في المدينة ﴿إِلَّا﴾ زماناً ﴿قَلِيلًا ۝٦٠﴾ يستعدون فيه للبعد والجلاء والهرب من بين المسلمن والفرار عنهم، وإلى أن يفروا ويهربوا[1] أولئك المبعدون

(١) في المخطوط (تفدون وتهربون).

﴿مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ﴾

المطرودون حتى لا يؤاخذون ولا يؤسرون، إذ هم كانوا بين المؤمنين.

﴿مَّلْعُونِينَ﴾ مطرودين مبعدين عن روح الله وكنف جوار رسوله وجوار المؤمنين ؛ لكونهم مؤذين متعرضين لعورات المسلمين، الباهتين المفترين إياهن ببهتان عظيم، والموصوفين بهذه الصفات المذمومة ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟﴾ ووجدوا ﴿أُخِذُوا۟﴾ وأُسروا ﴿وَ﴾ إن لم يمكن أسرهم ﴿قُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾﴾ شديداً إلى حيث استؤصلوا بالمرة، واستئصالُ أمثال هذه الغواة المطرودين المردودين ليس ببدع بل ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ القدير الحكيم القديمة المستمرة التي سنها سبحانه ﴿فِى﴾ حق المؤذين المفترين ﴿ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟﴾ ومضوا ﴿مِن قَبْلُ﴾ يا أكمل الرسل ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ﴾ المستمرة الجارية على مقتضى حكمته المتقنة ﴿تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ إذ لا يبدل حكمه، ولا يغير حكمته، بل له أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

ثم نبه سبحانه على حبيبه ﷺ بما سيسأل عنه الكافرون تهكماً واستهزاءً، وأشار إلى جواب سؤالهم تعليماً له ﷺ وإرشاداً فقال:

﴿يَسْـَٔلُكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿ٱلنَّاسُ﴾ الناسون عهودهم التي عهدوا مع الله في مبدأ فطرتهم ﴿عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ التي جئت بها من عند ربك، وأُخبرت بقيامها بوحي الله وإلهامه، كما أخبر بها سائر الرسل والأنبياء السالفة صلوات الله عليهم، مستهزئين معك، سائلين عن تعيين وقتها وقيامها: أقريب هو أم

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ ....

بعيد؟ ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعد ما اقترحوا عليك عنها: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا﴾ أي علم قيامها وتعيين وقتها ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ العليم الحكيم، لا يطلع عليها أحداً من خلقه، بل هي من جملة الغيوب التي استأثر الله بها في غيبه، بل أخبر سبحانه بوقوعها حتماً[1]، وأبهمَ تعيين وقتها، فمجرد تحققِ وقوعها، يكفي في الخوف من أهوالها ﴿وَ﴾ بعد ما أخبر سبحانه بوقوعها وأبهم في تعيين وقتها ﴿مَا يُدْرِيكَ﴾ ويطلعك أيها المخاطب تعيينها، ومن أنى لك أن تبعدها أو تنكر وقوعها ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ الموعودة ﴿تَكُونُ﴾ شيئا ﴿قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ تقع عن قريب، فأنى لم تتزود لها، ولم تتهيأ أسبابها، أيها المغرور في الدنيا الدنية وأمتعتها الفانية ولذاتها المتناهية ؟!!

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المنتقم من عصاة عباده ﴿لَعَنَ﴾ رد وطرد عن ساحة عز قبوله ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ المصرين على إنكار يوم الجزاء والأمور الواقعة فيه ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ قهراً عليهم وزجراً ﴿سَعِيرًا ﴿٦٤﴾﴾ مصعراً مملوءاً من النار.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ﴾ لا يتحولون عنها أصلاً لا بأنفسهم ولا بواسطة غيرهم من شفعائهم ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يولي أمرهم وينقذهم منها ﴿وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾ ينصرهم ويعين عليهم لإخراجهم عنها، اذكر لهم يا أكمل الرسل

﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ﴾ وتصرف ﴿وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ أي من جهةٍ إلى جهةٍ تشديداً

---

(١) في المخطوط (وحياً).

يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ....

للعذاب عليهم ﴿يَقُولُونَ﴾ حينئذٍ متمنين متحسرين: ﴿يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ﴾ كما أخبر علينا الرسل والأنبياء ﴿وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ﴿٦٦﴾﴾ المبعوث إلينا، المنذر عن هذه العقوبات التي تلحق بنا اليوم، فلن نُبتلى ونصيب بهذا العذاب المؤبد المخلد.

﴿وَقَالُواْ﴾ أيضاً متضرعين إلى الله على سبيل التمني والتناجي ﴿رَبَّنَآ﴾ يا من ربانا بأنواع الكرامات وأحسَنَ تربيتنا بإرسال الرسل وإنزال الكتب، فكذبنا الكتب والرسل، وأنكرنا عليهما عناداً ﴿إِنَّآ أَطَعْنَا﴾ يا ربنا في إنكار كتبك وتكذيب رسلك ﴿سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾ الذين هم أصحاب الثروة والرئاسة بيننا، فحلُّ جميع أمورنا وعقدها بأيدي أولئك الرؤساء البعداء الضالين ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ﴿٦٧﴾﴾ السوي المستقيم الموصل إلى توحيدك وتصديق رسلك وكتبك، وأنت أعلم منا يا ربنا بأنا ما ضللنا إلا بإضلال أولئك الطغاة الضالين المضلين.

﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ﴾ جزاء لإضلالهم وانتقاماً عنهم ﴿ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ يعني آتهم ضعف عذابنا، ضعفاً لضلالهم وضعفاً لإضلالهم إيانا ﴿وَٱلْعَنْهُمْ﴾ واطردهم ربنا وأبعدهم عن سعة رحمتك الواسعة ﴿لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ طرداً عظيماً وتبعيداً بعيداً حيث لا يُرجى نجاتهم، طرداً كثيراً متوالياً متتالياً مستمراً

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ....

على التعاقب والترادف.

ثم وصى سبحانه عموم المؤمنين بألا يكونوا مع نبيهم ﷺ مثل بني إسرائيل مع موسى صلوات الرحمن عليه وسلامه، ولا يقصدوا أذاه ﷺ كما قصدوا، ولا يرموه بشيءٍ لا يليق بشأنه، كما رموا به موسى عليه السلام ؛ لأن معاشر الأنبياء كلهم معصومون عن الكبائر مطلقاً، بل عن الصغائر أيضاً، فلا بد لمن آمن لهم ألا يرموهم بمكروه، ولا يليق بشأنهم، مع أنه سبحانه أظهر براءتهم وطهارة ذيلهم، فبقى إثم الافتراء والمراء على المفترين، فينتقم سبحانه عنهم منها ويأخذهم، بها فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بمحمد ﷺ مقتضى إيمانكم به أن ﴿لَا تَكُونُوا۟﴾ قاصدين أذاه ﷺ بنسبة المكروه المنكر إليه، وبتعييره[1] وتشنيعه بأمرٍ صدر عنه ولم تفهموا سره ﴿كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ﴾ صلوات الله وسلامه فاغتمّ منها وتحزّن حزناً شديداً ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ﴾ المطلعُ على نجابة طينته وطهارة ذيله وأظهر طهارته ﴿مِمَّا قَالُوا۟﴾ أي من مقولهم، يعني مؤداه ومضمونه.

وذلك أن قارون استأجر بغيةً بجعلٍ كثيرٍ على أن ترمي موسى عليه السلام بنفسها، فرموه بها، ثم أحضروها في المجلس لتفضحه عليه السلام على رؤوس الملأ، فأقرت لعصمته عليه السلام، وأظهرت ما أعطوها من الجُعل، فدعا موسى عليه، ففعل بهم وبما معهم سبحانه ما فعل من الخسف على ما مر في سورة القصص، أو قذفوه بعيب في بدنه من برصٍ أو أدرة،

(١) في المخطوط (تعبير).

وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ....

فبرأه الله سبحانه بأن تذهب الحجرُ بثيابه بين الملأ وهو يمشي على عقب ثيابه عرياناً يظهر، حتى يظهر براءته من العيب لهم ﴿وَ﴾ كيف لا يبرّؤه سبحانه، ولا يظهر طهارته إذ ﴿كَانَ﴾ موسى عليه السلام ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ الذي اصطفاه للنبوة والرسالة والتكلم معه ﴿وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾ في كمال الوجاهة والقربة، لذلك اختاره بسمع كلامه بلا واسطةٍ.

وبعد ما سمعتم حكاية ما جرى على أولئك البغاة الغواة المؤذين المفترين

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ المنتقم الغيور، ولا تؤذوا رسوله ﷺ ﴿وَقُولُوا۟﴾ له بعد ما تكلمتم معه في شأنه ﴿قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾﴾ صحيحاً سالماً بعيداً عن وصمة الأذى والتهمة والافتراء حتى لا يلحقكم ما لحق على قوم موسى، ولكم الإخلاص بالله ورسوله، وأخلِصوا واستقيموا في الأفعال والأقوال، وأطيعوا ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ﴾ سبحانه ﴿أَعْمَٰلَكُمْ﴾ لتثمر لكم الثمرات العجيبة والدرجات الرفيعة عنده سبحانه ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ﴾ التي صدرت عنكم ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ﴾ حق إطاعته ويخلص في أعماله ﴿وَ﴾ يطع ﴿رَسُولَهُۥ﴾ إطاعةً خاليةً عن وصمة الأذى والرعونات المؤدية إلى أنواع المكروهات والمنكرات ﴿فَقَدْ فَازَ﴾ ونال ﴿فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ هو الدخول

إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ....

بدار الخلود، والفوزُ بلقاء الخلاق الودود.

ثم لما أراد سبحانه بمقتضى تجلياته الحبية اللطفية أن يطالع ذاته الكاملة المتصفة بصفات الكمال في مرآةٍ مجلوةٍ، تصير نائبةً عنها خليفةً لها يتراءى فيها جميع أوصافه وأسمائه الذاتية على ما أشار إليه الحديث القدسي، عرضَ سبحانه أمانة الخلافة والنيابة على استعدادات المظاهر وقابليات المصنوعات، فامتنع الكل عن حملها، وأبى عن قبولها كما قال سبحانه:

﴿ إِنَّا ﴾ بمقتضى تجلياتنا الجمالية المنبعثة عن الشؤون الحِبِّية والتطورات اللطفية ﴿عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾ أي أمانة الخلافة والنيابة، وأردنا أن نحمّل أعباء العبودية المشتملة على التخلق بالأخلاق الإلهية والتكليفات الشاقة القالعة للأوصاف البهيمية والأدناس الإسكانية الراسخة في القوى الطبيعية لتحصل التصفية والتزكية عن أكدار الهيولى المانعة عن الوصول إلى الملأ الأعلى ﴿عَلَى﴾ استعدادات ﴿ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ العلى ﴿وَ﴾ قابليات﴿ ٱلْأَرْضِ ﴾ السفلى ﴿وَٱلْجِبَالِ﴾ الأسنى وعلى استعدادات ما بينهما من المركبات العظمى والمؤلفات الكبرى ﴿فَأَبَيْنَ ﴾ وامتنعن أي كل منهن ﴿ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ إذ ما أودع سبحانه في استعداداتهم وقابلياتهم ما يسع لحمل هذه الأمانة العظيمة والكرامة الكريمة ﴿وَ﴾ لذلك ﴿أَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ أي خِفن وخشين من حملها ألّا يفين حقها ﴿وَ﴾ بعد ما امتنعن وخِفن جميعاً عن حملها ﴿ حَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾

﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ ....

المجبول على صورة الرحمن، المنتخب من بين الأكوان بالقوة القدسية المودعة فيه، المقتضية لحملها ﴿إِنَّهُۥ﴾ حينئذٍ من كمال شوقه ووفور تحننه وذوقه ﴿كَانَ ظَلُومًا﴾ على نفسه بارتكاب هذه التحميلات البليغة والتكليفات الشديدة الثقيلة من قطع المألوفات الطبيعية والمشتهيات البهيمية واللذات الحسية ﴿جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ ذهولاً عن مقتضيات ناسوته وملائماتها بحسب القوى البشرية لغلبة القوى الروحانية الجالبة للسعادة الأزلية الأبدية على القوى الجسمانية المستتبعة للشقاوة السرمدية، فأين هذا من ذلك؟!

رزقنا الله المنعم المفضل ألا نظلم على نفوسنا ونمنعها عن مقتضياتها وأمانيها، بمنه وجوده.

ومن جملة الأمانات المحمولة على الإنسان: حفظُ السرائر ورعاية الآداب والحقوق الجارية بين ذوي الألباب من الرجال والنساء، وإنما حمّلها سبحانه عليهم ابتلاءً لهم واختباراً

﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ﴾ الحكيم المتقن في أفعاله ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ المخفين الساترين كفرهم وشركهم والخيانات الصادرة عنهم لمصلحة دنيوية ﴿وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾ منهم كذلك ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ المصرين المجاهرين بكفرهم وشركهم وخياناتهم ﴿وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ أيضاً كذلك تعذيباً شديداً ؛ لعدم وفائهن على الأمانات المحمولة عليهم ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي يوفقهم

وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾

على التوبة والإنابة بعد ما صدر عنهم شيءٌ من الخيانة وعدم الوفاء بالأمانة التي ائتمنوا بها من حقوق الله وحقوق العباد، وبعد ما تابوا وأنابوا على وجه الإخلاص والندامة، فقد أدوا حق الأمانة ووفُّوا بها على وجهها ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ المطلع لإخلاصهم ﴿غَفُورًا﴾ لما صدر عنهم من الخيانة قبل التوبة ﴿رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ يقبل توبتهم ويرحم عليهم بعد ما تابوا وأخلصوا.

رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين.

خاتمة السورة

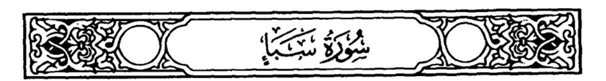
عليك أيها الطالب لمرتبة الخلافة والنيابة، القاصدُ لحمل الأمانة الإلهية، المتحملُ لأعباء العبودية بالقوة الذاتية القدسية والقابلية الفطرية، يسر الله عليك الأداء والوفاء بجميع حقوقه وعهوده وأماناته، وحقوق جميع عباده ورعاية لوازم الإخاء والمصاحبة معهم، وأطاقك سبحانه على حمل التكاليف من المفترضات والنوافل والمسنونات، وأعانك على التخلق بأخلاقه: أن تتوجه بوجه قلبك إلى ربك وتتخذه وكيلاً في أمرك الذي هو التخلق بأخلاقه سبحانه؛ ليتيسر لك مرتبة الخلافة ويتم عليك أمر النيابة.

فلك أن تعرف أولاً شياطينك التي هي أمانيك النفسانية المتولدة من القوى البهيمية، المانعة عن الوصول إلى الدرجات العلية، وتفصلها على وجهٍ لا يشذّ عنك منها شيءٌ، وتلازم على زجرها ومنعها إلى أن تصير الكل

منزجرةً مقهورةً للقوى الروحانية، بحيث لا يبقى لها قوة مقاومة ومقابلة مع الروحانيات أصلاً.

ثم لك أن تنفي وتفني أوصافك وأخلاقك في أوصاف الحق وأخلاقه إلى أن تضمحل وتتلاشى أوصافك وأخلاقك في صفاته وأخلاقه سبحانه، ويرتفع اسمك ورسمك عن البين، ويتصفى العين من الغين، والشأن عن الشين، ولم يبق البون والبين، واتصل العين بالعين، وحينئذ صرتَ ما صرتَ، وفزتَ بما فزتَ، وتمكنت في مقعد صدق الخلافة والنيابة عند مليكٍ مقتدرٍ.

رزقنا الله التقرر والتمكن في مقعد الصدق بلا تلوين وتبديل.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة السبأ

لا يخفى على من انكشف بسعة حضرة العلم الإلهي إجمالاً، واعتقد إحاطتها وشمولها واستيعابها لجميع ما ظهر وبطن في الأولى والأخرى، وفي ما لا سبيل للعباد إليها لا تعقلاً ولا تخيلاً و توهماً تفصيلاً: أن معلوماته سبحانه أجل من أن يحيط بها عقول مصنوعاته وخيالاتهم وأوهامهم، ومن تحقق من السالكين المجاهدين في سبيل الله المشمرين نحوه بكمال وسعهم وطاقتهم سعة قلب الإنسان وكمال إحاطته ووسعة قضائه، فقد انكشف هو بالجملة بسعة حضرة علمه سبحانه، وكثرة معلوماته فوجب له الإتيان بالحمد والثناء على الوجه الذي انكشف له واستتر عنه أيضاً، لذلك حمد سبحانه نفسه، وأثنى على ذاته تعليماً لعباده وإرشاداً لهم على سبيل شكر نعمه وأداء حقوق كرمه، بعد ما تيمن باسمه الأعظم الجامع لجميع الأسماء والصفات فقال:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ المتجلي على جميع ما ظهر وبطن من مظاهره ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ على عموم مصنوعاته بإفاضة رشحات وجوده عليهم ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ على خواص عباده بإفاضة العقل المنشعب من حضرة علمه إليهم، ليدركوا به أحوال مبدئهم ومعادهم.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾

﴿ٱلْحَمْدُ﴾ المحيط المستوعب لجميع المحامد الناشئة من ألسنة عموم ما لمع عليه برق الوجود ثابتٌ ﴿لِلَّهِ﴾ المستجمع لجميع الأوصاف والأسماء المربية لعموم الأشياء الكائنة غيباً وشهادةً ﴿ٱلَّذِى﴾ ثبت ﴿لَهُۥ﴾ ملكاً وتصرفاً وإظهاراً وإعداماً وإعادةً جميعُ ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي علويات عالم الأسماء والصفات والأعيان الثابتة في الأزل ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي سفليات عالم الطبيعة المنعكسة من العلويات وما بينهما من الكوائن والفواسد التي برزت بنور الوجود على مقتضى الوجود من مكمن العدم إلى فضاء الظهور ﴿وَ﴾ بعد ما ثبت أن الكل منه بدأ وإليه يعود في الانتهاء ثبت ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ والثناء الصادر من عموم ألسنة المظاهر المتوجه نحو المظهر الموجد طوعاً لا غيره من الوسائل والأسباب العادية، إذ منتهى الكل إليه ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ كما أن مبدأه منه في الأولى فله الحمد في الأولى والأخرى ﴿وَ﴾ كيف لا ﴿هُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ المتقن في أفعاله بالاستقلال بلا شريك وظهير ﴿ٱلْخَبِيرُ ۝١﴾ عن كيفية اتحاد المظاهر وإعدامها، أوّلاً وآخراً، أزلاً وأبداً، إذ هو سبحانه بمقتضى علمه الحضوري

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي ظلمة الطبيعة القابلة لفيضان الاستعدادات الفائضة من المبدأ الفيّاض ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من المعارف والحقائق الكامنة المختفية فيها على مقتضى تربية مربيها ومظهرها ﴿وَ﴾ كذا يعلم بعلمه الحضوري ﴿مَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي عالم الأسماء إلى أرض المظاهر

وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ....

والمسميات من الفيوضات والفتوحات الشاملة لأنواع الكمالات ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ﴾ متصاعدةً من المكاشفات والمشاهدات الحاصلة من تلك الفتوحات الهابطة ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿هُوَ ٱلرَّحِيمُ﴾ لعباده بإفاضة أنواع الكرامات بمقتضى رحمته الواسعة ﴿ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ لذنوب أنانياتهم وتعيّناتهم الباطلة بعد ما رجعوا إليه وتوجّهوا نحوه تائبين آيبين مخلصين.

رزقنا الله الوصول إلى محل القبول.

﴿وَ﴾ بعدما أخبر سبحانه بقيام الساعة في كتبه وعلى ألسنة رسله سيما في كتابك يا أكمل الرسل وعلى لسانك ﴿قَالَ﴾ الجاحدون المنكرون ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالحق وستروه بالباطل وكذّبوا الرسل وعاندوا معهم يا أكمل الرسل مستهزئين: ﴿لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾ الموعودةُ على لسانك أيها المدّعي مع أنك ادعيت الصدق في جميع أخبارك وأقوالك، فكيف لا تأتي الساعةُ التي ادّعيتَ إتيانها، وأخبرت بها لعلّك كذبتَ وافتريتَ إلى ربك ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما استهزؤوا معك، ونسبوك إلى الكذب والافتراء، وأنكروا بإتيان الساعة: ﴿بَلَىٰ﴾ تأتي الساعة الموعودة عليّ وعلى جميع الرسل والأنبياء لا شك في إتيانها وقيامها ﴿وَ﴾ حق ﴿رَبِّي﴾ القادر المقتدر على إنجاز جميع ما وعد به بلا خلف ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ الساعة الموعودة من عنده إذ وعدُه سبحانه مقضيٌ حتماً جزماً بلا شائبة شكٍ وطريان غفلةٍ عليه

عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا ....

وسهوٍ عنه، وكيف يطرأ عليه سبحانه سهوٌ وذهولٌ، وهو ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ بالعلم الحضوري، فالمغيبات حاضرة عنده غير مغيبة عنه، إذ ﴿لَا يَعْزُبُ﴾ ولا يغيب ﴿عَنْهُ﴾ سبحانه وعن حيطة حضرة علمه ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ ومقدارُ خردلة لا من الكوائن ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي العلويات ﴿وَلَا﴾ من الكوائن ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي السفليات، ولا من المكونات الحادثة بينهما ﴿وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ﴾ المقدار ﴿وَلَآ أَكْبَرُ﴾ منه ﴿إِلَّا﴾ وهو مثبتٌ ﴿فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾﴾ هو حضرة علمه ولوح قضائه، إنما أثبت وأحضر الكلَّ في لوح قضائه

﴿لِّيَجْزِيَ﴾ سبحانه المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بتوحيده واعترفوا بتصديق رسله ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ المقربة إليه سبحانه المقبولة عنده خير الجزاء ويعطيهم أحسن المواهب والعطاء ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ السعداء المقبولون عنده المستحقون لأنواع الكرامات ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لما تقدم من ذنوبهم تفضّلاً عليهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ صوريٌ في الجنة، ومعنويٌ عند وصولهم إلى شرف لقائه، بلا كيفٍ وأينٍ ووجهةٍ وجهةٍ ومكانٍ وزمانٍ.

﴿وَ﴾ ليجزي سبحانه أيضاً أسوأ الجزاء وأشد العذاب والنكال الكافرين ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ﴾ واجتهدوا ﴿فِيٓ﴾ إبطال ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ الدالة على توحيد ذاتنا

مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾

وكمال أسمائنا وصفاتنا حال كونهم ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ قاصدين عجزنا عن إتيان الآيات البينات، منكرين لإيجادنا وإنزالنا إياها، مكذِّبين رسلنا، الحاملين لوحينا، صارفين الناس عن تصديقهم وعن الإيمان بنا وبهم، وملتهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الأشقياء المردودون المبعدون عن روح الله وسعة رحمته، المنهمكون في الغي والضلال﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ عظيمٌ أشد وأسوأ ﴿مِّن﴾ كل ﴿رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾ وعقوبةٍ مؤلمةٍ لعظم جرمهم وسعيهم في إبطال آياتنا الناشئة عن كمال قدرتنا ووفور حكمتنا، وإنما سعوا واجتهدوا في إبطال آياتنا لجهلهم بنا وبها وبما فيها من الهداية العظمى والسعادة الكبرى، وعدم تأملهم وتدبرهم في مرموزاتها ومكنوناتها، لذلك أنكروا بها واجتهدوا في إبطالها وتكذيبها جهلاً وعناداً.

﴿وَيَرَى﴾ يا أكملَ الرسل العلماءُ العرفاءُ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ من قبلنا فضلاً منا إياهم المتعلق بأن الكتاب ﴿ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ تأييداً لشأنك وترويجاً لأمرك ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ المطابق للواقع، الحقيق بالمتابعة والإطاعة، الثابت المثبت نزوله عندنا بلا ريبٍ وترددٍ ﴿وَ﴾ كيف لا يكون حقاً ﴿يَهْدِيٓ﴾ بأوامره ونواهيه أو تذكيراته الضالين المنصرفين عن جادة العدالة ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ﴾ الغالب القادر المقتدر على انتقام المنحرفين عن منهج الرشاد ﴿ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾ المستحق في ذاته لجميع المحامد والكرامات،

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ....

لولا تحميد الناس له وتمجيدهم إياه، وصراطُه هو التوحيد الذاتي المستلزم لتوحيد الصفات والأفعال، المنبئ عن إسقاط عموم الإضافات.

﴿وَ﴾ بعد ما سمع المشركون عن رسول الله ﷺ من أحوال الحشر والنشر والمعاد الجسماني وأهوال الفزع الأكبر ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي بعضٌ لبعض على سبيل الاستهزاء والتهكم مع رسول الله ﷺ مستفهمين مستنكرين متعجبين من قوله: ﴿هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ﴾ يعنون الرسول ﷺ، وإنما أنكروه لاستبعادهم قوله وإنكارهم على مقوله، وإنما يتحدثون به بينهم لغرابته ﴿يُنَبِّئُكُمۡ﴾ بالمحال العجيب ويخبركم بالممتنع الغريب، معتقداً إمكانه، بل جازماً بوقوعه ووجوده، وهو أنكم ﴿إِذَا مُزِّقۡتُمۡ﴾ وفُرقتم ﴿كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي تفريقاً بليغاً وتشتيتاً شديداً، إلى حيث صرتم هباء تذهب به الرياح ﴿إِنَّكُمۡ﴾ بعد ما صرتم كذلك ﴿لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ﴿٧﴾﴾ على النحو الذي كنتم عليها في حياتكم قبل موتكم بلا تفاوتٍ، كما يتجدد الأعراض بأمثالها، بعد ما سمعتم قوله هذا، كيف تتفكرون في شأن هذا الرجل الذي يدّعي النبوة والوحي والرسالة من عند الحكيم العليم، مع أنه صدر عنه أمثال هذه المستحيلات، أي شيء تظنون في أمره هذا ؟؟

﴿أَفۡتَرَىٰ﴾ وكذب عن عمدٍ ونسبه ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ تغريراً وتلبيساً على ضعفاء الأنام ليقبلوا منه أمثال هذه الخرافات، ويعتقدوه رسولاً مخبراً عن

أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ ....

المغيبات وعجائب الأمور وغرائبه، ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ﴾ خبطٌ واختلالٌ يعرض في دماغه، فيتكلم بأمثال هذه الهذيانات هفوةً بلا قصدٍ وشعورٍ بها، كما يتكلم بأمثاله سائر المجانين، وسماه وحياً وإلهاماً ؟!.

ثم لما بالغ المشركون في قدحه ﷺ وتجهيله رد الله عليهم بأنه لا افتراء في كلامه ﷺ وإخباره، ولا خبط في عقله، إذ هو ﷺ من أعقل الناس وأبعدهم عن الافتراء والمراء، وأسلمهم عن الكذب وجميع الكدورات الطبيعية مطلقاً ﴿بَلِ﴾ الكافرون الضالون ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ والأمور التي أخبر الله بوقوعها فيها، ولا يصدقون أيضاً بما نطق به الكتب والرسل مخلدون في النشأة الأخرى ﴿فِي ٱلۡعَذَابِ﴾ المؤبّد المخلد ﴿وَ﴾ متوغلون في ﴿ٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ ﴿٨﴾﴾ عن الهداية أبد الآباد، لا نجاة لهم منها.

ومن شدة غيّهم وضلالهم تكلموا بأمثال هذه الهذيانات الباطلة بالنسبة إلى من هو منزهٌ عن أمثالها مطلقاً.

ثم أشار سبحانه إلى كمال قدرته واقتداره على انتقام المكذبين ليوم الحشر والجزاء والمفترين على رسوله ﷺ على سبيل الجزاء من الخبط والجنون، وغير ذلك من الأمور التي لا يليق بشأنه ﷺ، فقال مستفهماً على سبيل التقريع والتوبيخ:

﴿أَ﴾ عموا وفقدوا أبصارهم أولئك المعاندون ﴿فَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ ولم ينظروا

إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ....

ويبصروا ﴿ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ المحيط بهم خلفاً ووراءً ﴿وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ الممهدة لهم بين أيديهم، يتمكنون عليها، ويتنعمون بمستخرجاتها وبما نزل عليها من السماء، ولم تتفكروا وتتأملوا أن إحياء الموتى أهون من خلق السموات العلى على إيجادهما أكمل من القدرة على إعادة المعدوم، فينكروا قدرتنا عليها مع أنهم يرون منا أمثال هذه المقدورات، ولم يخافوا من بطشنا وانتقامنا، ولم يعلموا أنّا من مقام قهرنا وجودنا وجلالنا ﴿ إِن نَّشَأْ ﴾ إهلاكهم واستئصالهم ﴿نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ كما خسفنا على قارون وأمثاله ﴿ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا ﴾ بالتحريك والتسكين على القراءتين أي قطعاً ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ فنهلكهم بها ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ البيان على وجه التقريع والتعيير ﴿لَءَايَةً﴾ دالةً على قدرتنا وقهرنا على انتقام من خرج عن ربقة عبوديتنا ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ﴾ تحقق بمقام العبودية وفوض أموره كلها إلينا ﴿ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾ رجع إلينا وهرب عن مقتضيات قهرنا وجلالنا، بعد ما عرف أن الكل منا بدأ، وبحولنا وقوتنا ظهر، وعاد أيضاً كما بدأ، إذ منا المبدأ، وإلينا المنتهى، وليس وراءنا مقصد ومرمى.

﴿ ۞ وَ﴾ من كمال قدرتنا ووفور حكمتنا ﴿لَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾ عبدنا ﴿دَاوُۥدَ﴾ المتحقق بمقام الخلافة والحكومة التامة ﴿مِنَّا فَضْلًا﴾ له وامتناناً عليه مما

يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ ....

لم نقض بأمثاله إلى سائر الأنبياء، وهو أنا أمرنا الجمادات والحيوانات بإطاعته وانقياده إلى أن قلنا مناديا لها: ﴿ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى ﴾ أي أرجعي ﴿مَعَهُۥ﴾ التسبيح وسيري معه حيث سار، ولا تخرجي عن حكمه، فانقادت له الجبال إلى حيث متى سبّح، سُمع منها التسبيح والتذكير ؛ وإلى حيث سار، سارت معه ﴿وَ﴾ كذا سخرنا له ﴿ ٱلطَّيْرَ ﴾ وصارت تنقاد لحكمه وأمره كسائر العقلاء، فيحكم[١] عليها ويأمرها، فامتثلت بأمره وأطاعت بحكمه بلا منعٍ وإباءٍ ﴿وَ﴾ من جملة فضلنا إياه أنا ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾ بلا نارٍ ومطرقةٍ، حيث جعلناه ليناً في يده كالشمعة، يبدله كيف يشاء بلا تعبٍ ومشقةٍ، وبعد ما ألنَّا له الحديد أمرناه:

﴿ أَنِ ٱعْمَلْ ﴾ يا داوود بإرشادنا وتعليمنا ﴿سَـٰبِغَـٰتٍ ﴾ دروعاً واسعات ﴿وَقَدِّرْ ﴾ أي ضيّق وكثّف ﴿فِى ٱلسَّرْدِ ﴾ والنسج بقدر الحاجة، لا يمكن مرور السهام عنها أصلاً ﴿وَ﴾ بعد ما آتيناه وأتباعه الملك والولاية التامة والنبوة العامة فضلاً وامتناناً له أصالةً، ولأصحابه تبعاً قلنا لهم تعليما: ﴿ ٱعْمَلُوا۟ ﴾ يا آل داوود ﴿صَـٰلِحًا﴾ من الأعمال والأخلاق مقبولاً عندي، مرضياً لدي ﴿ إِنِّى ﴾ بمقتضى علمي واطلاعي ﴿ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من عموم الأعمال ﴿بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ أنقد كلاً منها، أقبلُ صالحها، وأردُّ فاسدها.

﴿وَ﴾ أيضاً من مقام فضلنا وجودنا سخّرنا ﴿لِسُلَيْمَـٰنَ ﴾ بن داوود عليهما السلام ﴿ ٱلرِّيحَ ﴾ العاصفةَ، وجعلناها مسخرةً تحت حكمه وتصرفه، بحيث

(١) في المخطوط (فحكم).

غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ ....

تحمل كرسي سليمان وجنوده عليها وتسير إلى حيث أشار وشاء ﴿غُدُوُّهَا شَهۡرٞ﴾ أي جريها في الغداة مسيرة شهر ﴿وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ﴾ أيضاً كذلك، ﴿وَ﴾ أيضاً من كمال جودنا إياه ﴿أَسَلۡنَا﴾ وأذبنا ﴿لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ﴾ أي النحاس، فذاب في معدنه ونبع منه نبوع العيون الجارية في كل شهر ثلاثة أيام، قيل أكثر ما في الناس من النحاس من ذلك ﴿وَ﴾ سخرنا له أيضاً عنايةً منا معه ﴿مِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ مقهوراً تحت حكمه وتصرفه ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ أمرهم سبحانه بإطاعته وانقياده بحيث لا ينصرفون ولا يستنكفون عن حكمه أصلاً ﴿وَ﴾ شرط معهم سبحانه تأكيداً لإطاعتهم إياه أنه ﴿مَن يَزِغۡ﴾ أي يعدل ويَمِل ﴿مِنۡهُمۡ﴾ أي من الجن ﴿عَنۡ أَمۡرِنَا﴾ المبرم المحكم إياهم، وهو إطاعتهم نبينا سليمان عليه السلام ﴿نُذِقۡهُ﴾ في هذه النشأة ﴿مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾﴾ لأنه قد وَكَّل سبحانه على الجن ملَكاً بيده سَوطٌ من نار، فمن مال منهم عن حكم سليمان ضربه به، فأحرقه، ولا يراه الجني، لذلك صاروا مقهورين تحت حكمه، أمرهم ما يشاء حيث

﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ أي مساجد لطيفة وحصون حصينة وأماكن منيعة، إنما سمي بها، يحارب عليها ويلتجأ إليها في الشدة ولدى الحاجة.

وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًاۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ....

ومن جملة ما عملوا له من المساجد الحصينة العجيبة بيت المقدس في غاية الحسن والبهاء وكمال المنعة، ولم يزل على عمارته عليه السلام إلى أن خربه بختنصر ﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾ هي الصور من الزجاج ورخام ونحاس وصفر وشبهه، فكانوا يعملون صور الملائكة والأنبياء والصالحين في البقاع الشريفة والمساجد والمعابد ترغيباً للناس في دخولها والعبادة فيها وتنشيطاً، وقد عملوا له في أسفل كرسيه أسدين، وفي فوقه نسرين، فإذا أراد الصعود عليه بسط له الأسدان ذراعيهما فارتقى، وإذا تمكن عليه أظله النسران بجناحيهما، وحرمة التصاوير شرعٌ مجددٌ ﴿وَجِفَانٍ﴾ أي صحافٍ عظيمةٍ وقصاعٍ كبيرةٍ وسيعةٍ ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾ أي كالحياض الكبار، ومن غاية كبرها يقعد على كل جفنة عند الأكل ألف رجل ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍۚ﴾ ثابتاتٍ على أثافيهن بحيث لا تنزل عنها لثقلها وكبرها، وقيل: أثافيها متصلة بها وكانت يُرتقى إليها بالسلالم.

وبعد ما أعطى آل داوود من الجاه والثروة والعظمة ما لم يُعط أحداً من العالمين، قيل لهم من قبل الحق تنبيهاً عليهم، وحثاً لهم إلى مواظبة الشكر ومداومة الرجوع نحو المفضل الكريم: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ﴾ يا ﴿ءَالَ دَاوُۥدَ﴾ عملاً صالحاً مرضياً عند الله ولا سيما اشكروا ﴿شُكْرًاۚ﴾ مستوعباً لجميع جوارحكم وجوانحكم وأوقاتكم وحالاتكم بحيث لا يشذ عنكم وقتٌ لم يصدر عنكم فيها شكر ﴿وَ﴾ اعلموا أنكم وإن بالغتم في أداء شكر نعم الله، وبالغتم بمقتضى المرتبة القصوى منه، ما أديتم حقّ شكره، إذ ﴿قَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾

....

لأنه وإن استوفى واستوفر في أدائه إلى حيث يستوعب جميع أركانه وجوارجه وجوانحه وجميع خواطره وهواجس نفوسه وسره ونجواه، ومع ذلك لا يوفي حقه ؛ لأن توفيقه وإقداره سبحانه عليه أيضاً نعمةٌ مستحقةٌ للشكر، مستدعيةٌ له لا إلى نهايةٍ، ولذا قيل: الشكور من يرى نفسه عاجزاً عن الشكر، إذ لا يمكن الإتيان به على وجه لا يترتب عليه نعمةٌ أخرى، مستلزمةٌ لشكر آخر.

ثم لما كان داوود عليه السلام أسس بيت المقدس في موضع فسطاط موسى عليه السلام، فمات قبل تمامه، فوصى بإتمامه إلى سليمان عليه السلام، فاستعمل الجن فيه، فلم يتم أيضاً، إذا أُخبر من قبل الحق بأَجَله، فتغمم غماً شديداً بعدم إتمام البيت، فأراد أن يعمّيَ ويستر على الجن موته ؛ ليتموه، فأمرهم أن يعملوا له صرحاً من قوارير له بابٌ، فعملوا له صرحاً كذلك.

فدخل عليه على مقتضى عادته المستمرة من التحنث والتخلي للعبادة شهراً وشهرين وسنةً وسنتين، فاشتغل بالصلاة متكئاً على عصاه، فقُبض، وهو متكئ عليها، فبقي كذلك إلى أن أكلت الأَرضَة عصاه فخَرَّ، ثم فتحوا عنه وأرادوا أن يعرفوا وقت موته، فوضعوا الأرضة على العصا، فأكلت يوماً وليلةً مقداراً منها، فقاسوا على ذلك، فعلموا أنه قد مات منذ سنة.

وكان عمره حينئذٍ ثلاثاً وخمسين سنة، ومَلَك وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وابتدأ لعمارة البيت لأربعٍ مضين عن ملكه.

أخبر سبحانه في كتابه هذا، وحكاه على الوجه الذي مضى، وأوجزه فقال:

فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ....

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ﴾ أي على سليمان ﴿ ٱلْمَوْتَ ﴾ فأخبرنا له بموته، فدعا نحونا بأن نعمّي على الجن أمرَ موته حتى يتموا عمارة البيت، فأعميناهم وسترنا عليهم موته إلى أن تم عمارة البيت، وبعد ما تم ﴿مَا دَلَّهُمْ﴾ وماهداهم ﴿عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ﴾ وما أخبرهم عنه ﴿إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ أي الأَرَضَة ﴿ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ﴾ أي عصاه وهو متكئٌ عليها، ﴿فَلَمَّا﴾ أكلتها، انكسرت عصاه ﴿خَرَّ ﴾ وسقط عليه السلام على الأرض، فحينئذ ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ أي ظهر لهم وانكشفت عندهم أمر موته، وعلموا بعد ما التبس الأمر عليهم موته بخروره وسقوطه، فظهر حينئذ للإنس أن الجن لم يكونوا مطلعين على الغيوب على ما زعموا في حقهم ؛ لأنهم لو كانوا من المطلعين لعلموا موته أول مرة، ولم يعلموا مع ﴿أَن﴾ أي أنهم أي الحق ﴿ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ ﴾ مطلقاً، لعلموا أمر موته حين وقع، ولو علموا ﴿مَا لَبِثُوا۟﴾ واستقروا ﴿ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾ الذي هو عذاب العمل المتضمن لأنواع المتاعب والمشاق، مع أنهم لم يرضوا به، لكنهم لبثوا، وعملوا سنةً بعد موته، فظهر أنهم ما كانوا عالمين بالغيوب.

وبعد ما ذكر سبحانه قصة آل داوود وسليمان ومواظبتهم على شكر نعم الله وأداء حقوق كرمه، أردف سبحانه بكفران أهل سبأ على نعمه سبحانه وإنكارهم على حقوق كرمه فقال:

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ....

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ أي لأولاد سبأ بن يشجب[1] بن يعرب بن قحطان ﴿ فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ أي مواضع سكناهم، وهي باليمن يقال لها مأرب بقرب صنعاء مسيرة ثلاث مراحل ﴿ءَايَةٌ ﴾ عظيمةٌ ونعمةٌ جسيمة دالةٌ على كمال معطيها وموجدها، وعلى اتصافه بالأوصاف الكاملة والأسماء الحسنى وهي ﴿جَنَّتَانِ﴾ حافتان محيطتان ﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ أي جنة عجيبة عن يمين بلدهم، وأخرى عن يسارها، وبعد ما أعطيناهم هاتين الجنتين المشتملتين على غرائب صنيعنا وبدائع مخترعاتنا، قلنا لهم على طريق الإلهام: ﴿كُلُوا﴾ أيها المتنعمون المتفضلون من عندنا ﴿مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ الذي رباكم بأنواع الكرامات ﴿وَاشْكُرُوا لَهُۥ﴾ نعمه، وواظبوا على أداء حقوق كرمه مع أن بلدتكم التي تسكنون فيها ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ ماء وهواء، بريئةٌ عن المؤذيات مطلقاً، ﴿وَ﴾ ربكم الذي رباكم فيها بأنواع الكرم ﴿رَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ ساترٌ عليكم فرطاتكم بعد ما أخلصتم في شكر نعمه وأداء حقوق كرمه.

وبعد ما نبهنا عليهم بشكر النعم والمداومة عليها، لم ينتبهوا ولم يتفطنوا، بل ﴿ فَأَعْرَضُوا﴾ عن الشكر واشتغلوا بأنواع الكفران والطغيان والإنكار على المفضل المنان، المكرم الديان، وبعد ما انصرفوا عنا وعن شكر نعمنا ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ وهي الحجارة المركومة بالجص والنورة، وأنواع

(١) في المخطوط (يشنحب).

وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم ....

التدبيرات المحكمة للأبنية والأساس.

وذلك أنه كان لهم سدٌ قد بنته بلقيس بين الجبلين، وجعلت لها ثلاث كوّات بعضها فوق بعض، وبنت دونها بركةً عظيمةً، فإذا جاء المطر اجتمع عليها مياه أوديتهم، فاحتبس السيل من وراء السد، فيفتح الكوة العليا عند الاحتياج، ثم الثانية، ثم الثالثة السفلى، فلا ينفد ماؤها إلى السنة القابلة.

فلما طغوا وكفروا لنعم الله بعدما أُمروا بالشكر على ألسنة الرسل، قيل: أرسل الله عليهم ثلاثة عشر نبياً فكذبوا الكل، وأنكروا لهم، سلط الله على سدهم الجُرَذ.

قيل: هي نوعٌ من الفأرة، فنقبت في أسفل السد بإلهام الله إياها، فسال الماء، فغرقت جنتهم، ودُفنت بيوتهم في الرمل، وكان ذلك من غضب الله عليهم على كفران نعمه ﴿وَ﴾ بعد ما أعرضوا عن شكرنا، وأرسلنا عليهم من السيل ما أرسلنا ﴿ بَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ﴾ المذكورتين المشابهتين للجنة الأخروية ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ أخريين سماهما سبحانه على سبيل التهكم والاستهزاء: ﴿ذَوَاتَيْ أُكُلٍ﴾ وثمر ﴿خَمْطٍ﴾ بشع سمج كزقوم أهل النار ﴿وَ﴾ ذواتي ﴿أَثْلٍ﴾ طرفاء لا ثمر لها ﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ﴾ نبق ﴿قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾ أي قليل النفع، إذ لا يسمن ولا يغني من جوع.

﴿ ذَٰلِكَ﴾ الجزاء الذي ﴿جَزَيْنَاهُم﴾ من تبديل النعمة والجنة جحيماً واللذة

بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾

ألماً ﴿بِمَا كَفَرُواْۖ﴾ لنعمنا، وأنكروا الحقوق كرمنا، أي بشؤم كفرانهم وطغيانهم، وكما غيروا الشكر بالكفران، بدَّلنا عليهم الجنان بالحرمان والخذلان، وبما كفروا لرسلنا وكذبوهم بلا مبالاةٍ لهم وبدعوتهم، وبجميع ما جاءوا به من عندنا إياهم ﴿وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ﴾ - بضم النون وكسر الزاي - بأمثال هذا الجزاء ﴿إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ المعرضَ عن شكر نعمنا، الجاحدَ على حقوق لطفنا وكرمنا، والمبالغَ في ستر الحق، المصرَ على الباطل الزاهق الزائل.

﴿وَ﴾ من كمال لطفنا وجودنا إياهم ﴿جَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ﴾ أي بين بلاد أهل سبأ ﴿وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا﴾ وكثرنا الخير على ساكنيها بتوسعة الأرزاق والفواكه والمتاجر وهي أرض الشام ﴿قُرٗى ظَٰهِرَةٗ﴾ متواصلةً متظاهرةً، يُرى كل من الأخرى مترادفةً على متن الطريق، تسهيلاً لهم، ليتجروا بلا كلفةٍ وتعبٍ ﴿وَقَدَّرۡنَا﴾ لهم ﴿فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ﴾ أي في تلك القرى المترادفة على قدر مقيلهم ومبيتهم غادياً ورائحاً، بحيث لا يحتاجون إلى حمل زادٍ وماءٍ لقرب المنازل والخصب والسعة.

وبعدما أعطيناهم هذه الكرامات قلنا لهم على ألسنة الرسل المبعوثين إليهم أو إلهاماً لهم بلسان الحال: ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ على التعاقب والتوالي حيث شئتم لحوائجكم ومتاجركم ﴿ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ عن جميع المؤذيات، مصونين عن كيد الأعداء، شاكرين لنعمنا، غير كافرين عليها.

فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ ....

وبعد توجه الفقراء إلى ديارهم، وازدحموا لكمال الخصب والرفاهية والمعيشة الوسيعة وسهولة الطريق.

﴿فَقَالُوا۟﴾ مشتكين إلى الله من مزاحمة الفقراء وإلمامهم عليهم، كافرين لنعمة التوسعة والسهولة: ﴿رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ﴾ منازل ﴿أَسْفَارِنَا﴾ حتى نحتاج إلى حمل الزاد وشد الرواحل ؛ ليشق الأمر على الفقراء، فيتنحوا عنا، ولم يزدحموا علينا ﴿وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بطلب هذا التعب، فأجاب الله دعاءهم، وخرَّب القرى التي بينهم وبين الشام، وانصرف الفقراء عنهم، وانقطع دعاؤهم لهم، فاشتد الأمر عليهم، وتشتتوا في البلاد، ولم يبق عليهم شيء من التوسعة والرفاهية، بل صاروا متفرقين متشتتين ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ﴾ أي قصةَ أمنهم ورفاهيتهم وجمعيتهم، بعد ما عكسنا الأمر عليهم ﴿أَحَادِيثَ﴾ لمن بعدهم، يتحدثون بينهم، متعجبين قائلين على سبيل التحسر في أمثالهم: «تفرق أيدي سبأ»، ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي فرّقناهم في البلاد تفريقاً كلياً إلى حيث لحق غسان منهم بالشام، وأنمار بيثرب، وجذام بتهامة، والأزد بعُمان ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ التبديل والتشتيت، وأنواع المحن والنقم بعد النعم ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ دلائل واضحات على قدرة القدير الحكيم العليم المقتدر على الإنعام والانتقام ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على المتاعب والمشاق الواردة عليه بمقتضى ما ثبت له في لوح القضاء، ومضى على الرضا بمقتضيات الحكيم العليم ﴿شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ....

لنعم الله الفائضة عليه، مواظبِ أداء حقوقه.

ثم قال سبحانه مقسما:

﴿وَ﴾ الله ﴿لَقَدْ صَدَّقَ﴾ - بالتشديد والتخفيف - ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي على هؤلاء الهالكين في تيه الخسران والكفران ﴿إِبْلِيسُ﴾ العدو لهم، المصرُّ المستمرُ على عداوتهم من مبدأ فطرتهم ﴿ظَنَّهُۥ﴾ الذي ظن بهم، حين قال لأبيهم آدم: لأحتنكن ذريته إلا قليلاً، وقوله: لا تجد أكثرهم شاكرين، وقوله: لأضلنهم ولأمنينهم، إلى غير ذلك، وبعدما أضلهم عن طريق الشكر والإيمان، ﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾ كفروا النعم والمنعم جميعا ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ الموقنين بتوحيد الله، المصدقين لرسله، المتذكرين لعداوته المستمرة، فانصرفوا عنه وعن إضلاله، فبقوا سالمين عن غوائله.

﴿وَ﴾ العجب كل العجب أنهم اتبعوا له وقبلوا إغواءه وإغراءه وتغريره، مع أنه ﴿مَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ حجةٍ قاهرةٍ غالبةٍ ملجئةٍ لهم إلى متابعته وقبولِ وسوسته من قِبَلِه، بل من قِبَلِنا أيضاً، وما ابتلينا وأغرينا هؤلاء البغاة بمتابعته - لعنه الله - ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ ونُميِّزَ ونُظهر التفرقة بين ﴿مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ وبجميع المعتقدات التي أخبرها الله بها ﴿مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا﴾ أي من النشأة الآخرة، والأمور الكائنة فيها ﴿فِى شَكٍّ﴾ ترددٍ وارتياب، ولهذه التفرقة

وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ ....

والتمييز، أتبعناهم إليه ﴿وَ﴾ لا تستبعد يا أكمل الرسل أمثال هذه الابتلاءات والاختبارات من الله، إذ ﴿رَبُّكَ﴾ الذي رباك على الهداية العامة ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من مقدوراته ومراداته الكائنة والتي ستكون، والجارية على سرائر عباده وضمائرهم، والتي ستجري ﴿حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾ شهيدٌ، لا يغيب عنه إيمانُ مؤمنٍ، وكفرُ كافرٍ، وشكرُ شاكرٍ، وشكُّ شاكٍ، وإخلاصُ مخلصٍ، وبعدما أثبت المشركون المصرون على كفران نعم الله أمثال هؤلاء الغواة المذكورين آلهةً سوى الله سبحانه، وسموهم شفعاء، وعبدوا لهم مثل عبادته سبحانه.

﴿قُلِ﴾ لهم يا أكمل الرسل إلزاماً وتبكيتاً: ﴿ٱدْعُوا۟﴾ أيها الضالون المشركون الآلهة ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ وأثبتّم ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ليستجيبوا لكم في مهماتكم، ويستجلبوا لكم المنافع، ويدفعوا عنكم المضار، كما هو شأن الألوهية والربوبية، وكيف تدعونهم لأمثال هذه المهام مع أنهم ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ لأنفسهم ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ من الخير والشر، والنفع والضر، لا ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لا استقلالاً، إذ هم ليسوا قابلين للألوهية، ﴿وَ﴾ لا مشاركةً إذ ﴿مَا لَهُمْ فِيهِمَا﴾ أي في خلقهما وإيجادهما ﴿مِن شِرْكٍ﴾ مشاركةٍ مع الله في ألوهيتهم؛ لأنهم من جملة مخلوقاته، بل من أدناها، ولا شركةَ للمخلوق مع خالقه ﴿وَ﴾ لا مظاهرةَ إذ ﴿مَا لَهُۥ﴾ سبحانه ﴿مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ ولا من غيرهم أيضاً، معاونٍ

وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ....

له في ألوهيته وربوبيته، إذ هو سبحانه منزهٌ عن المعاونة والمظاهرة مطلقاً.

﴿وَ﴾ كذلك ليس لهم عنده سبحانه شفاعةٌ مقبولةٌ حتى يشفعوا لهم ويخلِّصوهم من عذاب الله بعد ما نزل عليهم إذ ﴿لَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ﴾ سبحانه من أحد من عباده ﴿ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ بالشفاعة لغيره ؛ لاتصافه بالكمال، أو بشفاعة الغير من الشرفاء له ؛ لاستحقاقه بالكرامة، وإن كان منغمساً بالرذالة، وبعدما وقعت الشفاعة، وأذِن بها من عنده سبحانه ينتظر الشافعون المشفعون بعد وقوعها وَجِلِين خائفين مهابةً من سطوة سلطنة جلاله سبحانه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ﴾ وكُشف الفزع، وأزيل الخوف والوجل ﴿عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أي قلوب الشافعين والمشفوعين ﴿قَالُوا۟﴾ أي بعضهم لبعضٍ، أو المشفوعون للشافعين: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ في جواب شفاعتكم، أيقبلها أم يردها؟؟ ﴿قَالُوا۟﴾ أي الشفعاء: القولَ ﴿ ٱلْحَقَّ﴾ الثابت عنده، المرضيَّ دونه، وهو سبحانه يقبل شفاعتنا في حقكم، وأزال عنكم عذابه ﴿وَ﴾ كيف لا يخافون من الله ولا يهابون ـ أي الشفعاء ـ عن ساحة عز حضوره، إذ ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿ٱلْعَلِىُّ﴾ ذاته وشأنه، المقصورُ المنحصرُ على العلو، لا أعلى إلا هو ﴿ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ بحسب أوصافه وأسمائه، إذ الكبرياء رداءه، لا يسع لأحدٍ أن يتردى به سواه.

﴿۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ ....﴾

﴿۞ قُلْ﴾ لهم أيضاً على سبيل التبكيت والإلزام مقرعاً إياهم: ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي عالم الأسباب ﴿وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ أي عالم المسببات، فيبهتون عن سؤالك، ﴿قُلِ﴾ يا أكمل الرسل بعد ما بهتوا: ﴿ٱللَّهُ ۖ﴾ إذ هو متعينٌ للجواب، وإن سكتوا عنه، وتلعثموا مخافة الإلزام، أضمروا في قلوبهم هذا، إذ لا جواب لهم سواه، ولا رازقَ إلا هو، ولا معطي غيره ﴿وَ﴾ بعد ما بهتوا وانحسروا واستولى الحيرة والقلق عليهم، قل لهم على سبيل المجاراة والمداراة: ﴿إِنَّآ﴾ يعني فرق الموحدين ﴿أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ يعني فرق المشركين، أي كل منا ومنكم ﴿لَعَلَىٰ هُدًى﴾ أي على الحق المطابق للواقع ﴿أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ ظاهرِ انحرافه، موصلٍ إلى الباطل الزاهق الزائل، المضادِّ للحق الحقيق بالمتابعة والانقياد.

﴿قُل﴾ لهم أيضاً على سبيل المجاراة والمبالغة في المداراة معهم بحيث تسند الجرم إلى أنفسكم والعمل إليهم مبالغةً في الإسكات والتبكيت: ﴿لَّا تُسْـَٔلُونَ﴾ أنتم ﴿عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾ وجئنا به من الآثام ﴿وَلَا نُسْـَٔلُ﴾ نحن أيضاً ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ من الأعمال، بل كلٌ منا ومنكم رهينُ ما اكتسبنا من العمل، فعليكم ما حُمِّلتم، وعلينا ما حُمِّلنا.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل أيضاً على طريق الملاينة والملاطفة في الإلزام

يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ....

والتبكيت: ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ وبينكم ﴿رَبُّنَا﴾ يوم نُحشر اليه ونُعرض عليه ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ﴾ أي يحكم ويفصل ﴿بَيْنَنَا﴾ ويرفع نزاعنا ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي العدل السوي بلا حيفٍ وميلٍ، فيُساق المحقون نحو الجنة، والمبطلون نحو النار ﴿وَ﴾ كيف لا يَحكم ويَفصل سبحانه ﴿هُوَ ٱلْفَتَّاحُ﴾ لمعضلات الأمور، الحاكمُ لمعلقات القضايا ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ الذي يكتنه عنده كل معلومٍ، ولا يشتبه عليه شيء منها.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعد ما أشبعتَ الكلام على اسكاتهم وإلزامهم: ﴿أَرُونِيَ﴾ وأخبروني أيها المشركون ﴿ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ﴾ أي بالله سبحانه وادعيتموه ﴿شُرَكَآءَ﴾ معه، مستحقين للعبادة مثله، وأخبروني عن أخص أوصافهم التي بها يستحقون الألوهية والمعبودية، لا تأمل أيضاً في شأنهم والتدبر في حقهم، ثم رد عليهم سبحانه ردعا لهم، وزجراً عما هم عليه، وإرشاداً لهم الى ما هو الحق الحقيق بالإتباع فقال: ﴿كَلَّا﴾ أي ارتدعوا أيها المشركون المسرفون عن دعوى الشركة مع الله الواحد الاحد الصمد الفرد الوتر الذي ليس له شريك ولا نظير ولا وزير ولا ظهير ﴿بَلْ هُوَ ٱللَّهُ﴾ الواحد الأحد المستقل بالألوهية والربوبية، بل هو في الوجود والتحقق ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر الظاهر على من دونه من الأظلال الهالكة المضمحلة المتلاشية في شمس ذاته، المتشعشة المتجلية حسب أسمائه وصفاته ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ المتقنُ

وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾

في أفعاله، المترتبة على علمه وإرادته وقدرته، يفعل ما يشاء إرادةً واختياراً، ويحكم ما يريد استقلالاً، ليس لأحد أن يتصرف في ملكه وملكوته.

﴿وَ﴾ بعدما ثبت أن لا معبود في الوجود سوانا، ولا مستحق للعبادة غيرنا فاعلموا أنا ﴿مَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ يا أكمل الرسل بعدما انتخبناك من بين البرايا واصطفيناك منهم ﴿إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾ أي رسالةً عامةً شاملةً لقاطبة الأنام؛ لتكفّهم عن جميع الآثام، وتمنعهم عن مقتضيات نفوسهم ومشتهيات قلوبهم مما يعوقهم عن سبل السلامة وطرق الاستقامة، وبعدما أرسلناك إليهم، صيّرناك عليهم ﴿بَشِيرٗا﴾ تبشرهم إلى درجات الجنان، والفوز بلقاء الرحمان ﴿وَنَذِيرٗا﴾ تنذرهم وتبعدهم عن دركات النيران وأنواع العذاب والحرمان ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ المجبولين على الكفران والنسيان ﴿لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ حكمة الإرسال والإرشاد والهداية إلى سبيل الصواب والسداد، لذلك عاندوا معك، وكذّبوك، وأنكروا بكتابك، وبجميع ما جئت به من عندنا عناداً ومكابرةً.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ لك منكرين متهكمين بعدما وعدتهم بقيام الساعة، وبعثِ الموتى من قبورهم، وحشرِ الأموات من الأجداث: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾ الذي وعدتَنا به، عينوا لنا وقت وقوع الموعود ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ في وعدكم ودعواكم هذا يعنون بالخطاب رسولَ الله ﷺ والمؤمنين جميعاً.

﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ....

﴿قُل﴾ يا أكمل الرسل في جوابهم بعد ما اقترحوا على سبيل الإنكار: يناجي ﴿لَّكُم﴾ أيها المنكرون للبعث بغتةً ﴿مِّيعَادُ يَوْمٍ﴾ أي وعده أو زمانه بحيث ﴿لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ أي لا يسع لكم متى فاجأكم أن تطلبوا التأخر عنه آناً أو التقدم عليه طرفةً.

وبالجملة قيام الساعة إذا حلَّ عليكم، لا يمكنكم هذا، ولذا قيل: الموت هو القيامة الصغرى، وقال ﷺ: «مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ»(١).

﴿وَ﴾ من كمال غيظ المشركين معك يا أكمل الرسل وشدة إنكارهم على كتابك بسبب اشتماله على الأوامر والنواهي الشاقة والتكاليف الشديدة، وبما أخبر فيه من قيام الساعة وأهوال الفزع الأكبر والطامة الكبرى ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي ستروا الحق وأعرضوا عن مقتضاه: ﴿لَن نُّؤْمِنَ﴾ ونصدّق أبداً ﴿بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ وبما فيه من الإنذارات والتخويفات، سيما حشر الأجساد وإعادة المعدوم بعينه ﴿وَلَا﴾ نصدّق أيضاً ﴿بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب السالفة المشتملة على ذكر القيامة.

وذلك أنهم فتشوا عن أخبار اليهود والنصارى، وجميع من أنزل إليهم الكتب، فسمعوا منهم أنه ذُكر في كتابهم نعتُ محمد ﷺ ووصف كتابه،

(١) رواه الديلمي في مسند الفردوس [٦/ ٢٦٨ رقم / ١١١٧/] وأبو نعيم في الحلية [٦/ ٢٦٨]، قال العراقي في تخريج أحاديث «الإحياء» [٤/ ٤٧٢]: أخرجه ابن أبي الدنيا في «الموت» بإسناد ضعيف.

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ....

وذكرُ الحشر والنشر، وجميعُ المعتقدات الأخروية ؛ لذلك بالغوا في تكذيب الكتب رأساً، وصرفوا الناس أيضاً عن تصديقها والإيمان بها، وبمن أنزل إليهم سيما بالقرآن وبمحمد ﷺ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ أيها الرائي لرأيت أمراً فظيعاً فجيعاً ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الخارجون عن ربقة العبودية بتكذيب الرسل وإنكار الكتب وما فيها من أحوال النشأة الأخرى، سيما بالقرآن وبمحمد ﷺ ﴿مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ محبوسون يوم العرض للحساب ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ أي يتجاورون فيما بينهم ويتراجعون في الأقوال، ويتلاومون ويتلاعنون فيها حيث ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ من الأتباع المَتّسِمين بذلّ التبعية ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ من المتبوعين المتعززين بعزّ الرئاسة: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ﴾ موجودن مقتدون بيننا ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ موقنين بتوحيد الله، مصدقين لرسله وكتبه، وبجميع ما جرى على ألسنة الرسل والكتب، ثم:

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ أي المتبوعون المتعظمون بعز الرئاسة والثروة والسيادة ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟﴾ أي الأتباع السفلة: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي لم نكن صادِّين صارفين لكم عن الإيمان بالرسل والكتب ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾ الرسل بالكتب المشتملة على الهدى والبينات، ودعوكم

بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ ....

إلى الإيمان، ونحن ما صددنا إلا نفوسَنا بلا تغرير وتضعيفٍ منا إياكم ﴿بَلْ كُنتُم﴾ حينئذٍ ﴿مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ تاركين الإيمان والهداية، تقليداً علينا بلا صدٍّ منا.

﴿وَقَالَ﴾ الضعفاء ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾: لم يكن إضلالكم إيانا وتغريركم علينا منحصراً في الصد والذب باللسان والأركان ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي مكركم وحيلتكم في تضليلنا دائماً مستوعباً للأيام والليالي، ليس مخصوصاً بوقتٍ دون وقتٍ ؛ لأنكم رؤساءُ بيننا، أصحاب الثروة فينا، فتخدعون بنا قولاً وفعلاً، وتميل قلوبنا إلى ما أنتم عليه ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾ وتوحيده وننكر رسله وكتبه ﴿وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ﴾ أي نثبت ونعتقد لله الواحد الأحد المنزَّه عن الشريك ﴿أَندَادًا﴾ شركاء معه في استحقاق العبادة والإطاعة والتوجه والرجوع في مطلق المهام، ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿أَسَرُّوا۟﴾ أي أظهروا وأخفوا ﴿ٱلنَّدَامَةَ﴾ على ما فات عنهم ﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ النازلَ عليهم بما صدر عنهم في النشأة الأخرى، أظهروا الندامة تحسراً وتحزناً، أو أخفوها مخافة التعيير والتقريع ﴿وَ﴾ بعدما أردنا تعذيبهم ﴿جَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ﴾ الممثلةَ لهم من تعدِّيهم وظلمِهم بالخروج عن مقتضى الحدود الإلهية ﴿فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بتوحيد الله، وأثبتوا له أنداداً وأنكروا لكتبه ورسله تابعاً ومتبوعاً، ضالاً ومضلاً، وقلنا لهم توبيخاً وتعييراً: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ﴾

﴿إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٣٣ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ۝٣٤ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٣٥﴾ ....

هؤلاء البعداء عن ساحة عز القبول ﴿إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٣٣﴾ أي ما يجازون إلا بمقتضى أعمالهم وأفعالهم، وعلى طبقها على مقتضى العدل الإلهي.

﴿وَ﴾ كيف لا نأخذهم بشؤم أعمالهم وأفعالهم، إذ ﴿مَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ﴾ من القرى الهالكة ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾ من النذر المبعوثين لإصلاح مفاسدهم ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ أي متنعموها للرسل من فرط عتوهم وعنادهم، اتكاءً على ما عندهم من الجاه والثروة على سبيل التأكيد والمبالغة: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ﴾ أي بجميع ما أُرسلتم أيها المدعون للرسالة والهداية والدعوة العامة وإقامة الحدود بين الأنام ﴿كَافِرُونَ ۝٣٤﴾ جاحدون منكرون، لا نقبل منكم أمثال هذه الخرافات.

﴿وَقَالُوا﴾ مفتخرين بما عندهم من الجاه والثروة: نحن أولى بما ادعيتم من النبوة والرسالة، إذ ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾، إذ بالأموال تُنال كل مطلوب، وبالأولاد يُظاهر على كل ملمةٍ ومكروهٍ ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٣٥﴾ لا في الدنيا لما سمعتَ من كرامة الأموال والأولاد، ولا في الآخرة أيضاً، إن فُرض وقوعها؛ لأنا قومٌ أكرمنا الله بها في الدنيا، فكذا يكرمنا في الآخرة.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ ....

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعد ما بالغوا في الافتخار والمباهاة بما عندهم من حطام الدنيا ومتاعها: ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ القادر المقتدر على الإنعام والانتقام ﴿يَبْسُطُ﴾ ويُكثر ﴿الرِّزْقَ﴾ الصوري الدنياوي ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ من عباده اختباراً لهم وابتلاءً ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي يُقلُّ ويقبض على من يشاء تيسيراً له، وتسهيلاً عليه حسابه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ المجبولين على السهو والنسيان ﴿لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ حكمة قبضه وبسطه ؛ لذلك يفرحون بوجوده، ويحزنون بعدمه، ولم يتفطنوا أن وجوده يورث حزناً طويلاً وعذاباً أليماً، وعدمه يوجب أنواع الكرامات ونيل المثوبات.

ثم قال سبحانه تقريعاً على المفتخرين بالأموال والأولاد:

﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم﴾ أيها المغرورون بهما، المحرومون عن اللذات الأخروية بسببهما إلا وسيلةٌ وواسطةٌ ﴿بِالَّتِي﴾ أي بالخصلة الحسنة التي ﴿تُقَرِّبُكُمْ﴾ أيها المأمورون بالتقرب إلينا بالأعمال المقبولة ﴿عِندَنَا زُلْفَىٰ﴾ أي تقريباً مطلوباً لكم مصلحاً لأحوالكم وأعمالكم ومواجيدكم ﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ﴾ منكم أيها المتمولون المتكثرون للأولاد، وأيقن بتوحيده سبحانه وصدّق رسلَه وكتبه ﴿وَعَمِلَ﴾ عملاً ﴿صَالِحًا﴾ مقبولاً عند الله، متقرباً إليه سبحانه بأن أنفق ماله في سبيل الله طلباً لمرضاته، وعلّم أولاده علم التوحيد

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي ....﴾

والأحكام والعقائد المتعلقة بدين الإسلام ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ السعداء المقبولون عند الله، المبسوطون من عنده بالرزق الصوري في هذه النشأة، ﴿لَهُمۡ﴾ في النشأة الأخرى ﴿جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾ أي جزاؤهم من الرزق المعنوي أضعاف ما استحقوا بأعمالهم إلى العشرة، بل إلى ما شاء الله من الكثرة، بل ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ﴾ المعدةِ لأهل الجنة في الجنة ﴿ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ مصونون عن جميع المؤذيات والمكروهات.

ثم قال سبحانه:

﴿وَ﴾ الكافرون المنكرون المكذبون رسلنا وكتبنا ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ﴾ ويجتهدون ﴿فِيٓ﴾ قدح ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ الدالة على عظمة ذاتنا، وكمال أسمائنا وصفاتنا، وعلى الأحكام الجارية بين عبادنا المتعلقةِ لأحوالهم في النشأتين حال كونهم ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ قاصدين عجزنا عن إقامة الحدود بين العباد، واتخاذ العهود منهم، ووضع التكاليف والأحكام والآداب بينهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ البعداء الطاعنون لآياتنا الكبرى، الغافلون عن فوائدها العظمى ﴿فِي ٱلۡعَذَابِ﴾ المؤبّدِ المخلّدِ ﴿مُحۡضَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ لا يتحولون عنها ولا يغيبون.

﴿قُلۡ﴾ يا أكمل الرسل للمسرفين المنحرفين عن جادة العدالة الإلهية متكئين بما عندهم من الأموال والأولاد الفانية الزائلة، مفتخرين بها تفوقاً وتبجحاً: ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ العليم المطلع على جميع استعدادات العباد، الحكيم

يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ ....

في إفاضة ما يليق لهم ﴿يَبْسُطُ﴾ يزيد ويفيض ﴿ٱلرِّزْقَ﴾ الصوري ﴿لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ تارةً على مقتضى مشيئته ومراده ﴿وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ أي يُنقص ويقبض الرزق عنه مرةً أخرى إرادةً واختياراً على مقتضى حكمته ومصلحته التي استأثر الله بها في غيبه وحضرة علمه ﴿وَ﴾ بعدما سمعتم هذا اعلموا أيها المبسوطون المنعَّمون ﴿مَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ﴾ استخلفكم الله سبحانه عليه من الرزق، وأمركم بإنفاقه على فقرائه ﴿فَهُوَ﴾ سبحانه ﴿يُخْلِفُهُۥ﴾ ويعوض عنه بأضعافه وآلافه، إن صدر عنكم الإنفاق بالاعتدال بلا تبذيرٍ وتقتيرٍ ﴿وَ﴾ كيف لا يخلف سبحانه الرزق الصوري لخُلّص عباده مع أنه ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ بالرزق الصوري والمعنوي المخلص لهم عن مقتضيات بشريتهم ومشتهيات أهويتهم البهيمية.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل لمن عبد الملائكة واتخذوهم أرباباً من دون الله مستحقين للعبادة والرجوع في الملمات مثله سبحانه، وسموهم شفعاء ﴿يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ في المحشر ﴿جَمِيعًا﴾ العابدون والمعبودون ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ على رؤوس الأشهاد، وتفضيحاً للعابدين، وتقريعاً لهم: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾﴾ يعنى أهؤلاء المسرفون المشركون يعبدون إياكم كعبادتي، بل يخصونكم بالعبادة، ويهتمون بشأنكم، هل تستعبدونهم وتسترضون عبادتهم،

قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا

وتوالون معهم، أم يعبدونكم من تلقاء نفوسهم ؟!

﴿ قَالُواْ ﴾ أي الملائكة خائفين من بطشه سبحانه، مستحيين متضرعين نحو جنابه: ﴿سُبْحَٰنَكَ ﴾ ننزهك يا مولانا عما لا يليق بشأنك ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ ﴾ وأنت المراقب علينا، المطلع على سرائرنا وضمائرنا، المتولي لجميع ما صدر عنا، وأنت تعلم يا مولانا أن لا موالاة بيننا وبينهم، إذ لا يخفى عليك خافية، ومن أين يسع لنا ويتأتى منا الرضا بأمثال هذه الجرأة والجرائم العظيمة، وأنت أعلم يا مولانا بمعبوداتهم التي اتخذوها هؤلاء الغواة الطغاة، الهالكون في تيه الجهل والغفلة ؛ لعلو شأنك وشأن ألوهيتك وربوبيتك ﴿ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّۖ ﴾ أي الشياطين الداعين لهم إلى عبادتهم، الراضين بها ؛ لأنهم يتمثلون بصور الملائكة، ويدّعون الألوهية والربوبية لأنفسهم، ويأمرونهم بالعبادة لأنفسهم بل ﴿ أَكْثَرُهُم ﴾ أي كل المشركين، وجملة المتخذين أنداداً لله ﴿بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ أي بالشياطين، عابدون لهم، متوجهون نحوهم في عموم مهامهم.

﴿ فَٱلْيَوْمَ﴾ تبلى السرائر، وظهر ما في الضمائر، ولاح سلطان الوحدة الذاتية، وانقهر الأظلال الأغيار، وظهر أن الأمور كلها مفوضةٌ إليه سبحانه، وإن كان قبل ذلك أيضاً، كذلك ﴿لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ ﴾ أيها الأظلال المستهلكة في شمس الذات ﴿لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ لا جلباً ولا دفعاً، ولا لطفاً ولا قهراً

وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ

﴿وَ﴾ بعدما انقطع عنهم التصرف مطلقاً، لا معنىً ولا صورةً، ولا مجازاً ولا حقيقةً ﴿نَقُولُ﴾ على مقتضى قهرنا وجلالنا: ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وخرجوا عن ربقة عبوديتنا ومقتضيات حدودنا الموضوعة لإصلاح أحوال عبادنا: ﴿ذُوقُوا﴾ أيها الضالون المنهمكون في بحر العدوان والطغيان ﴿عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ في نشأتكم الأولى بعدما أُخبرتم على ألسنة الرسل والكتب.

﴿وَ﴾ كيف لا نقول لهم ما نقول، إذ هم كانوا من غاية عدوانهم وظلمهم على الله وعلى رسله وكتبه ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ الدالةُ على إصلاح أحوالهم المتعلقة بالنشأتين مع كونها ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ واضحاتٍ في الدلالة على أهم مقاصدهم ومطالبهم، ﴿قَالُوا﴾ من شدة شكيمتهم وغيظهم على رسول الله: ﴿مَا هَٰذَا﴾ المدعي للرسالة والنبوة ـ يعنون الرسول ﷺ ـ ﴿إِلَّا رَجُلٌ﴾ حقيرٌ مستبدٌّ برأيه، مستبدعٌ أمراً من تلقاء نفسه ﴿يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ﴾ ويصرفكم ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ﴾ ويستتبعكم أي يجعلكم تابعين له بل يستعبدكم بأمثال هذا التلبيس والتقرير، ﴿وَقَالُوا﴾ أيضاً في حق القرآن: ﴿مَا هَٰذَا﴾ الذي جاء به ﴿إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ أي كذبٌ مختلَقٌ غير مطابقٍ للواقع، افتراه على الله تلبيساً وتقريراً على ضعفاء الأنام ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ﴾ الصريح،

لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ....

وستروه بالباطل عدواناً وعناداً ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي حين عاينوا به، وعلموا أنه من الخوارق العجيبة، واضطروا خائبين حائرين عن جميع طرق الرد والمنع، غير أنهم نسبوه إلى السحر وقالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ أي ما هذا الذي سماه قرآنا ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾ ظاهرٌ سحريته، عظيمٌ إعجازه.

ثم أشار سبحانه إلى غاية تجهيل المشركين ونهاية تسفيههم فقال:

﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم﴾ وأنزلنا عليهم ﴿مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ﴾ وفيها دليل الإشراك وإثبات الآلهة، بل كل الكتب منزلةٌ على التوحيد وبيان طريقه ﴿وَ﴾ كذلك ﴿مَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾﴾ ينذرهم عن التوحيد ويدعوهم إلى الشرك، بل كل من أرسل من الرسل، فإنما هو على إرشاد التوحيد والإنذار عن الشرك المنافي له.

ثم أشار سبحانه إلى تسلية رسول الله ﷺ، وتهديدهم بالأخذ والبطش فقال:

﴿وَ﴾ كما كذب هؤلاء المكذبون بك يا أكمل الرسل وبكتابك ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم رسلَهم والكتبَ المنزلة عليهم ﴿وَ﴾ هم أي هؤلاء الغواة المكذبون لك يا أكمل الرسل ﴿مَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ أي عُشر ما أعطينا لأولئك المكذبين الماضين من الجاه والثروة والأمتعة الدنياوية

فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ....

وطول العمر، ومع ذلك ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي﴾ فأخذناهم مع كمال قوتهم وشوكتهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾ أي إنكاري وانتقامي إياهم بالتدمير والهلاك، مع إنكارهم على رسلي وكتبي بالتكذيب والإستخفاف.

﴿ ۞ قُلْ ﴾ يا أكمل الرسل بعد ما بلغ إلزامهم وتهديدهم غايته: ﴿ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ﴾ أي ما أذكر لكم وأنبّه عليكم إلا بخصلةٍ واحدةٍ كريمةٍ وهي: ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ ﴾ وحده، وتوحّدوه عن وصمة الكثرة مطلقاً، وتواظبوا على أداء الأعمال الصالحة المقرِّبةِ إليه، المقبولةِ عنده سبحانه، وتُخلصوها لوجهه الكريم بلا شوب شركةٍ، ولوث كثرةٍ وخباثةٍ، رياءٍ ورعونةٍ، سُمعةٍ وعُجبٍ، واسترشدوا من رسول الله ﷺ ﴿ مَثْنَىٰ ﴾ أي اثنين اثنين ﴿وَفُرَادَىٰ ﴾ أي واحد واحد، يعني متفرقين بلا زحامٍ مشوِّشٍ للخاطر، مخلِّط للأقوال، حتى يظهر لكم شأنه ﷺ، ويتبين دونكم برهانه ﴿ ثُمَّ ﴾ بعد ما ترددتم عليه ﷺ على وجه التعاقب والتفريق ﴿ تَتَفَكَّرُوا ﴾ فيما لاح عنكم منه ﷺ، وتأمّلوا فيه حق التأمل والتدبر على وجه الإنصاف، معرضين عن الجدل والاعتساف؛ لينكشف لكم أنه ﴿مَا بِصَاحِبِكُم ﴾ يعني محمد ﷺ ﴿مِّن جِنَّةٍ ﴾ أي جنونٍ وخبطٍ يعرضه ويحمله على ادعاء الرسالة بلا برهانٍ واضحٍ يتضح له وينكشف دونه كما زَعم في حقه ﷺ مشركوا مكة - لعنهم الله - كي يفتضح على رؤوس الأشهاد، كما نشاهد من متشيخة زماننا - خذلهم الله - أمثال هذه

إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ ....

الخرافات بلا سندٍ صحيحٍ.

وبعدما لم يساعدهم البرهان والكرامة افتُضحوا، وهو ﷺ مع كمال عقله ورزانة رأيه ومتانة حكمته، كيف يختار ما هو سبب الشنعة والافتضاح، تعالى شأنه ﷺعما يقول الظالمون علواً كبيراً.

والمعنى: ثم بعد ما جلستم عنده ﷺ على الوجه المذكور، تكلمتم معه على طريق الإنصاف، تتفكرون وتتأملون، هل تجدونه ﷺ معروضاً للخبط والجنون، أم للأمر السماوي الباعث له ﷺ على أمثال هذه الحكم والأحكام والعبر والأمثال التي عجزت دونها فحول العقلاء وجماهير الفصحاء والبلغاء، البالغون أقصى نهاية الإدراك، مع وفور دعاويهم، وبمعارضتها والتحدي معها ؟!! بل ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما هذا الرسول المرسل إليكم المؤيد بالبراهين الواضحة، والمعجزات اللائحة، المثبتةِ لرسالته ﴿ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم﴾ من قِبل الحق ﴿بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ أي قبيل الساعة، وقدام يوم القيامة المعدةِ لأنواع العذاب والنكال على عصاة العباد.

وإن اتهموك يا أكمل الرسل بأخذ الأجر والجُعل على أداء الرسالة وتبليغ الأحكام، بل حصروا ادعاءك الرسالة ودعوتك على هذا فقط !

﴿قُلْ﴾ لهم على طريق الإسكات والإلزام: ما سألت منكم شيئا من الجعل أصلاً، وإن فرض أني سألت منكم شيئاً، فاعلموا أنّ ﴿مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ على إرشادكم وتكميلكم ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ أي هبةٌ لكم، مردودٌ عليكم ﴿ إِنْ أَجْرِيَ﴾

إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ ﴿٤٧﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ ....

أي ما أجري وجُعلي على تحمل هذه المشاق والمتاعب الواردة في تبليغ الرسالة وإظهار الدعوة ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ﴾ الذي أرسلني بالحق، وبعثني بالصدق، وهو المراقب المطلع على جميع أحوالي، الحكيمُ بإفاضة ما ينبغي ويليق بي وبشأني، ﴿وَ﴾ كيف لا يطلع سبحانه على أحوال عباده إذ ﴿هُوَ﴾ بذاته ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ ظهر من الموجودات ولاح عليه لمعة الوجود ﴿شَهِيدٞ ﴿٤٧﴾﴾ حاضرٌ دونه، غيرُ بعيد عنه، ومغيب عليه.

﴿قُلۡ﴾ يا أكمل الرسل بعد ما تمادى مراء أهل الضلال وتطاول جدالهم: لا أبالي باستهدائكم واسترشادكم، ولا أبالغ في تكميلكم، بل ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ العليم باستعدادات عباده الحكيم بإفاضة الإيمان والعرفان على من أراد هدايته وإرشاده ﴿يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي يلقيه وينزله على قلوب عباده الذين جبلهم على فطرة الإسلام واستعدادات التوحيد والعرفان، إذ هو سبحانه ﴿عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾ يعرف استعدادات عباده وقابلياتهم على قبول الحق، ويميزهم عن أهل الزيغ والضلال، المجبولين على الغواية الفطرية، والجهل الجِبلِّي.

﴿قُلۡ﴾ يا أكمل الرسل بعد ما بينتَ لهم طريق الحق كلاماً ناشئاً عن محض الحكمة، خالياً عن وصمة الكذب مطلقاً: ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ﴾ الحقيق بالاتباع، وظهر الإسلام الجدير بالإطاعة والاستسلام، فلكم أن تغتنموا الفرصة وتنقادوا له مخلصين ﴿وَ﴾ نبههم يا أكمل الرسل أيضاً إنه بعدما ظهر نور الإسلام، وعلا قدره، وارتفع شأنه ﴿مَا يُبۡدِئُ﴾ ويحدث ﴿ٱلۡبَٰطِلُ﴾ الذي زهق واضمحل

وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ۖ وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ ....

ظلمتُه بنور الإسلام، وغار مناره في مهاوي الجهل وأغوار الخذلان ﴿وَ﴾ صار إلى حيث ﴿مَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾ أصلاً في حين من الأحيان.

سبحان من أظهر أنوار الإسلام، ورفع أعلامه، وقمع الكفر، وأخفض أصنامه.

ثم لما طعن المشركون على رسول الله ﷺ، وعيروه بأنك تركتَ دين آبائك، واخترعتَ ديناً من تلقاء نفسك، فقد ضللتَ باختيارك هذا، بتركك ذاك عن منهج الرشاد، رد الله سبحانه عليهم قولهم هذا، وتعييرهم، آمراً لنبيه على وجه الامتنان:

﴿ قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعد ما عيروك وطعنوا في شأنك ودينك ﴿ إِن ضَلَلْتُ﴾ وانحرفتُ عن سبيل السلامة وجادة الاستقامة ﴿ فَإِنَّمَا أَضِلُّ﴾ وأنحرف ﴿عَلَىٰ نَفْسِي﴾ وبمقتضى أهويتها ومشتهياتها، وشؤم لذاتها وشهواتها، ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ﴾ إلى التوحيد والعرفان، ونلتُ إلى أسباب درجات الجنان ﴿فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ أي بسبب وحيه وإلهامه إلي، وامتنانه علي بالهداية إلى أنواع الكرامات وأصناف اللذات الروحانية ﴿ إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾ يسمع مناجاتي، ويقضي جميع حاجاتي على وجهها إن تعلق إرادته ومشيئته بها، بعد ما جرى، وثبت في حضرة علمه، ومضى عليها قضاؤه في لوحه، بحيث لا يفوته شيء.

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ ....

﴿وَ﴾ من كمال قربِ الله سبحانه لعباده ﴿لَوْ تَرَىٰٓ﴾ أيها الرائي وقت ﴿إِذْ فَزِعُوا۟﴾ أي الكفرة والمشركون وقت حلول الأجل ونزول العذاب عليهم في يوم الساعة، لرأيت أمراً فظيعاً ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ أي حينَ لا فوت لهم عن الله، لا منهم ولا من أعمالهم وأحوالهم شيءٌ، ﴿وَ﴾ إن تحصَّنوا بالحصون الحصينة والقلاع المنيعة والبروج المشيّدة، بل ﴿وَأُخِذُوا۟﴾ حيثما كانوا ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾﴾ من الله، ولو كانوا في قعر الأرض، أو قُلل الجبال، أو في قلب الصخرة، أو فوق السماء، أو في أي مكانٍ من الأماكن المخفية.

وبالجملة أُخذوا من مكانٍ قريبٍ بالنسبة إليه سبحانه، إذ هو سبحانه منزهٌ عن الأمكنة، شهيدٌ حاضرٌ في جميعها، غير مغيب عنها.

﴿وَ﴾ بعد ما اضطروا إلى الهلاك أو العذاب في يوم الجزاء ﴿قَالُوٓا۟﴾ بعدما انقرض وقت الإيمان ومضى أوانه: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي بمحمد ﷺ ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ أي من أين يتأتى ويحصل لهم تناول الإيمان وتلافيه ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾ بمراحلَ عن الإيمان، إذ قد انقرض مدة التكليف والاختبار، وحين كانوا قريبين قادرين على تناوله وتعاطيه، لم يختاروه ولم يتصفوا به بل.

﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ ﷺ، وأنكروا عليه وعلى كتابه ودينه ﴿مِن قَبْلُ﴾ في النشأة الأولى، أو في زمان الصحة، أي قبل ما عاينوا بالعذاب والهلاك ﴿وَ﴾ هم قد كانوا في زمان الإيمان به ﷺ وبكتابه ﴿يَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي يرمونه

مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾

ويرجمونه رجماً بالغيب، ويقولون في حقه على سبيل التخمين والحسبان عدواناً وظلماً: إنه كاهنٌ شاعرٌ مجنونٌ، وكتابُه أساطير الأولين، بل كلام المجانين، مع أن أمثال هذه الخرافات بالنسبة إليه ﷺ وعلى كتابه ﴿مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ بمراحلَ عن شأنه العلي العظيم، وكتابه الجلي الكريم. وإيمانُهم في حالة اضطرارهم، أبعد عن محل القبول بمراحلَ أيضاً.

﴿وَ﴾ بعد ما آيسوا عن قبول الإيمان وقت الاضطرار ﴿حِيلَ﴾ وحُجب ﴿بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من الإيمان والنجاة المترتبة عليه، ففُعل بهم حينئذ ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم﴾ وأشباههم ﴿مِّن قَبْلُ﴾ من الكفرة الماضين الهالكين، الملتجئين إلى الإيمان وقت اضطرارهم وهجوم العذاب عليهم، كَفِرْعَوْنَ وقارون وغيرهما ﴿إِنَّهُمْ﴾ قد ﴿كَانُوا۟﴾ أمثال هؤلاء الغواة المنهمكين ﴿فِى شَكٍّ﴾ أي غفلةٍ وترددٍ ﴿مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾﴾ موقعٍ أصحابَه في ريبٍ عظيمٍ، وكفرٍ شديدٍ، وإنكارٍ غليظٍ.

أعاذنا الله وجميع عباده عن أمثاله بمَنِّهِ وجُودِه.

خاتمة السورة

عليك أيها السالك المتدرج في درجات اليقين من العلم إلى العين إلى الحق، وفَّقك الله إلى أعلى مطالبك، وأعانك في إنجاحه: أن تتمكن في مقعد الصدق الذي هو مرتبة الرضا، معرِضاً عن الشكِّ والتردد في مقتضيات القضاء ومبرمات الأحكام المثبتة في حضرة العلم الإلهي، وأن تتوجه نحوه سبحانه في جميع حالاتك بذيل كرم نبيه المؤيد من عنده الذي أرشدك إلى توحيده، مسترشداً من آيات كتاب الله المنزل على رسوله، المبين لسلوك طريق التوحيد واليقين، وأحاديث النبي الموضح لمغلقات الكتاب، المشير إلى رموزه وإشاراته.

فلك في كل الأحوال التبتلُ إلى الله، والتوكلُ نحوه، والتفويضُ إليه، فاتخذه سبحانه وكيلك في جميع حوائجك، وحسيبَك في جميع مهماتك، يكفيك معيناً، ويكف عنك شرور أعدائك مطلقاً.

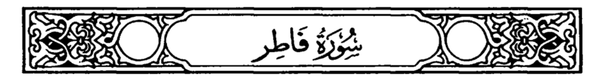
وإياك إياك أن تختلط مع أصحاب الغفلة وأرباب الثروة، المفتخرين بما عندهم من المال والجاه والنسب العليّ والحسبِ الذي يباهي صاحبه ويتفوق على أقرانه ويطلب الرئاسة والسيادة بسببه.

وإن أردت أن تجلس مع بني نوعك وتصاحب معهم، فاختر منهم من انقطع عن الدنيا وأمانيها، وتزهَّد عنها وما فيها، سوى سدِّ جوعة وستر عورة وكنٍّ يحفظه عن البرد والحر، وصاحِبْ معه مصاحبةَ الحائر التائه في بيداءٍ، لا يدري أين طرفاها، متفكرين متدبرين للخروج منها، والنجاة عن أهوالها وأغوالها.

فلك أن تتذكر في عموم أوقاتك قوله ﷺ، واجعله نصب عينيك في جميع حالاتك وهو: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيْبٌ أَوْ كَعَابِرُ سَبِيْلٍ، وَعُدَّ نَفْسَكَ مِنْ أَصْحَابِ القُبُوْرِ»[1].

جعلنا الله ممن امتثل به، وتذكَّر وعمل بمقتضاه، ووجد في نفسه حلاوة معناه، بفضله ولطفه.

(١) رواه البخاري في صحيحه بلفظ: (عن عبد اللهِ بن عُمَرَ رضي الله عنهما قال: أَخَذَ رسول اللهِ ﷺ بِمَنْكِبِي فقال: «كُنْ في الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أو عَابِرُ سَبِيلٍ وكان بن عُمَرَ يقول: إذا أَمْسَيْتَ فلا تَنْتَظِرْ الصَّبَاحَ وإذا أَصْبَحْتَ فلا تَنْتَظِرْ الْمَسَاءَ، وَخُذْ من صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ») صحيح البخاري [٥/ ٢٣٥٨ رقم / ٦٠٥٣/ في الرقائق: باب قوله ﷺ كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل]، وابن حبان في صحيحه [٢/ ٤٧١ رقم / ٦٩٨/ ذكر الإخبار عن الوصف الذي يجب أن يكون في المراء في هذه الدنيا الفانية الراحلة] والترمذي في سننه [٤/ ٥٦٧ رقم / ٢٣٣٣/ في الزهد] جميعاً عن عبد الله بن عمر.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة فاطر

لا يخفى على من تحقق بسعة قدرة الله وإحاطة علمه وإرادته وشمول عموم أوصافه وأسمائه الذاتية والفعلية: أن مظاهر الحق ومجاليه حسب شؤونه وتطوراته لا تكاد تنحصر وتحصى، إذ لا يكتَنِه ذاته ووصفه واسمه، إذ لا يشغله شأن عن شأن، بل كل آنٍ في شأن.

وبعدما كان شأنه سبحانه كذلك، كيف يعد مظاهره المترتبة على شؤونه وتجلياته الغير محصورة، إلا أنه سبحانه حمل لنفسه باعتبار معظم مظاهره ومصنوعاته بالنسبة إلى هؤلاء الأرضين تعليماً لهم وإرشاداً ؛ ليواظبوا على أداء حقوق كرمه بقدر وسعهم وطاقتهم، فقال سبحانه لنفسه بعد ما تيمن باسمه العلي الأعلى:

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾ الذي تجلى على ما تجلى باعتبار أوصافه الكاملة وأسمائه الشاملة ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ لعموم مظاهره ومصنوعاته بإفاضة نور الوجود عليهم على مقتضى الفضل والجود ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ لخواص عباده بإطلاعهم على منشأ الوجود ومنبع خزائن الفيض والجود.

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ ....

﴿ٱلْحَمْدُ﴾ المحيط المشتمل على جميع ما صدر عن ألسنة عموم المظاهر حالاً ومقالاً ثابتٌ ﴿لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي الذي فطرَ أي أظهر وأبدع الأجرام العلوية من كتم العدم بعد ما شق وفلق ظلمته بأشعة نور الوجود المنعكسة من الصفات الأسنى والأسماء الحسنى الإلهية ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ أي الأجسام السفلية أيضاً كذلك ليتحقق الفاعل والقابل، ويتكون منهما من الكوائن والفواسد ما شاء الله بحوله وقوته ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أي الذي جعل الملائكة الذين هم سدنة سدته العلية وخدمة عتبته السنية ﴿رُسُلًا﴾ أي وسائل ووسائط بينه سبحانه وبين خواص عباده من الأنبياء والرسل والأولياء المؤيدين من عنده سبحانه بالرتبة العلية والدرجة الرفيعة، يبلّغون إليهم من قبل الحق ما تفضّل بهم سبحانه من الوحي المتعلق بخير الدارين ونفع النشأتين، ولذلك صيرهم سبحانه ﴿أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ﴾ متعددة متفاوتة يسرعون بها نحو مصلحةٍ بعثهم الله إليها وأمرهم بتبليغها ﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾ أي لبعضهم أجنحة اثنين اثنين، ولبعضهم ثلاثة ثلاثة، ولبعضهم أربعة أربعة إلى ما شاء الله بلا انحصارٍ في عددٍ دون عددٍ بل ﴿يَزِيدُ﴾ سبحانه ﴿فِي ٱلْخَلْقِ﴾ أي في جميع مخلوقاته ﴿مَا يَشَآءُۚ﴾ بلا حدٍ وحصرٍ إذ لا ينتهي قدرته دون مقدور، بل له أن يتصرف فيه إلى ما لا يتناهى، كما روي: «أنه ﷺ رَأَى جِبْرِيْلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١ ....

لَيْلَةَ المِعْرَاجِ وَلَهُ سِتّمائة جَنَاح»[1].

وهذا دليل على أن ذكر العدد ليس للحصر فالآية تدل على أن له سبحانه أن يتصرف في ملكه وملكوته كما شاء وكيف شاء ومتى شاء، فيجوز أن يخلق أنواعاً لم يخلقها قبل من أي جنس كان، ويخلق أيضاً في فردٍ من نوعٍ أموراً عجيبة من الملاحة والصباحة وحسن الصوت والصورة وكمال العقل ورزانة الرأي وخواصٍ غريبة لم يخلقها قبل لأفرادٍ أُخر من هذا النوع.

ولهذا يتفاوت أشخاص الإنسان في المعارف والحقائق وجميع الأمور المتعلقة بالعقل المتفرعة على الإدراك بحسب الأدوار والأعصار بل في زمان واحدٍ أيضاً، إذ بعضهم في نهاية البلادة، وبعضهم في كمال الجلادة، وبعضهم في كمال الحسن واللطافة، وبعضهم في نهاية الكثافة والقباحة.

وبالجملة له سبحانه التصرف في ملكه وملكوته بالاستقلال والاختيار بلا فترةٍ وفتورٍ في علمه وقدرته وإرادته، إذ هو سبحانه منزهٌ عن السآمة والملال، وأوصافه بريئة عن وصمة الفترة والكلال ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ﴾ القادر المقتدر بالقدرة التامة ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ تعلق به إرادته ومشيئته ﴿قَدِيرٞ ١﴾ لا بد أن يتكون باختياره بلا تخلفِ كل ما لمع عليه برق إرادته.

ومن كمال قدرته سبحانه أنه:

(١) متفق عليه من رواية ابن مسعود رضي الله عنه (ولم يقل ليلة المعراج).
صحيح البخاري [٣/ ١١٨١ رقم/ ٣٠٦٠/ باب: إذا قال أحدكم آمين].
وصحيح مسلم [١/ ١٥٨ رقم/ ١٧٤/ باب: معنى قوله عز وجل ولقد رآه نزلة أخرى].

مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ....

﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ﴾ المدبر لأحوال عباده ﴿لِلنَّاسِ﴾ الناسين حقوق تربيته وتدبيره سبحانه ﴿مِن رَّحْمَةٍ﴾ فائضةٍ لهم بمقتضى جوده تفضلاً عليهم من النبوة والرسالة والولاية والكرامة والعلم والمعرفة والرشد والهداية، وغير ذلك من الكمالات الفائضة من عنده سبحانه ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ﴾ أي لا مانع لها يمنعها عنهم ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ ويمنع سبحانه من أمرٍ بمقتضى قهره وجلاله ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ يرسله إليهم ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ﴾ أي بعد منعه سبحانه ﴿وَ﴾ كيف يسع لأحدٍ ما يمنعه إذ ﴿هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ المقصود المنحصر ذاته على العزة والغلبة، لا عزيز دونه ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ المستقل في المنع والإرسال إرادةً، لا يُسأل عن فعله، ولا مبدل لقوله، ولا معقب لحكمه.

ثم نادى سبحانه أهل النعمة وخاطبهم ليقبلوا عليه ويواظبوا على شكر نعمه فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ المجبولون على الغفلة والنسيان ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ الفائضة ﴿عَلَيْكُمْ ۚ﴾ واشكروا له أداءً لحقوق كرمه، وتفكروا في آلائه ونعمائه ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ المتوحد بوجوب الوجود ودوام البقاء ﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ أي من امتزاج العلويات بالسفليات واختلاط الفواعل والأسباب مع القوابل والمسببات المسخرة تحت قدرة العليم

لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ ....

الحكيم؛ لينكشف لكم ويتبين أنه ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ يُعبَد بالحق ويُتوجَّه إليه ويُسنَد الحوادثُ إلى حكمه والنعمُ الفائضة إلى فضله وجُودِه ﴿إِلَّا هُوَۖ﴾ الله الحق الحقيق بالإطاعة والرجوع، لا مرجع سواه، ولا مقصد إلا هو ﴿فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٣﴾﴾ وكيف تُصرفون عن توحيده، وتردون عن بابه أيها الآفكون المجرمون.

﴿وَ﴾ بعد ما بُعثت يا أكمل الرسل لإرشاد أهل الضلال وتبليغ الرسالة إليهم، فلك أن تتصبر على المتاعب والمشاق الواردة في حملها ﴿إِن يُكَذِّبُوكَ﴾ هؤلاء الضالون بعد ما دعوتَهم إلى الحق فتأسّ بإخوانك الرسل واصبر على أذى تكذيبهم ﴿فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ﴾ عظامٌ كثيرٌ ﴿مِّن قَبۡلِكَۚ﴾ أمثالَك، فصبروا على ما كُذبوا، وأوذوا، حتى أتاهم نصرنا ﴿وَ﴾ هم قد علموا أنه ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ الواحد الأحد القادر المقتدر على الإنعام والانتقام، لا إلى الوسائل والأسباب العادية ﴿تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٤﴾﴾ الكائنة من التصديق والتكذيب والصبر والأذى وغير ذلك من الحوادث، إذ كلها مستندة إلى الله أولاً وبالذات، حاضرةٌ في حضرة علمه، ثابتةٌ في لوح قضائه، يجازي كلاً من المحقين والمبطلين، المصدقين والمكذبين على مقتضى علمه وخبرته.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ المنهمكون في بحر الغفلة والنسيان، التائهون في تيه الغرور والخسران ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ الذي وعده في النشأة الأخرى لعموم عباده

حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ....

شقيِّهم وسعيدِهم، مطيعِهم وكافرِهم ﴿حَقٌّۖ﴾ ثابتٌ لازمٌ إنجازه على الله بلا خلفٍ، فلكم أن تتزودوا لأخراكم وتهيئوا أمر عقباكم، كي تصلوا إلى ما أعدّ لكم مولاكم ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾ وتعوقنكم ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ ولذاتُها الفانية وشهواتُها الزائلة، عن الحياةُ السرمدية و البقاء الأبدي واللذات الأزلية ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿٥﴾﴾ يعني لا يلبّس عليكم الشيطان المكّار الغّرار الغّدار بأن يوقع في قلوبكم أن رحمة الله واسعةٌ وفضله كثيرٌ ولطفه عامٌ، وأن الله سبحانه مستغن عن طاعتكم وعبادتكم، وأنّ فِعلَ الإيلام لا يُتصور من الحكيم العلام، إلى غير ذلك من الحيل العائقة لكم عن التقوى والتزود للنشأة الأخرى.

﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ﴾ يا بني آدم ﴿عَدُوّٞ﴾ قديمٌ مستمرٌ عداوته من زمان أبيكم ﴿فَٱتَّخِذُوهُ﴾ أي الشيطان أنتم أيضاً ﴿عَدُوًّاۚ﴾ لأنفسكم عدواةً مستمرةً بحيث لا تصغوا إليه، ولا تقبلوا منه قوله، ولا تلتفتوا إلى تغريره وتلبيسه أصلاً، فإنه يواسيكم ويغريكم إلى مشتهيات نفوسكم، ويوقعكم في فتنة عظيمة، كما أوقع أباكم آدم عليه السلام، فعليكم أن تجتنبوا عن غوائله، حتى لا تكونوا من حزبه ﴿إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ﴾ على الغواية والضلال ﴿لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ المعدّ لأصحاب الشقاوة الأزلية مثل الشيطان وأحزابه وأتباعه.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ ....﴾

نجنا بفضلك من سخطك، وأعذنا بلطفك من تغرير عدونا وعدوك.

ثم قال سبحانه كلاماً جملياً شاملاً لعموم العباد تذكيراً وعظةً، مشتملاً على الوعد والوعيد بكلا الفريقين:

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي ستروا الحق وأعرضوا عنه في النشأة الأولى عناداً ومكابرةً ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ﴾ أي إحراقٌ بالنار في النشأة الأخرى جزاءً لما اقترفوا في النشأة الأولى، إذ لا عذاب أشد من الإحراق ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بتوحيد الله وصدّقوا رسله المؤيدين من عنده بالصحف والكتب المنزلة إليهم، المبينةِ لسلوك طريق التوحيد والعرفان ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ المأمورة لهم في تلك الكتب والصحف ﴿لَهُم﴾ في النشأة الأخرى ﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾ سترٌ وعفوٌ لما صدر عنهم من الذنوب قبل الإيمان والتصديق ﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾ وجزاءٌ عظيمٌ على ما عملوا بعده بمقتضى الأمر الإلهي المبين في الكتب المنزلة من عنده.

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ﴾ يعني أيزعم أن من زَيَّن وحسَّن له الشيطان عملَه السيِّء القبيح في الواقع فخيله حسناً بحسب زعمه الفاسد واعتقاده الباطل كمن كان عمله حسناً في الواقع حقاً في نفس الأمر واعتقده أيضاً كذلك، حتى يكونا متساويين في استحقاق الأمر الجزيل والجزاء الجميل؟! كلا وحاشا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ المتعززَ برداء العظمة والكبرياء، المقتدرَ

يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ....

على جميع ما يشاء ﴿يُضِلُّ﴾ عن صراط توحيده بمقتضى قهره وجلاله ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من عصاة عباده ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ منهم بمقتضى لطفه وجماله إلى مقر توحيده وفضاء بقائه، ومتى سمعت يا أكمل الرسل أن الإضلال والضلال، والإرشاد والهداية إنما هي مستمدة أولاً وبالذات إلى مشيئة الله وإرادته، لا مدخل لأحدٍ من خلقه فيها أصلاً ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ﴾ أي لا تُتعب ولا تُهلك نفسك ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي على غواية من أردت أوأحببت هدايته ﴿حَسَرَٰتٍ﴾ أي حال كونك متحسراً ومتأسفاً تحسراً فوق تحسرٍ، وتحزناً فوق تحزنٍ على ضلالهم وعدم قبولهم الهداية، والمعنى: أفمن زين له سوء عمله فحسّنه على نفسه واعتقده حقاً جهلاً، مع أنه باطل في نفسه، وبذلك ضل عن طريق الحق وانحرف عن سوء السبيل وبعد بمراحل عن الهداية، وأنت يا أكمل الرسل أذهبت وأهلكت نفسك حسرةً عليهم وضجرةً لما لم يهتدوا ولم يؤمنوا، فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، وبالجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المراقبَ على جميع حالاتهم ﴿عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾ يجازيهم على مقتضى علمه بسوء صنيعهم، ولا تتعب نفسك عليهم بما يفوتون على نفوسهم من الرشد والهداية.

﴿وَ﴾ كيف لا يعلم سبحانه ضمائر عباده واستعداداتهم مع أنه ﴿ٱللَّهُ﴾ المدبرُ لعموم أفعالهم وأحوالهم وحوائجهم هو ﴿ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ﴾ بلطفه

ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ٩ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ ....

ومقتضى جوده ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ العاصفة ﴿فَتُثِيرُ﴾ وتُهيج ﴿سَحَابًا﴾ هامرةً مركبةً من الأبخرة والأدخنة المتصاعدة القابلة لأن تتكون منها مياهاً بمجاورة الهواء البارد الرطب ﴿فَسُقۡنَٰهُ﴾ بعدما تم تركيبة عنايةً منا ﴿إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾ يابسٍ في غاية اليبس بحيث لا اخضرار له أصلاً ﴿فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ﴾ أي بالمطر الحاصل من السحاب ﴿ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ أي جفافها ويبسها ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل إحيائنا الأرض اليابسة بعد يبسها وجمودها ﴿ٱلنُّشُورُ ٩﴾ أي إحياؤنا الأموات الجامدة ونشرهم من قبورهم بإعادة الروح المنفصل منهم إلى أبدانهم التي تفتت أجزاؤها بإرسال نفحات نسمات لطفنا ورحمتنا لتثير سحاب العناية الماطرة قطرات ماء الحياة المسوقة إلى أراضي الأبدان اليابسة الجامدة بالموت الطبيعي، إنما أحييناهم وأخرجناهم من الأجداث إظهاراً لقدرتنا وتتميماً لحكمتنا واستقلالنا في آثار تصرفنا في ملكنا وملكوتنا وتعززنا وكبريائنا في ذاتنا. وبالجملة :

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ﴾ الكاملة التي لا يعقبها ذلٌ أصلاً، فله أن يسترجع إلى الله ويتوجه نحو توحيده ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ﴾ والغلبة والسلطنة الكاملة والبسطة الشاملة ﴿جَمِيعًاۚ﴾ ومن أراد أن يتعزز بعزة الله، فله في أوائل سلوكه إلى الله أن يتذكر سبحانه بأسمائه الحسنى وصفاته العليا إلى أن ينتهي تذكره إلى التفكر الذي هو آخر العمل وصار متفكراً في ذاته مستكشفاً عن أستار جبروته

إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ....

سبحانه، إلى أن صار مستحضراً له، مكاشفاً إياه، مشاهداً أثار أوصافه وأسمائه على صفائح الأكوان بلا مزاحمة الأغيار، وبالجملة فله أن يشتغل بالتذكر في أوائل الحال إذ ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ من الأسماء الحسنى والصفات العظمى الناشئة من ألسنة المخلصين المتفكرين في آلاء الله ونعمائه ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ﴾ المقرون بالإخلاص والتبتل ﴿يَرْفَعُهُۥ﴾ أي يرفع العملَ المنبئ عن الإخلاص والكلم الطيب إلى درجات القرب من الله، فمن كان إخلاصه في عمله أكمل، كان درجات كلماته المرفوعة نحوه سبحانه أرفع وأعلى عند الله ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ﴾ مع الله المكرات ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ - يعني به سبحانه المكر السيء الذي مكر به المشركون خذلهم الله مع حبيبه ﷺ - ﴿لَهُمْ﴾ في النشأة الأخرى ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ جزاءً لما مكروا به ﴿وَ﴾ إن كان ﴿مَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الماكرين ﴿هُوَ﴾ أي مكرهم في نفسه ﴿يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾ يفسدُ ويبطلُ ويعود وباله ونكاله عليهم بلا أثرٍ لمكرهم بالممكور به ﷺ.

﴿وَ﴾ كيف لا يعود ضرر مكرهم إليكم أيها المشركون إذ ﴿ٱللَّهُ﴾ الذي قصدتم المكر معه ومع من اختاره واصطفاه ﴿خَلَقَكُم﴾ وقدر وجودكم ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ جامدٍ لا حس لها ولا شعور ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ مهينةٍ مستحدثةٍ من أجزاء النبات المتكون من الأرض ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ﴾ وصيركم حيواناً ﴿أَزْوَٰجًا﴾

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ ....﴾

ذكوراً وإناثاً لتتوالدوا وتكثروا ﴿وَ﴾ يربيكم على الوجه الأحسن الأصلح، إذ هو عليمٌ بجميع ما يعنيكم وما لا يعنيكم وبكل ما جرى عليكم إلى حيث ﴿مَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ﴾ حمله ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِۦۚ﴾ وإذنه سبحانه، وهو معلومٌ له لا يغيب عنه ﴿وَ﴾ بعد وضع الحمل ﴿مَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ يبلغ عمر نهايته ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ بأن لم يصل إليها ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ﴾ أي مثبتٍ مسطورٍ في حضرة العلم الإلهي ولوح القضاء ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي حفظه وثبته ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ العليم الحكيم ﴿يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾ وإن كان عندكم عسير، بل متعذرٌ ممتنعٌ، إذ لا يسع لكم استحضار آنكم ولحظتكم، فكيف أحوال يومكم وشهركم وحولكم، فكيف أحوال طفوليتكم وكونكم جنيناً.

ثم مثَّل سبحانه كلا الفريقين المؤمن والكافر بالبَحرين العذب والمالح فقال:

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ﴾ في النفع والفائدة الحاصلة منهما إذ ﴿هَٰذَا﴾ أي المؤمن المصدق لبحر الإيمان والعرفان، المترشحُ من بحر الوحدة الذاتية ﴿عَذْبٌ﴾ حلوٌ في كمال الحلاوة ﴿فُرَاتٌ﴾ يكسر غليل أكباد المتعطشين في سراب الدنيا ببرد اليقين ﴿سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ﴾ أي سهل انحداره للمجبولين على فطرة التوحيد ﴿وَهَٰذَا﴾ أي الكافر المتوغل في بحر الغفلة ﴿مِلْحٌ﴾ لا مصلح

أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ....

يصلح من يذوق منه، بل ﴿أُجَاجٌ﴾ مُرٌّ مفسدٌ للمزاج، من ذَاقَ منه هلك هلاكاً أبدياً بحيث لا نجاة له، بل ﴿وَ﴾ البحر الأجاج له نفعٌ، ولا نفع للكفر والضلال أصلاً إذ ﴿مِن كُلٍّ﴾ من البحرين ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ مثل السمك وغيرها ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ﴾ منهما ﴿حِلْيَةً﴾ أي أنواعاً من التزيينات اللاتي ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ وإنما أباح لكم سبحانه أيها المكلفون منافع بره وبحره ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ أي رجاء أن تشكروا نعمه، وتزيدوا على أنفسكم مزيد كرمه.

ومن كمال فضل الله عليكم ورحمته أنه

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ﴾ أي يدخل ظلمته ﴿فِي﴾ نور ﴿النَّهَارِ﴾ فيطول أجزاء النهار بإيلاج أجزاءِ الليل في الصيف تتميماً لمصالح معيش عباده ﴿وَ﴾ كذا في الشتاء ﴿وَيُولِجُ النَّهَارَ﴾ أي أجزاءً منه ﴿فِي اللَّيْلِ﴾ فيطوله بأجزائه تسكيناً للقوى النامية، وتمكيناً لها ليجددها للخدمة المفوضة إليها ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أيضاً تتميماً لمصالح عباده إلى حيث ﴿كُلٌّ﴾ منهما ﴿يَجْرِي﴾ ويدور بإذن الله وإلهامه ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هي من مبدأ دوره إلى منتهاه أو إلى انقراض نشأة الدنيا ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ المتصرف بالاستقلال

﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ ....

والاختيار المدبر بكمال العلم والخبرة ووفور الحكمة والدرية هو ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾ الذي أظهركم من كتم العدم، ورباكم بأنواع النعم والكرم، وكيف لا يربيكم سبحانه بعد ما أبدعكم، إذ لا متصرف في الكائنات إلا هو ﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ﴾ لا مالك له سواه ولا مدبر غيره ﴿وَ﴾ المحجوبون ﴿ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ﴾ وتدّعون ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ من التماثيل الباطلة والأظلال الهالكة العاطلة تعنتاً وعناداً، مع أن ما يسمون أولئك الجاهلون آلهةً سواه سبحانه، ويسندون الأمور إليهم مكابرةً ﴿مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾ أي ليس لهم أن يتصرفوا في قشرةٍ رقيقةٍ ملتفةٍ على ظهر النواة، وهذه مثلٌ في القلة عند العرب فكيف في غيرها، إذ الألوهية مسبوقة بوجوب الوجود بالصفات الكاملة الذاتية والأسماء الحسنى التي لا تعد ولا تحصى، وليس لهؤلاء الأظلال الهالكة وجودٌ في أنفسها، ومن أين يتأتى منهم الألوهية؟! بل هم من أدنى الممكنات وأدون المكونات ؛ لكونهم جمادات لا شعور لهم أصلاً إلى حيث:

﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ﴾ وتلتجئوا نحوهم ﴿لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ﴾ إذ ليس لهم قابلية السماع والاستماع ﴿وَلَوۡ سَمِعُواْ﴾ يعني لو فُرض أنه سمعوا على سبيل الفرض المحال ﴿مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ﴾ إذ ليس لهم القدرة والإرادة والأوصاف الكاملة

وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ....

اللازمة للألوهية والربوبية ﴿وَ﴾ مع عدم نفعهم إياكم أنتم أيها الجاهلون ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ﴾ ويؤاخذون ﴿بِشِرْكِكُمْ﴾ وإشراككم، أي اتخاذكم إياهم شركاء مع الله، وهم يتبرؤون عنكم وأنتم عنهم ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ﴾ ويخبرك أيها المخاطب النبيه الفطِن أحوال النشأة الأخرى وما سيجري بينك وبين شركائك من البراءة والملاعنة ﴿مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ وهو الله العليم الحكيم الذي لا يعزب عن إحاطة حضرة علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، لا في الأولى ولا في الأخرى، وعنده مفاتح الغيب ومقاليد الأمور لا يعلمها إلا هو.

ثم نادى سبحانه عموم عباده على سبيل الاستغناء عنهم وعن أعمالهم وعن محامدهم وأثنيتهم الجارية على ألسنتهم فقال:

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ الناسون عهود الله ومواثيقه التي واثقكم بها ربكم مع أنكم تنسون نعمه، وتذهلون عن حقوق كرمه ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ المحتاجون بالذات المقصورون على الافتقار ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ الذي أظهركم من كتم العدم، ولم تكونوا شيئاً مذكوراً، ورباكم بأنواع النعم سيما العقل المفاض الذي هو مذكِّركم عن مبدئكم ومنشئكم، فلم تشكروا نعمة مبدعكم ومربيكم أيها الغافلون الجاهلون مع أنكم دائماً محتاجون إليه، ﴿وَٱللَّهُ﴾ المنزه بذاته عن شكر الشاكرين وكفر الكافرين ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ المنحصر على الغنى الذاتي بحيث

ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا ....

لا احتياج له ولا استكمال أصلاً، إذ كمالاته سبحانه كلها بالفعل بحيث لا ترقب في شؤونه مطلقاً ﴿ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ المحمود في نفسه على الوجه الذي يليق بشأنه، إذ لا يتأتى عن مصنوعاته الحمد الحقيقي بذاته، وإنما أظهركم أيها الأظلال الهالكة بمقتضى جماله ولطفه ؛ لتواظبوا على عبادته وعرفانه كي تصلوا إلى توحيده صاعدين من حضيض الإمكان إلى أوج الوجوب الذاتي علماً وعيناً وحقاً، فأنتم تتكاسلون وتتمايلون إلى أهوية نفوسكم البهيمية ومشتهيات قواكم البشرية، أما تخافون وتتأملون أيها المغرورون ؟

﴿إِن يَشَأْ﴾ سبحانه ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾ عن فضاء البروز بالمرة إلى كمون العدم ﴿وَيَأْتِ﴾ بدلكم ﴿بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾ أي بمخلوقٍ سواكم تتميماً لحكمة العبادة والمعرفة.

﴿وَ﴾ اعلموا أيها الهالكون في تيه الغفلة أنه ﴿مَا ذَٰلِكَ﴾ التبديل والإتيان ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ القادر المقتدر على إظهار جميع ما لاح عليه برق علمه وإرادته ﴿بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ غير متعذر، بل عنده وبجنب سرعة نفوذ قضائه سهلٌ يسيرٌ.

﴿وَ﴾ بعدما عرفتم قدرة الله وسمعتم كمال استغنائه، فلكل منكم الإتيان بمأموراته والاجتناب عن منهياته إذ ﴿لَا تَزِرُ﴾ تحمل نفسٌ ﴿وَازِرَةٌ﴾ آثمةٌ عاصيةٌ ﴿وِزْرَ﴾ نفسٍ عاصيةٍ ﴿أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ﴾ وتطلب نفسٌ ﴿مُثْقَلَةٌ﴾ بالأوزار والمعاصي ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ أي حمل بعضٍ من الأوزار المحمول

لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ ....

عليها ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ أي لا يحمل أحدٌ شيئاً من أوزاره، وإن رضي بحملها على مقتضى العدل الإلهي ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ المدعوُّ للحمل ﴿ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ أي من قرابة الداعي، بل كل واحدٍ من النفوس يومئذٍ رهينةٌ ما اقترفت من المعاصي ؛ما حملت إلا عليها وما حوسبت بها إلا هي.

ثم قال سبحانه مخاطباً لحبيبه ﷺ في شأن عباده: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ يعني ما تفيد إنذاراتك التي تلوتَ يا أكمل الرسل على هؤلاء الغفلة، إلا القوم الذين يخافون من الله ومن عذابه وعقابه حال كونهم غائبين عنه، سامعين له، خاشعين من نزوله، خائفين من حلوله بغتةً ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المأمورة المقربة لهم إلى جناب قدسه، المخلصين فيها، المطهرين نفوسهم عن الميل إلى ما سوى الحق ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾ وطهّر نفسه عن الميل إلى البدع والأهواء ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ إذ نفع تزكيته عائدٌ إليه، مفيدٌ له في أولاه وأخراه، ﴿وَ﴾ بعد تزكيته عن لوازم بشريته ومقتضيات بهيميته العائقة عن الوصول إلى مبدأ فطرته ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ المنزه عن مطلق النقائص، المبرءِ عن جملة الرذائل ﴿ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ أي المنقلب والمآب، يعني مرجع الكل إليه، ومقصده دونه سبحانه.

﴿وَ﴾ لكن ﴿مَا يَسْتَوِى﴾ في القرب والرتبة بالنسبة إليه سبحانه ﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾

﴿وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ....﴾

الغافل الجاهل عن كيفية الرجوع والتوجه ﴿وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾﴾ العارف العالم بأمارات الصعود والعروج ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ المتراكمة المتكاثفة بعضها فوق بعض وهي ظلمة الطبيعة وظلمة الهيولي وظلمة التعينات والهويات الممتزجة المتكاثفة إلى حيث يصير حجاباً غليظاً وغشاءً كثيفاً يعمي أبصار المجبولين على الإبصار والاعتبار على مقتضى الشؤون القهرية الجلالية ﴿وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾﴾ المتشعشع المتجلي من وحدة الذات حسب شؤونه اللطفية الجمالية.

﴿وَلَا ٱلظِّلُّ﴾ الإلهي المروِّحُ لأرواح أرباب المحبة والولاء بنفحات نسائم أنواع الفتوحات والكرامات ﴿وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾﴾ أي السموم المهلكة المنشأة[1] من فوحان الأماني الإمكانية الممتزجة بيَحموم الطبيعة المتصاعدة من أبخرة الأهوية ونيران الشهوات.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَا يَسْتَوِى﴾ عند الله العليم الحكيم ﴿ٱلْأَحْيَآءُ﴾ بحياة المعرفة والإيمان واليقين والعرفان حياةً أزليةً أبديةً سرمديةً لا أمر لها حتى تنقضي ولا حدوث لها حتى تنعدم ﴿وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ بموت الجهل والضلال وأنواع الغفلة والنسيان، الهالكين في هوية الإمكان، الخالدين في زاوية نيران الخمول والحرمان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ العليم الحكيم المتقنَ في أفعاله ﴿يُسْمِعُ﴾

---

(١) في المخطوط (المنشئ).

وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ....

ويهدي ﴿مَن يَشَآءُۖ﴾ من عباده عنايةً لهم وامتناناً عليهم إلى صراط توحيده ﴿وَمَآ أَنتَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿بِمُسۡمِعٖ﴾ هادٍ مرشدٍ ﴿مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾ أي من كان راسخاً متمكناً في هاوية الجهل المركب وجحيم الإمكان وأحداث الغفلة والنسيان، إذ هم مجبولون على الغواية الفطرية والجهالة والجبلية لا يتأتى لك اهداؤهم وإرشادهم أصلاً.

بل﴿ إِنۡ أَنتَ ﴾ أي ما أنت أيها المختار لتبليغ الرسالة ﴿إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ لهم من قبلنا، فلك أن تبلّغ الإنذارات والوعيدات الهائلة النازلة منا إياهم، ولا تجتهد في هدايتهم وقبولهم، إذ ما عليك إلا البلاغ وعلينا الحساب.

﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ ﴾ من كمال لطفنا معك ملتبساً ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ الصدقِ المطابقِ للواقع، داعياً لعموم عبادنا إلى توحيدنا ﴿بَشِيرٗا﴾ بما أعددنا لهم من المراتب العلية والمقامات السنية ﴿وَنَذِيرٗاۚ ﴾ لهم أيضاً بما أعتدنا من دركات النيران الموجبة لزفرات القلوب وحسرات الجنان ﴿وَ﴾ إرسالنا إياك، ليس ببدعٍ منا، بل ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ ﴾ أي ما من أمةٍ من الأمم الماضية ﴿إِلَّا خَلَا﴾ ومضى ﴿ فِيهَا نَذِيرٞ ﴿٢٤﴾﴾ ينذرهم عما لا يعنيهم.

﴿وَ﴾ بعدما سمعت يا أكمل الرسل ما سمعت ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ ﴾ أولئك الكفرة المصرون على الشرك والعناد، وأنكروا بك وبكتابك، لا تبال بهم

جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ

وبإنكارهم ﴿فَقَدْ كَذَّبَ﴾ الكفرة ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي قبل هؤلاء المشركين رسلهم مع أنه ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ المبعوثون إليهم حال كونهم مؤيدين ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي الدلائل الواضحات من المعجزات المثبتة لنبوتهم ورسالاتهم ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾ والصحف المنزلة إليهم، المشتملة على أصول أديانهم وبيان طرقهم ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾﴾ المظهرِ لسرائر التوحيد بحججه وبراهينه القاطعة وحِكمه وأحكامه الساطعة آثارها.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما كذبوا رسلهم وأنكروا الكتب التي جاؤوا بها من عندنا على مقتضى وحيينا وأصروا على كفرهم وشركهم ﴿أَخَذْتُ﴾ بمقتضى عزتي وقدرتي ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي أعرضوا عن الحق مستكبرين مصرين على الباطل ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾ أي إنكاري بالنسبة إلى إنكار أولئك الهلكى العاجزين في تيه الغفلة والضلال، وإهلاكي إياهم بحيث لم يبق منهم أحدٌ يخلفهم، ويحيي اسمهم ورسمهم.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي المعتبر ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ المقتدر بالقدرة الكاملة كيف ﴿أَنزَلَ﴾ وأفاض ﴿مِنَ﴾ جانب ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ أي سماء الأسماء والصفات الذاتية ﴿مَآءً﴾ محيياً لأموات الأراضي المائتة الجامدة الباقية على صرافة العدم ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ أي بالماء المفاض المترشح من بحر الذات على أرض الطبيعة ﴿ثَمَرَٰتٍ﴾ فواكهَ متنوعةٍ من المعارف والحقائق والخواطف والواردات المختطفة على قلوب أرباب المحبة والولاء حسب حالاتهم

مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ ....

ومقاماتهم ﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ وكيفياتها علماً وعيناً وحقاً ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ﴾ التي هي الأوتاد والأقطاب القابلة لفيضان تلك الكرامات والفتوحات ﴿جُدَدٌۢ﴾ أي ذوو طرقٍ وسبلٍ إلى كعبة الذات، وعرفات الأسماء والصفات ﴿بِيضٌ﴾ مصفى في غاية الصفا، بلا خلطٍ ومزجٍ لها بألوان التعينات والهويات أصلاً ﴿وَ﴾ بعضها ﴿وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ باختلاف مراتب قربهم وبعدهم عن المرتبة الأولى ﴿وَ﴾ بعضها ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾ أي متناهٍ في السواد والظلمة، بحيث لا يبقى فيها شائبة شبهٍ بالمرتبة الأولى، بل هي مباينٌ لها، مناقضٌ إياها، بحيث لا يبقى المناسبة بينهما أصلاً.

قيل: يشير سبحانه بالجدد البيض إلى طائفة الصوفية الذين هم صفّوا بواطنهم عما سوى الحق من الأمور المنصبغة بصبغ الأكون وألوان الإمكان، وبالحمر المختلف الألوان إلى طائفة المتكلمين الذين بحثوا عن ذات الله وصفاته، متشبثين بالدلائل العقلية والنقلية، الغير المؤيدة بالكشف والشهود، المفيدة للظن والتخمين إلا نادراً، وبالغرابيب السود إلى طائفة الفقهاء الذين كثفت حُجبهم وغلظت أغشيتهم وأغطيتهم إلى حيث لم يبق في فضاء قلوبهم موضعٌ يليق لقبول انعكاس أشعة أنوار الحق بل سوَّدوها وصبغوها إلى حيث أخرجوها عن فطرة الله التي فطر الناس عليها.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ....

﴿وَ﴾ أخرجنا به أيضاً أي من الآثار تربية الماء وإحيائها أموات الأراضي ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ المنهمكين في الغفلة والنسيان ﴿وَٱلدَّوَآبِّ﴾ المنسلخة عن رتبة الإدراك والشعور المتعلق بالمبدأ والمعاد ﴿وَٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ المشغوفة بتوفير اللذات الجسمانية والمشتهيات النفسية ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ﴾ أي أجناسه وأنواعه وأصنافه وأشكاله وهيآته، وبالجملة ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ﴾ ويخاف من بطشه ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ الذين أبدعهم وأظهرهم من كتم العدم بإفاضة رشاشات رشحات بحر وجوده بمقتضى جوده ﴿ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ العرفاء بالله وبأوصافه الكاملة الفائضة عليهم وأسمائه الحسنى الشاملة، المتحققون بمرتبة التوحيد، المنكشفون بسر سريان الوحدة الذاتية على عموم المظاهر، إذ أخشى الناس من الله أعرفهم بشأنه، لذا قال ﷺ: «إِنِّي أَخْشَاكُمْ للهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ»[1]. وكيف لا يخشى العارفون منه سبحانه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المتردي برداء العظمة والكبرياء ﴿عَزِيزٌ﴾ غالبٌ على انتقام من أراد انتقامه من عباده ﴿غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ ذنوبَ من تاب إلى الله ورجع نحوه عن ظهر القلب.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه [٥/ ١٩٤٩ رقم / ٤٧٧٦/ باب: الترغيب في النكاح] بلفظ: «إني لأخشاكم لله وأتقاكم له».

وروى الشيخان في صحيحهما عن السيدة عائشة رضي الله عنها: «...فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية» صحيح البخاري [٥/ ٢٢٦٤ رقم / ٥٧٥٠/ باب من لم يواجه الناس بالعتاب]، وصحيح مسلم [٤/ ١٨٢٩ رقم / ٢٣٥٦/ باب علمه ﷺ بالله تعالى وشدة خشيته] واللفظ للبخاري.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ﴿٣٠﴾ ....

ثم أشار سبحانه إلى خواص عباده، ونبههم على ما هو المقبول منهم عنده سبحانه من أعمالهم، وحثهم عليها امتناناً لهم فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ ﴾ المنزل على رسوله ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ المفروضة المكتوبة في الأوقات المحفوظة المأمورة إياهم في كتاب الله ﴿وَأَنفَقُواْ ﴾ طلباً لمرضاتنا ﴿مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ ﴾ وسقنا إليهم من الرزق الصوري والمعنوي ﴿سِرّٗا ﴾ خفية من الناس اتقاءً عن وصمة الرياء والسمعة، ومن الفقراء المستحقين أيضاً صوناً لهم عن أن يتأذوا حين أخذوا ﴿وَعَلَانِيَةٗ ﴾ أيضاً بعدما اقتضى المحل إعلامه، ولم يتأت منه الإخفاء ﴿يَرۡجُونَ ﴾ من الله بالأفعال المذكورة ﴿تِجَٰرَةٗ ﴾ من الأحوال والمقامات ﴿لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾ أي لن تهلك وتفسد وتفنى أصلاً، وإنما فعلوا ذلك

﴿ لِيُوَفِّيَهُمۡ ﴾ ويوفر عليهم سبحانه ﴿أُجُورَهُمۡ﴾ التي يستحقون بأعمالهم بها ﴿وَيَزِيدَهُم ﴾ عليها ﴿مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ ﴾ ما لا يعد ولا يحصى من الكرامات امتناناً لهم، وكيف لا يوفيهم ويزيدهم سبحانه ﴿إِنَّهُۥ﴾ عز شأنه وجل برهانه ﴿غَفُورٞ﴾ في ذاته لفرطات عباده، يغفر لهم ذنوبهم ﴿شَكُورٞ ﴿٣٠﴾﴾ يقبل منهم يسير طاعاتهم التي أتوا بها مخلصين، فكيف بعسيرها.

وَالَّذِيَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَاۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ....

﴿وَالَّذِيَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الجامع لما في الكتب السالفة، الحاوي لمعظمات أصول الدين ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ المنزل من عندنا، المثبت في حضرة علمنا ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِۗ﴾ وما يقدم عليه من الكتب والصحف المنزلة من عندنا، المبينة لحكمنا وأحكامنا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ﴾ أي مطلعٌ لجميع أحوالهم الظاهرة والباطنة حتى استعداداتهم وقابلياتهم ﴿بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾ بما جرى وسيجري عليهم في أولاهم وأخراهم.

﴿ ثُمَّ﴾ بعد ما اصطفيناك يا أكمل الرسل بالرسالة العامة، وأيدنا أمرك بإنزال القرآن المعجز الموجز المشتمل لجميع فوائد الكتب السماوية مع زياداتٍ خلت عنها الكل ﴿أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾ المنزل إليك وأبقيناه بعدك بين القوم ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَاۖ﴾ واخترناهم بإرسالك إليهم وبعثتك بينهم، فجعلناهم في اقتباس نور الهداية والتوحيد من مشكاة النبوة والرسالة الختمية المحمدية الحاوية لمراتب جميع الرسل الذين مضوا قبله ﷺ أصنافا ثلاثة: ﴿فَمِنْهُمْ﴾ من كمال شوقه إلى مبدئهم الأصلي وغاية تحننهم نحو الفطرية الجبلية التي فطر الناس عليها في بدء الأمر ﴿ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ البشرية بحيث يمنع عنها جميع حظوظها النفسانية ومقتضيات قواها الجسمانية إلى حيث اتصل بعضهم من كمال احتماء نفسه عن مقتضياتها البهيمية بالملأ

وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ ....

الأعلى قبل انقراض النشأة الأولى، وهم شطار الأولياء الذين صرفوا هممهم بالوصول إلى مبدئهم الأصلي ومنزلهم الحقيقي، ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ معتدلٌ مائل عن كلا طرفي الإفراط والتفريط، بحيث لا يمنع نفسه عن ضرورياتها والمقومة لها، ولا يكثرها عليها، بل يمنعها عن الزيادة على الضروري في عموم الحوائج، وبالجملة يقتصد في الأعمال والأفعال والأقوال وجميع الأحوال، وهم الأبرار من الأولياء، ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ مواظب على الطاعات، مشمرٌ دائماً بالأعمال الصالحات وفواضل الصدقات والإنفاق على طلب المرضاة للفقراء المهاجرين في سبيل الله، المنصرفين عن الدنيا وما فيها ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ وعلى مقتضى ما ثبت في كتابه ونطق به لسان رسوله وهم الأخيار المحسنون من الأولياء ﴿ذَٰلِكَ﴾ الإيراث والتوريث والإعطاء والاصطفاء ﴿هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ من الله إياهم في أولاهم، والفوز العظيم والنوال الكريم لهم في أخراهم.

جعلنا الله من خدامهم ومحبيهم، ومقتفي أثرهم.

ومن جملة فضل الله إياهم في إخراهم:

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ معدةٌ لهم نزلاً ومنزلاً من عند الله ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ فرحين مسرورين آمنين فائزين فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ تزييناً وتفضلاً ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ جزاء ما اقترفوا بأيديهم

مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ....

من الحسنات ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ خالص مقابلة إخلاصهم في أعمالهم ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ أي يحلون أيضاً من أنواع اللآلئ بدل ما يتقون نفوسهم من الميل إليها في نشأتهم الأولى ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ بدل ما يلبسون من الخشن في طريق المجاهدة والسلوك نحو الحق في النشأة الأولى.

﴿وَ﴾ بعد ما وصلوا إلى مقام القرب بل اتصلوا برفع أنانيتهم وهوياتهم الباطلة عن البين إلى ما انقلبوا ﴿قَالُوا﴾ بألسنة استعداداتهم موافقاً لقلوبهم: ﴿الْحَمْدُ﴾ أي جنس الحمد والثناء الشامل لجميع محامد جميع الحامدين قولاً وفعلاً وحالاً ومقالاً مختصٌ ﴿لِلَّهِ﴾ المستحق بالإستحقاق الذاتي والوصفي ﴿الَّذِي أَذْهَبَ﴾ وأزال ﴿عَنَّا الْحَزَنَ﴾ المورث لنا من لوازم تعيناتنا وإمكاننا ﴿إِنَّ رَبَّنَا﴾ الذي ربانا بأنواع الكرامة ونجانا عن مضيق الإمكان المورث لأنواع الخذلان والخسران ﴿لَغَفُورٌ﴾ لذنوب أنانياتنا ﴿شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ يقبل منا يقربنا إلى فضاء توحيده بتوفيقه وتأييده. إذ هو

﴿الَّذِي أَحَلَّنَا﴾ وأقامنا بفضله ولطفه ﴿دَارَ الْمُقَامَةِ﴾ أي منزل الإقامة والخلود ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ بنا ولطفه معنا، إذ لا موجب منا يوجبها لنا، ولا يجب عليه سبحانه إيصالنا إليها آمنين مترفهين بحيث ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ تعب وعناء مثل ما مسنا في الابتلاء ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ أي فترةٌ وكلال

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ ....

تعقبُ النصب.

نفى سبحانه بعد نفي الملزوم مبالغةً وتاكيداً.

ثم أردف سبحانه وعد المومنين بوعيد انكافرين على مقتضى سنته المستمرة في كتابه فقال:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ بالله وأعرضوا عن كتبه ورسله، وأنكروا بالبعث والحشر وإعادة المعدوم ﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ أي معدةٌ مسعرةٌ لهم ليعَذَّبوا بها في النشأة الأخرى تعذيباً شديداً إلى حيث ﴿لَا يُقْضَىٰ﴾ ولا يُحكم ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بالموت من عنده سبحانه ﴿فَيَمُوتُواْ﴾ كي يستريحوا، بل كلما أشرفوا على الهلاك يُعادوا ويُعذبوا ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ﴾ أبداً، ولا يمهلون ساعة حتى يتنفسوا، بل صاروا معذبين على التعاقب والتوالي أبداً بلا فرجة أصلاً، كأبناء الدنيا المعذبين في دار الحرمان بنيران الإمكان إلى حيث تستوعب جميع أوقاتهم وأزمانهم، بحيث لا يسع لهم التنفس والتفرج أصلاً ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ما نجازي أولئك المصرين على الكفر والعناد ﴿نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾﴾ لحقوق نعمنا، منكرٍ لمقتضيات جودنا وكرمنا.

﴿ وَهُمْ ﴾ من شدة فزعهم وهولهم ﴿يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ ويستغيثون من الله صارخين متحسرين قائلين من كمال الضجرة والحسرة: ﴿رَبَّنَآ﴾ يا من

أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا۟ ....

ربانا بأنواع اللطف والكرم، فكفرناك وأعرضنا عنك وعن كتبك ورسلك ﴿أَخْرِجْنَا﴾ وأعِدْنا منها إلى الدنيا كرةً أخرى ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ مقبولاً عندك، مرضياً لك ﴿غَيْرَ﴾ العمل ﴿ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ عناداً ومكابرةً، فالآن ظهر لنا الحق وبطلانُ ما كنا نعمل من الأعمال الفاسدة الغير المطابقة لكتبك ودين رسلك، فلو أخرجتنا وأعدتنا لآمنا بك وبكتبك ورسلك، وبجميع ما جاؤوا به من عندك.

وبعدما تمادوا وتطالوا في بث الشكوى، قيل لهم من قبل الحق على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿أَ﴾ تطلبون المهلة منا وتستمهلون عنا ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ ونمهلكم أيها المسرفون المفرطون في الدينا طويلاً إلى حيث يسع فيه جميع ﴿مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ أي وقت وسيع يتذكر فيه من كان بصدد التذكر والتنبه، وهو من وقت البلوغ إلى ستين سنة غالباً، ولم تتذكروا في تلك المدة لا من تلقاء أنفسكم مع أنكم مجبولون على فطرة التذكر ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ المذكِّر المنذِر لكم عن أمثال ما أنتم عليه الآن، فأنكرتم له، ولم تتذكروا أيضاً بقوله حتى ظهر عليكم أمارات الشيب المذكِّر المخبِر لكم للرحيل إلى السفر الطويل، ومع ذلك لم تتزودوا لها، فالآن قد انقضى وقت التذكر والتدبر، ومضى أوان التدارك والتلاقي، تطلبون العود والخروج؟! هيهات هيهات إن وقت التفقد قد فات ﴿فَذُوقُوا۟﴾ العذاب المخلّد بدل تلك

فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِۚ ....

اللذات فاعلموا الآن ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ الخارجين عن مقتضى حدود الله ﴿مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ ينصرهم في رفع العذاب، أو يشفع لهم عند الله لتخفيفه عنهم، بل هم خالدون في النار أبد الآباد، لا سبيل لنجاتهم أصلاً.

ربنا بعّدنا عن سخطك وغضبك، وأحينا وأمتنا على مقتضى إرادتك ورضاك، وارزقنا في النشأة الأخرى لقياك، إنك على ما تشاء قدير.

وكيف يسع لأحدٍ من المخلوقات أن يشفع عنده سبحانه لعصاة عباده أو ينصرهم في الإنقاذ عن عذابه بعد ما ثبت جرائمهم في حضرة علمه وتعلق إرادته بأخذهم على ظلمهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلع على جميع ما لاح عليه برق الوجود ﴿عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي بواطن ما في العلويات ﴿وَٱلْأَرْضِۚ﴾ أي بواطن ما في السفليات أيضاً، وكيف يخفى عليه سبحانه ما في سرائر عباده وضمائرهم ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾﴾ أي جميع مكنونات الصدور ومضمراتها ومقتضيات استعداداتهم وقابلياتهم مطلقاً ؛ لأنه المراقب لهم في جميع حالاتهم، فكيف تغفلون عنه سبحانه وتذهلون عن تذكره أيها الغافلون، مع أنه سبحانه

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ عن ذاته وأظهركم على صورته وأعطاكم التصرف ﴿فِى ٱلْأَرْضِۚ﴾ وسلّطكم على عموم ما عليها، وسخر لكم جميع ما

فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى ....

فيها من المواليد تتميماً لخلافتكم وتكريماً لكم على سائر مخلوقاته، وبعد ما فعل بكم سبحانه من الكرامة والإفضال وحسن الفعال ما فعل ﴿فَمَن كَفَرَ﴾ وأعرض عن الإيمان به سبحانه وبكتبه ورسله وبما جرى في لوح قضائه وحضرة علمه ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أي يحمل عليه وبالَ كفره وإعراضه، وينتقم عنه على مقتضاه، بلا لحوق شينٍ وعيبٍ عليه سبحانه، إذ هو في ذاته منزه عن إيمان عباده وكفرهم بل ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ﴾ أي إصرارهم على الشرك واستنكافهم عن الإيمان بالله والكتب والرسل ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ المطلع عل سرائرهم وضمائرهم ﴿إِلَّا مَقْتًا﴾ أي غضباً وبغضاً شديداً منه سبحانه إياهم، وطرداً لهم عن ساحة عز قبوله ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿لَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ﴾ وشركهم في النشأة الأولى ﴿إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾ نقصاناً وحرماناً في النشأة الأخرى عما أعد للمؤمنين من أنواع الكرامات والمقامات العلية، لا خسران أعظم منه.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل للمشركين تقريعاً لهم وتبكيتاً بعد ما سجلنا عليهم المقت والطرد وأنواع الخسران والخذلان ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ وأبصرتم أيها المجبولون على الغواية والعناد ﴿شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ وتدّعون آلهة ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ مشاركين له سبحانه في الألوهية والربوبية ﴿أَرُونِى﴾ وأخبروني

مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ مِّنۡهُۚ بَلۡ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ ....

أيها المكابرون المعاندون ﴿مَاذَا خَلَقُواْ﴾ وأوجدوا ﴿مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي أيّ شيء خلقوا في الأرض بالاستقلال والاختيار حتى يتصفوا بالألوهية ﴿أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ﴾ أي أروني هل لهم مشاركةٌ مع الله ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي خلقُها وإبداعُها ﴿أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا﴾ أي أروني هل أنزلنا عليهم كتابا دالاً على مشاركتهم معنا في الألوهية والربوبية ﴿فَهُمۡ﴾ أي أولئك المدّعون المكابرون مطّلعون فائزون ﴿عَلَىٰ بَيِّنَتٖ مِّنۡهُۚ﴾ أي حججٍ ودلائل واضحةٍ من الكتاب دالةٍ على شركة أولئك التماثيل العاطلة مع العليم القدير الحكيم، فظاهرٌ أنه ما أنزل إليهم كتابا كذلك ﴿بَلۡ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي ليس الباعث لهم على ادعاء الشرك أمثال هذه المذكورات من الدلائل العقلية والنقلية، بل لا باعث لهم سوى الوعد الكاذب الذي يعد بعضهم بعضاً، وبالجملة ما يعد الظالمون الخارجون عن مقتضى الحدود الإلهية ﴿بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾ وتغريراً من الشرفاء بالأراذل منهم، والرؤساء بالضعفاء، وتلبيساً من أصحاب الثروة على ذوي الأحلام السخيفة منهم حفظاً لجاههم وسيادتهم، والله المطلع بجميع حالات عباده يعلم تغريرهم وتلبيسهم ويمهلهم، ولا يعاجل بالانتقام لكمال حلمه.

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿يُمۡسِكُ﴾ ويضبط ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ ويمنعهما من ﴿أَن تَزُولَاۚ﴾ بشرك المشركين وافترائهم على

وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ....

الله بإثبات الشركاء له وبشؤم عصيانهم وفسقهم فيما بينهم ﴿وَلَئِن زَالَتَآ﴾ ولم يمسكهما سبحانه ﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِۦٓ﴾ أي ما أمسكهما عن الزوال من أحدٍ بعد الله سبحانه، لكنه سبحانه أمسكهما، ولم يعاجل بانتقام عصاة عباده ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿كَانَ﴾ في ذاته ﴿حَلِيمًا﴾ لا يعاجل بالانتقام عند ظهور الجرائم ﴿غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ لمن تاب عنهما، وأناب إلى الله مخلصاً.

﴿وَ﴾ من كمال حلم الله وإمهاله على المستوجبين لأنواع المقت والانتقام بعدما عهدوا مع الله ونقضوا عهودهم، وإن كفار قريش خذلهم الله ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي اجتهدوا في تأكيدها وبالغوا في تغليظها قبل بعثة النبي ﷺ حين سمعوا أن من أهل الكتاب قومٌ كذبوا رسلهم، فأنكروا عليهم ولم يقبلوا من الرسل قولهم، فأنكروا عليهم مقسمين: والله ﴿لَئِن جَآءَهُمْ﴾ يعني قريشا ﴿نَذِيرٌ﴾ مرسلٌ من عند الله ينذرهم عما لا يعنيهم ويرشدهم إلى ما يعنيهم ﴿لَّيَكُونُنَّ﴾ في الإطاعة والانقياد للنبي النذير البشير ﴿أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ أي كل واحدٍ وأحدٍ منا أهدى من كل واحدٍ وأحدٍ من النصارى واليهود وغيرهم من الأمم، فواثقوا عهودهم مع الله على ذلك ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ أي نذيرٌ وبشيرٌ هو أكمل من سائر المرسلين المبشرين المنذرين، وأفضل منهم يعني محمد ﷺ ﴿مَّا زَادَهُمْ﴾ مجيئته وبعثته ﷺ ﴿إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾ أي نفرة عن الحق وإعراضاً عن أهله وتباعداً عن قبول قوله ودينه.

ٱسْتِكْبَارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ....

وإنما أنكروا له وأعرضوا عنه وعن دينه ﷺ

﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾ أي طلبوا كبراً وخيلاءً ﴿فِي ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ أي طلبوا أيضاً أن مكروا المكر السيء، وأصل التركيب هذا، فعدل إلى صورة المضاف إلى السيء اتساعاً، تأكيداً ومبالغةً، والمكر السيء: كل عمل قبيح صدر عنهم أو الشرك أو إرادة قتله ﷺ.

قال ﷺ: «لَا تَمْكُرُوْا وَتُعِيْنُوْا مَاكِرَاً فَإِنَّ اللهَ يَقُوْلُ[1]: ﴿وَلَا يَحِيقُ﴾ أي يحل ويحيط ﴿ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾» وهو الماكر، فلحق وبال الشرك للمشركين وكذا وبال كل قبيحٍ ومكروهٍ عائدٌ إلى فاعله ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي ما يمهلون وينتظرون أولئك المشركون يعني أهل مكة ﴿إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي سنة الله فيهم بأن عذّب سبحانه مكذبيهم ومصريهم على الإنكار والتكذيب، وبعدما ثبت في علم الله ولوح قضائه تعذيبهم فلا بد أن يقع حتما ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ﴾ وهي نزول العذاب على المكذبين ﴿تَبْدِيلًا﴾ إن تعلق مشيئته به وثبت في لوح قضائه، إذ لا يبدل الحكم دونه سبحانه ﴿وَ﴾ أيضاً ﴿لَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ بأن ينتقل عذاب المكذبين العاصين إلى المصدقين المطيعين

---

(١) رواه الزيلعي بلفظ: (عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تمكروا ولا تعينوا ماكرا فإن الله يقول: ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، ولا تبغوا ولا تعينوا باغيا فإن الله يقول: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾. وقال: رواه ابن المبارك في كتاب الزهد. انظر تخريج الأحاديث والآثار للزيلعي [٣/ ١٥٧ رقم/ ١٠٦٦/].

أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ ....

البريئين من العصيان والطغيان.

﴿أَ﴾ ينكرون سنة الله في الأمم الماضية الهالكة بتعذيب الله إياهم بسبب تكذيب الرسل والإنكار عليهم ﴿وَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ﴾ بنظرة العبرة ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ القوم ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ مكذبين لرسله ﴿وَ﴾ الحال أنهم قد ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ﴾ أي من هؤلاء المكذبين لك يا أكمل الرسل ﴿قُوَّةً﴾ وقدرةً، وأكثر شوكةً وأموالاً وأولاداً ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿مَا كَانَ ٱللَّهُ﴾ المتعزز برداء العز والعلاء على جميع ما جرى في ملكه من الأشياء ﴿لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ﴾ بأن يفوت عنه شيءٌ حقيرٌ ويعزب عن حضرة علمه ذرة يسيرة لا ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي العلويات ﴿وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي السفليات، وكيف يفوت عن خبرته سبحانه شيء ﴿إِنَّهُۥ﴾ في ذاته ﴿كَانَ عَلِيمًا﴾ لا يعزب عن حضرة علمه شيءٌ ﴿قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ على إظهار ما في خزانة علمه بلا فترةٍ وفتورٍ، وفطورٍ وقصورٍ.

﴿وَ﴾ من كمال حلم الله على عباده ونهاية رأفته ورحمته منهم أنه ﴿لَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ﴾ المطلع لجميع ما جرى في ملكه من الجرائم الموجبة للأخذ والانتقام ﴿ٱلنَّاسَ﴾ الذين كلفوا من عنده سبحانه بترك الجرائم والآثام المانعة من الوصول إلى المبدئ الحقيقي ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾

مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾

أي شؤم ما اكتسبوا لأنفسهم من المعاصي التي مُنعوا عنها ﴿مَا تَرَكَ﴾ سبحانه ﴿عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ أي على ظهر الأرض ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ أي متحركة من المكلفين غير مأخوذة بجرمٍ، بل بجرائم كثيرة عظيمة، إذ قلما يخلو إنسانٌ عن طغيانٍ ونسيانٍ ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ﴾ أي يؤخر أخذهم سبحانه ويمهلهم ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ معينٍ مقدرٍ للأخذ والانتقام وهو يوم القيامة ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ الموعودُ المعين عند الله، المعلومُ له سبحانه فقط، بلا إفشاءٍ وإطلاعٍ منه لأحدٍ من أنبيائه ورسله، أُخذوا حينئذ بما اقترفوا من الجرائم والمعاصي، بلا فوت شيءٍ منها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ المراقب المحافظ على جميع ما جرى في ملكه وملكوته ﴿كَانَ بِعِبَادِهِۦ﴾ في جميع أوقات وجودهم بل باستعداداتهم وقابلياتهم، وما جرى عليهم فيها ﴿بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾ شهيداً مطلعاً يجازيهم على مقتضى اطلاعه وخبرته بأعمالهم ونياتهم فيها.

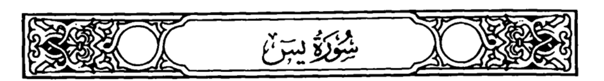
ربنا أصلح لنا عواقب أمورنا ويسّر علينا كل عسير.

خاتمة السورة

عليك أيها السالك المتشمر لإعداد زاد يوم الميعاد، وفقك الله على إتمامه أن تلف شملك وتجمع همك للركون إلى الآخرة التي هي دار الخلود والقرار، وتجتهد في رفع الموانع والشواغل العائقة عن هذا الميل، فلك أن تنقطع عن مألوفاتك ومشتهياتك التي هي أسباب الأخذ والبطش الإلهي، وتنخلع عن لوازم تعيناتك المشتملة على أنواع الفتن والمحن حسب ما يسر الله عليك، معرضاً عن الدنيا الدنية ومستلذاتها البهية ومشتهياتها الشهية، إذ لا قرار لها ولا مدار لما يترتب عليها بل كلها زائلٌ فانٍ، مورثٌ لأنواع الحسرات في النشأة الأولى ولأشد العذاب والزفرات في النشأة الأخرى.

والمؤيدُ من عند الله بالعقل المفاض المميز بين الصلاح والفساد وبين الفاني والباقي، والمرشد والهادي إلى فضاء التوحيد المتذكر له، كيف يختار الفاني على الباقي واللذات الجسمانية الزائلة سريعاً الجالبة للأحزان الطويلة على اللذات الروحانية القارة المستتبعة للحالات العلية والمقامات السنية التي لا يعرضها انقراضٌ ولا انقضاءٌ ولا نفوذ ولا انتهاء.

رب اختم بفضلك عواقب أمورنا بالخير والحسنى، إنك على ما تشاء قدير وبرجاء الراجين جدير.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة يس

لا يخفى على من ترقى من حضيض الجهل وأودية الضلال إلى أوج المعرفة وفضاء الوصال، ومن مهاوي الإمكان وأغوار التعينات المقتضية لأنواع الانحرافات والضلالات إلى إستقامة الحالات وارتفاع المقامات وعلوِّ الدرجات في سبيل السعادات ونيل المرادات، ومن دركات التلون وظلمات التقليد إلى درجات اليقين ونور التوحيد ومقر التمكين والتقررِ فيه بلا تذبذب وتزلزل: أن الوصول والنيل إلى مقعد الصدق الذي هو مقصد أرباب المحبة الخالصة والمودة الصادقة، إنما هو بالاستقامة والاعتدال في عموم الأوصاف والأفعال، مائلاً عن كلا طرفي الإفراط والتفريط المذمومين عقلاً وشرعاً، بحيث لا يبقى له انحرافٌ عن صراط الله الأقوم الأعدل؛ ليتيسر له التحقيق في مرتبة التخلق بأخلاقه، واللياقة برتبة النيابة وأخلافه.

وأكمل المتخلفين وأليقهم للخلافة نبينا ﷺ؛ لذلك ختم بعثته ﷺ أمر الرسالة والنبوة، وتم به ﷺ مكارم الأخلاق، ولم تُبْقِ بعثته ﷺ شائبةَ شبهةٍ في توحيد الذات وسقوط عموم الإضافات، ولهذا قد اضمحل دون ظهور شرعه ﷺ جميع الرسوم والعادات.

يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ ....

لذلك أشار سبحانه إلى كمال مرتبته الجامعة بجميع المراتب، وخاطبه خطاب تعظيمٍ وتكريمٍ بعد ما تيمن باسمه الجامع لجميع الأسماء والصفات فقال:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ الذي تجلى على حبيبه ﷺ باسمه الجامع ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ على عموم عباده بإرساله ﷺ إليهم وبعثه عليهم ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ عليه ﷺ، حيث جعله مستوياً على صراطٍ مستقيمٍ هو صراط توحيده الذاتي.

﴿يسٓ ﴿١﴾﴾ يا من تحقق بينبوع بحر اليقين، وسبَح فيه سالماً عن الانحراف والتلوين

﴿وَ﴾ حقِّ ﴿ٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ المحكم نظمه وأسلوبه، المتقن معناه وفحواه.

﴿إِنَّكَ﴾ يا أكمل الرسل وخاتم الأنبياء المبعوث إلى كافة البرايا ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾﴾ المتمكنين

﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾﴾ موصلٍ إلى التوحيد الذاتي، بلا عوجٍ وانحرافٍ.
وكيف لا يكون القرآن العظيم حكيماً مع أنه

﴿تَنزِيلَ﴾ أي منزلٌ من عند ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الغالب القادر على جميع المقدورات على الوجه الأحكم الأبلغ ﴿ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾﴾ في إنزاله على الأنام؛ ليوقظهم عن نوم الغفلة ونعاس النسيان.

لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ ....

إنما أنزل الحكيم المنان عليك يا أكمل الرسل هذا القرآن

﴿ لِتُنذِرَ ﴾ أنت ﴿قَوْمًا﴾ لم يبعث فيهم نذيرٌ من قبلك ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ ﴾ الأقربون أيضاً، إذ هم ليسوا من أهل الكتاب وتابعي الملة ؛ لتمادي مدة فترة الرسل بعد عيسى صلوات الله عليه وسلامه.

أو المعنى ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا ﴾ [٢٨-القصص:٤٦ و ٣٢-السجدة:٣ و ٣٦-يس:٦] بالذي أنذر به آباؤهم الأبعدون.

وبعد ما قد تطاول أيام الفترة، انقطع عنهم أثر الإنذار، وصار كأن لم يكن شيئاً مذكوراً، وبالجملة ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾﴾ أي القوم الذين قد أُرسلت إليهم يا أكمل الرسل، ذاهلون عن الإنذار والمنذر، بل عن مطلق الرشد والهداية، إذ هم متولدون في زمان فترة الرسل.

وكيف لا ينذرهم سبحانه ولا يرسل إليهم من يصلح أحوالهم

﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ ﴾ وسبق الحكم من الله ومضى القضاء منه سبحانه ﴿عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ ﴾ أي أكثر أهل مكة بالكفر والعذاب وعدم الوصول إلى خير المنقلب والمآب، وبعد ما قد ثبت في حضرة علمه سبحانه كفرهم وضلالهم ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾﴾ بالله، ولا يصدِّقون برسوله وكتابه.

وكيف يؤمنون أولئك المصرون على الكفر والعناد، المقضيون من عندنا بالشقاوة الأزلية

إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾

﴿إِنَّا﴾ بمقتضى قهرنا وجلالنا ﴿جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ التي هي سبب التفاتهم وتمايلهم نحو الحق وآلة انعطافهم للإطاعة والانقياد بالدين القويم ﴿أَغْلَٰلًا﴾ وصيرناهم مغلولين من الأيدي إلى الأعناق بحيث لا يمكنهم الطأطأة والانخفاض أصلاً، ولا بد للتدين والانقياد من التذلل والخضوع وكيف يمكنهم هذا ﴿فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ أى أغلالهم منتهيةٌ إلى لحيتهم ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾﴾ رافعون رؤوسهم، مضطرون برفعها بسبب تلك الأغلال الضيقة، بحيث لا يسع لهم التفاتٌ يمنةٌ ويسرةٌ، وفوقاً وتحتاً، بل

﴿وَجَعَلْنَا﴾ لهم من كمال غضبنا إياهم ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ أي قدامهم ﴿سَدًّا﴾ حجاباً كثيفاً ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أيضاً ﴿سَدًّا﴾ غطاءً غليظاً كذلك، فصاروا محفوفين بين الحجب الكثيفة المانعة عن إبصار نور الهداية والتوحيد، وبالجملة ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾ أي أعمينا عيون بصائرهم التي هي سبب رؤية الآيات ودرك الدلائل القاطعة والبراهين الساطعة ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾ الشواهد الظاهرة والآيات الباهرة حتى يرشدهم إلى الهداية والإيمان، فحرموا عن قبول الحق، وانصرفوا عن صراطه، فهلكوا في تيه الغواية والضلال، أعاذنا الله وعموم عباده عن ذلك.

وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ﴿١١﴾.........

﴿وَ﴾ بعدما سجلنا عليهم الكفر وحكمنا شقاوتهم حكماً مبرماً لا يفيدهم إنذارك يا أكمل الرسل وإرشادك إياهم بل ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ إذ ختمنا على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوةً غليظة مانعةً عن قبول الحق والتذكر به وإبصار علاماته، وبالجملة هم مقضيون في سابق علمنا ولوح قضائنا بالعذاب الأليم والضلال البعيد، فلا تتعب نفسك يا أكمل الرسل في هدايتهم وإرشادهم، إنك لا تهدي من أحببت من قرابتك وأرحامك، ولكن الله يهدي من يشاء، فلا تُذهب نفسك عليهم حسرات، إن الله عليم بما يصنعون من الكفر والإصرار.

بل ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ ويقْبل منك الإنذارَ المصلحَ والإرشادَ المفيدَ ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ﴾ أي سمع القرآن سمع قبول وامتثل بأوامره ونواهيه عن تدرّبٍ تامٍ وتأملٍ صادقٍ، واتعظ بتذكيراته، واعتبر عن عبره وأمثاله ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾ أي خاف عن قهره وانتقامه واجتنب عن سخطه وغضبه ملتبساً ﴿بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ أي قبل نزول العذاب وحلوله، معتقداً أنه سبحانه قادرٌ على جميع أنواع الانتقامات ﴿فَبَشِّرۡهُ﴾ يا أكمل الرسل بعدما سمع بالآيات سمعَ قبولٍ ورضاً، وامتثل بما فيها مخلصاً خائفاً راجياً ﴿بِمَغۡفِرَةٖ﴾ لفرطاته المتقدمة ﴿وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾ لأعماله الصالحة الخالصة بلا فوت شيء منها، بل بأضعافها وآلافها عنايةً منا إياه وتفضلاً عليه.

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ ....

وكيف يفوت عن إحاطة علمنا شيءٌ من حقوق عبادنا؟

﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا وكمال قدرتنا ﴿نَحْنُ نُحْيِ﴾ ونهدي حسب اقتضاء تجلياتنا اللطفية والجمالية ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ الهالكين بموت الجهل والضلال، التائهين في بيداء الوهم والخيال حيارى سكارى مدهوشين محبوسين مسجونين في مضيق الإمكان بحياة العلم والإيمان والتوحيد والعرفان ﴿وَنَكْتُبُ﴾ في لوح قضائنا وحضرة علمنا جميع ﴿مَا قَدَّمُوا۟﴾ وأسلفوا لأنفسهم من خيرٍ وشرٍ، وحسنةٍ وسيئةٍ، بحيث لا يشذّ منها شيء لنجازيهم بها على مقتضاها ﴿وَ﴾ نكتب أيضاً ﴿آثَارَهُمْ﴾ من السنن المستحسنة والأخلاق المحمودة والآداب المرضية المقبولة، وكذا أيضاً ما سنُّوا ووضعوا من أسوأ العادات والأخلاق وأخسها ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ صدر ويصدر من عبادنا ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ وفصَّلناه بحيث لا يشذّ عن حيطة إحصائنا وتفصيلنا شيءٌ من نقيرٍ وقطميرٍ، بل الكل مكتوبٌ مثبتٌ ﴿فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾ هو لوح قضائنا وحضرة علمنا.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا﴾ أي مثّل يا أكمل الرسل للمشركين المصرين على الشرك والطغيان مثلاً من الذين خلوا من قبلهم مصرين على الضلال والعناد أمثالهم بحيث لا ينفعهم إنذار منذرٍ وإرشاد مرشدٍ يعني ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ المصرين على الشرك والعناد، المنهمكين في بحر الغفلة والغرور. والقريةُ هي أنطاكية والمبشر المنذر هو عيسى صلوت الرحمن عليه وسلامه، اذكر يا أكمل

إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ....

الرسل وقت ﴿إِذْ جَآءَهَا﴾ أي القرية ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ تترى من قبل عيسى عليه السلام ليرشدوا أهلها إلى الإيمان والتوحيد.

﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ﴾ وأمرنا لنبينا عيسى عليه السلام أولاً بالإرسال ﴿إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ﴾ هما يونس ويحيى، وقيل غيرهما فلما جاءا إليهم وأظهرا دعوتهم، وكانوا من عبدة الأوثان ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ أي فاجؤوا في تكذيبهما بلا تراخٍ ومهلةٍ وتأملٍ وتدبرٍ وبعد ما كذبوهما لم يقبلوا منهما دعوتهما، بل ضربوهما وحبسوهما، واستهزؤوا بقولهما ودعوتهما ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ أي قوّيناهما وأيدنا أمرهما ﴿بِثَالِثٍ﴾ أي برسولٍ ثالثٍ وهو شمعون ﴿فَقَالُوٓا۟﴾ أي الرسل بعد ما صاروا جماعة: ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ من قبل عيسى المرسل من قبل الحق ينذركم عما أنتم عليه من الباطل الفاسد، وهو عبادة الأوثان، وندعوكم إلى دعوة الحق الحقيق بالألوهية والربوبية، المستحق للعبودية، نرشدكم ونهديكم إلى دينه المنزل من قبل ربه.

وبعدما سمع المشركون منهم ما سمعوا ﴿قَالُوا۟﴾ في جوابهم مستبعدين منكرين: ﴿مَآ أَنتُمْ﴾ أيها المدعون لرسالة الواحد الأحد الصمد الفرد الوتر الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ لا مناسبة لكم مع مرسلكم الذي ليس هو من جنس البشر، فلا بد من المناسبة بين المرسِل والرسل

وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٧﴾ ....

﴿وَ﴾ دعواكم الإنزال والإرشاد من عند الإله المنزه عن المكان والجهة ما هي إلا غرورٌ وتلبيسٌ ﴿مَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ المستغني عن الزمان والمكان، المنزه ذاته عن سمات الحدوث والإمكان ﴿مِن شَيۡءٍ﴾ إذ أمثال هذه الأفعال إنما هي من لوازم الأجسام وأوصاف الإمكان، وهو سبحانه على الوجه الذي وصفتم شأنه مقدس عن أمثاله ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾ يعني ظهر من دعواكم واستنادكم أمثال هذه الأفعال إلى ربكم، أنه ما أنتم في دعواكم هذه[1] إلا كاذبون مفترون على ربكم ما هو منزهٌ عنه.

وبعد ما تفطن الرسل منهم الإنكار والإصرار المؤكد

﴿قَالُواْ﴾ في جوابهم أيضاً على سبيل المبالغة والتأكيد تتمياً لأمر التبليغ والرسالة: ﴿رَبُّنَا﴾ الذي أرسلَنا إليكم بوحيه وإلهامه ﴿يَعۡلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ من عنده على مقتضى إرادته واختياره، إذ لا يجري في ملكه إلا ما يشاء، ولا يقع إلا ما يريد.

﴿وَ﴾ ما لنا شغلٌ بإيمانكم وقبولكم، ولا بكفركم وشرككم بل ﴿مَا عَلَيۡنَآ﴾ على مقتضى وحي الله إلينا ﴿إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾ أي التبليغ الصريح الظاهر والبيان الواضح الموضح لرسالته إياكم، بلا فوت شيءٍ منها وتقصيرٍ وتهاونٍ بها، وإهداؤكم وإيمانكم مفوضٌ إليه سبحانه في مشيئته لا علم لنا به.

(١) في المخطوط (في دعواكم هذا).

قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿١٩﴾ ....

وبعد ما سمعوا منهم المبالغة والتأكيد، انصرفوا عن المقاومة والمكالمة نحو التهديد بالقتل والرجم.

حيث ﴿قَالُوٓاْ﴾ متطيرين متشائمين من نزولهم ومجيئهم مستبعدين دعوتهم منكرين لها: ﴿إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾ أي تشاءمنا بقدومكم، إذ منذ قدمتم ما نزل القطر علينا، اخرجوا من بيننا وارجعوا إلى أوطانكم سالمين، وانتهوا عن دعوتكم هذه، ولا تتفوهوا بها بعد، والله ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ﴾ عن هذياناتكم ومفترياتكم ﴿لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ﴾ بالحجارة البتة ﴿وَ﴾ بالجملة لو لم تنتهوا، ولم تكفّوا ﴿لَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾﴾

وبعد ما سمعتم أيها الغرباء كلامنا هذا، فلكم الإصغاء والقبول والعمل بمقتضاه، وإلا فقد لحق بكم ما لحق.

﴿قَالُواْ﴾ أي الرسل بعد ما سمعوا منهم ما سمعوا وتفرسوا بغلظتهم وتشددهم في الإنكار والجحود: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ﴾ أي سبب شومكم إنما هو من أنفسكم وبسوء صنيعكم وأعمالكم ﴿أَ﴾ لم ينتبهوا ولم يتفطنوا أنكم ﴿ئِن ذُكِّرۡتُمۚ﴾ وقَبلتم قولنا واتصفتم بما ذكرنا من الإيمان والتوحيد، لم يلحقكم شيءٌ من المكروه، ومتى لم تتعظوا ولم تتصفوا لَحِقَكم ما لحقكم بشؤم أنفسكم، فتتطيرون بنا عدواناً وظلماً ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ مجاوزون في الإلحاد والعناد عن سبيل الهداية والرشاد، ومن كمال إسرافكم وإفراطكم

﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠﴾

تطيرتم بدين الله ودعوة رسله إليه.

﴿وَ﴾ بعد ما سمعوا من الرسل ما سمعوا صمموا العزم إلى قتلهم واجتمعوا ليرجموهم، وانتشر الخبر بين أظهر المدينة، وسعى من يسمع نحوهم حتى ﴿جَآءَ﴾ حينئذ ﴿مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ﴾ من السامعين، وهو حبيب النجار، وكان مؤمناً موحداً يعبد الله، وكان قد لقي الرسولين الأولين حين دخلا المدينة أولاً، فسلم عليهما، وتكلم معهما، فقال لهما: من أنتما ؟ قالا: رسولا عيسى النبي عليه السلام، إنما أرسلنا لندعوكم إلى طريق الحق وننقذكم من عبادة الأوثان، فقال: أمعكما آيةٌ، قالا: نشفي المريض ونبرىء الأكمه والأبرص، فجاء بابنه المريض منذ سنين فمسحاه، فقام الابن سالما، فآمن لهما وصدقهما وانفصل عنهما مؤمناً، واشتغل بعبادة الله.

فدخلا البلد، وأظهرا الدعوة لأهلها وأنكروا عليهما، واتفقوا بقتلهما، فأُخبر الحبيب بذلك، فجاء على الفور حال كونه ﴿يَسۡعَىٰ﴾ ويذهب سريعاً، فلما وصل المجمع ورآهم مجتمعين عليهما، فسألهما على رؤوس الملأ: من أنتما ؟ قالا: رسولا عيسى النبي عليه السلام، ندعوكم إلى توحيد الحق، قال: هل تسألان الأجر والجعل لرسالتكما ؟ قالا: لا ! ما أجرُنا إلا على ربنا، ثم التفت نحو القوم ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾ ناداهم وأضافهم على نفسه ليقبلوا منه كلامه، وكان مشهوراً بينهم بالورع واعتدال الأخلاق: ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠﴾ المبعوثين إليكم بالحق ليرشدوكم إلى طريق الحق وتوحيده.

ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ ....

إنما جمع المرسلوين مع أنهما اثنان ؛ لأن الحبيب منهم حقيقةً.

﴿ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا ﴾ أي اتبعوا هادياً بالحق على الحق إلى الحق خالصاً لوجه الحق بلا غرضٍ نفساني من جُعل وغيره كالمتشيخة المزورين الذين يجمعون بتلبيساتهم وتغريراتهم أموالاً كثيرةً من الحمقى المتماثلين نحو أباطيلهم وتزويراتهم ﴿وَ﴾ كيف لا تتبعون أيها العقلاء الطالبون للهداية والصواب ﴿هُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾ مصيبون متصفون بالرشد والهداية قولاً وفعلاً.

ثم لما سمع القوم من الحبيب ما سمعوا، عيروه وشنعوا عليه، وقالوا له: لست أنت أيضاً على ديننا ودين آبائنا، بل ما أنت إلا على دين هؤلاء المدّعين ﴿وَ﴾ بعدما ما تفرس الحبيب منهم الإنكار عليه أيضاً، قال كلاماً ناشئاً عن محض الحكمة والفطنة على وجه العظة والتذكر لنفسه ليتعظوا به على سبيل الإلتزام، إذ هو أسلمُ الطرق في العظة والتذكير، وأدخل في النصيحة والتنبيه: ﴿ مَا لِىَ ﴾ أي أيّ شيء عرض علي ولحق بي ﴿لَآ أَعْبُدُ ﴾ وأتوجه على وجه التذلل والانكسار المعبودَ ﴿ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ على فطرة العبودية، أي أبدعني وأظهرني من كتم العدم ولم أكُ شيئا مذكوراً، ورباني بأنواع اللطف والكرم، وأفاض عليّ من موائد لطفه وإحسانه، سيما العقل المفاض المرشد إلى المبدأ والمعاد ﴿وَ﴾ كيف لا أعبد وأتوجه نحوه إذ ﴿إِلَيْهِ﴾ سبحانه الموصوف بالأسماء الحسنى

تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ

ونعوت الجلال والجمال، لا إلى غيره من الأوثان والأصنام الحادثة الهالكة في ذواتها، العاطلة عن الأوصاف الكاملة، المنحطة عن رتبة الألوهية والربوبية ﴿تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أنتم أيها الأظلال الهالكون التائهون في بيداء ظهوره، حيارى هائمين رجوع الأضواء إلى شمس الذات، والأمواج إلى بحر الوحدة الذاتية.

﴿ءَ﴾ أنكروا المعبود على الحق المظهِر لما في الوجود ﴿أَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ باطلةً من الأوثان عاطلةً عن التصرفات مطلقاً، منحطةً عن رتبة العبودية، فكيف عن الربوبية والألوهية، وسميتهم شفعاء مغيثين لدى الحاجة مع أنه ﴿إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ القادر المقتدر على أصناف الإنعام والانتقام ﴿بِضُرّٖ﴾ أي مصيبةٍ وسوءٍ يتعلق مشيئته على إنزاله إليّ ﴿لَّا تُغۡنِ﴾ ولا تدفع ﴿عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ من بأس الله وعذابه، بل لا تنفعني شفاعتهم أصلاً ﴿وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾ بالمعاونة والمظاهرة عن عذابه سبحانه أيضاً. وبالجملة:

﴿إِنِّيٓ﴾ بواسطة اتخاذهم شركاء لله شفعاء عنده ﴿إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ وغوايةٍ عظيمةٍ ظاهرةٍ، إذ اختيار ما لا ينفع ولا يضر على الضار النافع المعطي المانع، أو ادعاء مشاركتهم معه وشفاعتهم عنده سبحانه من أشد الضلالات وأردأ الجهالات.

﴿إِنِّيٓ﴾ بعد ما تفطنت بوحدة الحق واستقلاله في الوجود والآثار

ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾..........................

﴿ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الذي هو ربي ورب جميع ما في حيطة الوجود وتحت ظله من الأكوان غيباً وشهادة، واعترفت بتوحيده واستقلاله بالتصرف في ملكه وملكوته بعد ما كوشفت بوحدة ذاته ﴿فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾ أيها العقلاء السامعون المدركون مضمون قولي، واتصفوا بما فيه، وتذكروا به إن كنتم تعلمون.

فلما سمعوا منه توصيته وتذكيره أخذوا في قتله وهلاكه، فوطئوه بأرجلهم إلى حيث يخرج أمعاءه من دبره، وهو في تلك الحالة زاد انكشافه بربه، واستولى عليه سلطان الوحدة وجذبته العناية الإلهية، وأدركته الكرامة القدسية حيث ﴿ قِيلَ﴾ له من قبل الحق حينئذ: أخرج من هويتك وانخلع من أنانيتك ﴿ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ﴾ أي فضاء الوحدة التي لا فيها وصبٌ ولا نصبٌ، ولا عناءٌ ولا تعبٌ، فخرج وانخلع، فدخل على الفور واتصل، ثم بعدما وصل إلى ما وصل ﴿قَالَ﴾ متمنياً متحسراً لقومه بعد ما لحق بفضاء الوصال: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى﴾ وانكشف عليّ وجذبني نحوه بعد ما ستر عني أنانيتي ومحا مني هويتي ﴿وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ المكرّمين الآمنين الفائزين المستبشرين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

﴿ ۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ ....

﴿ ۞ وَ﴾ بعدما قتلوه ورفعناه عنايةً منا إياه، وأدخلناه في جنة وحدتنا مغفوراً مسروراً، وكشفنا عنه غطاءه، أخذنا في انتقام قومه عنه، فأهلكناهم بصيحةٍ واحدةٍ صاح بها جبريل عليه السلام عليهم بأمرنا إياه ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ أي قوم الحبيب وهم أهل أنطاكية ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ أي بعد قتله لننتقم عنهم لأجله ﴿مِن جُندٖ مِّنَ﴾ جنود ﴿ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾﴾ أي وما ثبت منا وما جرى في لوح قضائنا إنزال الملائكة لإهلاكهم كما جرت سنتنا لإهلاك سائر الأمم الهالكة.

بل ﴿إِن كَانَتۡ﴾ أي ما كانت علة هلاكهم ﴿إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ أي ما وقعت وصدرت منا لإهلاكهم إلا صيحة واحدة على القراءتين بالرفع والنصب وذلك أنا بمقتضى قهرنا وجلالنا أمرنا جبريل عليه السلام بأن يأخذ بعضادة باب مدينتهم فأخذ وصاح عليهم مرةً واحدةً ﴿فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾ أي فاجئوا جميعاً على الخمود والجمود بعدما سمعوا الصيحة الهائلة، يعني صاروا كالرماد بعدما كانوا أحياء كالنار المشتعلة الساطعة.

ثم قال سبحانه من قبل عصاة عباده المأخوذين بشؤم ما اقترفوا من المعاصي والآثام:

﴿يَٰحَسۡرَةً﴾ وندامةً وكآبةً عظيمةً وحزناً شديداً ﴿عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ المصرين على العناد بعد ما عاينوا العذاب الدنيوي أو الأخروي النازلَ عليهم حتماً

مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ ....

بسبب إنكارهم على الرسل والمرسل جميعاً وتكذيبهم بجميع ما جاؤوا به من عند ربهم، وليس لهم حينئذ قوة المقاومة والمدافعة ؛ لذلك صاروا حيارى سكارى هائمين متحسرين بلا ناصرٍ ومعينٍ، وشفيعٍ حميمٍ من نبيٍ ورسولٍ كريمٍ، إذ ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ في نشأتهم الأولى يصلح أحوالهم وأعمالهم لئلا يترتب عليهم الوبال والنكال الموعود في النشأة الأخرى ﴿إِلَّا كَانُوا﴾ من غاية كبرهم وخيلائهم ﴿بِهِۦ﴾ أي بالرسول المصلح المرشد لهم ﴿يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾ ويستحقرونه ويستنكفون عن قبول دينه ودعوته وينكرون عليه كهؤلاء المسرفين المشركين معك يا أكمل الرسل.

﴿أَ﴾ يستهزئون معك يعني أهل مكة وينكرون بدينك وكتابك ﴿لَمْ يَرَوْا﴾ ولم يخبروا ولم يعلموا ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ أي كثرة إهلاكنا واستئصالنا ﴿قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ الماضية، ولم يعتبروا مما جرى عليهم بشؤم تكذيببهم وإنكارهم على رسلهم مع ﴿أَنَّهُمْ﴾ أي الأمم الهالكة السالفة ﴿إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾﴾ أي لا يرجعون إلى هؤلاء المفسدين المسرفين في تكذيبك وإنكارك يا أكمل الرسل في نشأتهم هذه، بل مضوا وانقرضوا إلى حيث لم يعودوا إلى ما كانوا، وهؤلاء أيضاً سينقرضون إثرهم، و لِمَ لَمْ يتنبهوا ولم يعتبروا مما جرى عليهم؟! مع أنهم إن أُخذوا صاروا كأن لم يكونوا شيئا مذكوراً أمثالهم.

وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا ....

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿إِن كُلٌّ﴾ أي ما كلٌ من الفرق والأحزاب المنقرضة عن الدنيا عن التعاقب والترادف مردودون إليها مجتمعة في وقتٍ من الأوقات بل ﴿لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ يعني لا يجتمعون إلا عندنا ولا يحضرون جميعاً إلا لدينا في يوم العرض والجزاء، وفي حضرة علمنا ولوح قضائنا.

وبالجملة لا اجتماع لهم بعد انقراضهم ما داموا مسجونين في سجن الإمكان، مقيَّدين بسلاسل التعينات وأغلال الهويات والأنانيات، بل متى خلصوا عن مضيق الطبيعة وانخلعوا عن لوازمها حضروا واجتمعوا بل وصلوا واتصلوا، وحينئذٍ لم يبق الفرق، وصاروا ما صاروا.

لا إله إلا هو ولا موجود سواه، هذا على قراءة {لَمَّا} بالتشديد، وأما على قراءة من قرأ بالتخفيف كان ﴿إِن﴾ حينئذٍ مخففة من الثقيلة وما في {لَمَا} مزيدة للتأكيد، واللام للفرق بين المخففة والنافية، والمعنى: أنه أي الشأن كلٌ من الأمم الهالكة السالفة مجموعون البتة لدينا، محضرون عندنا يوم الجزاء، أو في حضرة لاهوتنا بعد انخلاعهم عن لوازم ناسوتهم.

﴿وَءَايَةٌ﴾ عظيمةٌ منا دالةٌ على كمال قدرتنا على جمعهم وإحضارهم يوم الجزاء ﴿لَّهُمُ﴾ أن يستدلوا بها على صدقها ﴿ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ اليابسة الجامدة التي ﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾ وأحضرناها في وقت الربيع بإنزال قطرات الماء المترشحة من بحر الحياة عليها ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ أي جنساً من الحبوبات التي يقتاتون

فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾

بها ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ وبه يعيشون وينعمون، كذلك في النشور أحيينا الأبدان المائتة الجامدة البالية المتلاشية في أراضي الأجداث بإنزال الرشحات الفائضة من بحر حياة الوجود بمقتضى الجود، فأعدناهم أحياء، كما أبدعناهم أولاً من العدم.

﴿وَ﴾ أيضاً من جملة الآيات التي تدل على كمال قدرتنا أنا ﴿جَعَلْنَا فِيهَا﴾ أي في الأرض ﴿جَنَّٰتٍ﴾ بساتين ومتنزهات مملوءة ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ ومن سائر ما يتفكهون به، تتميماً لتنعمهم وترفههم ﴿وَفَجَّرْنَا﴾ أي أخرجنا وأجرينا ﴿فِيهَا﴾ أي في خلال البساتين ﴿مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾﴾ والينابيع الجارية التي لا صنع لهم في إجرائها وإخراجها عنايةً منا إياهم إبقاءً لنضارتها ونزاهتها. كل ذلك ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ أي من ثمر ما ذُكر وقوته، ويقوِّموا أمزجتهم بأنواع ما وهبنا عليهم من النعم حتى يقوموا ويواظبوا على شكرها أداءً لحقوقنا إياهم ﴿وَ﴾ كذا علّمناهم وأقدرناهم على عموم ﴿مَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ من العقارات والمزارع والبساتين وإجراء الأنهار والقنوات وحفر الأبار.

﴿أَ﴾ ينكرون على كمال قدرتنا ووفور حولنا وقوتنا ﴿فَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ نعمنا الفائضة إياهم على التعاقب والتوالي، ولا ينسبونها إلينا، بل ينسبونها إلى الوسائل والأسباب العادية جهلاً وعناداً، وطغياناً وكفراً

سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾

﴿سُبْحَٰنَ﴾ القادر المقتدر القيوم المطلق المنزَّه عن الشبيه والنظير، المتبرئ عن الشريك والوزير، المستقلُ في التصرف والتدبير ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ﴾ وقدّر الأصناف المتوالدة المتزايدة ﴿كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ من الشجر والنبات بأجناسهما وأنواعهما وأصنافهما ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ ذكورهم وإناثهم أنواعاً وأصنافا وأشخاصاً، وكذا من جميع ما يعلمون من أجناس الحيوانات وأصنافها وأنواعها ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ من المخلوقات التي لا اطلاع لهم عليها، إذ ما من مخلوقٍ إلا وقد خُلق شفعاً ؛ لأن الفردية والوترية والصمدية كوجوب الوجود والقيومية المطلقة من أخص أوصاف الربوبية والألوهية، لا شركة فيها للمصنوع أصلاً، إذ لا يتوهم التعدد والكثرة في الوجود الذي هو الواجب قطعا.

﴿وَ﴾ أيضاً ﴿ءَايَةٌ﴾ عظيمة منا إياهم ﴿لَّهُمُ﴾ أن يتأملوا فيها ويستدلوا بها على كمال قدرتنا وأحكامنا وعلمنا وإرادتنا ﴿ٱلَّيْلُ﴾ المظلم أي العدم الاصلي حين ﴿نَسْلَخُ﴾ ننزع ونظهر ﴿مِنْهُ﴾ أي من الليل المظلم ﴿ٱلنَّهَارَ﴾ المضيءَ أي نور الوجود الفائض منا إياهم حسب امتداد أظلال أسمائنا وصفاتنا عليهم ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ مستقرون في ظلمة العدم ؛ لولا إفاضة الوجود عليهم.

﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٣٨ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ۝٣٩﴾ ....

﴿وَ﴾ أيضاً من جملة آياتنا العظام ﴿ٱلشَّمۡسُ﴾ المضيئةُ المشرقة على صفائح الكائنات كإشراق نور الوجود المطلق الفائض على هياكل الموجودات حسب التجليات الإلهية ﴿تَجۡرِي﴾ وتسري بلا قرارٍ وثباتٍ بمقتضى أمرنا وحكمنا ﴿لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ قدّرناه إياها منتهىً ومنزلاً بمقتضى حكمتنا المتقنة المترتبة على تجلياتنا الحبِّية، المنتشئة من ذاتنا المتصفة بالأوصاف اللطفية الجمالية ﴿ذَٰلِكَ﴾ الجري والسراية على هذا النظام الأبلغ الأبدع ﴿تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ﴾ القادر الغالب المقتدر على عموم المقادير ﴿ٱلۡعَلِيمِ ۝٣٨﴾ باستعداداتها وقابلياتها.

﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ﴾ أي عيّنا حسب قدرتنا الغالبة وحكمتنا البالغة لمرآة القمر الخالية عن النور الذاتي، القابلة لأن يكتسبه من قرص الشمس حسب المقابلة والمحاذاة بينهما، كذلك جعلنا له ﴿مَنَازِلَ﴾ متفاوتةً في الوضع، فعند تمام المقابلة والمحاذاة يبدو بدراً كاملاً بلا نقصانٍ في قرصه أصلاً، ثم ينقص شيئاً فشيئاً، يوماً فيوماً ﴿حَتَّىٰ عَادَ﴾ القمر في آخر المنازل الثمانية والعشرين التي وُضعت له في علم التنجيم والتقويم لاستفادته النورَ من الشمس ﴿كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ۝٣٩﴾ أي كعذق النخل العتيق الذي عليه الشماريخ المعوجة المصفرة، من طول المدى.

وكذا عيّنا بمقتضى قدرتنا وحكمتنا لسير كلٍ واحدٍ منهما حسب الفصول الأربعة مقداراً من الزمان، بحيث لا يتخلف سيرهم عنه ؛ لينتظم أمر

لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿٤١﴾ ....

المعاش، لذلك

﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ﴾ أي لا يصح ويتيسر لها ﴿أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾ أي تسرع في سيرها إلى أن تدرك القمر، بل هي بطيئة السير، تقطع البروج الاثني عشر في سنة والقمرُ سريع السير يقطعها في كل شهرٍ ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ أي لا يسع ويتيسر له أن يسبق ويدخل في النهار، بل لكلٍ منهما مدةٌ مخصوصة مقدرةٌ من عند الحكيم العليم، لا يسع لهما التجاوز عنها ﴿وَ﴾ لذلك ﴿كُلٌّ﴾ أي كل واحدٍ من الشمس والقمر وسائر السيارات ﴿فِي فَلَكٖ﴾ مخصوصٍ معينٍ من الأفلاك السبعة المتسعة ﴿يَسۡبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ ويسيرون فيه ويدورون فيه على الانبساط والاستقلال، بلا توهم السبق والإدراك.

﴿وَ﴾ أيضاً ﴿ءَايَةٞ﴾ عظيمة منا إياهم ﴿لَّهُمۡ﴾ أي يستدلون بها أيضاً على كمال قدرتنا ويواظبون على شكر نعمتنا، وتلك الآية[1] ﴿أَنَّا﴾ من كمال تربيتنا وتدبيرنا إياهم ﴿حَمَلۡنَا﴾ أولاً عند طوفان نوح عليه السلام ﴿ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ أي آباءهم وأسلافهم فإن اسم الذرية كما يطلق على الأبناء، يطلق على الآباء أيضاً باعتبار أنهم كانوا أبناء لآباءٍ أخر ﴿فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿٤١﴾﴾ المملوء منهم ومن سائر الحيوانات التي لا تعيش في الماء عنايةً منا إياهم وإبقاءً لنسلهم.

---

(١) في المخطوط (وتلك) بدون الآية.

وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ ....

﴿وَخَلَقْنَا لَهُم﴾ أي قدرنا وجعلنا لهم اليوم بتعليم منا إياهم ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ أي سفنا من جنسه وهو ﴿مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ في متاجرهم وأسفارهم في البحر.

﴿وَإِن نَّشَأْ﴾ إفناءهم واستئصال نوعهم بالمرة ﴿نُغْرِقْهُمْ﴾ بالطوفان ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ أي لا مغيث لهم حينئذ ينصرهم وينجيهم من الغرق ﴿وَلَا هُمْ﴾ بأنفسهم ﴿يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾﴾ وينجون من تلك المهلكة.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾ أدركتهم وأنجتهم من الغرق ﴿وَ﴾ أمهلناهم أيضاً بعد إنجائنا إياهم ﴿مَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾ أي تمتيعاً لهم ولأخلافهم وذرياتهم إلى قيام الساعة كي نختبرهم: هل يصلون إلى ما جُبلوا لأجله من المعرفة والتوحيد والهداية والإيمان مع أنا أرسلنا إليهم الرسل والأنبياء مبشرين ومنذرين ؟!

﴿وَ﴾ هم أي أسلافهم مثل هؤلاء الضالين ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ إصلاحاً لأحوالهم: ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ مما جرى على أسلافكم من الوقائع الهائلة والنوائب الشديدة السالفة الواصلة إليهم بشؤم مفاسدهم وطغيانهم على الله وعلى أنبيائه ورسله بالخروج عن إطاعتهما وانقيادهما ﴿وَ﴾ احذروا عن ﴿مَا خَلْفَكُمْ﴾ من العذاب الموعود لعصاة العباد، المتمردين على ربقة العبودية وصراط التوحيد، الضالين عن جادة السلامة بترك مقتضيات الحدود الإلهية ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ من عند الله بتقواكم عن محارمه ومحظوراته.

وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ ....

﴿وَ﴾ هم أيضاً أمثالكم أيها المفرطون في الإعراض عن الحق في سبيله، بل ﴿مَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ﴾ مشيرةٍ لهم إلى ما يعينهم ويليق بحالهم رادعةً عما لا يعنيهم ﴿مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ الصادرة عن محض الحكمة والعدالة ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾ مكذّبين لها، مستهزئين بمن جاء بها أمثالكم.

﴿وَ﴾ هم أيضاً من كمال قسوتهم وبغيهم أمثالكم ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ إمحاضاً للنصح وتنبيهاً لهم على محض الخير: ﴿أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ من فواضل نعمكم إلى الفقراء الفاقدين لها لتتصفوا بالكرم وتفوزوا بمرتبة الإيثار ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وكذّبوا منهم بآيات الله بعد ما سمعوا الأمر الإلهي الوارد على الإنفاق من ألسن المؤمنين ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ إلى المصدقين الممتثلين بأوامر الله ونواهيه إيماناً واحتساباً على سبيل الإنكار والاستبعاد: ﴿أَنُطْعِمُ﴾ أي تأمروننا أيها الجاهلون الضالون أن نعطي ونطعم ﴿مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ﴾ القادر المقتدر على إطعام عباده جملة ﴿أَطْعَمَهُۥٓ﴾ وبعد ما لم يشأ مع قدرته لم يطعمهم، فأنتم من تلقاء أنفسكم تأمروننا بالإطعام، وبالجملة ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ أي ما أنتم بدينكم وأمركم بما لا يشاء ولا يرضى منه سبحانه ﴿إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾ وغوايةٍ عظيمةٍ ظاهرةٍ، ادعيتم الإيمان بالله، وأمرتم بخلاف مشيئته وإرادته.

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ....

﴿وَ﴾ مهما سمعوا من المؤمنين أمثال هذه الأوامر الجالبة لروح الله ورحمته في اليوم الموعود ﴿يَقُولُونَ﴾ على سبيل الإستهزاء والتهكم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ الذي أوعدنا به، عينوا لنا وقته ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ في دعواكم، يعنون بها ﷺ وأصحابه.

ثم قال سبحانه في جواب هؤلاء الضالين المبطلين:

﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ وينتظرون هؤلاء المنكرون المعاندون ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ هائلةً ﴿تَأْخُذُهُمْ﴾ بغتةً ﴿وَهُمْ﴾ حين وقوعها ﴿يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ أي يختصمون ويتخاصمون بعضهم مع بعض في العقود والمعاملات.

ومتى فاجأتهم الصيحة الفظيعة الفجيعة ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ولا يقدرون ﴿تَوْصِيَةً﴾ وإيصاءً كما هو المعروف بين الناس في حال النزع أي لا يمهلهم الفزع المهلك مقدار أن يأتوا بالوصية ﴿وَلَآ﴾ يمهلهم أيضاً ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾ أي ينقلبون إلى بيوتهم، ويتكلمون مع أهليهم.

وبالجملة متى سمعوا الصيحة الأولى ماتوا فجأة بلا إمهالٍ لهم ساعةً

﴿وَ﴾ بعد ما ماتوا بالصحية الأولى، وصاروا كسائر الأموات ﴿نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ مرةً أخرى بعد الصيحة الأولى ﴿فَإِذَا هُم﴾ أي جميع الأموات صاروا أحياءً قائمين هائمين خارجين ﴿مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي القبور ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ الذي

يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٥٢﴾..................................

يناديهم للعرض والجزاء ﴿يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ يذهبون ويُسرعون طوعاً وكرهاً، إذ لا مرجع لهم سواه، ولا ملجأ إلا هو.

ثم لما أفاقوا من ولههم وحيرتهم ورأوا مقدمات العذاب والنكال ﴿قَالُواْ﴾ أي بعضهم لبعض متحيرين متحسرين: ﴿يَٰوَيۡلَنَا﴾ وهلكنا تعال فهذا أوانك ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ﴾ أي قبرنا الذي كنا فيه[1] مستودعين، أي كل منا مستودعٌ على صاحبه، وإن كان هنالك عذاب أيضاً، لكن لا تفضيح.

أو المعنى: من أيقظنا عن نومنا الذي كنا عليه قبل النفخة الثانية المجيئة، وبعد النفخة الأولى المهيئة ، إنما قالوا ما قالوا تحسراً وتحزناً.

ثم قيل لهم حينئذ من قِبل الحق:

﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ أي يومكم هذا هو اليوم الموعود الذي وعده الرحمن، وأخبره على ألسنة رسله وكتبه ؛ لينقذكم من عذابه بمقتضى سعة رحمته، ﴿وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ في جميع ما جاؤوا من قِبل ربهم من الأمور المتعلقة بالنشأة الأخرى، وأنتم من كمال بغيكم وبغضكم على الله ورسوله في النشأة الأولى أنكرتم الرحمن وكذبتم الرسل الكرام، فاليوم يلقاكم ما كذبتم به.

ثم قال سبحانه تقريعاً وتوبيخاً على المشركين المنكرين لقدرته وكمال

(١) في المخطوط (فيها).

إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ........................

عزته وسطوته واستقلاله في تصرفات ملكه وملكوته، وإظهاراً لعلو شأنه وسمو برهانه بأنّ أمثال هذه المقدورات في جنب قدرتنا الكاملة في غاية اليسر والسهولة، لذلك

﴿إِن كَانَتْ﴾ أي ما كانت الفعلة منا في أمر البعث وقيام الساعة وحشر الأموات ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ صادرةً بأمرنا فجأة، وهي الصيحة الثانية، أو ما وقعت الفعلة منا وبأمرنا إلا صيحة واحدة ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ﴾ أي كل الأموات مجموعون ﴿لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ عندنا، مع أنه ما صدر عنا في إحضارهم وجمعهم إلا صيحة واحدة دفعية.

﴿فَالْيَوْمَ﴾ أي بعد ما حضر الكل لدينا واجتمع عندنا للعرض والحساب وتنقيد الأعمال وجزاء الأفعال الصادرة عنهم في دار الاختبار ﴿لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ ولا تنقص من أجور أعمالها الصالحة، ﴿وَ﴾ لا تزاد أيضاً على فاسدها على مقتضى عدلنا، بل ﴿لَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾ أي بمقتضى عملهم، إن كان خيراً فخير وإن شراً فشر.

ثم فصّل سبحانه أحوال الأنام في النشأة الأخرى فقال:

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ وهم الواصلون إلى مقر التوحيد والمعرفة علماً وعيناً وحقاً ﴿الْيَوْمَ﴾ أي يوم القيامة المعدّ للجزاء ﴿فِي شُغُلٍ﴾ عظيمٍ من

فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾.................

أنواع المعارف والحقائق والمكاشفات والمشاهدات القالعة لعرق التقليدات والتخمينات التي هي من لوازم الإمكان الذي هو من أسفل دركات النيران ﴿فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾﴾ فرحون متلذذون أبداً بلا انقراضٍ وانقضاءٍ أصلاً.

بل ﴿هُمْ﴾ في شهودهم ﴿وَأَزْوَٰجُهُمْ﴾ التي هي نتائج أعمالهم الصالحة ﴿فِى ظِلَٰلٍ﴾ أي ظلال الأسماء والصفات الإلهية ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ أي المعارج العلية والدرجات السنية ﴿مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾﴾ متمكنون راسخون، لا يتحولون منها، ولا ينقلبون.

بل ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾ عناية منا إياهم ﴿فَٰكِهَةٌ﴾ كثيرة من تجددات المعارف والحقائق وتلذذات المكشوفات والشهودات على مقتضى التجليات الإلهية ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿لَهُم﴾ فيها ﴿مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ ويتمنون من مقتضيات التجليات المتشعشعة حسب الشؤون والتطورات الإلهية التي لا نهاية لها، بلا تناهٍ وتكررٍ.

وقيل لهم من قبل الحق حينئذ:

﴿سَلَٰمٌ﴾ أي تسليمٌ وترحيبٌ لهم وتكريمٌ ﴿قَوْلًا﴾ ناشئاً ﴿مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ أي مرب مشفق لهم يربيهم بمقتضى سعة رحمته على فطرة التوحيد، ويوصلهم إلى مقر الوحدة الذاتية بعد ما رفعوا الشواغل المانعة عن التوجه إليها، ورفضوا العلائق العائقة عن التمكن دونها والتحلي بها.

وَامْتَٰزُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ....

﴿وَ﴾ قيل حينئذ للمشركين المصرين على الشرك والعناد: ﴿امْتَٰزُوا﴾ وتميزوا ﴿الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ المفرطون المسرفون في الإعراض عن الله بمتابعة الشيطان المضل المغوي عن طريق توحيدهم.

ثم قرعهم سبحانه وعاتبهم زجراً لهم وطرداً على وجه العموم؛ لئلا يأمن المؤمنون مع اطمئنانهم على الإيمان ورسوخهم في العرفان:

﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ ولم آخذ منكم موثقاً وثيقاً في مبدأ فطرتكم وبألسنة استعداداتكم وقابلياتكم ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا﴾ أي بألا تعبدوا ﴿الشَّيْطَٰنَ﴾ ولا تطيعوا منه ولا تقبلوا منه قوله ووساوسه المبعدة المحرفة لكم عن طريق توحيدي، إنما أحذركم يا ابن آدم عن إطاعته وانقياده ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾ ظاهر العداوة يريد أن يصدكم عما جُبلتم عليه بإغرائه وإغوائه.

﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾ ووحدوني واعتقدوا كمال أسمائي وأوصافي واستقلالي في عموم تدبيراتي وتصرفاتي في ملكي وملكوتي وامتثلوا أمري ولا تشركوا معي في الوجود شيئاً من مظاهري ومصنوعاتي ﴿هَٰذَا﴾ المعهود الموثوق ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ موصلٌ إلى توحيدي، فاتخذوه سبيلاً، ولا تركنوا إلى الذين ضلوا عن طريقي وظلموا أنفسهم بالخروج عن مقتضى حدودي وأوامري وأحكامي وحكمي وتذكيراتي

وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾

﴿وَ﴾ كيف تعبدون الشيطان وتتبعون أثره وتنقادون أمره أيها العقلاء المجبولون على فطرة الهداية والرشاد، إذ ﴿لَقَدْ أَضَلَّ﴾ وأغوى هذا الغاوي المغوي ﴿مِنكُمْ﴾ يا بني آدم ﴿جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ وجماعةً متعددة من بني نوعكم، فانحَرَفوا بإضلاله عن سواء السبيل، ونقضوا بإغوائه وإغرائه المواثيق والعهود، فحرموا بذلك عن الجنة الموعودة لهم، فاستحقوا جهنم البعد ونيران الخذلان ﴿أَ﴾ تعبدون الشيطان وتقتفون أثره ﴿فَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ أي لم تستعملوا عقولكم في فظاعة أمره وشدة عداوته ووخامة عاقبة متابعته، وفيما يترتب على إضلاله من العذاب المخلَّد والنكال المؤبَّد، فتختارون متابعته وتقبلون منه تغريره، وتتركون طريق التوحيد، أفلا تعقلون أيها المسرفون المفرطون.

وقيل لهم حينئذ مشيراً إلى منقلبهم ومثواهم:

﴿ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ﴾ أيها الضالون الغاوون المغرورون ﴿ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ في النشأة الأولى بألسنة الرسل والكتب ﴿اصْلَوْهَا﴾ وادخلوها ﴿ الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ أي بشؤم ما تنكرون بذات الله وكمال أسمائه وصفاته، وبما تكذبون كتبه ورسله، وتعرضون عنهم وعن دعوتهم ظلماً وعدواناً.

وبعد ما عاينوا العذاب وأنواع النكال، وعلموا أن أسبابها ما هي إلا أفعالهم الصادرة عنهم في دار الاختبار عزموا على الإنكار، وقصدوا أن يقولوا معتذرين:

ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ....

والله ما كنا يا ربنا مشركين لك، مكذبين كتبك ورسلك، فيقول الله تعالى:

﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ ونمنعها عن الكلام حتى لا تتفوهوا بالأعذار الكاذبة ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ﴾ ليتكلّمنَ بما صدر عنهنَّ ظلماً وعدواناً ﴿وَتَشۡهَدُ﴾ أيضاً ﴿أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ بها من المعاصي والسعي في طلب المنهيات والمحرمات.

وبالجملة أنطق الله القدير العليم الخبير الحكيم جميع جوارحهم وأركانهم، فاعترف كلٌّ منها بما اقترف به صاحبه.

وفي الحديث صلوات الله وسلامه على قائله: «يُقَالُ لِلْعَبْدِ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيْدَاً وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِيْنَ شُهُوْدَاً، ثَمَّ قَالَ: فَيَخْتِمُ عَلَى[1] فِيْهِ، فَيُقَالُ لأَرْكَانِهِ: انْطُقِي ! فَتَنْطِقُ كُلٌّ بِأَعْمَالِهِ، ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلامِ فَيَقُوْلُ لِلْجَوَارِحِ بَعْدَمَا أَقَرَّتْ وَاعْتَرَفَتْ: بُعْدَاً لَكُنَّ وَسُحْقَاً، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِل»[2] انتهى الحديث.

(١) في المخطوط (عليه).

(٢) رواه مسلم بلفظ: (عن أَنَس بن مَالِكٍ قال: كنا عِنْدَ رسول اللهِ ﷺ فَضَحِكَ فقال: هل تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟ قال: قُلْنَا: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قال: من مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يقول: يا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي من الظُّلْمِ، قال: يقول: بَلَى. قال: فيقول: فإني لَا أُجِيزُ على نَفْسِي إلا شَاهِدًا مِنِّي، قال: فيقول: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا. قال: فَيُخْتَمُ على فِيهِ فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ انْطِقِي، قال: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قال: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، قال: فيقول: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا فَعَنْكُنَّ كنت أُنَاضِلُ) صحيح مسلم [٤/ ٢٢٨٠رقم / ٢٩٦٩/ كتاب الزهد والرقائق] وابن حبان في صحيحه [١٦/ ٣٥٨ رقم / ٧٣٥٨/] والنسائي في السنن الكبرى [٦ / ٥٠٨ رقم / ١١٦٥٢/] وغيرهم.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ ....﴾

والسر في إنطاق الله سبحانه الأعضاءَ والجوارحَ بما صدر عنها، هو الإشارة إلى أن الالتفات إلى السوى والأغيار مطلقاً مضرٌ لذوي الألباب والاعتبار، وسبب تفضيحٍ وتخذيلٍ لدى الملك الجبار الغيور القهار، فلا تذهب إلا إلى الله، ولا تصحب إلا مع الله، ولا تعتمد إلا بالله، ولا تتوكل إلا على الله، فاتخذه سبحانه وكيلاً، وكفاك سبحانه حسيباً وكفيلاً.

رزقك الله وإيانا حلاوة صحبته، وجنَّبك وإيانا عن الالتفات إلى غيره بمنه وجوده.

ثم قال سبحانه إظهاراً لكمال قدرته واختباره:

﴿وَ﴾ كما ختمنا على أفواههم حينئذٍ وطبعنا على قلوبهم قبل ذلك حين ماقبلوا دعوة الرسل ﴿لَوْ نَشَآءُ﴾ أن نعميهم ونذهب بأبصارهم ﴿لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ وصيرناها مطموسةً ممسوحةً كسائر أعضائهم، بحيث لا يبدو لها جفنٌ ولا شقٌ ﴿فَٱسْتَبَقُواْ﴾ وبادروا ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ والطريق المعهود لهم، وهم قد مروا عليها مراراً كثيرة ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾﴾ فكيف يبصرون بعد ما صاروا مطموسين.

بل ﴿وَلَوْ نَشَآءُ﴾ أي نسقطهم عن ربقة التكليف ودرجة الاعتبار ﴿

لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِۚ أَفَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٦٨﴾ ....

لَمَسَخۡنَٰهُمۡ﴾ وأخرجناهم عن رتبة الإنسانية إلى الحيوانية بل عن الحيوانية إلى الجمادية أيضاً، إلى أن صاروا جامدين خامدين ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ﴾ كالجمادات الأُخر بحيث لا يسع أن يتحولوا عنها أصلاً ﴿فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾ يعني لو نشاء مسخناهم وأخرجناهم عن رتبة الخلافة والنيابة وفطرة التكليف والتوحيد لصيرناهم جمادات لا قدرة لهم على الذهاب والإياب أصلاً.

وبالجملة هم بسبب أعمالهم الفاسدة وأفعالهم القبيحة وأوصافهم الذميمة وأخلاقهم الغير مرضية أحقاء أن يُفعل لهم ما ذكرنا، لكن سبقت رحمتنا واقتضت حكمتنا أن نمهلهم زماناً إلى أن يتنبهوا أو يتولد منهم من يتنبه ويتفطن، ﴿وَ﴾ كيف لا نقدر على الطمس والمسخ مع أنا بمقتضى قدرتنا وقوتنا ﴿مَن نُّعَمِّرۡهُ﴾ منهم ونطيل عمره في الدنيا ﴿نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِۚ﴾ ونضعفه بالآخر إلى أن نردَّه إلى أرذل العمر ؛ لكيلا يعلم بعد علمٍ شيئا، ثم نميتُ الكل ونصيرهم تراباً وعظاماً، ولا شك أن من قدر على الإحياء والإماتة والتطويل والتنكيس، قادرٌ على المسخ والتطميس، فمن أين يتأتى لهم أن ينكروا قدرتنا واختيارنا في أفعالنا، واستقلالنا في تصرفات ملكنا وملكوتنا ﴿أَفَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾ ويتأملون آثار قدرتنا الكاملة الظاهرة على الآفاق والأنفس أولئك العقلاء المتأملون حتى يتفطنوا ويتيقنوا بها.

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ ....

ثم لما قال كفار مكة خذلهم الله: أن محمداً شاعرٌ، وما جاء به مفترىً [١] إلى ربه من جملة الأشعار والقياسات المخيلة المشتملة على الترغيبات والتنفيرات والمواعيد والوعيدات، وادعاءُ النبوة والوحي والمعجزة ما هو إلا قولٌ باطلٌ وزورٌ ظاهرٌ، رد الله عليهم قولهم هذا على وجه المبالغة والتأكيد فقال:

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ أي ما جعلنا فطرته الأصلية واستعداده الجبلّي قابلة على القياسات الشعرية المبنية على محض الكذب والخيال المرغب أو المنفر، بل ما جعلناها إلا منزهةً عنها، بريئةً عن أمثالها، طاهرةً عن أدناس الطبيعة مطلقاً، خالصةً عن شوائب الإمكان ولوث الجهل والتقليد، متحليةً باليقين والبرهان المنتهي إلى الكشف والعيان، ثم إلى الحق الذي هو منتهى الأمر في باب العرفان، بل ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ ويليق بشأنه وبشأن كتابه أن يُنسب هو وهو إلى الشعر والشعراء اللذين هما أبعد بمراحل عن ساحة جلالهما، بل ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما الكلام المنزل على خير الأنام ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عظةٌ وتذكيرٌ ناشئٌ عن العلم والحكمة المتقنة الإلهية مشيرٌ إلى التوحيد الذاتي، منبهٌ عليه ﴿وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ مشتملٌ على أحكامٍ ظاهرةٍ وآياتٍ واضحةٍ وبيناتٍ لائحةٍ محتويةٍ على الأوامر والنواهي الإلهية والحدود والقوانين الموضوعة بالوضع الإلهي بين عباده ليوصلهم إلى طريق توحيده، منزلةٍ على رسوله المستعد لحمله وقبوله.

---

(١) في المخطوط (مفترياً).

لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ ....

﴿لِّيُنذِرَ﴾ أنت يا أكمل الرسل بالتبليغ، إن قرئ على صيغة الخطاب، أو القرآنَ إن قرئ على الغيبة ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ بحياة الإيمان موفقاً من عندنا باليقين والعرفان، معدوداً عن عداد السعداء في حضرة علمنا ولوح قضائنا ﴿وَ﴾ ألا ﴿يَحِقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ ويجب الحكم منا بلحوق العذاب ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ المصرين على الكفر والعناد المائتين بموت الجهل والإنكار.

﴿أَ﴾ ينكرون أولئك المنكرون المشركون توحيدنا ويكفرون نعمنا الفائضة عليهم على التعاقب والتوالي ﴿وَلَمْ يَرَوْا۟﴾ ولم يعلموا ﴿أَنَّا﴾ بمقتضى جودنا ﴿خَلَقْنَا لَهُم﴾ بمحض قدرتنا وحكمتنا ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ بلا صنع لهم وتسببٍ ومظاهرةٍ ﴿أَنْعَٰمًا﴾ أجناساً وأنواعاً وأصنافاً ﴿فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾ متصرفون فيها، ضابطون لها، قاهرون عليها.

﴿وَ﴾ كيف لا يملكون ولا يتصرفون فيها بأنواع التصرفات، مع أنا قد ﴿ذَلَّلْنَاهَا﴾ وسخرناها أي أجناس الأنواع مع كمال قوتها وقدرتها ﴿لَهُمْ﴾ ولم نجعلها آبيةً وحشيةً عنهم بل مقهورةً لهم مذللةً لحكمهم، لذلك ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ أي مراكبهم التي يركبون عليها كالإبل والخيل ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ من لحومها وشحومها.

﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾ أي في الأنعام ﴿مَنَٰفِعُ﴾ كثيرةٌ من أصوافها

وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ ....

وأوبارها وأشعارها ونتائجها ﴿وَمَشَارِبُ﴾ من ألبانها ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ نعمَ الله الفائضة عليهم، المهمة لهم، المقوية لأمزجتهم.

﴿وَ﴾ من علامة كفرانهم بنعم الله ونسيانهم حقوق كرمه أنهم ﴿اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد المستقل بالألوهية والربوبية أولياء وسموهم ﴿ءَالِهَةً﴾ مستحقةً للعبادة والرجوع في المهمات وكشف الملمات ﴿لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾﴾ بهم وبشفاعتهم عن بأس الله وبطشه مع أنهم لكونهم جمادات ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ولا يقدرون ﴿نَصْرَهُمْ﴾ أي نصر عابديهم بل ﴿وَهُمْ﴾ أي العابدون ﴿لَهُمْ﴾ أي للمعبودين ﴿جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ حولهم، حافظون لهم، مزينون إياهم بأنواع التزيينات.

وبالجملة هم منسلخون عن مقتضى العقل بعبادتهم إياهم واتخاذهم أولياء شفعاء، وتسميتهم آلهةً دون الله.

وبعد ما سمعت يا أكمل الرسل حالهم وحال معبوداتهم

﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ بأنك شاعر أو مجنون، وبأن كتابك شعرٌ، ومن أساطير الأولين، وبأنك كاذب في دعوى الرسالة والنبوة، وبأن إخبارك بالبعث زورٌ باطلٌ ﴿إِنَّا نَعْلَمُ﴾ بمقتضى حضرة علمنا الحضوري ﴿مَا يُسِرُّونَ﴾ في ضمائرهم من الكفر والإنكار بتوحيدنا واستقلالنا بالتصرف في ملكنا

وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾

وملكوتنا ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾ من الفسوق والعصيان، والخروج عن مقتضى حدودنا ظلماً وعدواناً، فنجازيهم على مقتضى علمنا بهم وبأعمالهم.

ثم لما بالغ الكفرة المنكرون المصرون في إنكار البعث وتكذيبه، وجادلوا مع رسول الله ﷺ على وجه العناد والمكابرة، حتى أتى أبيّ بن خلف أتى بعظم بالٍ، وفتّه عند النبي ﷺ ، فقال متعجباً على سبيل الإنكار مستبعداً: أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً كذلك إنا مخرجون مبعوثون، هيهات هيهات لما توعدون، رد الله سبحانه لمن أنكر قدرته على البعث فقال:

﴿أَ﴾ ينكر المنكر قدرتنا على إعادة الروح إلى الجمادات ﴿وَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ ﴿٧٧﴾﴾ المجبول على الدراية والشعور، ولم يتذكر ولم يعلم ﴿أَنَّا خَلَقْنَٰهُ﴾ وقدّرنا وجوده أولاً ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ مهينةٍ وهي أرذل من التراب ﴿فَإِذَا هُوَ﴾ اليوم بعد ما سوّيناه رجلاً كاملاً في العقل والرشد ﴿خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾ ومجادلٌ زعيمٌ ظاهر المراء والمجادلة معنا، منكراً لقدرتنا، مع أنه كان جماداً أرذل في غاية الرذالة والحقارة.

﴿وَ﴾ ما يستحي منا ومن قدرتنا حتى ﴿ضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ موضحاً لنفي قدرتنا ﴿وَ﴾ قد ﴿نَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ أي خلقنا إياه، ومن كمال نسيانه وضلاله ﴿قَالَ﴾ متعجباً على سبيل الإنكار: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ﴾ البالية ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ بالية في غاية البلى إلى حيث تفتت أجزاؤها وتطيرت بالرياح.

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ ....

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل في جوابهم بعد ما بالغوا في الإنكار والاستبعاد: ﴿يُحْيِيهَا﴾ أي العظام ويعيد الروح إليها ﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ﴾ أي المحيي القادر المقتدر على خلقها وإبرائها ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ من كتم العدم إنشاءً إبداعياً بلا سبق مادةٍ ومدةٍ، ﴿وَ﴾ إن استبعدوا واستحالوا جميع الأجزاء المنبثة المفتتة الممتزجة بعضها مع بعض إلى حيث يستحيل امتيازها وافتراقها أصلاً، قل: ﴿هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ﴾ ومخلوقٍ من نقير وقطمير ﴿عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ بعلمه الحضوري، لا يغيب عن حيطة علمه ذرةٌ، ولا يشتبه عليه شيء من معلوماته.

فله سبحانه أن يميز أجزاء كل شخصٍ شخصٍ، ويركبها على الوجه الذي كان عليه في النشأة الأولى، ثم يعيد الروح عليه، فصار حياً كما كان، وما ذلك على الله بعزيز.

وكيف لا يقدر العليم الحكيم على امتياز أجزاء الأنام والتئامها وإعادة الروح إليها. هو ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم﴾ بمقتضى علمه وقدرته ﴿مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ﴾ الرطب الذي يتقاطر منه الماء ﴿نَارًا﴾ مع أن بين النار والماء من التضاد، وكيف تنكرون إخراج النار من الشجر الرطب ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ حيناً كثيراً.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (شجرتان معروفتان يقال: لأحدهما المرخ، وللآخر العفار، فمن أراد منهما النار، قطع منهما غصنين مثل السواكين، وهما

﴿أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾

خضراوان يقطر منهما الماء، فيسحق المرخ على العفار، فيخرج منهما النار بإذن الله تعالى).

ولهذا قال الحكماء: (لكل شجر نار إلا العناب).

ثم أشار سبحانه أيضاً إلى كمال قدرته واختياره فقال:

﴿أَ﴾ ينكر المنكرون قدرتنا على البعث وحشر الموتى ﴿أَوَلَيۡسَ﴾ القادر المقتدر ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ وأوجد ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي العلويات وما فيها ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾ أي السفليات وما عليها ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ﴾ ويعيدهم أحياءً كما كانوا ﴿بَلَىٰ﴾ من قَدِر على خلق السموات العلى والأرضين السفلى، قادرٌ على بعث الموتى وحشرهم في النشأة الأخرى ﴿وَ﴾ كيف لا يقدر ﴿وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ﴾ المبالغُ في تكثير الخلق والإيجاد، إبداءً وإعادةً ﴿ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ بجميع المعلومات، أزلاً وأبداً على التفصيل بحيث لا يخرج عن حيطة حضوره ذرةٌ من ذرائرها، ما كان ويكون، بل الكل عنده ممتازٌ محفوظٌ.

ولا تستبعدوا أيها الجاهلون بالله وبعلمه وقدرته وسائر أوصافه الكاملة وأسمائه الشاملة أمثال هذا، بل هي بالنسبة إليه سبحانه سهلٌ ويسيرٌ.

وكيف لا يسهل عليه سبحانه أمثال هذا

﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ﴾ وشأنه ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا﴾ أي تعلق إرادته بتكوين شيءٍ من معلوماته ومقدوراته ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ﴾ بعد تعلق إرادته: ﴿كُن﴾ المؤدي لأمره وحكمه ﴿فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ المأمورُ المحكومُ بلا تراخٍ ومهلةٍ.

﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٨٣﴾

والتعقيب إنما نشأ من العبارة وإلا فلا تأخير ولا تعقيب في سرعة نفوذ قضائه سبحانه.

إياك ومحتملات الألفاظ، فإنها بمعزل عن أداء كيفية أمر الله وشأن حكمه وقضائه على وجهه.

ومتى سمعت ما سمعت من كمال قدرة الله ومتانة حكمته وحيطة علمه وإرادته .

﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ وله التصرف بالاستقلال والاختيار في ملكه وملكوته، يعني تنزَّه ذات من بيده مقاليد الملك والملكوت من أن يعجز عن إعادة الأموات أحياءً بعد ما أبدعهم عن العدم كذلك، ولم يكونوا حينئذٍ شيئاً مذكوراً، تعالى شأنه عما يقولون في حقه علواً كبيراً

﴿وَ﴾ كيف لا يقدر سبحانه على البعث والإحياء إذ ﴿إِلَيۡهِ﴾ لا إلى غيره إذ لا غير معه في الوجود، ولا إله سواه موجودٌ ومشهودٌ ﴿تُرۡجَعُونَ ٨٣﴾ رجوع الأمواج إلى الماء، والأضواء إلى الذكاء، سبحان من لا يجري في ملكه إلا ما يشاء.

خاتمة السورة

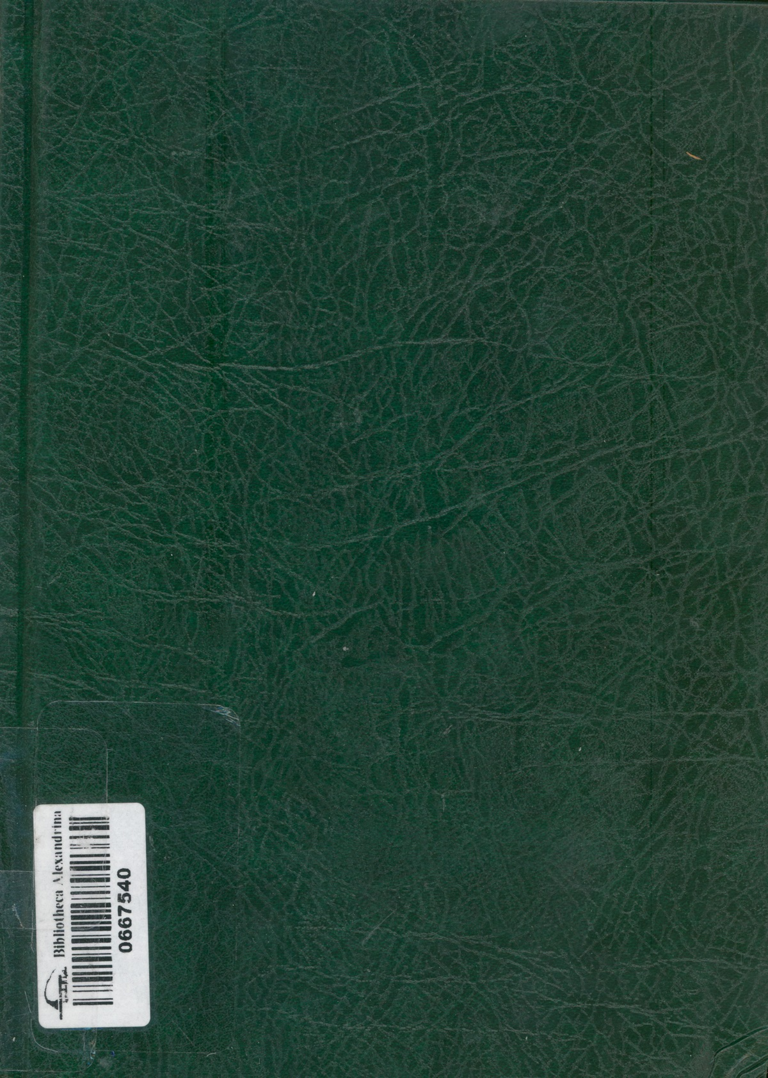
عليك أيها السالك المتدبر المتأمل في كيفية رجوع الكائنات إلى الوحدة الذاتية وإيناط المظاهر والمصنوعات إلى المبدأ الحقيقي والمنشأ الأصلي أزال الله عن بصر بصيرتك سبل الحول وأعانك على رفع الحجب وكشف العلل: أن تصفّي باطنك عن الميل إلى الغير مطلقاً، بحيث يصير باطنك مملوءاً بمحبة الله، فتترسخ تلك المحبة فيه وتتمرن إلى أن خفي عليك خواطرك وهواجس نفسك، ثم تسري من باطنك إلى ظاهرك، فيشغلك عن جميع مشتهياتك ومستلذاتك ومقتضيات قواك وجوارحك، فيمتلئ منها ظاهرك وباطنك، فحينئذٍ لم يبق لك إلتفاتٌ إلى الغير مطلقاً، فصرت حيراناً مدهوشاً مستغرقاً بمطالعة وجهه الكريم، وبعدما صرت كذلك، جذبك الحق عنك وسترك عليك إلى أن غبت فيه وفنيت، فحينئذٍ حق لك أن تقول بلسان استعدادك بعد ما فنيت آثار رسومك في الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء، وإليه ترجعون.

فهرس الجزء الرابع

سورة الفرقان ٥
سورة الشعراء ٥١
سورة النمل... ١٠٨
سورة القصص ١٥٨
سورة العنكبوت... ٢١٣
سورة الروم ٢٦٠
سورة لقمان... ٢٩٩
سورة السجدة... ٣٢٧
سورة الأحزاب ٣٤٤
سورة سبأ ٤٠٣
سورة فاطر ٤٤٤
سورة يس ٤٧٩






Bibliotheca Alexandrina
06667540